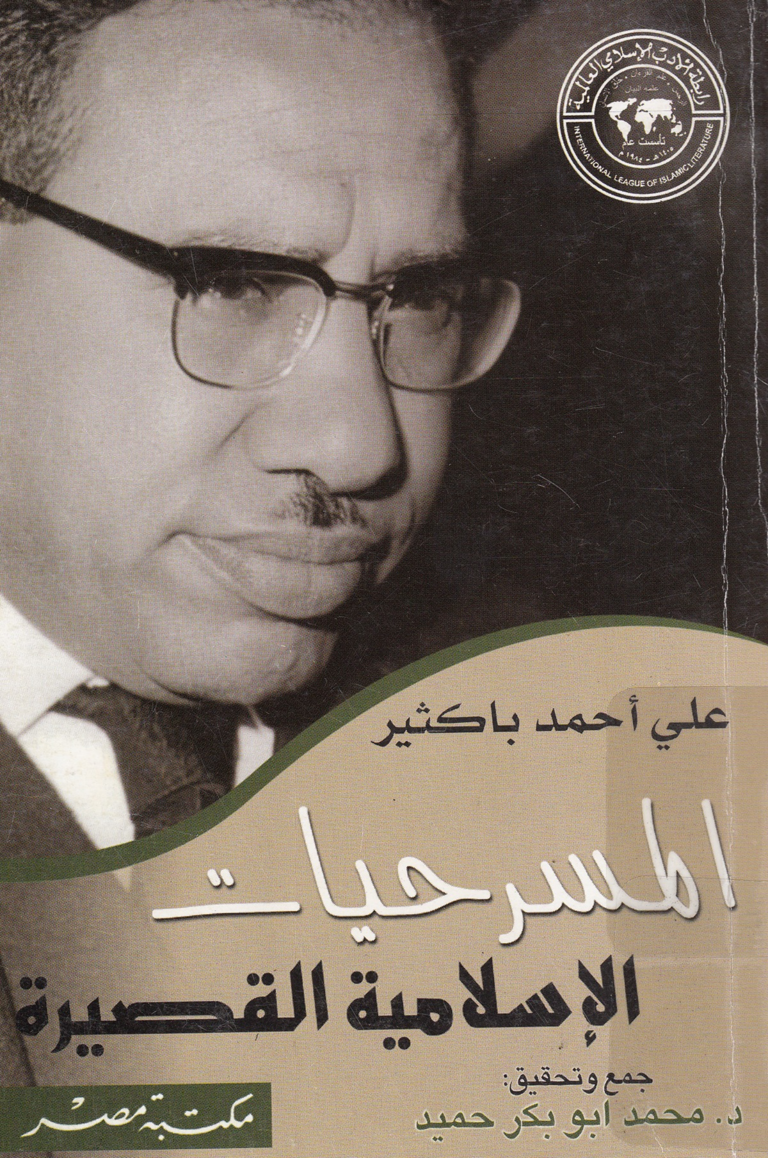

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
تأسست عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م
INTERNATIONAL LEAGUE OF ISLAMIC LITERATURE
علي أحمد باكثير
المسرحيات الإسلامية القصيرة
جمع وتحقيق:
د. محمد ابو بكر حميد
مكتبة مصر

من الأعمال المجهولة
رابطة الأدب الإسلامي العالمية



مسرحيات إسلامية قصيرة

علي أحمد باكثير

تحقيق وتقديم
د. محمد أبوبكر حميد

الناشر
مكتبة مصر
٣ ش كامل صدقى بالفجالة

صــدرت بمناسبة "مؤتمر علي أحمد باكثير العالمي"
الذي أقامه الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
ورابطة الأدب الإسلامي العالمية بالقاهرة
١٨ من جمادى الآخرة ١٤٣١هـ
أول يونيو (حزيران) ٢٠١٠ م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٠٥٩٥
الترقيم الدولي: 977-11-1649-5

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

(سورة البقرة آية ١٢٧)

مقدمة

بقلم : د. محمد أبوبكر حميد

لم يعرف تاريخ الأدب المسرحي العربي أديبا صدر في أدبه فنيا وفكريا عن التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون مثلما فعل علي أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩م) في العشرات من مسرحياته ذات الموضوعات المتنوعة المستمدة من التاريخ العربي والإسلامي والتراث الإنساني، ومن الأحداث السياسية المعاصرة والحياة الاجتماعية، وتزيد هذه المسرحيات عن ثمانين مسرحية طويلة وما يقرب من مائتي مسرحية قصيرة

كتب باكثير أعماله الإبداعية المنطلقة من التصور الإسلامي قبل ظهور مصطلح " الأدب الإسلامي " على الساحة الأدبية في العالمين العربي والإسلامي. ذلك؛لأن النظريات النقدية والاتجاهات الفنية والفكرية في الأدب تأخذ مسمياتها بعد ظهور الأعمال الإبداعية التي تقوم على أساسها تلك النظريات والاتجاهات؛ وقد ربط باكثير منذ باكر حياته الأدبية - في رؤية ناضجة - بين العروبة والإسلام وتطابقتا عنده - منذ وصوله مصر سنة ١٩٣٤م حتى أصبحتا في وجدانه وعقله وجهين لعملة واحدة، وأصبح الحديث عن العروبة عنده حديثاً عن الإسلام .

وعلى ضوء هذا الوعي لا عجب أن يتجه باكثير للتعبير عن هذه الرؤية الشاملة للعلاقة بين العروبة والإسلام، باختياره موضوعا بعيداً كل البعد عن تاريخ العرب والإسلام مما جعل بعض النقاد – آنذاك – يتساءلون عن سر اختيار هذا الأديب الشاب القادم من حضرموت ذي الاتجاه الإسلامي لموضوع فرعوني لأول مسرحية يكتبها بعد وصوله مصر، وهي مسرحية (أخناتون ونفرتيتي) التي كتبها سنة ١٩٣٨م، (ونشرت سنة ١٩٤٠م)، وصدَّرها ببيت من شعره يحمل دلالة عميقة على المعنى الذي يقصده من وراء اختياره موضوعا فرعونيا لمسرحيته، يقول فيه مخاطبا المصريين:

أبوكم أبي يوم التفاخر يعربُ
وجدكمو فرعون أضحى بكم جدي

وأضاف إلى هذا التصدير قوله تعالى :" ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك" (النساء ١٦٤)، حيث قدم رؤية جديدة لموضوع تاريخي، وهي محاولة فهم حياة هذا الملك الفرعوني الذي دعا إلى عقيدة التوحيد، وأبطل عبادة الآلهة الأخرى من خلال هذه الآية الكريمة، بافتراض أنه أحد الرُسل الذين لم يقصصهم القرآن الكريم.

وهكذا يرى باكثير أن إسلامية الأدب العربي ليست في الموضوع الذي يتناوله الأديب بقدر ما هو في الفكرة التي يوحي بها مضمون العمل الفني، فرُبَّ أعمالٍ تستمدّ موضوعاتها من التاريخ أو التراث الإسلامي لكن مضمونها يُعبِّرُ عن فكرة لا تتفق مع التصور

الإسلامي. وما ينطبق على علاقة الأديب بالموضوع ينطبق على اللغة التي يكتب بها، فهو يرى أن كتابة الأديب باللغة العربية لا يعبر بالضرورة عن انتمائه العربي أو الإسلامي إلا إذا انعكس هذا الانتماء - من خلال اللغة - على مضمون العمل الفني الذي تصوره الإسلامي للعروبة والإسلام حتى ولو كتب بلغة غير عربية[1].

وقد عبر باكثير من الناحية النظرية عن فكرة التصور الإسلامي الذي انطلق منه في إعادة صياغته للعشرات من قصص التراث والتاريخ الإسلامي بمختلف شخصياته وتعدد لغاته وتاريخ أوطانه، على دعامتي الإيمان بالحق والإيمان بالحرية فقال:"وهنا يبرز عنصران من عناصر رسالة العرب الخالدة (الإسلام)، وهما الإيمان بالحق، والإيمان بالحرية. والحق أكبر مظهر يتمثل فيه هو الإيمان بالله، وتوحيده، وما يتصل بذلك من الإيمان بوحدة الجنس البشري، واجتناب التعصب العقدي، ووجوب العدل والمساواة بين الناس، ثم الإيمان بالحرية وأكبر مظهر تتمثل فيه بعد حرية العقيدة هو حرية التعبير عن الكيان الذاتي لكل فرد في محيط المجتمع الذي يعيش فيه، ولكل شعب أو أمة في محيط المجتمع الإسلامي الذي تعد هي جزءاً منه.

---

(١) علي أحمد باكثير، دور الأديب العربي في المعركة ضد الصهيونية والاستعمار، مؤتمر الأدباء العرب السابع، بغداد، وزارة الإعلام أبريل ١٩٦٩م، ص٦

والوثنية التي يحاربها الإسلام حرباً لا هوادة فيها إنما تمثل عنده عبودية الإنسان للخرافة والتضليل مما يجعله عرضة للخضوع لأفراد من البشر، يتخذهم أرباباً من دون الله ويطيعهم طاعة عمياء في كل شيء، فينعقد بذلك حريته وإنسانيته، والغيب الذي يدعو الإسلام إلى الإيمان به لا يتناقض مع التنديد بالخرافة والدعوة إلى التحرر منها، كما يظن بعض الذين لا يعقلون، لأن الإيمان بالغيب معمق لحرية الإنسان، فالغيب هو المجهول الذي لا يتناهى. فإيمان الإنسان به إنما هو دفع للإنسان للانطلاق بلا حدود في اكتشاف أسرار الكون الذي لا نهاية له، فلا ينحصر الإنسان في سجن ضيق لا يتعداه، وكثيراً ما نسمع تلك النغمة الممجوجة من أفواه الكثير من كتابنا المضللين إذ يهاجمون الغيبيات على حد تعبيرهم، وهم يعنون كل ما يحمله الدين من معان وقيم، ويخلطون بين هذه القيم والمعاني وبين الخرافات والأوهام، فيطلقون عليها جميعاً اسم الغيبيات والله يعلم إنهم لجاهلون".[1]

لم يكن هدف باكثير حين لجأ إلى استلهام أحداث التاريخ وأبطاله في أعماله الأدبية أن يعيد صياغة ما حدث في قالب فني جديد فحسب؛ بل تتمثل وظيفته الأساسية في تقديم تفسير جديد لأحداث التاريخ من منظور التصور الإسلامي " رسالة العرب الخالدة"؛ لتبقى مصداقية هذا الطرح وفائدتها للقارئ المعاصر في " الحقيقة الفنية " التي صورها العمل وليس في الحقيقة التاريخية، التي استوحى منها عمله الفني،

(١) من كلمة بصوته بإذاعة الكويت، ١٢ من أبريل ١٩٦٩م.

وهو ما قام بتطبيقه عمليا في مسرحية أخناتون ونفرتيتي وغيرها من أعماله المستمدة موضوعاتها من التاريخ والأسطورة، وعبّر عن ذلك فيما بعد بقوله :

"إن الفن عموما – والفن المسرحي خصوصا – ينبغي عندي أن يقوم أكثر ما يقوم على الرمز والإيحاء لا على التعيين والتحديد، فتكون الحقيقة التي يصورها العمل الفني – وهو هنا المسرحية – أوسع وأرحب من الحقيقة التي يمثلها الواقع. وأحداث التاريخ تعين الكاتب على بلوغ هذه الغاية أكثر مما تعينه أحداث الجيل المعاصر، لأن أحداث التاريخ قد تبلورت على مر الأيام فاستطاعت أن تنزع عنها الملابسات والتفصيلات التي ليست بذات بال من حيث الدلالات التي يتصيدها الكاتب للوصول إلى الهدف الذي يرمي إليه في عمله الفني"(١)

ولعلنا نزيد هذه الفكرة وضوحا عندما نرى كيف استطاع باكثير من الناحية العملية طرح الموضوعات التاريخية والأسطورية البعيد بعضها عن العرب والإسلام، لهذا نجده يكتب عددا من المسرحيات استمد موضوعاتها من التاريخ والأساطير الفرعونية، وهي " أخناتون ونفرتيتي" و" أوزوريس " و " الفلاح الفصيح " و " الفرعون الموعود " و" مأساة أوديب " من الأساطير اليونانية، و" فاوست الجديد" من

---

(١) علي أحمد باكثير، «فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية»، مكتبة مصر،ب. ت، القاهرة، ص ٢٦

الأساطير الأوروبية، وصدّرها بآيات قرآنية تحمل دلالة على مضمونها، وقدم فيها تفسيرا جديدا يتفق مع التصور الإسلامي .

وقد سار باكثير على هذا المنهج نفسه في التعامل مع الموضوعات المستمدة من التاريخ الإسلامي والتراث العربي، والقضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة بتقديم تفسير جديد للماضي تنتفع به الأجيال الحاضرة، وبتشريح للواقع يعين على معالجة الخلل والارتفاع فوقه، والسمو به وطرح رؤية متفائلة بالمستقبل في أكثر لحظات الحاضر سوادا، انطلاقا من وعد الله رب العالمين لهذه الأمة.

أما المسرحيات القصيرة التي جمعناها بين دفتي هذا الكتاب فتمثل تعامل باكثير مع التراث الإسلامي الذي سبح فيه سباحة طويلة، وغاص في بحاره بعمق، واستخرج الكثير من كنوزه، ووضع لآلئها بين أيدي المسلمين المعاصرين ليتعرفوا على رجال في تاريخ أمتهم بدؤوا الخطوة، ورسموا القدوة التي نحن أحوج مانكون لأمثالهم . وصوّر لنا قيماً خُلقيةً نبيلةً سامية من خلال أحداث ومواقف يندر أن يكون لها مثيل في تاريخ العرب الحديث.

وتنقسم هذه المسرحيات إلى نوعين: نوع تكون فيه الشخصية هي الأساس يهدف المؤلف إلى ظهورها في حدث معين تضيئه الشخصية من خلال موقف خلقي أو مبدئي نفتقده في زماننا، ومن هذه الشخصيات على سبيل المثال : الإمام الشجاع ابن تيمية، والخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد، والفضل بن عياض وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ومالك بن دينار، والإمام العظيم أحمد ابن حنبل، وإبراهيم بن أدهم وغيرهم.

والفئة الثانية مسرحيات يكون فيها الحدث هو الأساس الـذي يضيء حول الشخصية؛ لهذا تحمل المسرحية عنوانا يـوحي بفكـرة الحدث وليس اسم الشخصية مثل (أفضل العمل) تروي قـصة تـاجر مسلم رومي الأصل يعتق الرقاب علّه يجد فيها أمه الأسيرة، و(الخاتم) قصة هارون الرشيد مع ولده الذي زهد في حياة القصور وغادر فـي غير رجعة، و (الرزق الحلال) اختبار لأمانة رجل مسلم في الحـرم المكي، و(الشاة والعجين) تتعرض لأهمية إصـلاح المجـرمين فـي السجون من خلال وعظ مالك بن دينار في سجن بغداد،(وثلاثون ألف دينار) تعرِض لأهمية تربية الأم الصالحة لابنها في غياب زوجها من خلال قصة ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك، وفي (قبس من أيوب) نلتقي امرأة غنية صالحة تجاهد في إخراج حب الدنيا من قلبها، وفي (قصر في الجنة) يُظهر عظمة التصدق على الفقراء في المجاعة، وفي (هلك المتنطعون) يندد بالمغالين المتشددين في العبادة إلى درجة النسك الذي لا تقبله وسطية الإسلام وواقعيته التي تدعو الإنسان للأخذ بنصيبه من الدنيا ....

وبهذا تكون هذه المسرحيات القـصيرة سـواء كانـت عـن شخصيات أم عن مواقف؛ تُذكِّر كلها بقيم ومبادئ خلقية كادت أن تندثر من شدة إقبال المسلمين على الدنيا وتهالكهم عليها تهالكاً كاد أن ينسيهم جوهر دينهم وهو القناعة، فلا عجب – إذاً – أن نجد بـاكثير يـدور ببعض هذه الأعمال في فلك الزهد الذي يورث الإنسان القناعـة بمـا كتب الله له.

وبهذا نخلص إلى القول بأن ريادة باكثير لا تكمن في توظيف التاريخ والأسطورة البعيدين عن العرب والإسلام، توظيفا فنيا جديدا يرتفع بالأدب العربي إلى العالمية من خلال التصور الإسلامي فحسب؛ بل أيضا استطاع أن يبلور رؤية معاصرة من خلال قصص التراث الإسلامي وتاريخه وشخصياته، وتوظيف معاني القرآن الكريم وأحاديث الرسول(صلى الله عليه وسلم) توظيفا فنيا جماليا ممتعا. وهذا يجعله من الناحية الفنية أول من قام بترسيخ فن المسرحية القصيرة في أدبنا العربي، إذ لم يسبقه أديب اهتم بهذا الجنس الأدبي، وأنتج فيه ما أنتجه من حيث نوعية الفكر ونوعية الفن.

وبعد...

فقد كتب باكثير ما يزيد عن مائتي مسرحية قصيرة مستوحاة من التراث العربي والإسلامي، ومن الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة، ولم يجمع من مسرحيات التراث الإسلامي المعاصرة إلا مجموعتين صدرتا في حياته، الأولى بعنوان (هكذا لقي الله) والثانية بعنوان (من فوق سبع سموات) احتوت كل مجموعة على عشر مسرحيات. ومن المسرحيات السياسية القصيرة أصدر مجموعة واحدة بها عشر مسرحيات بعنوان (مسرح السياسة) . وبقي جزء من هذه الأعمال في بطون صحف ومجلات عصره التي نُشرت بها . وبعد تمكني من الاطلاع على محتويات مكتب منزله بالقاهرة والوقوف على تراثه المخطوط وغير المنشور عثرت على عشرات المسرحيات القصيرة، وهي الجزء الأكبر من هذا التراث المجهول.

ومن واقع اطلاعي على أوراقه الخاصة ومراسلاته اكتشفت أنه عكف في الفترة الأخيرة من حياته بعد أن ضاقت به سبل النشر في القاهرة. وأغلق المتحكمون على منابر الثقافة من الذين لا يعجبهم اتجاهه الفكري في وجهه الأبواب، فلزم بيته، وعكف على الكتابة في صمت،لا يخرج إلا لضرورة حتى فُتح لأعماله منفذاً يطل منه على الناس من الكويت وقد أخرج له صديقه القديم زكي طليمات – الذي كان مُنتدبا لتطوير المسرح الكويتي – بعض أعماله المسرحية الطويلة مثل مسرحية (أبو دلامة) وذلك من واقع المراسلات التي وجدتها بينه وبين زكي طليمات .

أما بخصوص المسرحيات القصيرة فقد وجدت مراسلات عدة بينه وبين أمينة الصاوي – كاتبة إسلامية مصرية – كانت آنذاك مديرة لقسم الدراما الإذاعية بإذاعة الكويت، تطلب منه أن يكتب تمثيليات إذاعية قصيرة لإذاعة الكويت. ويبدو أنه كتب معظم المسرحيات التي لم تنشر لإذاعة الكويت. وقد تضمنت رسائل أمينة الصاوي إليه مناقشات لهذه المسرحيات، وإعجابًا بطرحه الفني والفكري. كما وجدتُ أيضا أكثر من نسخة لبعض هذه المسرحيات ومعظمها عليها تعديلات في الألفاظ وتصحيح بخطه على النصوص المنسوخة بالآلة الكاتبة، فاعتمدت التصويبات التي بخط يده سواء في تعديل الكلمات أم استبدالها بزيادة جُمل في الحوار. كما وجدت بينها مسرحيات طويلة نسبيا تصل إلى عشر صفحات في أكثر من نسخة، وعلى بعض هذه النسخ نجده يحذف بعض المشاهد أو بعض

الصفحات أو يُعيد ترتيب هذه المشاهد، فاعتمدت ما اعتقدت أنه الأفضل للنشر في كتب، ذلك لأني أعتقد أن أكثر الحذف الذي تناول به النصوص كان بقصد المواءمة مع الوقت الإذاعي لاغير. ولكن عندما أجد أن النص الأطول يحدث اضطرابا في الفكر أو المعنى ألتزم بالحذف الذي أجراه المؤلف.

وقد أعانني على مراجعة تحقيق بعض هذه النصوص بالكثير من وقته الثمين الصديق الأستاذ شمس الدين درمش، فقد جعلتني آراؤه أطمئن بأن ما وصلتُ إليه بخصوص الشكل النهائي للمسرحيات التي وجدت لها أكثر من نص هو ما كان مؤلفها - رحمه الله - سيستقر عليه لو امتد به الأجل وأعدها للنشر بنفسه، رحمه الله.

محمد أبوبكر حميد

أبريل ٢٠١٠م



أصحاب الغار

- ١ -

(رعد قاصف ومطر)

يوسف : هلم يا هارون دعنا نسرع السير.

هارون : لكن متّى متخلف عنا.

يوسف : إن متّى لا يريد أن يلحق بنا ... إنه يتعمد البطء في السير.

هارون : ما يكون لنا أن نترك رفيقنا يا يوسف... (ينادي) متّى! متّى!

متّى : (صوته من بعيد) هارون!

هارون : ماذا تصنع هناك؟ أسرع والحق بنا!

متّى : انتظر قليلا!

يوسف : ننتظر! أننتظر حتى يدركنا السيل ونحن في هذا الوادي فنهلك؟

هارون : ها هو ذا قد أقبل إلينا.

متّى : من رأيي يا صاحبيّ أن نتوقف هنا عن السير.

يوسف : لكي يطوينا السيل إذا جاء؟ أتريد أن تهلكنا يا رجل؟

متّى بل أنت الذي تريد أن تهلكنا برأيك السقيم. ليس في وسعنا أن نسبق السيل إذا أقبل، ولكن في وسعنا أن

نتقيه.

يوسف	وكيف نتقيه؟

متّى	نلجأ إلى ذلك الغار في سفح الجبل. (يُسمع هدير السيل من بعيد).

هارون	وي! اسمعا... هذا السيل قد أقبل! هذا هديره!

متّى	هيّا بنا. أسرعا!

يوسف	لكن. لكن هذه الصخرة المتقلقلة على فم الغار.

متّى	ما بالها؟

يوسف	: ألا تخشيان أن تقع فتنطبق علينا فيه؟

متّى	: هذه الصخرة ظلت واقفة هكذا منذ دهور.. أفلا تسقط إلا يومنا هذا؟

يوسف	: من يدري؟

متّى	: أوه. إذن نموت جميعاً ونستريح من صحبتك!

هارون	رويدكما... لا وقت عندنا للملاحاة... إلى الغار وليفعل الله ما يشاء.

❀ ❀ ❀

ـ٢ـ

(داخل الغار)

متّـــــى : انظر يا يوسف... لو لم ندخل هذا الغار لجرفنـــا هذا السيل الهائل.

يوسف : وإذا انطبقت هذه الصخرة علينا؟

متّـــــى : (يقهقه ساخرا) حينئذ أعترف بصواب رأيك!

هارون : ويلكما... أليس خيراً من هذه المجادلة أن نذكر الله - سبحانه وتعالى - وندعوه أن يحسن عاقبتنا؟

(تُسمع قرقعة)

هارون : وَى! ما هذا؟

يوسف : هذه الصخرة تتحرك!

متّـــــى : فأل الله ولا فألك!

يوسف : ها هي ذي انطبقت!

هارون : لا حول ولا قوة إلا بالله!

يوسف : ألم أقل لكما إنها غير ثابتة وتوشك أن تقع؟ دبر لنا الآن مخرجاً يا متى!

متّـــــى : لو بقينا في بطن الوادي لكان هلاكنا محققاً!

يوسف : وهلاكنا الآن غير محقق؟

❋ ❋ ❋

هارون : كفى مِراء ومُجادلة! ما أظن هذا الذي أصابنا إلا عقوبة لكما من الله على هذا الجدال واللدد.

يوسف : لا حق لك يا هارون أن توجه اللوم إليّ. غيري هو الملوم.

هارون : بالله عليك يا يوسف دعنا من هذا الآن. ماذا تصنع هناك يا متّى؟

يوسف : إنه يحاول أن يزحزح الصخرة!

متّى : لا تسخر مني يا يوسف.

يوسف : أنا لا أسخر ولكن هذه قطعة جبل لا يقدر أن يزحزها ولا مائة رجل.

هارون : تعال يا متّى اجلس قريباً مني. إننا لا محالة هالكون إلا أن يتداركنا الله بلطفه. اقترب مني أنت أيضاً يا يوسف... هات يدك.

يوسف : هاك يدي.

هارون : تصافيا أولاً وتسامحاً، فإن الله لن ينظر إلينا وبيننا هذه القطيعة.

يوسف : سامحني يا متّى.

متّى : سامحتك. وأنت سامحني يا يوسف.

يوسف : سامحتك.

هارون : والآن أصغيا إليَّ. لقد سمعت من بعض علمائنا العارفين أن أحسن ما يدعو به المرء ربه أن يتوسل إليه بصالح أعماله؛ فليذكر كل واحد منا

أصلح عمل عمله في حياته فليدعُ الله به.

متّــــى : ابدأ أنت يا هارون.

يوسف : أجل، أنت أصلحنا نحن الثلاثة.

هارون : الله وحده هو الذي يعلم أينا الأصلح، وإني لكثير الذنوب جم الخطايا، وما أعرف لي من عمل صالح، إلا ما كان من بِرّي بوالديّ الكبيرين.

متّــــى : فاذكر ذلك، فبر الوالدين من أفضل الأعمال.

هارون : كان من عادتي إذا رجعت من المرعى أن أحلب فأسقي أبويّ الكبيرين أولاً قبل زوجي وأولادي وقبل أي واحد في الدار. وذات يوم تأخرت في المرعى ولم أعد إلى أهلي إلا بعدما أمسى المساء.

❁ ❁ ❁

الزوجة : ماذا أخرك يا هارون اليوم؟

هارون : نأى بي الشجر يا حنة فأبعدت. أين أبي وأمي؟

الزوجة : انتظراك طويلاً حتى غلبهما النوم فناما.

هارون : ويحهما! ناما قبل أن يتعشيا؟

الزوجة : هات هذا الذي حلبته لأسقيه للأولاد فإنهم يتضاغون جوعاً.

هارون : كلا يا حنة، لن أسقي قبلهما أحداً.

الزوجة : اسق هذا لأولادك، ثم احلب لأبويك حين يستيقظان.

هارون : كلا، لن أخل بعادتي معهما أبداً.
الزوجة : إذن فأيقظهما واسقهما، ثم احلب لأولادك.
هارون : لا ينبغي أن أزعجهما من نومهما الساعة.
الزوجة : فماذا أنت صانع؟
هارون : سأبقى هنا واقفاً حتى يستيقظا فأقدم لهما اللبن.
الزوجة : ويحك ما هذا الذي تصنع؟ لِمَ تلصق الصحفة هكذا ببطنك؟
هارون : ليبقى اللبن دفيئاً يا حنة. اذهبي أنت إلى الأولاد.
الزوجة : ماذا أصنع لهم؟
هارون : علّليهم حتى يناموا.

❀ ❀ ❀

متّى : ومتى استيقظ أبواك؟
هارون : حينما برق الفجر.
يوسف : وبقيت طول الليل واقفاً بصحفة الحلاب؟
هارون : نعم وأنا أضمها إلى بطني من تحت الثياب.
متّى : طوبى لك يا هارون .. ما سمعنا بولد برّ والديه كهذا قط.
هارون : (يدعو مبتهلاً) اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه!
متّى : انظر يا هارون! الصخرة انفرجت!
يوسف : أجل... هذا الوادي قد ظهر!

هارون : اللهم لك الحمد!

متّـــــى : وَي! لكنّا لا نستطيع الخروج بعد.

هارون : فاذكرا أنتما الآن أرجى عمل عملتماه.

متّـــــى : ابدأ أنت يا يوسف

يوسف : بل تبدأ أنت. أنت أفضل مني.

متّـــــى : كلا بل أنت أفضل.

هارون : لا بأس، ابدأ أنت يا يوسف.

يوسف : ماذا أقول؟

هارون : أذكر ما تعرف... لا تحقر شيئاً من العمل فإن الله لا يحقر شيئاً.

يوسف : في بالي شيء ولكني أستحيي أن أذكره.

هارون : ويحك! إن العمل الصالح لا يُستحيا من ذكره.

يوسف : إنه يمس عرض قريبة لي.

هارون : نعاهدك ألا نفشي هذا السر لأحد.

يوسف : كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، وكنت فقيراً فزوجها أهلها لغيري فظل حبها نامياً في قلبي. وسعيت في طلب الرزق حتى أصبحت غنيا، فوسوس إلي الشيطان أن أغريها بالمال فاستعصمت مني، إلى أن ألمت بها سَنة من السنين فجاءت تطلب عوني.

❁ ❁ ❁

يوسف : مرحباً بك يا أليشبع ! لعلك رضيت اليوم عن ابن عمك المدله بحبك!

هـي : هات يا يوسف الستين ديناراً التي وعدتني بها.

هـو : وتجودين عليّ بوصلك؟

هـي : إذا أردت.

هـو : خذي إذن عشرين ومئة دينار، وإن شئت يا حبيبتي زدتك.

هـي : لا يا ابن عمي، هذا يكفي وزيادة.

هـو : هاك يا منية النفس.

هـي : جُزيت خيراً يا يوسف.. ستُحيي بمعروفك هذا زوجي وأولادي.

هـو : لا تذكري زوجك الآن.

هـي : ويلك يا يوسف أتغار أنت من زوجي وزوجي لا يغار منك؟

هـو : ماذا تقولين؟

هـي : لقد استأذنته فأذن لي.

هـو : أذن لك؟

هـي : والدمع في عينيه خشية أن يموت أطفاله جوعاً.

هـو : إذن فقد جعلنا في حل منه، فهلمي يا حبيبة القلب نستمتع!

هـي : (يطفر من عينها الدمع) أنا طوع أمرك!

هـو : لكنك تبكين ... ما خطبك؟

هـي : إني أخاف الله رب العالمين!

هـو : يا ويلي من كافر بنعمة الله! تخافينه أنت في الشدة ولا أخافه أنا في الرخاء. والله لا تمس يدي ثوبك أبداً!

هـي : والمال يا يوسف ... خذه إذن.

هـو : كلا يا أليشبع. قد وهبتك إياه لوجه الله. ارجعي به إلى أولادك.

هـي : لكن زوجي سيظن أنك...

هـو : ما لي ولزوجك؟ إني لا أخافه، بل أخاف الله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

متّى : وانصرفت بالمال من عندك؟

يوسف : نعم، وإن قلبي ليذوب إليها شوقاً (يدعو مبتهلاً) اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه!

متّى : (هاتفاً) الصخرة تتزحزح.

هارون : اللهم لك الحمد.

متّى : ها هي ذي السماء! أستطيع أن أرى السماء!

يوسف : الحمد لله.

متّـــــى : لكن واحسرتاه! الخروج متعذر بعد!

هارون : هات أنت يا متى الآن.

متّـــــى : ما عندي غير عمل واحد مرجو عند الله وكنــت أحب أن أحفظه سراً بيني وبين ربي.

يوسف : اذكره يا متى وتوسل إلى الله به.

متّـــــى : كانت لي مزرعة فيما مضى فاستأجرت ذات يوم أجراء ليعملوا في أرضي، فلما انقـضى النهــار أعطيتهم أجورهم ما خلا واحداً اسمه سُليمان أبَى أن يأخذ أجره مــستقلاً إيــاه. وأردت أن أزيــده فأعرض عني ومضى. فوقع في قلبي من ذلك هم عظيم. وبحثت عنه في كل مكان فلم أعثر له على أثر، فبدا لي أن أثمرّ له أجره هذا؛ فإذا الله يبارك فيه حتى نما وتكاثر. وجاءت جائحة فأتت علــى مالي فلم يبق في يدي غير مــال ســليمان هــذا فصارت زوجتي تحرضني على الأخذ منه.

❊ ❊ ❊

هــــو : كلا يا تامار ... إنه مال ذلك الأجير.

هــــي : أنت الذي ثمرّته ونمّيته.

هــــو : لكن الأصل حقه هو وقد بارك الله له فيــه، ولــو كنت خلطته بمالي لأتت عليه الجائحة فيما أتت.

هــــي : خذ من هذه الأنعام ولو شاة واحدة تذبحها لنا فــي العيد لتوسع بها على العيال.

هـو : كلا، والله لا أمس منها شيئاً حتى يجيء صاحبها.

هي : ومتى يجيء صاحبها؟ لعله قد مات.

هو : إن يكن قد مات فلعلي أهتدي يوماً إلى ورثته فأسلمها لهم.

❁ ❁ ❁

يوسف : وهل جاء صاحبها يا متى؟

متّى : نعم جاء سليمان بعد خمس سنين.

سليمان : متى! متّى! ألا تعرفني؟

متّى : من؟ سليمان!

سليمان : أجل، أنا سليمان.

متّى : أين كنت يا أخي؟ لطالما بحثت عنك.

سليمان : لتستأجرني مرة أخرى فتظلمني حقي؟

متّى : لا، لأعطيك حقك. والله لقد بحثت عنك في كل مكان.

سليمان : لتعطيني صاع الأرز الذي تركته لك؟ اعلم يا متى أن الله قد أغناني اليوم عن الصاع!

متّى : تعال انظر! أترى هذه الأنعام ورغاءها؟

سليمان : أجل، قد أثريت يا متى بعدي!

متّى : كلا، هذه ليست لي يا سليمان.. هذه كلها لك أنت، قد ثمرتها من صاع الأرز الذي رفضته!

سليمان : ماذا تقول؟

متّـــــى : ظلت أمانة عندي فخذها اليوم وأرحني من حفـظ أمانتك.

سليمان : لا تستهزئ بي يا متّى فلست اليوم فقيراً فأحتمـل سخريتك.

متّـــــى : إني والله لا أستهزئ بك.

سليمان : أحقاً؟

متّـــــى : إي والله الذي لا إله إلا هو إنها لمالك.

سليمان : ما أعظم أمانتك! سأترك لك نصفها يا متى.

متّـــــى : لا، وجزاك الله خيراً.

سليمان : ربما تحتاج إليها.

متّـــــى : ويحك يا سليمان أتراني كنت أحفظها لك لـو لـم يغنني الله عنها؟

❋ ❋ ❋

يوسف : واستاق الأنعام كلها؟

متّـــــى : نعم، وغاضبتني زوجي شهراً لا تكلمني من أجل أني رفضت ما عرض سليمان عليّ وقلت لها إن الله هو الواهب الرزاق.

هارون : طوبى لك يا متى! هذا والله أعظـم مـن عملـي وعمل يوسف، فادع الله به أن يفرج عنا ما نحـن فيه.

متّـــــى : اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهـك فافرج عنا ما نحن فيه.

يوسف : انظرا ! الصخرة تتقلقل من مكانها! يا ألله! إنهـا تدحرجت! (يُسمع تدحرج الصخرة إلى أسفل).

هارون : اللهم لك الحمد !

متّـى : الحمد لله رب العالمين!

: ستـــار

❀ ❀ ❀

---

١) أصحاب الغار: (الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار فدعوا الله بصالح أعمالهم) نشرت في «المسلمون»، العدد (٧) السنة(٣).

❀ ❀ ❀

أفضل العمل

ـ ١ ـ

أم عبد رب : بلغني أنت اشتريت اليوم كل ما في سوق الرقيق من عبيد وإماء.

أبو عبد رب : أجل يا أم عبد رب.

أم عبد رب : كم كان عددهم؟

أبو عبد رب : خمسة وثلاثين عبداً وإحدى وعشرين أمة.

أم عبد رب : كانوا جميعاً من الروم؟

أبو عبد رب : نعم.

أم عبد رب : أليس في ذلك إسراف يا أبا عبد رب؟

أبو عبد رب : أين الإسراف وأنا لو شئت أن أبيعهم لربحت؟

أم عبد رب : لكنك لا تريد أن تبيعهم.

أبو عبد رب : بلى، سأبيعهم لخير المشترين.

أم عبد رب : خير المشترين لا تخفى عليه النيات يا أبا عبد رب.

أبو عبد رب : ماذا تعنين يا زهرة؟

أم عبد رب : إنك تكثر من شراء الرقاب وتحريرها رجاء أن تجد بينها أحدا من أهلك وعشيرتك في أسرى الروم.

أبو عبد رب : وأي بأس في ذلك يا زهرة؟ لقد استفتيت علماء الشام جميعاً فأفتوني بأن ذلك لا ينقص من ثوابي عند الله مثقال ذرة.

أم عبد رب : أنت لا تشتري إلا من الروم؟

أبو عبد رب : أشتري من الروم ومن غيرهم.

أم عبد رب : لكن من الروم أكثر؟

أبو عبد رب : نعم هذا حق.

أم عبد رب : هل لي أن أدلك على طريقة أفضل تبلغ بها ما تريد؟

أبو عبد رب : هاتي ما عندك يا أم عبد رب.

أم عبد رب : إن ثروتك كلها لا تكفي لشراء كل رقيق يعرض في السوق من الروم، فلم لا تتأمل في وجوههم وسِحَنهم أولاً قبل أن تشتريهم حتى إذا توسمت في أحدهم أنه قد يكون من أهلك أو عشيرتك اشتريته وإلا تركته.

أبو عبد رب : إني أحتاج إلى أن أراطنهم أيضاً يا أم عبد رب.

أم عبد رب : فراطنهم قبل أن تشتريهم.

أبو عبد رب : ذلك يقتضي وقتاً طويلاً لا يتسع له السوق ولا آمن أن يسبقني أحد إلى شراء أمي أو أخي أو أختي.

أم عبد رب : لكنك لم تذكر أباك.

أبو عبد رب : إن أبي قد مات يا زهرة من قديم.

أم عبد رب : فقد أراحك من البحث عنه.

أبو عبد رب : وددت والله لو بقي حياً حتى اليوم، إذن لبقي لـــي مطمع في إسلامه.

أم عبد رب : تلك إذن أمنيتك أن تدخل أسرتك في الإسلام.

أبو عبد رب : إي والله يا زهرة. يا ليت ذلك يتحقق لي قبـل أن أموت.

أم عبد رب : إنك ترهق نفسك من أمرهم عسراً يا أبا عبد رب، لم لا تفوض الأمر إلى الله فتريح نفسك؟

أبو عبد رب : إني لأفوض أمري إلى الله يا زهـرة، ولـذلك لا ينقطع رجائي فيه.

أم عبد رب : لو أنك اشتريت بثمن هؤلاء سلاحاً وكساء فوزعته على المجاهدين في سبيل الله المرابطين على حدود بلاد الروم لكان أفضل لك.

أبو عبد رب : قد فعلت يا أم عبد رب، اشتريت اليـوم سـبعمائة عباءة وأرسلتها لتوزع على الجيش المرابط علـى الحدود.

أم عبد رب : اليوم؟

أبو عبد رب : نعم اليوم، وغدا إن شاء الله سأبعث إليهم بالسلاح والعتاد.

أم عبد رب : هذا كثير يا أبا عبد رب... في يوم واحد؟

أبو عبد رب : في يوم واحد أو أكثر... ما الفرق؟

أم عبد رب : لن يمضي إلا قليل حتى لا يبقى من مالك شيء.

أبو عبد رب : سبحان الله! أهذا كل ما يعنيك يا أم عبد رب؟
أم عبد رب : ألا يعنيك أنت أيضاً مستقبل أهلك وعيالك.
أبو عبد رب : الله ولِيّ أهلي وعيالي يا أم عبد رب.
أم عبد رب : الله لا يرضى أن تتركهم فقراء يتكففون الناس.
أبو عبد رب : اطمئني يا هذه فإن المال عندي كثير. ألا تعلمين أني من أكثر أهل دمشق مالاً وأعظمهم ثروة؟
أم عبد رب : مهما يكن مالك فلن يبقى على مثل هذا الإنفاق.
أبو عبد رب : حينئذٍ أعود إلى التجارة فأعيد ثروتي كما كانت وأعظم. إنك لا تعرفين مقدرتي وبراعتي في التجارة.

❁ ❁ ❁

— ٢ —

ابن جابر : أرسلت إليَّ يا أبا عبد رب؟
أبو عبد رب : نعم صرت يا ابن جابر لا تجيئني إلا إذا أرسلت إليك.
ابن جابر : مشاغل الدنيا يا أبا عبد رب وهموم المعيشة.
أبو عبد رب : هلا جئتني فأقرضتك ما تشاء؟
ابن جابر : قد علمت أنني لا أحب أن أقترض على نفسي.
أبو عبد رب : وأنا يسرني ألا تعيد إليّ ما اقترضت.
ابن جابر : هذا أبغض إليّ، إني أرجو الله أن أعيش وأموت قبل أن أمد يدي لأخذ الصدقة من أحد.

أبو عبد رب : فليكن هدية مني أو منحة.

ابن جابر : إن كنت حريصاً على صداقتي يا أبا عبد رب فدعها أخوة في الله خالصة لا تشوبها شائبة.

أبو عبد رب : كما تحب يا ابن جابر سأبقى دائماً أحوجُ إليك منك إليّ. إني بعثت إليك اليوم لتقوم مقامي في أثناء غيابي.

ابن جابر : إلى أين تريد أن ترحل هذه المرة؟

أبو عبد رب : إلى أذربيجان.

ابن جابر : في تجارة؟

أبو عبد رب : نعم، لقد انقطعت عن التجارة من عهد بعيد، وأخشى أن يرزأ ذلك في مالي فلا أقدر على تحرير الرقاب وتجهيز المجاهدين في سبيل الله.

ابن جابر : وماذا تريد مني أن أقوم به؟

أبو عبد رب : تنفق على أهلي وتشرف عليهم، وتشتري كل رقيق يعرض في السوق من الروم.

ابن جابر : فماذا أصنع بهم؟ إني لا أعرف أن أراطنهم.

أبو عبد رب : أنزلهم في إحدى دوري، وأنفق عليهم حتى أعود من الرحلة.

ابن جابر : ولو كثر عددهم؟

أبو عبد رب : ولو كثر! إن لم تتسع بهم دار واحدة فأنزلهم في دارين، وإن لم تتسع لهم داران فأنزلهم في ثلاث.

ابن جابر : هذه مهمة صعبة لا أدري كيف أقوم بها.

أبو عبد رب : سوف نجدها غداً أسهل مما تظن وسيكون لك ثوابك عبد الله إن شاء الله.

ابن جابر : هل عندك شيء آخر؟

أبو عبد رب : المجاهدون في سبيل الله، والمرابطون على الحدود وأسلحتهم.

ابن جابر : ماذا أصنع لهم؟

أبو عبد ربِ : تبتاع كل ما يعرض في سوق دمشق من خيل وسلاح فتبعث به إليهم.

ابن جابر : كل ما يعرض؟

أبو عبد رب : ما هم في حاجة إليه فإن احتاجوا إلى الكساء أو العباء فأبقِ لهم من ذلك ما يكفيهم.

ابن جابر : إذن لا يكون لي شغل آخر في غيبتك غير ما كلفتني به.

أبو عبد رب : سيعينك الله على ذلك يا أخي ويثيبك عليه.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

أبو عبد رب : هل عندكم مأوى لي ولرجالي يا أهل الخان؟

صاحب الخان : كم عددكم؟

أبو عبد رب : نحن أربعة.

صاحب الخان : عندنا مأوى لأكثر من أربعة. انزلوا على الرحب والسعة.

أبو عبد رب : إن خانك هذا قائم على نهر.

صاحب الخان : أجل، في وسعكم أن تغتسلوا فيه إن شئتم أن تتبردوا أو تتطهروا.

أم عبد رب : والله إن هذا لحسن. الاغتسال الآن نعمة.

صاحب الخان : اتركوا أشياءكم عندي وانزلوا فاغتسلوا.

أبو عبد رب : هلم يا علي معي. وأنت يا عبد الله ويا عمر ستنزلان بعدنا.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

علي : كأنك تخشى من صاحب الخان على أشيائك يا أبا عبد رب.

أبو عبد رب : نحن في سفر يا علي فمن الحكمة ألا تأمن أحداً على مالك.

علي : لكنه رجل طيب فيما يظهر.

أبو عبد رب : إن كان طيباً فلن يضيره احتياطنا شيئاً. الاحتياط واجب في كل حال، هلم بنا ننزل من هذه الناحية.

علي : اسمع يا أبا عبد رب. ألا تسمع؟

(يسمع صوت خافت كالأنين)

الصوت : الحمد لله... الحمد لله... الحمد لله.

أبو عبد رب : هذا صوت رجل يكثر من حمد الله. تسمع صوته ولا ترى شخصه. ترى أين مكانه؟

عـــــلي : انظر يا أبا عبد رب، هو ذاك تحت الغَيْضة الملتفة بجانب النهر.

أبو عبد رب : هلم بنا إليه. (بصوت خافض) وي! إنه في حفير من الأرض.

علي : وملفوف في حصير.

أبو عبد رب : انتظرني أنت هنا وسأدخل أنا إليه. السلام عليك يا عبد الله.

الرجل : وعليك السلام ورحمة الله.

أبو عبد رب : من أنت يا عبد الله؟

الرجل : أنا رجل من المسلمين.

أبو عبد رب : ما بقاؤك في هذا المكان وحدك؟

الرجل : هذا خير مكان لي في الأرض ولست يا أخي فيــه وحدي.

أبو عبد رب : أراك تكثر من حمد الله؟

الرجل : آلاؤه ونعمه أكثر من حمدي له.

أبو عبد رب : وأنت في حالتك هذه؟

الرجل : ماذا تنكر من حالتي؟

أبو عبد رب : إنما أنت في حفير وملفوف في حصير.

الرجل : ومالي لا أحمد الله أن خلقني فأحسن خلقي، وجعل مولدي ومنشئي في الإسلام، وألبسني العافية فـــي كل عضو من أعضائي، وستر عليّ ما أكره ذكره ونشره. ما أعظم نعمة ممن أمسى في مثل شأني!

أبو عبد رب : يرحمك الله ما رأيت أحمد لله منك. وما أحسبك إلا من أهل الله فهل لك أن تنفحني بدعوة منك لله عز وجل؟

الرجل : لا أفعل حتى تخبرني فتصدقني عن نفسك، فإني لا أدعو لرجل لا أعرف عنه شيئاً.

أبو عبد رب : حباً وكرامةً سأخبرك عن نفسي. أنا تاجر من دمشق أريد أن أذهب إلى أذربيجان في تجارة.

الرجل : أراك في نعمة ويسار.

أبو عبد رب : أجل، إني من أكثر أهل دمشق مالاً، ولي فيها أموال وعقارات كثيرة.

الرجل : هل تُخرج حق الله فيها من الزكاة وغيرها؟

أبو عبد رب : نعم، ولله الحمد.

الرجل : أي وجوه البر أحب إليك من بعد الزكاة؟

أبو عبد رب : تحرير الرقاب، وتجهيز المجاهدين في سبيل الله.

الرجل : لقد أصبت أفضل العمل، فكم حررت من الرقاب؟

أبو عبد رب : ما من رقيق يعرض في سوق دمشق من الروم إلا اشتريته فأعتقته.

الرجل : وإن كثر عددهم؟

أبو عبد رب : وإن كثر.

الرجل : أأنت رومي الأصل؟

أبو عبد رب : نعم.

الرجل : وكيف تجهز المجاهدين في سبيل الله؟

أبو عبد رب : أشتري الخيل والسلاح والعباء فأبعث بها إليهم.

الرجل : هل تخلص النية في ذلك لله عز وجل؟

أبو عبد رب : أرجو ذلك إن شاء الله.

الرجل : هل تخلص النية لله عز وجل إخلاصاً تاماً لا شائبة فيه؟

أبو عبد رب : لعلك يا سيدي تقصد إيثاري للروم بالعتق؟

الرجل : أجل.

أبو عبد رب : إنما أرجو بذلك أن يعثرني الله بأحد من أهلي وعشيرتي فأعتقه وأدخله في دين الإسلام.

الرجل : فنيتّك إذن غير خالصة لله عز وجل.

أبو عبد رب : لكني استفتيت علماء الشام جميعاً فأفتوني بأن ذلك لا ينقص من ثوابي عند الله مثقال ذرة.

الرجل : لا تصدقهم، واستفت قلبك وإن أفتوك. وتجهيزك في سبيل الله هل أخلصت نيتك فيه لله عز وجل؟

أبو عبد رب : هذا يا سيدي ليس فيه روم وغير روم.

الرجل : بلى، لعلك تريد أن تخفي به ميلك إلى الروم، وحرصك على تحرير مَن وقعوا أسرى منهم في أيدي المسلمين.

أبو عبد رب : إي والله! لقد كشفت لي عما في نفسي ما لم أكن أشعر به من قبل.

الرجل : ثم إنك ترجو به أن يستتب الأمن علـى الحـدود فتنمو حركة التجارة وتسلم طـرق التـداخل مـن الانقطاع، فيعود كل ذلك بالخير على تجارتك.

أبو عبد رب : يا سيدي هذه رغبة خفية لا أكاد أشعر بها حتـى بعد ما كشفتها لي الآن.

الرجل : فهي مستكنة في أطواء نفسك تجعل نيتك مـشوبة غير خالصة.

أبو عبد رب : وماذا أصنع يا سيدي؟

الرجل : أخلص نيتك.

أبو عبد رب : وكيف أخلص نيتي؟

الرجل : ما أنت بقادر على ذلك ما بقيت تحب المال، وتحب النعمة والنعيم، وتحب الرياش، وتحب فاخر المأكل والمسكن والملبس.

أبو عبد رب : جزاك الله خيراً على نصيحتك. فهل لك أن تقـوم معي إلى هذا الخان فإني قد نزلت به؟

الرجل : ويحك ماذا أصنع بالخان؟

أبو عبد رب : لتصيب من الطعام عندنا، ولنعطيك ما يغنيك عن لبس هذا الحصير.

الرجل : سبحان الله! أنا أدعوك إلى التقشف، وأنت تدعوني إلى التنعّم؟

أبو عبد رب : إنه طعام بسيط يا سيدي الشيخ وكساء زهيد.

الرجل : ما بي حاجة إلى ذلك، فانصرف الآن ودعني.

أبو عبد رب : لكنك لم تدعُ لي بعد؟

الرجل : ربما لا تعجبك دعوتي إذا دعوت لك بالنية الخالصة والتوبة النصوح.

أبو عبد رب : بلى يا سيدي، ادع لي بما أحببت يرحمك الله.

❁ ❁ ❁

ـ ٥ ـ

أبو عبد رب : أجل يا ابن جابر، لا شك عندي أنه رجل صالح.

ابن جابر : ودعا لك في النهاية؟

أبو عبد رب : نعم دعا لي بالنية الخالصة والتوبة النصوح، فإذا أنا أحتقر نفسي وأمقتها إذ لم أخلف بدمشق أغنى مني مالاً وأنا ألتمس الزيادة فيه، فأقسمت لأعودن إلى دمشق.

ابن جابر : أحسنت يا أخي إذ عدت فقد اشتريت أول من أمس جارية رومية عجوزا فما أن نظرت إلى وجهها حتى رأيت فيه مشابه منك.

أبو عبد رب : ماذا تقول يا ابن جابر؟ أهي عجوز؟

ابن جابر : نعم، لا تقل عن الستين.

أبو عبد رب : وفيه مشابه مني؟

ابن جابر : نعم في استدارة فمها، ولون عينيها.

أبو عبد رب : ويلك! أين هي؟ أين وضعتها؟

ابن جابر : في الدار الوسطى مع غيرها من الجواري الروميات.

أبو عبد رب : الحمد لله، لا ريب أنها أمي... يا إلهي ما أكرمك!.

ابن جابر : ألا تراها أولاً وتراطنها؟

أبو عبد رب : إن ذلك الشيخ الغريب قد أشار إلى ذلك.

ابن جابر : كيف؟

أبو عبد رب : قال لي وهو يثنيني عن المضي إلى أذربيجان: ما يدريك لعلك تذهب إلى أذربيجان وتكون أمك أو أختك تباع في دمشق؟

❁ ❁ ❁

ـ ٦ ـ

فرتونة : ألست أنا الآن حرة؟

أبو عبد رب : بلى يا أماه أنت حرة.

فرتونة : وأنت حر مثلي؟

أبو عبد رب : أجل.

فرتونة : فلَم لا نرحل معا من هنا، ونعود إلى بلادنا في أناتوليا؟

أبوعبد رب : لاَ سبيل إلى ذلك يا أماه فإني مسلم، ولن يقبلوا مسلماً هناك.

فرتونة : الأمر يسير! تعود إلى نصرانيتك.

أبو عبد رب : سامحك الله يا أمي فسيحسبونني جاسوساً عليهم للمسلمين.

فرتونة : سأقول لهم: أنت ابني جورج وأنا أمك فرتونة فلا يجرؤ أحد منهم أن يمسك بسوء.

أبو عبد رب : (على حدة بصوت خافض) لا حول ولا قوة إلا بالله. أنا هنا يا أمي غني كبير، أملك أموالاً عظيمة وعقارات كثيرة وإذا رحت هناك فسأكون فقيراً ليس معي شيء.

فرتونة : خذ أموالك معك.

أبوعبد رب : لا أستطيع ذلك يا أماه.

فرتونة : أنت لا تحبني إذن. أنت تريد أن تجعلني مسلمة.

أبوعبد رب : كلا يا أمي. لا أريد أن أجعلك مسلمة إلا إذا أردت أنت من تلقاء نفسك.

فرتونة : بل تريدون جميعاً أن تخرجوني من ديني وتُكرهوني على الدخول في الإسلام.

أبوعبد رب : كلا، لا أحد يريد أن يخرجك من دينك.

فرتونة : لماذا إذن أرسلتم إلي تلك المرأة لتعلمني الإسلام؟

أبوعبد رب : إنما أرسلناها لك لتعلمك اللغة العربية.

فرتونة : كلا لا أريدها. إن جاءت مرة أخرى فلأطردنها.

أبوعبد رب : افعلي ما تشائين يا أماه.

فرتونة : ألم أطلب إليكم أن ترسلوا لي راهبة تذاكرني في الدين، فأين هي؟

أبوعبد رب : قد طلبناها لك وستأتي إليك مساء اليوم.

فرتونة : أنا لا أحبك يا جورج، إنك لا تسمع كلامي، أنا لا أقدر أن أعيش في هذه البلاد.

أبوعبد رب : إن شئت يا أماه عدت وحدك إلى أناتوليا.

فرتونة : أنا لا أعرف الطريق وحدي.

أبوعبد رب : سوف أرسل معك من يوصلك إلى مأمنك.

فرتونة : ماذا أصنع هناك وحدي؟ لن أجد أحداً من أهلي فقد وقعوا جميعاً في الأسر أو قتلوا في المعارك. وأنت الابن الباقي لي فلن أدعك أبداً.

أبوعبد رب : أحسنت يا أماه. أنا أيضاً لا أقدر على فراقك ولا أطيق البعد عنك الآن بعد ما رأيتك ولقيتك.

فرتونة : قد عرفت الآن، هذا من زوجتك.

أبوعبد رب : زوجتي؟ ما بالها؟

فرتونة : لابد أنها هي التي منعتك.

أبوعبد رب : كلا، والله يا أمي إنها لتحبك من أجلي وتعزك.

❁ ❁ ❁

— ٧ —

أم عبد رب : ما بقي إلا أن تأتي بالراهبة إلى بيتنا يا أبا عبد رب.

أبوعبد رب : ما حيلتي يا زهرة؟ أمي طلبت ذلك.

أم عبد رب : أكلما طلبت شيئاً أجبتها إليه؟ غدا تطلب منا جميعاً أن نتنصر.

أبوعبد رب : يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ لقمان:١٥ .

أم عبد رب : بلاء جديد صُبّ علينا في بيتنا صبا.

أبو عبد رب : يا أم عبد رب ليس لي غير أم واحدة وقد وجدتها بعد فراق طويل فلا أقل من أن تحاسنيها وتأخذي بخاطرها من أجلي.

أم عبد رب : وهي تسب ديننا ونبينا.

أبو عبد رب : كيف وأنت لا تفهمين رطانتها.

أم عبد رب : لا حاجة لمعرفة رطانتها حسبي أن أسمعها تذكر محمدا والإسلام وهي تتميز من الغيظ لأعرف أنها تسبهما.

أبو عبد رب : لا بأس يا زهرة غدا تدخل في دين الإسلام إن شاء الله.

أم عبد رب : هذه تسلم؟ لو أسلمت الحجارة كلها ما أسلمت هذه.

❁ ❁ ❁

ـ ٨ ـ

(في المسجد الجامع عقب صلاة العصر)

ابن جابر : ما خطبك يا أخي؟ ما عدت ترجع إلى بيتك بعد صلاة العصر كعادتك.

أبو عبد رب : ماذا أصنع في البيت يا ابن جابر؟ أنا في محنة يا أخي من جراء أمي.

ابن جابر : لا تريد أن تسلم؟

أبو عبد رب : بل تريد منا أن نتنصَّر.

ابن جابر : اصبر عليها، أليست هذه هي التي كنت تتحرق شوقاً إليها؟

أبو عبد رب : ما كنت أظن أنها بمثل هذه الصلابة. لقد رأيت كثيراً من العبيد والإماء. لا يكادون يطؤون أرض بلادنا حتى يدخلوا في دين الإسلام.

ابن جابر : أما زالت الراهبة تتردد عليها؟

أبو عبد رب : نعم. لا أقدر أن أمنعها.

ابن جابر : إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ القصص: ٥٦

أبو عبد رب : والله يا ابن جابر لو خُيِّرت بين ثروتي كلها وبين إسلامها لاخترت إسلامها.

(تدخل الجارية مسكة)

مسكة : (تنادى) سيدي.. سيدي!

أبو عبد رب : مسكة؟ ماذا جاء بك يا جارية؟

مسكة : سيدتي أرسلتني إليك.

أبو عبد رب : ماذا تريد؟

مسكة : لأزف إليك بشرى عظيمة.

أبو عبد رب : ويحك ما تكون؟

مسكة : أمك يا سيدي أسلمت.

أبو عبد رب : أحقاً يا مسكة؟

مسكة : نعم.

أبو عبد رب : الحمد لله، اذهبي فأنت حرة لوجه الله.

ابن جابر : ألا تنطلق إلى البيت يا أبا عبد رب؟

أبو عبد رب : كلا يا أخي ليس الآن، لأخِرَّنّ ساجداً شكراً لله تعالى ولا أرفع رأسي حتى تغرب الشمس.

(ستار)

---

٢) أفضل العمل: (تاجر مسلم رومي الأصل يعتق الرقاب رغبة في العثور على أمه الأسيرة) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٦)، ومجلة الأدب الإسلامي، العدد (٦٣)،١٤٣٠هـ، الموافق ٢٠٠٩م.

❊ ❊ ❊

الإمام الشجاع

(ابن تيمية)

ـ ١ ـ

سـلار : يا سيدي السلطان هذا الشيخ ابن مخلوف قاضي المالكية يستأذن عليك.

السلطان : ماذا يريد مني؟

سـلار : يريد أن يكلمك في أمر ابن تيمية.

السلطان : يا لي من هؤلاء الفقهاء! يتغايرون كما تتغاير التيوس. ألا يترك ابن تيمية في دمشق؟ ماذا يعنيه من أمره؟

سـلار : هل آذن له يا سيدي السلطان؟

السلطان : ائذن له يا سلار لنرى ما يقول.

(يدخل ابن مخلوف)

ابن مخلوف : السلام على سيدي السلطان ورحمة الله وبركاته.

السلطان : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. خيراً يا ابن مخلوف.

ابن مخلوف : ماذا صنعت يا سيدي السلطان في أمر ابن تيمية؟

السلطان : أما عندكم ما يشغلكم هنا في مصر غير أمر ابن تيمية؟ ما شأنكم به؟ إنه في الشام.

ابن مخلوف : الشام يا سيدي السلطان تحت حكمك، فأنت مسؤول عما ينشر في الناس هناك من بدع.

الناصر : أتحرضونني على ذلك الجريء الشجاع الذي قابل القائد التتري قازان يوم أقبل بجموعه ليغزو البلاد، فأنذره وتوعده حتى أقنعه بالانسحاب فانسحب.

ابن مخلوف : لكنه مبتدع ضال مضل!.

السلطان : إني لا أعرف ما بِدعته، وقصارى ما أعلمه أن أهل الشام يحبونه ويجلونه، وهو أهل لذلك فقد حماهم يوم قازان، وأنقذهم من شره.

ابن مخلوف : هذه رسائل شيوخ العلم بدمشق تفيض بالشكوى من بدعته، وتجعل التبعة علينا نحن في مصر إذ سكتنا عليه.

السلطان : إنما هؤلاء حاسدون، وقد بلغني أنهم لا يقدرون على مناظرته فأرادوا أن يستعْدوا السلطان عليه. أفتحسده أنت أيضاً يا ابن مخلوف؟

ابن مخلوف : كلا، لا ينبغي أن أحسده على ضلالته.

السلطان : ألا تخشى إن نحن أحضرناه إلى مصر أن يناظركم فيفحمكم.

ابن مخلوف : بل سنفحمه ونريه الحجة.

السلطان : حسنا، اكتب يا سلار إلى نائب السلطنة في دمشق أن يرسل الشيخ تقي الدين بن تيمية على البريد.

سلار : سمعا يا سيدي السلطان.

❀ ❀ ❀

ـ ٢ ـ

ابن تيمية : ماذا تقول يا نائب السلطنة؟ كيف يسوغ لي أن أهرب إلى مصر اليوم؟

النـــائب : هكذا ورد كتاب مولاي السلطان الناصر يا ابن تيمية.

ابن تيمية : أليس يعلم السلطان بأن خطر التتار قد عاد مرة أخرى يهدد البلد؟

النـــائب : قد كتبت إليه بذلك.

ابن تيمية : أفأترك الشام فراراً من وجوههم لأناظر زيداً وعمراً في مصر؟ اكتب للسلطان أن يحضر هو بجيشه إلينا بدلاً من أن يستدعيني لأرى تلك العمائم التي تعمل لغير وجه الله.

النـــائب : صدقت يا ابن تيمية، نحن بحاجة إلى بقائك هنا لتثبّت قلوب الناس وتطمئنهم فقد بدأ الهلع يسري في القلوب والتتار بعيدون، فكيف إذا اقتربت جموعهم؟

ابن تيمية : اكتب للسلطان أن يسرع بجيشه وإلا فإنه مسؤول يوم القيامة عما يُراق من دماء المسلمين ويُنتهك من حرمهم. قل له: إن ابن تيمية يقول ذلك.

النـــائب : حالاً يا سيدي الإمام.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(في الجامع الأموي بدمشق ... همهمة المصلين
وهم يسلمون من الصلاة)

السلام عليكم ورحمة الله ...السلام عليكم ورحمة الله.

النـــائب : انظر يا ابن تيمية؟ هذا غريمك ابن الزملكاني يريـــد أن يخطب الناس.

ابن تيمية : لعله يريد أن يندب الناس للاستعداد لجهاد التتار.

ابن الزملكاني: أيها الناس، يا معشر المسلمين، أصغوا إلي يـــرحمكم الله. هاهي الأنباء قد وردت تترى بأن جموع التتار قـــد أقبلت تطوي البلاد لتغزونا مرة أخرى. فأين ما وعدكم به تقي الدين أحمد بن تيمية إذ زعم لكم يوم قازان أنه أقنعه بالانسحاب، وأنهم لن يعودوا لغزوكم مرة أخرى.

النـــائب : ويله! ماذا يقول عنك يا ابن تيمية؟

ابن تيمية : دعه يتم حديثه.

ابن الزملكاني : لقد وثِقتم بكلام ابن تيمية يومئذ فرفعتم مكانه، ونسبتم إليه فضل إنقاذكم من شر التتار، وأغضيتم من أجل ذلـــك عن البِدع التي خالف فيها جمهور العلماء من أهل السنة! فهل أدركتم اليوم أنه إنما كان يخادعكم يومـــذاك ليتـــيح لحلفائه التتار فرصة أنسب للاستيلاء على بلادكم والتحكم في رقابكم؟

(همهمة سخط واستنكار)

النـــائب : اردد عليه يا ابن تيمية.

ابن تيمية : أيها الناس! قد سمعتم ما قال هذا الشيخ عني فاسـمعوا الآن ما أقول: لقد ظننت حين قام ليخطب فيكم أنه سيندبكم للاستعداد لملاقاة التتار وجهادهم، فإذا هو ينـسى خطـر التتار ولا يذكر غير شيء واحد هو عداوته لي ليحرضكم عليّ، وإني أدعوكم يا معشر المسلمين ألا يـشغلكم عـن التفكير في جهاد التتار شاغل، ولا يصرفكم عنه صارف. إياكم أن يحملكم الهلع على مغادرة دياركم كما فعلتم فيما مضى فتعينوا بذلك أعداءكم على أنفسكم، بل رابطوا فيها واستعدوا وأعدوا، وثقوا بأن الله سيحميكم منهم وينصركم عليهم. وإن سلطانكم الناصر أعزه الله لقادم بجيشه مـن مصر عما قريب، فأبشروا واطمئنوا.

ابن الزملكاني : (صائحاً) يا معشر الناس لا تصدقوا هذا المبتدع فإنما يأمركم بالبقاء في دمشق لتكونـوا عبيـداً للتتـار. إنـه سيعرضكم لنكبة التتار، وينجو بنفسه.

ابن تيمية : سامحك الله! اسمعوا يا عباد الله: إنـي والله لأقـاتلنهم معكم. ولأكونن في مقدمتكم. لقد تعلمون أني ما ثقفت منذ صغري غير حمل الكتب والمحابر، غير أني قد تعلمـت حمل السيف منذ قريب فاصنعوا اليوم مثلي واحذوا جميعاً حذوي.

أصــوات : نحن معك يا ابن تيمية. اقتلوا ابن الزملكاني. اقتلوا هذا الفاسق.

ابن تيمية : (يصيح) كلا يا عباد الله! إياكم أن تقتلوه، لا يحل لكم ذلك، بل كِلوا أمره إلى الله يتولى حسابه.

أصــوات : إنه طعن في حقك وشتمك.

ابن تيمية : قد عفوت عنه، وجعلته في حل مني.

❀ ❀ ❀

— ٤ —

ابن تيمية: شكر الله سعيك يا سيدي السلطان إذ أسرعت فلبيت الدعوة.

الناصــر : بوركت يا ابن تيمية، والله إن الفضل في ذلك لراجع إليك، ولا تحسبني غافلاً عما فعلت لتشجيع الناس هنا وتثبيت قلوبهم.

ابن تيمية: إنما كنت أُبشّر الناس بأنك ستنجدهم بجيشك .

الناصــر: آه لو يعلم العلماء المحرضون عليك عندنا في مصر أي رجل أنت!

النــائب : أدركنا يا سيدي السلطان.

السلطان : ماذا وراءك؟

النــائب : انتشر في الناس اليوم أن هؤلاء التتار قوم مسلمون لا يحل قتالهم.

ابن تيمية: هذه إشاعة روجها هؤلاء الباطنية المقيمون بيننا. إنهم لأشد عداوة لنا من التتار.

السلطان : يجب القضاء على هؤلاء الخونة.

ابن تيمية: ليس الآن يا سيدي السلطان .. حتى نفرغ أولا من قتال التتار.

السلطان : أنتركهم هكذا يخذلون الناس وينشرون الفتنة في صفوفهم؟

ابن تيمية: اطمئن يا سيدي. سأكفيكم أمرهم اليوم ... سأخطب في الناس وأبين لهم وجه الحق.

❁ ❁ ❁

ـ ٥ ـ

ابن تيمية: (يخطب) أيها الناس: إنما أرجف بهذا عيون التتار بين ظهرانينا وجواسيسهم ليخذلوكم عن قتالهم... إن هؤلاء التتار أقبلوا يسفكون دماء المسلمين، وينتهكون محارمهم، ويسلبون أموالهم، فأي إسلام هذا؟ إياكم والشك بعد اليقين!

أيها الناس: خذوها مني كلمة مجلجلة، لو رأيتموني في جانب التتار والمصحف في عنقي فاقتلوني.

أيها الناس: هذا جيش مصر قد جاء ليذب عنكم التتار فمن العار أن تدعوه يقاتلهم وحده. لا يفر اليوم أحد من هذا البلد إلا سأله الله يوم القيامة عن فراره فأركسه في نار جهنم. والذي نفسي بيده لئن صَدَقتموهم القتال لينصرنكم الله عليهم كما نصركم من قبل في عين جالوت.

❁ ❁ ❁

- ٦ -

(في مِصر)

الناصر : ويحك يا ابن مخلوف! أجئت تهنئنا بسلامة الوصول من الشام وانتصارنا على التتار، أم لتحرضني على ابن تيمية؟

ابن مخلوف : إننا نحمد الله يا سيدي السلطان على ما أيدك به من النصر هناك، وعلى ما أنعم به علينا من عودتك سالماً إلينا. فمن تمام الشكر لله أن نذكرك بأن تنقذ الناس من فتنة هذا المبتدع ابن تيمية كما أنقذتهم من فتنة التتار.

السلطان : ويلكم! لو رأيتموه في المعركة يقاتل التتار معنا هو وأخواه وأبناء عمومته ما قلتم هذا القول.

ابن مخلوف : هذه رسائل علماء الشام تستجير بنا من بدعته.

السلطان : أنهم يحسدونه على ماله من المكانة في العامة.

ابن مخلوف: الله أعلم بسرائرهم. ولكنا نحن العلماء هنا بمصر لا نحسده على شيء، وإنما نشفق أن يفتن الناس ببدعته، ونخشى أن تقع تبعة ذلك على مولانا السلطان.

السلطان : ليس أمامي إلا أن أدعوه للحضور إلى مصر لتناقشوه.

ابن مخلوف: حسبنا منك هذا يا مولاي السلطان.

❁ ❁ ❁

ـ ٧ ـ

النائب : (في دمشق) قد بلغتك رغبة السلطان يا ابن تيمية ولكني لا أنصحك بالمسير إلى مصر.

ابن تيمية : لماذا؟

النائب : العلماء هناك سيثيرون العامة عليك.

ابن تيمية : ولكن الناصر يعرفني.

النائب : سيضطر السلطان إلى مطاوعتهم إرضاء للعامة إذا ثاروا عليك.

ابن تيمية : فإني أريد أن أهدي أولئك العامة إلى سبيل الحق. ولعل الله قد هيأ لي هذا السبب لأقوم بواجبي في هداية الناس هناك.

❁ ❁ ❁

ـ ٨ ـ

ابن تيمية : مرحباً بك يا سيدي السلطان .. جئت تزورني في الحبس.

السلطان : القاضي حكم بحبسك ولا أقدر أن أعارضه فأثير العامة. فهل لك أن أطلقك فتعود إلى الشام؟

ابن تيمية : أما الآن فلا، سأبقى هنا في مصر حتى أرى العامة وأهديهم.

السلطان : اسمع نصيحتي... إنه ليعز عليّ أن تُحبس.

ابن تيمية : إن أحبس فقد حبس من هو خير مني في مثل ما حبست به.

السلطان : من ذا تعني؟

ابن تيمية : الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ولقد كان يُضرب ويعذب في الحبس. أما أنا فقد أوصيتهم أنت بالرفق بي! فوالله ما هذا بحبس، وإنه لمنزل خير من منزلي بدمشق.

❁ ❁ ❁

ـ ٩ ـ

سلار : استرح الآن يا سيدي السلطان، فقد تعبت من استقبال المهنئين من الكبراء والعلماء.

الناصر : أرأيت يا سلار كيف جاء هؤلاء المنافقون يهنئونني اليوم ولعلهم صنعوا مثل هذا للجاشنكير إذ اغتصب مكاني أمس؟

سلار : أجل يا سيدي السلطان إلا من عصم الله منهم وفي مقدمتهم ابن تيمية.

الناصر : نسيت أن أسألك عنه، أين هو اليوم؟

سلار : بالإسكندرية نفاه إليها الجاشنكير بتحريض من الشيخ نصر المنبجي، والقاضي ابن مخلوف وأشياعهما.

الناصر : ويلهم! عبيد من غلب. والله إن قلامة ظفر ابن تيمية لتسوى عمائمهم. ابعث من يحضره إلينا معززاً مكرما.

❁ ❁ ❁

ـ ١٠ ـ

النـاصـــر : هيه يا ابن تيمية! قد بلغني كل ما صنعت من أجلى.

ابن تيمية : كلا ما صنعت شيئاً من أجلك سيدي السلطان، وإنمـا من جل مصلحة الأمة والبلاد.

السلطان : فسيان ذلك عندي. اسمع يا تقي الدين... إني قد أمرت بإحضار ابن مخلوف وأضرابه من حسادك لأحكمك فـي أمرهم، فاقترح ما تشاء من العقوبة لهم.

ابن تيمية : أمن أجل أنهم صانعوا عدوك الجاشنكير أمس وسـلموا عليه؟ سامحهم يا سيدي السلطان فإنما فعلوا ذلك خوفاً منه لا حبا له.

السلطان : بل لأنهم عادوك أنت وآذوك .

ابن تيمية : تريد أن تعاقبهم من أجلي؟

السلطان : نعم.

ابن تيمية : لا تفعل، فقد سامحتهم وجعلتهم في حل مني. وإنهم بعد لشيوخ العلم إن بطشت بهم فلن تجد مثلهم.

السلطان : والشيخ نصر المنبجي الذي حرض الجاشنكير على نفيك إلى الإسكندرية.

ابن تيمية : قد أسدى إليّ هذا الشيخ معروفاً وفضلاً.

السلطان : كيف؟

ابن تيمية : أتاح لي الفرصة لهداية خلق كثير هناك إلى السُّنّة بعد ما فتنتهم مخاريق الصوفية.

السلطان : لكنه قصد بنفيك إلى الإسكندرية أن يغتالك أتباعه فيها.

ابن تيمية : فقد أظفرني الله بكثير منهم فجعلهم من أتباع السنة.

السلطان : والله لقد حيرتني يا تقي الدين!

ابن تيمية : علام الحيرة يا سيدي السلطان؟ والله يقول في كتابه العزيز: "وأن تعفوا أقرب للتقوى".

❁ ❁ ❁

ـ ١١ ـ

السلطان : أحقا يا ابن تيمية تنوي الرجوع إلى دمشق؟

ابن تيمية : نعم يا سيدي السلطان.

السلطان : وجئت اليوم لتودعني ؟

ابن تيمية : كلا يا سيدي السلطان، إنك ستمضي معي بجيشك، ألم تبلغك أنباء التتار على الحدود؟

السلطان : ما أحسبهم يجرؤون مرة أخرى على التقدم.

ابن تيمية : إذا بلغهم أنك سرت بجيشك إلى الشام فسيعدلون عن التقدم... أما إن...

السلطان : حسنا! انطلق أنت قبلي وسنلحق بك.

ابن تيمية : كلا، لا أسير إلا معك.

السلطان : ما أشد عنادك! أتريد أن تفرض رأيك علي؟

ابن تيمية : معاذ الله! وإنما أذكرك بما فرض الله عليك من رعاية مصلحة المسلمين إذ ولاك الله عليهم.

السلطان : بوركت يا ابن تيمية ... سآمر الجيش غداً بالاستعداد للمسير.

❁ ❁ ❁

ـ ١٢ ـ

السلطان : ما أدري يا ابن تيمية! أخرج أهل دمشق لاستقبالي أم لاستقبالك أنت؟

ابن تيمية : بل لاستقبال ضيفهم الكبير، فما أنا إلا واحد من عامتهم.

السلطان : يحق لهم والله أن يفخروا بك فقَلّ أن تنجب البلاد مثلك.

ابن تيمية : يا سيدي إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

السلطان : ألم أقل لك يا ابن تيمية: إن التتار لن يجرؤوا على التقدم؟

ابن تيمية : أدركوا أنك متيقظ فارتدوا إلى ديارهم.



ـ ١٣ ـ

ابن تيمية : مرحباً بنائب السلطان. هل جاءك كتاب من مصر؟

النائب : نعم يا سيدي الإمام.

ابن تيمية : السلطان الناصر بخير؟

النائب : بخير يا سيدي الإمام.

ابن تيمية : أراك تحمل لي نبأ لا تحب أن تفضي به إلي.

النائب : أجل يا سيدي الإمام... في شأن الفتيا الجديدة التي أفتيتها.

ابن تيمية : لا عليك! قل ما عندك.

النـــائب : لقد كتب إلى السلطان يأمر بسحب تلك الفتيا.

ابن تيمية : (غاضباً) اكتب إليه أني لا أسحب الفتيا لقول أحـد إلا أن يقيم عليّ البرهان من الكتاب والسنة.

النـــائب : العلماء ثائرون عليك في كل مكان: في الشام، وفـي مصر.

ابن تيمية : لو قام على أهل الأرض جميعاً ما سحبت فتواي.

النـــائب : إذن فسأضطر إلى حبسك بالقلعة.

ابن تيمية : السلطان هو الذي أمرك بذلك؟

النـــائب : نعم.

ابن تيمية : فافعل ما تؤمر.

النـــائب : يحزنني ذلك يا سيدي الإمام.

ابن تيمية : لا عليك... متى تحب أن تأخذوني إلى القلعة؟ الآن؟

النـــائب : ابق الليلة عند أهلك حتى الغد.

ابن تيمية : أمر السلطان مطاع.

النـــائب : هل تقترح علي شيئاً.

ابن تيمية : لا شيء إلا أن تأذنوا لأخي زين الـدين أن يخـدمني ويتردد عليّ.

النـــائب : لك ذلك يا سيدي الإمام.

❁ ❁ ❁

ـ ١٤ ـ

ابن تيمية : مرحباً بنائب السلطان. هل شاقك أن ترى سجن القلعة؟ كيفِ حال السلطان الناصر؟

النـــائب : هو بخير، وكيف أنت يا سيدي الإمام؟

ابن تيمية : بحمد لله كما ترى ... هنـــا العزلـــة والطمأنينـــة ولله الحمد.

النـــائب : سيدي الإمام...!

ابن تيمية : نعم.

النـــائب : هل تسحب فتواك في يمين الطـــلاق لتنقـــضي هـــذه المحنة؟

ابن تيمية : ويلك! ألم أقل لك: إني هنا في نعمة لا في محنـــة، أوَ تظن أنني كذبتك؟

النـــائب : كلا يا سيدي، ولكن ...

ابن تيمية : ولكن ماذا؟

النـــائب : لدي أمر من السلطان أخشى أن يزعجك سماعه.

إبن تيمية : قل ولا تخف.

النـــائب : لقد أمر السلطان بأن يحال بينك وبين هـــذه الكتـــب والأقلام والمحابر.

ابن تيمية : ماذا تقول؟ أتفرقون بيني وبين أحب شيء إلـــيّ فـــي الحياة؟ فيم أعيش إذن بعد؟

النـــائب : هكذا أمر السلطان.

ابن تيمية : العلماء أشاروا عليه بذلك؟

النـــائب : أجل.

ابن تيمية : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظـــيم. اليـــوم تبـــدأ المحنة!

(ختام)

❁ ❁ ❁

---

٣) الإمام الشجاع: (ابن تيمية) نشرت في كتاب: من فوق سبع سموات ضمن سبع مسرحيات لباكثير، مكتبة مصر، القـــاهرة، بـــدون تـــاريخ. ومجلـــة الفيصل، العدد (١٨٠).

البيت العتيق

(حول البيت العتيق وقد أوشك أن يتم بناؤه. إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يعملان في ذلك مجتهدين).

إبراهيم : ما بالك صامتاً اليوم يا إسماعيل؟

إسماعيل : إني أردد في سري ما سمعته منك: (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم).

إبراهيم : قد سمع الله لنا يا بني وهو السميع المجيب، ولكن هلم نتحدث، أوقد مللت حديثي يا إسماعيل؟

إسماعيل : معاذ الله يا أبي! ولكنا قد أوشكنا أن نفرغ من عملنا هذا، فلو صبرنا قليلاً عن الحديث حتى لا يشغلنا عن إتمامه اليوم.

إبراهيم : كلا يا بني، بل الحديث أعون على احتمال الجهد دون أن نشعر بالجهد، أو لا تعرف المثل الذي يقال في ذلك؟

إسماعيل : بلى يا أبتِ، يقولون هنا: احملني وأحملك!

إبراهيم : قول بديع! في معنى المثل الذي نقوله بالشام، بيد أن هذا أخف وأروع.

إسماعيل : لوددت يا أبي لو أحسن لغتك كما تحسنها أنت فينطلق بها لساني كما ينطلق بلغة أحمائي هؤلاء.

إبراهيم : بل يا ليتني أحسن لغتكم هذه فأكلمك بها فهي أشرف وأكرم.

إسماعيل : أشرف وأكرم ..؟! وكيف؟

إبراهيم : بهذه اللغة يا إسماعيل سينزل الله ذلك الكتاب الكريم على الرسول العظيم من ذريتك، فتكون لسان المهتدين به في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة.

إسماعيل : (فرحاً) إذن فلو أقمت عندنا يا أبي فتتعلمها!

إبراهيم : وأنَّى لي ذلك يا بني؟ لقد أمرت بأن تكون هذه هجرة لله، فلو أقمت معك ما كانت كذلك، ويحك يا إسماعيل! لو كان ذلك لي لقد كانت هاجر أمك أحرى منك، بأن أقيم معها (تخالط صوته رقة) وألا أدعها تموت هنا وحدها دون أن تراني!

إسماعيل : ويحك يا أبي لشد ما أطعت ربك وصبرت!

إبراهيم : (يتجلد) ما أنا إلا عبدُ الله يا إسماعيل أؤمر فأطيع. إن الله قد اختارك أنت أبا لتلك الأمة العظيمة ولم يخترني.

إسماعيل : لكنك أبي فأنت إذن أبوها.

إبراهيم : صدقت ولكن الله قد شاء أن يجعلني أبا المِلّةِ كلّها: مِلّةِ التوحيد والإسلام مهما تختلف أنسابها وألوانها وديارها ولم يجعلني أبا لأمة دون أمة.

إسماعيل : بخ بخ لك يا خليل الرحمن!.

(تقبل امرأة إسماعيل).

إبراهيم : مرحباً مرحباً بزوج البعل الكريم وأم الشعب العظيم!

هــــي : الفضل فضلك يا عَمَّاه. أنا هي العتبة وأنت الذي بتثبيتها أوصيت!

إبراهيم : بل الفضل فضلك يا بنتاه إذ وجدتك شكوراً صبوراً، فكنت جديرة أن تلدي ذلك الشعب.

إسماعيل : (كأنه لا يريد أن تشغلها امرأته عن عملهما) هل من حاجة أقضيها لك؟

هــــي : لا حاجة إلا أن إخوتي وأبناء عمومتي هؤلاء ما زالوا يلحون علي لتأذنا لهم فيعينوكما على رفع هذه البنية.

إسماعيل : لقد قلنا لهم من أول يوم: إن هذا أمر الله سبحانه وتعالى ننفذه كما أمر.

إبراهيم : أجل، فاعتذري لهم واشكريهم فكأن قد أعانونا محمودين.

هــــي : لم يشاؤوا أن يقتنعوا بذلك وظلوا يظنون أنكما ما امتنعتما إلا كراهية أن تحمّلاهم رهقاً. وإنهم لفتيان أشداء، وإنهم ليحبون إسماعيل وأباه، ويحز في صدورهم أن يأبى الضيف الكريم عليهم التكرمة!

إسماعيل : فقولي لهم: إن البنية قد أوشكت أن تتم ألا ترين؟

هــــي : ذلك أحرى أن تأذنا لهم اليوم فتطيب نفوسهم!

إسماعيل : ماذا ترى يا أبي؟

إبراهيم : لا أدري والله، نريد أن نطيع أمر ربنا ولا نحب أن نسيء إلى قوم كرام محسنين.

إسماعيل : أمر ربنا إذن أجدر أن نرعاه. ارجعي إليهم فقولي...

إبراهيم : بل رويدك! حدثيهم بحديث الفداء لعلهم يقتنعون بأن أمر الله لا هوادة فيه. ألم تحدثها بذلك يا إسماعيل؟

هـــي : بلى يا عماه. إذ رأيت في المنام أنـك تـذبح ابنـك فعزمت أن تنفذ أمر الله لولا أن فداه الله بذبح عظيم؟

إبراهيم : أجل، أجل هو ذاك.

هـــي : آه! لولا ذلك الفداء ما فزنا بك يا إسماعيل!.

إبراهيم : فلتحدثي به فتيان قومك ولتقولي لهم: إن هذا الأمـر مثل ذاك.

هـــي : (فرحة) الآن يا سيدي أستطيع أن أقنعهم.

إسماعيل : قولي لهم: حسبنا فضلاً منهم أنهـم يعطوننـا مـن صيدهم منذ شُغلت أنا عن الصيد.

هـــي : (في دلال) لا يا إسماعيل... هذا وحده غيـر مقنـع! سأمضي الساعة لإقناعهم ثم أعود إليكما بالغداء.

إسماعيل : بل أخّري غداءنا حتى نفرغ من عملنا، فما بقي منه إلا قليل.

هـــي : الضيف هو الآمر يا إسماعيل!

إبراهيم : كلا ما أنا بضيف يا بنيتي ولكن جعت وتعبت.

هـــي : إذن فقد أمرت (تخرج).

إبراهيم : (معجباً) ما أذكاها وأنجبها! إن فيهـا لمـشابه مـن هاجر!

إسماعيل : (يضحك) لها الله... لقد شغلتنا عن العمل.

إبراهيم : (يقف عن العمل) دعنا نسترح قليلاً يا بني.

إسماعيل : أنا ما جعت بعد يا أبي ولا تعبت. ما بقي غير هذا الصف الواحد من المدر ثم نستريح.

إبراهيم : ذلك أحرى أن نستريح الآن.

إسماعيل : سأقرب بعض الحجارة ريثما تعود زوجي بالغداء.

إبراهيم : أتعصي أباك يا إسماعيل؟

إسماعيل : (يلقي كل ما بيده) معاذ الله يا خليل الله! إني سامع ومطيع.

إبراهيم : هلم نجلس فوق تلك الصخرة العالية.

(يرقيان الصخرة ثم يجلسان).

إبراهيم : (ينظر إلى خيام الجرهميين) ما شاء الله. هذه أخبية أحمائك من جرهم! الحمد لله إذ استجاب دعوتي فجعل أفئدة من الناس تهوي إليكم.

إسماعيل : أجل يا أبت كل يوم يطنب بيننا أهل خباء جديد.

إبراهيم : بارك الله في زمزم، وبارك على صاحبتها الصديقة المصرية أم إسماعيل وأم السيد المختار من ولد إسماعيل.

إسماعيل : (تندى عيناه بالدمع) ليتها يا أبي تشهد هذا اليوم.

إبراهيم : (يتجلد) ما عند الله خير لها وأبقى يا بني. (يتنهد) آه! ما أسرع كرور السنين. لكأنما كان ذلك أمس إذ بلغت بكما هذا المكان فأنزلتكما به وأنت بعد رضيع لم تفطم،

وليس به يومئذ ماء ولا أنيس وما معكما غير جراب تمر وسقاء ماء. فلما أردت المضي صاحت بي أمك: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فوقفت حزيناً لا أحير جواباً؛ فلما رأت ذلك مني قالت: آلله أمرك بهذا؟ قلت نعم. قالت: إذن لا يضيعنا فامض حيث شئت. فانطلقت يا بني أريها أني جلد لئلا يحزنها حزني حتى إذا كنت عند تلك الثنية حيث لا تراني عينها استقبلت هذا البيت بوجهي ودعوت الله لها ولك تلك الدعوة .

إسماعيل : هي حدثتني أنها كانت يومئذ تخشى عليّ وعلى نفسها سِباع الوحش وسباع الإنس. فلما قلت أنت لها: إنه أمر الله سكنت واطمأنت.

إبراهيم : أجل يا بني، الله أعلم حيث اختار! لو لامرأة أخرى قيل ذلك يومئذ ما آمنت ولا اطمأنت. (يتنهد) إن الله يا بني له حكمة في كل شيء.. ألهم سارة خالتك أن تغار منك ومن أمك ليكون سبباً لعمارة بيته هذا العتيق، وليجعل لي ولك شرف بنائه وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود.

(تعود امرأة إسماعيل تحمل مكتلاً وسقاء).

هـي : ألا تنزلان لغدائكما أم أصعد إليكما به؟

إبراهيم : انزل يا بني فخذه منها.

(ينزل إسماعيل فيأخذ المكتل والسقاء منها ويصعد).

إبراهيم : ماذا صنع الفتيان يا بنتاه؟ اقتنعوا؟

هـــي : نعم يا عماه وطابت نفوسهم.

إبراهيم : الحمد لله.

هـــي : إذا شئتما مزيداً من هذا الشواء فعندنا المزيد.

إبراهيم : بارك الله فيك...

هـــي : (باسمة) يا أم الشعب العظيم (تتصرف).

(يضحك إبراهيم وإسماعيل)

إبراهيم : بسم الله الرحمن الرحيم (يأخذ في الأكل).

إسماعيل : بسم الله الرحمن الرحيم (يأكل في غير رغبة كمن شغل فكره بشيء).

إبراهيم : ما خطبك يا بني؟ ألم يعجبك هذا الشواء الطيب؟

إسماعيل : بلى يا أبت إنه لأفضل ما عندنا من الطعام.

إبراهيم : فمالي أراك لا تأكل برغبة مثلي؟ أي شيء يشغل بالك؟

إسماعيل : حتى تفرغ من طعامك كيلا أشغلك عنه.

إبراهيم : بلى، حدثني الآن. إن الحديث على الطعام لمستحب.

إسماعيل : سمعتك تذكر سارة خالتي وحكمة الله في مهاجرتك بي وبأمي.

إبراهيم : أجل هنا انقطع حديثي معك آنفاً.

إسماعيل : فهل لي أن أستزيدك علماً؟

إبراهيم : افعل يا بني الحبيب سلني ما تشاء.

إسماعيل : فيم اختار الله هذا الوادي القفر ليكون دار هجرتنا أنا وأمي؟

إبراهيم : ويحك يا بني.. لمكان بيته المحرم هذا.

إسماعيل : وفيم جعل بيته المحرم هنا في هذا المكان الجديب؟

إبراهيم : ويحك أضقت ذرعاً بالعيش هنا يا إسماعيل؟

إسماعيل : كلا يا أبي. إني لأحب هذا الربع ولا أعدل به جنات الأرض. وحسبي أن أمي فيه عاشت وبه دفنت، وأنها رأت من الآيات يوم مقدمها ما جعلها تنعم به بالاً وتقر به عيناً.

إبراهيم : أجل إنها لآيات بينات أكرمها الله بها ثم فضلها على نساء العالمين إذ جعل آثارها ومواطئ أقدامها مناسك يؤديها حجاج بيته إلى يوم القيامة.

إسماعيل : ولكني أشتهي بعد يا أبي أن أعرف الحكمة في اختيار هذه البقعة الجدباء من دون بقاع الأرض.

إبراهيم : ويحك يا بني! ألم أخبرك غير مرة أن الله قد بشرني أن يبعث هنا رسولاً عظيماً من ولدك يكون خاتماً لرسله إذ يضع ميزان الحق على الأرض فلا يرتفع عنها حتى تقوم الساعة؟

إسماعيل : بلى يا أبي، ولكن فيم هذا المكان الجدب لذلك الرسول العظيم؟

إبراهيم : أي بنى إن الله لم يوح إلي شيئا في ذلك، ولكن لعلّه جلت حكمته قد قضى في سابق علمه أن يصون هذه البذرة الطيبة هنا في معزل عن عواصم المشركين وملاحم الجبارين حتى يأتي ذلك اليوم الموعود.

إسماعيل : هذا حسن يا أبي ولكن إذا ظهر ذلك الرسول العظيم في هذا الموضع القفر فلن يكون المهتدون به إلا قلة من الناس.

إبراهيم : مهلا يا بني، لقد نبهتني بسؤالك هذا إلى حكمة لله أخرى! والله أعلم وأحكم .

إسماعيل : ما هي يا أبي؟

إبراهيم : كيما يتيح الله لتلك الأمة التي يبعث بين ظهرانيها ذلك الرسول فتهتدي به أن تفيض من هذه البقعة، فتتساح شرقاً وغرباً إلى حيث تنشر رسالته ودينه في منابت الزرع والضرع، ومساقي الأنهار، ومساقط الأمطار من ممالك الأرض وأممها، جرياً في ذلك على سنته التي لا تتبدل، فيكون لتلك الأمة ملك العالم وخير الدنيا والآخرة.

إسماعيل : (يتهلل وجهه بشراً) جزاك الله خيراً يا أبي، الآن اطمأن قلبي.

إبراهيم : (يبتسم) فهيا إذن آكلني، فإني لا أستطيب الأكل وحدي.

إسماعيل : حبا يا خليل الرحمن وكرامة (يأكل بنفس طيبة) عسى ألا تؤاخذني فيما ألححت عليك وألحفت السؤال.

إبراهيم : كلا، لقد سرني هذا منك. أنا أيضاً كنت في شبابي طُلَعة مثلك. حتى لقد بلغ بي ذلك أن سألت رب العزة أن يريني كيف يُحيي الموتى فقال لي: أو لم تؤمن؟ قلت بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

إسماعيل : فأراك ربك آية الطير الأربعة!

إبراهيم : (متهللا) سمعتها يا بني؟

إسماعيل : من لسان أمي.

إبراهيم : أجل لقد كانت حافظة واعية.

إسماعيل : كُل يا أبت ... كُل .

إبراهيم : الحمد لله رب العالمين. أتمم أنت غداءك.

إسماعيل : الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم : (ينهض) حي على العمل الآن.

(ينزلان من الصخرة ويستأنفان عملهما في بناء البيت).

إبراهيم : ناولني هذا الذي بيدك.

إسماعيل : بل دعني يا أبي أرفعه بنفسي إنه حجر ثقيل.

إبراهيم : (مبتسماً) هذا دأبك معي يا بني أو تريد أن تستأثر بالثواب من دوني؟

إسماعيل : يا أبت إن الثواب كله لك. فما أنا إلا ابنك وعملك الصالح إن شاء الله.

إبراهيم : أجل ولكنا أمرنا أن نبني البيت معاً لا أن تبنيه أنت وحدك.

إسماعيل : يا أبتاه لقد أمرك الله أن تستعين بي وهو سبحانه يعلم أنك شيخ كبير وأني أنا شاب جلد.

إبراهيم : (يضحك) صدقت يا بني. والله ما رأت عيني في بلاد الشام ولا أرض الكلدان فتى أجلد ولا أمتن منك لله هذه

الأرض التي ربتك فشدت لحمك وصلبت عظمك! (ثم في رقة) ولله در ابنة النيل تلك التي أرضعتك!

إسماعيل : (فرحاً) انظر يا أبي لقد فرغنا من بناء البيت ونحن لا نشعر.

إبراهيم : الحمد لله ما بقي علينا إلا أن نختمه بهذا العلم.

إسماعيل : ما هذا الحجر الأسود الذي جئت به؟

إبراهيم : نثبته في هذا الركن ليكون للناس علماً يبتدئون منه الطواف. (يساعده إسماعيل في تثبيت الحجر الأسود).

إبراهيم : (يستلمه ويقبله) طوبى لك من حجر! ليستلمنك يوماً حبيب الرحمن وليقبلنك.

إسماعيل : حبيب الرحمن؟

إبراهيم : ابنك المختار يا إسماعيل. هذا من ألقابه. استلمه وضع شفتيك حيث يضع شفتيه.

إسماعيل : (يستلم الحجر ويقبله) ابني المختار... حبيب الرحمن؟ **(يسمع خفق لطيف بين السماء والأرض).**

إبراهيم : سبوح قدوس.

إسماعيل : يا أبت ما هذا؟

إبراهيم : هذا الروح الأمين يا بني.

إسماعيل : (متمتما) جبريل؟

جبريل : (يسمع صوته) يا إبراهيم... رب العزة أمرني أن أقرأ عليك السلام.

إبراهيم : (مبتهلا) اللهم إنك أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحيِّنا ربَّنا بالسلام، وأدخلنا الجنة دار السلام، تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام.

جبريل : وأن أبلغك أنه قد رضي عنك وعن ابنك إسماعيل فيما بنيتما وطهرتما من بيته هذا للطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود.

إبراهيم : لك الحمد يا رب الحمد، ما كنا لنرفع قواعده وحدنا لولا عونك وخفيّ قدرتك.

جبريل : وقد أذن لك أن تدعوه ما تشاء ليستجيب لك.

إبراهيم : (يرفع يديه مبتهلاً) رب اجعل هذا بلداً آمناً، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر.

جبريل : ومن كفر؟

إبراهيم : ومن كفر!

جبريل : يقول ربك رب العزة: ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. أتمم دعاءك يا إبراهيم.

إبراهيم : ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

إسماعيل : (مبتهلا كأبيه) آمين.

إبراهيم : ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم.

إسماعيل : آمين.

إبراهيم : آمين يا رب العالمين .

جبريل : إن ربك يأمرك أن تؤذن بالحج إلى بيته في الخلق أجمعين.

إبراهيم : أي جبريل أي خلق هنا؟ إنما هي أبيات قلائل.

جبريل : أذن في الناس عامة، في البشر كافة، في الخلائق أجمع!

إبراهيم : وما يبلغ صوتي يا جبريل؟

جبريل : ما عليك إلا ن تؤذن، وعليه عز وجل البلاغ، فليُسمعن صوتك جميع ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء من يومك هذا إلى يوم القيامة.

إبراهيم : سبوح قدوس.

جبريل : فليلبينَّ نداءك كل من آمن ممن كتب الله له حج بيته مهما تكن داره في المشرق أو المغرب إلى يوم القيامة، وليعجزن عن التلبية كل من لم يكتب الله له الحج وإن يكن مقيماً في هذا الوادي على غلوة سهم من البيت العتيق.

إبراهيم : سبوح قدوس!

إسماعيل : سبوح قدوس!

جبريل : ارْقَ ذلك الشرف يا إبراهيم فأذّن أذانك منه!

إبراهيم : أعني يا بني لأرقى هذا الشرف (يعينه إسماعيل).

جبريل : أذن! الآن.

إبراهيم : (بأعلى صوته) أيها الناس! إن الله تبارك وتعالى قد كتب عليكم الحج إلى هذا البيت العتيق.

(تتجاوب الأصوات مدوية من قريب وبعيد بكلمات شتى ولهجات متباينة).

إسماعيل : يا أبت ما هذا الدوى؟

إبراهيم : ما هذا يا جبريل؟ أهذه هي...

جبريل : أصوات أجيال البشر التي كتب الله لها حج بيته العتيق.

إسماعيل : وماذا تقول يا أبت تلك الأصوات؟

إبراهيم : ماذا تقول الأصوات يا جبريل؟

جبريل : تقول بشتى لغاتها ومختلف ألسنتها في المشارق والمغارب: لبيك اللهم... لبيك!

(ستار)

❁ ❁ ❁

---

٤) البيت العتيق: (بناء الكعبة البيت الحرام) نشرت في المسلمون، العدد (١٠) السنة (٢)، ونشرت في مجلة الأدب الإسلامي، العدد(٢) بعنوان لبيك اللهم لبيك.

الحائط القصير..

(المنظر: في الجيزة بمصر. فناء متوسط بين بيتين صغيرين:
أحدهما لفرتونة السوداء والآخر لفرتونة البيضاء.
يرفع الستار عن فرتونة السوداء جالسة بجوار باب بيتها في الفناء
تغربل حبًّا لها، وإذا صوت فرتونة البيضاء يسمع من داخل بيتها)

الصوت : فرتونة! يا سوداء! يا فحمة! يا جنح الليل!

السوداء : لا حول ولا قوة إلا بالله. متى يتوب الله عليّ من جوار هذه السليطة المؤذية.

البيضاء : (تدخل حاملة ديكا أبيض يصيح في يدها) أنت هنا تغربلين الحب وتسيبين ديكك ينقر فراخي، ويأكل الحب عليهن! (ترمي الديك في حجر صاحبتها بقوة)

السوداء : (تأخذ الديك) معذرة يا أختي.. ما علمت،والله، أنه تسور الحاجز إلى حائطك.

البيضاء : ألم أقل لك أن تحبسي هذا الديك المؤذي في القفص؟

السوداء : لا أستطيع أن أحبسه في القفص طول اليوم.

البيضاء : بل تعمدت إرساله ليأكل الحب عندي!

السوداء : خذي ما شئت من هذا الحب مكان ما أكلـه عنـدك، واكفيني شر لسانك.

البيضاء : (ثائرة) خذي ما شئت من هذا الحب! هل قـال لـك أحد: إني محتاجة إلى حبك؟

السوداء : ماذا أصنع لك؟ هاتي ديكا من ديوكك ليأكل عندي.

البيضاء : ما عندي ديك جائع.. الحظيرة عندي ملأى بالحب.

السوداء : والحظيرة عندي كذلك ولله الحمد، ولكن هذا الـديك الشقي يترك الخير الكثير ويتقمم عندك ما حيلتي فيه؟ دنيء النفس!

البيضاء : مثل صاحبته.

السوداء : بل هو من فصيلتك.. أبيض مثلك!

البيضاء : والله لئن وجدته عندي مرة أخرى لأقصفن رقبته.

السوداء : اتق الله يا هذه في الرحم!

البيضاء : قد أنذرتك فلا تلوميني!

(يقبل شنودة الكاتب)

شنودة : عوافي يا مولاتي ذي أصبح! عوافي! ما الخطـب؟ دائماً في شجار وخصام؟ أي عيشة هذه؟

السوداء : ماذا أعمل يا شنودة؟ تتحرش بي في كل حين كـأن لها ثأراً عندي. ليتك تدلني على بيت آخر أسكنه بعيداً عن هذه المؤذية!

البيضاء : علام التعب؟ دعيه يكتب لك رسالة أخرى إلى أميـر المؤمنين بدمشق ليبني لك قصراً في حلوان!

السوداء : أوه! انتهينا من قصة الديك ورجعنا إلى قصة الرسالة! الويل لنا منها... ستظل ترددها حتى الليل!

البيضاء : بل سأظل أرددها ما حييت. إنها أطرف قصة يتفكه بها الجلاس والسمّار (تضحك متهانفة) رسالة ممن؟ من فرتونة السوداء بالجيزة! إلى من؟ إلى أمير المؤمنين بدمشق! في أي شيء؟ في حائطها القصير: تريد من أمير المؤمنين أن يرسل بنائيه المهرة ليبنوا لها حظيرتها حتى يرتع دجاجها في الرخام والمرمر!

السوداء : (تكظم غيظها) اسخري ما شئت.. لن أرد عليك.. سأذهب إلى بعض جاراتي وأترك الدار لك! (توصد باب بيتها وتهم بالخروج).

شنودة : وأنا أيضاً سأنصرف.

البيضاء : انتظر قليلاً يا شنودة.

شنودة : دعيني أسترزق يا فرتونة.

البيضاء : عندي رسالة أريد أن تكتبها لي... انتظر. (تلتفت إلى صاحبتها) إياك أن تذهبي بعيداً فقد يجيء رسول أمير المؤمنين بالجواب فلا يجدك.

السوداء : إن جاء فخذي الجواب لك (تخرج).

البيضاء : (ترفع صوتها لتسمعها) آخذه؟ أنا مجنونة؟ آخذ السياط في ظهري مكان ظهرك؟

شنودة : لا حق لك أن تروعيها هكذا يا فرتونة.

البيضاء : أحلق شعر رأسي هذا إن لم يجئ شرطي الأمير غداً فيسحبها من قرونها إلى السجن!

شنودة : هذا محال.

البيضاء : وأنتف أهداب عيني هاتين إن لم يسألوا عن الذي كتب لها الرسالة ليقطعوا يده.

شنودة : هذا غير معقول.

البيضاء : غير معقول عندك. إنك لا تعرف مقام أمير المؤمنين وعقوبة التطاول عليه. خبرني هل تكتب بيدك اليسرى أيضاً؟

شنودة : لا.. بيدي اليمنى فقط.

البيضاء : فسينقطع عيشك يا بطل.

شنودة : (يدركه شيء من الخوف) لكن ما ذنبي أنا؟ الرسالة ليست مني.

البيضاء : أنت كتبتها بيدك.

شنودة : بالأجرة... هذا عملي الذي أعيش منه.

البيضاء : كان عليك أن تنصحها وتبصّرها بما ينبغي وما لا ينبغي فهي جاهلة حمقاء وأنت لبيب تعقل وتفهم.

شنودة : على كل حال ما كتبت اسمي على الرسالة فلن يعلموا أني أنا الذي كتبت.

البيضاء : وأين أنت مني؟ لأدلنهم عليك.

شنودة : حنانك يا فرتونة... لا تفعلي أحسن الله إليك... علام تريدين أن تخربي بيتي؟ هل أسأت يوماً إليك؟

البيضاء : لولاك ما استطاعت هذه السوداء أن تستطيل علي، وتتنفج أمام الناس بأنها تراسل أمير المؤمنين، وأن رسالتها قد حملها بريد أمير المؤمنين إلى دمشق!

شنودة : لو لم أكتب لها لوجدت من يكتب لها غيري.

البيضاء : كلا، ما كانت لتجد أحمق سواك يعينها على ارتكاب هذه الجريمة.

شنودة : لكن الكاتب بالأجرة غير مسؤول عما في الرسائل التي يكتبها للناس.

البيضاء : ما شاء الله! أئذا أمليت عليك هجاء في أمير المؤمنين فكتبته لي وأرسلته في بريده لا يعاقبك أمير المؤمنين، بل يأمر لك بجائزة سنية تبعث إليك؟

شنودة : لكن الذي كتبته لها ليس هجاء في أمير المؤمنين.

البيضاء : لا فرق بينه وبين الهجاء. والله لو أن فرتونة السوداء راسلتني أنا لعددت ذلك إهانة لقدري!

شنودة : يقولون عن عمر بن عبد العزيز هذا: إنه عادل رحيم.

البيضاء : نعم، ولكن هل جزاء العادل الرحيم أن يُنتهك مقامه ويُتطاول عليه؟ أليس للملوك مقام عندكم؟

شنودة : (ينظر أمامه) وي! هذا شرطي قد أقبل في الزقاق!

البيضاء : ألم أقل لك؟ وهذه بغلة أحد الأمراء فيما أظن.

شنودة : رحماك يا فرتونة! استري عليّ ستر الله عليك. سأكتب لك رسائلك بغير أجر.

البيضاء : إذن فادخل البيت لئلا يروك! (يتوارى شنودة خلف الباب).

(يظهر الأمير أيوب بن شرحبيل في طرف الفناء).

أيوب : السلام عليكم يا أهل الدار!

البيضاء : وعليك السلام.

أيوب : أهذا منزل فرتونة مولاة ذي أصبح؟

البيضاء : نعم يا سيدي.

(يظهر الشرطي بجوار الأمير).

أيوب : (للشرطي) هلاّ لزمت البغلة أن تندّ؟

الشرطي : قد ربطتها يا سيدي الأمير.

أيوب : (للمرأة) أنت فرتونة مولاة ذي أصبح؟

البيضاء : (متلعثمة) نعم يا سيدي... لا، لا... يا سيدي الأمير!

أيوب : ويحك ألست أنت التي كتبت إلى أمير المؤمنين ليصلح لك حائطك؟

البيضاء : حاشا يا سيدي أن أفعل ذلك. أنا أرتكب مثل هذا الجرم؟

أيوب : (يضحك متعجباً) لا تراعي يا جارية، إنما جئنا لإصلاح حائطك بأمر أمير المؤمنين.

البيضاء : (تتلعثم) معذرة يا سيدي الأمير... لقد توهمت... لقد ظننت...

أيوب : ماذا توهمت؟

البيضاء : توهمت أن الرسالة قد أغضبت أمير المؤمنين وأنك...

أيوب : كلا، بل أمرني أمير المؤمنين أن أركب بنفسي إليك لأقضي حاجتك.

شنودة : (يظهر من خلف الباب) كلا، لا تصدقها يا سيدي الأمير. هذه ليست صاحبة الرسالة. أنا الذي كتبت تلك الرسالة إلى أمير المؤمنين بخطي.

أيوب : (متعجباً) ويحك! من تكون؟

شنودة : أنا شنودة الفيومي أكتب للناس بالأجرة.

أيوب : أو لم تكتب الرسالة لهذه الجارية؟

شنودة : لا يا سيدي بل لفرتونة السوداء.

أيوب : مولاة ذي أصبح؟

شنودة : نعم، مولاة ذي أصبح كذلك.

أيوب : فأين هي؟

شنودة : سأدعوها لك الساعة (ينطلق خارجاً).

الشرطي : ويلك أتكذبين على عامل أمير المؤمنين؟ (تجهش فرتونة باكية).

أيوب : دعها... دعها يا عمرو.

البيضاء : (في خجل وخوف) سامحني يا سيدي الأمير.

أيوب : إن صدقتني القول سامحتك. ماذا حملك على ما صنعت؟

البيضاء : ظننت في أول الأمر أنكم جئتم لمعاقبة فرتونة السوداء لتطاولها بالكتابة إلى أمير المؤمنين، فلما علمت

أنكم جئتم لإصلاح حائطها طمعت يا سيدي أن تصلحوا لي حائطي أنا أيضاً، فإنه قصير يتسوره اللصوص فيسرقون منه الدجاج.

أيوب : واسمك أيضاً فرتونة؟

البيضاء : نعم يا سيدي الأمير. يدعونني فرتونة البيضاء ويدعونها فرتونة السوداء.

(تدخل فرتونة السوداء ومعها شنودة).

شنودة : هذه هي يا سيدي الأمير، هذه صاحبة الرسالة.

السوداء : (تنقل طرفها في وجوه الحاضرين كأنها ما زالت في شك من الأمر...).

أيوب : (يخرج الرسالة) هذا جواب أمير المؤمنين لك يا فرتونة.

السوداء : (تتمتم) جواب أمير المؤمنين!

أيوب : نعم هل تحبين أن يتلوه كاتبك هذا عليك؟

السوداء : نعم يا سيدي الأمير.

شنودة : (يفض الرسالة فيقرأ) بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح. بلغني كتابك وما ذكرت من قِصَر حائطك، وأنه يُدخل عليك منه فيُسرق دجاجك، فقد كتبت لك كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل آمره أن يبني لك ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين، إن شاء الله، والسلام.

السوداء : (تطلق زغردة عالية ثم طفقت تدور حول فرتونة

البيضاء وهي ترقص وتترنم): من أمير المؤمنين جاءتني التحية، فاقتلي نفسك من غيظك يا روميّة!

الشرطي : مه يا هذه! إن الأمير ما جاء ليشهد رقصك!

أيوب : أجل، حسبك يا فرتونة!

البيضاء : (تجد متنفسا) قل لها يا سيدي الأمير! إنها لا تعرف مقام أحد!

السوداء : (تدق الأرض بقدميها وتضرب كفا بكف وتصيح في لهجة شامتة):

اقتلي نفسك من غيظك يا رومية!

من أمير المؤمنين جاءتني التحية

أيوب : (بين الغضب والابتسام) حسبك يا فرتونة. لن يرضى صنيعك هذا أمير المؤمنين.

السوداء : معذرة يا سيدي! فقد غلبني الفرح لكتاب أمير المؤمنين فلم أملك نفسي.

أيوب : (ملاطفا) هل عندك دجاج كثير؟

السوداء : الحمد لله يا سيدي، عندي الكثير الطيب. أتحب أن أريك؟ تعال انظر من هذه الكوة!

أيوب : (يتقدم إلى الكوة فينظر) ما شاء الله ما شاء الله.

السوداء : لو لم يسرق اللصوص منه لكان عندي أكثر.

أيوب : غداً نبعث إليك من يصلح لك هذا الحائط ويرفعه فلا يتسوره أحد.

البيضاء : (تتقدم إلى أيوب في خجل) وحائطي هذا يا سيدي الأمير.. إنه قصير أيضاً كما ترى، أفلا تصلحه لي.. أصلح الله حالك؟

السوداء : (في حدّة) كلا يا سيدي الأمير لا تفعل. ليس من العدل أن تصلح لها حائطها على نفقتي!

أيوب : (ضاحكاً) بل على نفقة أمير المؤمنين.

السوداء : كلا، لن يرضى أمير المؤمنين ذلك. أنا التي دفعت أجرة الكاتب. سله فهو أمامك.

شنودة : أجل يا سيدي الأمير.

أيوب : كم دفعت له يا فرتونة؟

السوداء : درهمين.

أيوب : فليكن منك درهم ومنها هي درهم.

البيضاء : أحسنت يا سيدي وعدلت (تخرج درهما من بين ثيابها) خذي الدرهم.

السوداء : (تُعرض عنها) كلا ماذا أصنع أنا بدرهمها؟ والله لا أرضى أبداً أن تنال خيراً على يدي.

أيوب : ويحك إن لها عليك حق الجوار، وحق الولاء لسيد واحد... فهي أختك.

السوداء : أختي؟ كلا يا سيدي. هذه دائماً تعيرني بلوني، وتسخر مني وتتندر عليّ. سل عنها الجيران والجارات.

البيضاء : لا تصدقها يا سيدي الأمير إنها تكذب!

أيوب : (ينهرها) ويلك قد كذبت أمامي مرة، فلا تحاولي أن تكذبي مرة ثانية. توبي إلى ربك يا جارية، واعلمي أن الناس سواسية كأسنان المشط،لا يفضل أحد أحداً بلونه أو ماله أو نسبه، وإنما الفضل بالتقوى. ويلك ألم تسمعي قول الله عز وجل: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾ الحجرات: ١١

البيضاء : (تبكي) قد تبت يا سيدي الأمير. لن أفتح فمي بما يؤذيها أبداً.

أيوب : راضيها... فإني لن أبني لك حائطك إلا إذا رضيت عنك.

البيضاء : (تدنو من صاحبتها فتقبل رأسها) سامحيني يا أختي. والله لا أسمعك ما تكرهين أبداً.

السوداء : والدِّيك، أتقصفين رقبته إن عاد إلى حائطك؟

البيضاء : كلا يا أختي... سأتركه يفعل ما يشاء.

أيوب : ما قصة الدّيك يا فرتونة؟

السوداء : عندي يا سيدي الأمير ديك أبيض دنيء النفس يترك الحب الوفير في حظيرته ويذهب إلى حظيرتها ينقمم!

البيضاء : أتسمع يا سيدي الأمير؟ إنها تشتمني وتعيرني

بلوني!

أيوب : ويلك يا فرتونة. أهكذا أنت؟

السوداء : توبة يا سيدي الأمير. لن أعود لمثلها أبداً (تقبل رأس صاحبتها) سامحيني يا أختي حقك عليّ. لا تعيريني ولا أعيرك. اتفقنا؟

البيضاء : اتفقنا!

السوداء : اشهد أنت يا شنودة.

أيوب : (يضحك) عليّ بالبغلة يا عمرو!

(ستار)

❁ ❁ ❁

---

٥) الحائط القصير: (عمر بن عبد العزيز يأمر بإعلاء حائط جارية سوداء في مصر) نشرت في صحيفة «المسلمون»، العدد (٩) السنة (٢).

الخاتم

(موكب الخليفة هارون الرشيد يسير وسط بغداد)

صوت : (يرتفع من خلال الموكب) يا أمير المؤمنين، يا أمير المؤمنين، عندي وديعة لك.

الرشيد : أفسحوا الطريق لهذا الرجل.

أصوات : أفسحوا الطريق... أفسحوا الطريق.

الصوت : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

الرشيد : وعليك السلام. ماذا وراءك؟

الصوت : عندي وديعة لك يا أمير المؤمنين.

الرشيد : وديعة؟

الصوت : أجل، هذا الخاتم يا أمير المؤمنين كُلِّفت أن أسلمه إليك.

الرشيد : (في صوت متهدج) ويلك من أين جئت بهذا الخاتم؟

الصوت : من صاحبه يا أمير المؤمنين.

الرشيد : تعرف صاحبه؟

الصوت : نعم يا أمير المؤمنين... هو الذي كلفني بإيصاله إليك.

الرشيد : (لرجاله) أركِبوا هذا الرجل معكم. وليمثُل أمامي في القصر.

أصوات : سمعاً يا أمير المؤمنين.

(الموكب يستأنف سيره)

❁ ❁ ❁

(في قصر الخليفة)

الرشيد : هلم، ادن مني يا رجل.

الرجل : لبيك يا أمير المؤمنين.

الرشيد : ما اسمك؟ ومن أين قدمت؟

الرجل : أنا عبد الله بن الفرج، قدمت من البصرة يا أمير المؤمنين.

الرشيد : تقول: إنك تعرف صاحب الخاتم؟

عبدالله : نعم، هو أحمد السبتي.

الرشيد : أحمد السبتي؟

عبدالله : نعم، هكذا يدعونه هناك.

الرشيد : أين؟

عبدالله : بالبصرة.

الرشيد : هو الآن بالبصرة؟

عبدالله : كان يا أمير المؤمنين بالبصرة.

الرشيد : وأين هو الآن؟

عبدالله : أطال الله بقاءك يا أمير المؤمنين. قد توفي إلى رحمة الله.

الرشيد : توفي؟

عبدالله : نعم، أعظم الله أجرك فيه يا أمير المؤمنين وأحسن عزاءك.

الرشيد : لكن صِفه لي أولاً يا ابن الفرج.

عبدالله : شاب يا أمير المؤمنين في حدود العشرين.. مديد القامة، عريض المنكبين، أقنى الأنف، أشهل العينين.

الرشيد : ويلك ما بالك تحد النظر إلي؟

عبدالله : معذرة يا أمير المؤمنين. لقد راعني شبهه الكبير بك، ولولا أنه خفيف اللحم لقلت: إنه صورة منك.

الرشيد : حسبك يا هذا... إنه هو. لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون. واها عليك يا أحمد. واها عليك إلى الأبد.

عبدالله : هو ابنك يا أمير المؤمنين.

الرشيد : نعم، هو أول مولود لي وأكرمه علي. ألم يخبرك هو بذلك يا عبدالله؟

عبدالله : لا يا أمير المؤمنين، لم يخبرني هو بذلك، وإنما أخبرتني الحاجة خديجة الحموية التي كان مقيماً عندها.

الرشيد : ومن تكون هذه الحاجة؟

عبدالله : هذه امرأة تقية صالحة قد انقطعت في منزلها للعبادة والنسك، وقد علمت أنه نشأ وتربى عندها منذ الصغر.

الرشيد : إنك لتعلم عنه الكثير... حدثني كل ما تعرف عنه. حدثني كيف عرفته؟

عبدالله : هل لك أن تعفيني يا أمير المؤمنين؟

الرشيد : فيم؟ ويلك!

عبدالله : أستحيي يا أمير المؤمنين أن أقص عليك ذلك.

الرشيد : بل ارو لي قصته يا عبدالله، فإن ذلك يهمني.

عبدالله : هل تصدق يا أمير المؤمنين أنه كان بنــاء جــصاصاً يعمل في منازل الناس بالأجرة؟

الرشيد : (في أسى) ويحه! حدّث يا عبد الله: كيف عرفته؟

عبدالله : احتجت يوماً يا أمير المؤمنين إلى رجل يرم لي شــيئاً في الدار، فخرجت إلى ساحة البنــائين والجــصاصين فوجدت شابا مصفر الوجه يحمل أدواته في زنبيل كبير فأقبلت إليه سائلا:

❁ ❁ ❁

عبدالله : أنت جصاص؟

أحمد : نعم.

عبدالله : بكم تعمل عندي اليوم؟

أحمد : بثلاثة دراهم.

عبدالله : هذا كثير. خذ لك درهمين.

أحمد : التمس غيري أحسن الله إليك.

عبدالله : إني أراك ضعيف الجسم.

أحمد : سترى عملي فيعجبك إن شاء الله.

عبدالله : هلم معي.

أحمد : على شريطة.

عبدالله : ما هي.

أحمد : إذا كان وقت الظهر وأذن المؤذن خرجت وصليت في المسجد جماعة ثم رجعت، وكذلك أفعل في العصر.

عبدالله : لكن.
أحمد : لا تخف، لن يشغلني حق الله عن حقك.
عبدالله : قد قبلت شرطك فهلم معي.

❁ ❁ ❁

عبدالله : وانقضى النهار يا أمير المؤمنين فوجدته قد عمل ما يعدل عمل رجلين، فأردت أن أزيده في الأجر، فأبى إلا أن يأخذ ما اشترط، فوالله يا أمير المؤمنين لقد عجبت من أمره.
الرشيد : ثم ماذا يا عبدالله؟
عبدالله : فصرت ألتمسه يا أمير المؤمنين كلما عنَّت لي حاجة. ودللت أصحابي عليه ليعمل عندهم فيحمدونه إليّ ويُثنون على عمله، إلى أن جاءني ذات يوم ليعمل عندي وكان ذلك في شهر رمضان فأنكرت ضعفه وشحوب وجهه.

❁ ❁ ❁

عبدالله : أراك اليوم تعباً يا أحمد، فانصرف الساعة يا بني.
أحمد : كلا يا سيدي، ليس بي شيء وإنما هذا من أثر الصيام.
عبدالله : بل تنصرف يا بني.
أحمد : إذا كنت لا ترغب في عملي فسأعمل عند غيرك، فإني بحاجة إلى الأجر.
عبدالله : كلا، لا تعمل اليوم ألبتة، وسأعطيك أجرك كاملاً.
أحمد : قد علمت يا سيدي أنني لا أقبل الصدقة.

❁ ❁ ❁

عبدالله : فتركته يعمل يا أمير المؤمنين، فلما كان الظهر تفقدته فوجدته جالساً يتفصد عرقاً وترتعش أوصاله.

عبدالله : ألم أقل لك يا بني ألا تعمل اليوم؟

أحمد : هل لك يا سيدي أن تصنع معروفا؟

عبدالله : نعم.

أحمد : احملني إلى منزلي بدرب الحسن البصري عند الحاجة خديجة الحموية، فإني أخشى أن أموت قبل أن أراها.

عبدالله : فحملته على دابة وسقتها حتى بلغت به المنزل الذي يريد، فتحامل على نفسه حتى دخلنا المنزل. فاستقبلتنا الحاجة خديجة الحموية، فلما رأت ما به قادته إلى فراشه فأضجعته عليه.

الحاجة : ألم أقل لك يا بني ألا تعمل اليوم؟

أحمد : لا بأس يا أماه... لا أحب أن ألقى الله وأنا عاطل.

عبدالله : خذي يا سيدتي. هذا أجر ما عمل عندي اليوم.

أحمد : كم.

عبدالله : ثلاثة دراهم.

أحمد : كلا يا أماه! لا تأخذي منه غير درهم ونصف، أجر نصف يوم. جزاك الله خيراً يا عبد الله بن الفرج إذ أوصلتني إلى داري فهل لك في معروف آخر تصنعه لي؟

عبدالله : حبا وكرامة يا بني.

أحمد : جزاك الله خيراً... هذا رجل صالح أمين يا أماه وقد رأيت أن أعهد إليه بوصيتي إذا أذنت.

الحاجة : افعل يا بني.

أحمد : أين الخاتم يا أماه؟

الحاجة : ها هو ذا يا بني.

أحمد : ادن مني يا عبد الله بن الفرج. إذا أنا مت فخذ هذا الخاتم معك إلى بغداد واجتهد أن تُسلِّمه للخليفة هارون الرشيد.

عبدالله : هارون الرشيد؟

أحمد : نعم، أيشق عليك ذلك؟

عبدالله : لا، ولكن كيف لي بالوصول إليه؟

أحمد : انظر يوم يركب الخليفة فقف له في موضع يراك، فأره الخاتم، فإنه سيدعوك ويكرمك، فإذا خلوت به فقل له: يقرئك صاحب الخاتم السلام، ويقول لك...

الرشيد : ويقول لك ماذا؟

عبدالله : أعفني يا أمير المؤمنين.

الرشيد : بل تقول..

عبدالله : ويقول لك: ويحك لا تموتن على سكرتك هذه، فإنك إذا مت على سكرتك هذه ندمت وطال ندمك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

❁ ❁ ❁

زبيدة : يحزنني يا أمير المؤمنين أن تحزن كل هذا الحزن لموت ولدك.

الرشيد : دعيني يا زبيدة.. فوالله لو بكيته طول الأبد ما قضيت

حق الحزن عليه. لقد كان يعمل جصاصا بالدرهم والدرهمين، وعبيدي في القصر يأكلون اللحم والحلوى.

زبيدة : هو الذي اختار لنفسه تلك العيشة، فما ذنبك أنت؟

الرشيد : وددت لو استمعت لنصحه يوم قدم علينا في القصر.

زبيدة : أراد منك أن تسير سيرة عمر بن عبدالعزيز، فهل كان ذلك في إمكانك؟

الرشيد : كان علي أن أسايره وأتلطف معه، ولكني أغريت به رجال القصر فامتنعوا عن الحديث معه، ومنعوا الناس من الاتصال به، حتى ضاق بذلك ذرعا فهرب من القصر واختفى.

زبيدة : ما صنعت غير ما اقتضته مصلحتك ومصلحة الدولة، أفكنت تاركه يقيم النكير عليك في العلانية ويثير الناس عليك؟

الرشيد : بل كنت أنت تحرضينني عليه خشية أن أجعل له ولاية العهد مكان ابنك.

زبيدة : يا أمير المؤمنين، هل كنت ترى ناسكاً متشدداً مثله يصلح لولاية العهد؟ إذن لجعل أول همه القضاء على ملك آل العباس، ولثار به بنو أبيك فقتلوه.

الرشيد : إني راحل غدا إلى البصرة لأزور القبر الذي ضم رفاته وأترحم عليه.

زبيدة : افعل يا أمير المؤمنين، لعل ذلك يخفف عنك ما بك.

الرشيد : ولأزور أمه كذلك.

زبيدة : أمه؟ ألم يخبرنا هو أنها قد ماتت؟

الرشيد : اطمئني يا زبيدة، فإن الأم التي أنجبته والتي كنت تغارين منها قد ماتت، وإنما أعني تلك المرأة العجوز الصالحة التي ربته وتبنته.

زبيدة : بل تريد أن تلقاها فتعرف منها قصة أم أحمد حبيبة قلبك.

الرشيد : الله منكن! تغار إحداكن من الضرة حتى بعد أن يواريها التراب.

زبيدة : هذه ليست كالضرائر الأُخَر يا هارون... إنك لم تمل حبها ولا الحنين إليها قط.

الرشيد : (يتنهد تنهيدة خافتة) آه.

❁ ❁ ❁

(هارون الرشيد وعبد الله بن الفرج في مقبرة البصرة)

الرشيد : أين قبره يا عبدالله بن الفرج؟

عبدالله : من هنا يا أمير المؤمنين... في مقابر عبد الله بن مالك.

الرشيد : صه. لا تدعني هكذا... لا أريد أحداً أن يعرف من أنا.

عبدالله : معذرة يا..

الرشيد : هارون.

عبدالله : معذرة يا هارون فقد سهوت.

الرشيد : لا عليك. دُلَّني الآن على قبره. انظر... إن يصدقني قلبي فذاك قبره.

عبدالله : أجل هذا قبره، وهذا قبر والدته.

الرشيد : (يخنقه البكاء، يجلس عند القبر ويستغفر لابنه أحمد، ولزوجته أم أحمد، ويترحم عليهما، ثم ينطلقان إلى منزل الحاجة خديجة الحموية)

❁ ❁ ❁

عبدالله : لقد بكيتَ كثيراً على القبر.

الرشيد : هذا خير لي يا ابن الفرج. لا أريد أن يغلبني الجزع في حضرة الحاجة خديجة الحموية... أين منزلها؟ ألم يزل بعيداً؟

عبدالله : لا، قد اقتربنا منه. هذا درب الحسن البصري.

الرشيد : ويح أحمد ابني! كان يدرج في هذا الحي.

❁ ❁ ❁

(منزل خديجة الحموية، أثاث متواضع جدا...)

الحاجة : مرحباً بك، ادخل يا عبدالله بن الفرج. حمداً لله على السلامة. هل بلّغت وصية ابني؟

عبدالله : نعم.

الحاجة : جزاك الله خيراً.

عبدالله : جئتك يا سيدتي بضيف معي. بوالد أحمد السبتي.

الحاجة : مرحباً بك وبضيفك. مرحباً بك يا أمير المؤمنين. هل قدمت لزيارة قبر ابنك؟

الرشيد : نعم يا سيدتي وقد زرته مع عبدالله بن الفرج.

الحاجة : وزرت القبر الذي بجانبه؟

الرشيد : نعم زرت قبر أمينة رحمها الله.

الحاجة : رحمة الله عليهما. لقد كانا خير أم وخير ولد. لقد زهدا في الدنيا وابتغيا الدار الآخرة، والدار الآخرة خير وأبقى.

الرشيد : الآن علمت يا سيدتي من أين اقتبس أحمد زهده وتقواه.

الحاجة : من والدته أمينة يا أمير المؤمنين. فقد كانت ناسكة زاهدة.

الرشيد : لعل لك يا سيدتي الحاجة أن تحدثيني كيف عرفت أمينة وكيف اتصلت أسبابها بأسبابك.

الحاجة : حباً وكرامة يا أمير المؤمنين، فإن حديث أمينة لحبيب إلى نفسي، وإن سيرتها لمِن أجمل سير المؤمنات الصالحات. كان ذلك يا أمير المؤمنين منذ خمس وعشرين سنة. طُرق بابي ذات ليلة ففتحته فإذا فتاة رائعة الجمال وعلى وجهها آثار الحزن.

❁ ❁ ❁

أمينة : أأنت الحاجة خديجة الحموية؟

الحاجة : نعم، ادخلي يا بنيتي... ادخلي. (يسمع غلق الباب)

الحاجة : من تكونين وماذا تريدين؟

أمينة : أنا يا سيدتي امرأة هاربة من الدنيا وفي بطني جنين يريد أن يخرج إلى الدنيا، فهل لك أن تؤويني عندك أقوم بخدمتك وأتأسى بصلاحك حتى أضع مولودي؟

الحاجة : وأين أهلك يا بنيتي؟

أمينة : لم يعد لي أهل. كنت أعيش مع جدة لي فماتت.

الحاجة : هنا بالبصرة؟

أمينة : لا يا سيدتي في ضاحية من ضواحي بغداد.

الحاجة : إذن فأنت غريبة؟

أمينة : نعم.

الحاجة : ما اسمك يا بنيتي؟

أمينة : اسمي أمينة.

الحاجة : أنت يا أمينة على الرحب والسعة.

أمينة : جزاك الله خيراً يا سيدتي. سترين مني إن شاء الله ما يسرك.

❁ ❁ ❁

الحاجة : وهكذا يا أمير المؤمنين نزلت عندي ولم ألبث أن أحببتها لتقواها وصلاحها، واتخذتها بمنزلة ابنتي، ثم وضعت غلامها فسميناه أحمد، ولما أيفع عهدنا إلى أحد البنائين ليعلمه صناعة البناء وما كنت أعلم أنه ابن هارون الرشيد أمير المؤمنين.

الرشيد : كأنها لم تخبرك بقصتها كاملة؟

الحاجة : لا يا أمير المؤمنين، لم تخبرني في أول الأمر، ولم أشأ أن أسألها لئلا أحرجها فقد ظننت ـ أستغفر الله ـ أنها ألمت بذنب فأرادت أن تتوب فقلت لنفسي: هذا أفضل عمل عند الله وبقينا على ذلك إلى أن كان مرضها الذي ماتت فيه فدعتني أنا وأحمد فجلسنا حول فراشها.

❁ ❁ ❁

أمينة : لقد آن لي اليوم يا سيدتي أن أفضي إليك باسم والد أحمد، وأنت يا أحمد يجب أن تعرف اليوم من أبوك قبل أن أموت.

الحاجة : استريحي يا أمينة،لا تجهدي نفسك.

أمينة : لن تسمعي يا سيدتي إلا خيراً.

أحمد : لقد أخبرتني يا أماه أن اسم أبي هارون، وأنه تاجر من بغداد، وأنه ذهب في رحلة فلم يعد.

أمينة : أجل يا بني، اسمه هارون. وقد زعم لي حين تزوجني أنه تاجر من بغداد، ثم تبين لي بعد ذلك أنه ابن المهدي وأنه ولي الخلافة، فتلك هي الرحلة التي لم يعد منها إلي...

الحاجة : تعنين أنه هارون الرشيد أمير المؤمنين؟

أمينة : نعم، وهذا خاتمه الذي تركه عندي فاحفظيه عندك يا سيدتي حتى يبلغ أحمد مبلغ الرجال فإذا شاء أن يزور والده فليحمل إليه هذا الخاتم فإنه سيعرفه.

❊ ❊ ❊

الحاجة : وتوفيت أمينة يا أمير المؤمنين، وطفق أحمد يلح عليَّ أن آذن له ليرحل إليك، فكنت أستأنيهِ حتى يبلغ مبلغ الرجال إلى أن جاءني ذات يوم...

أحمد : دعيني يا أماه أرحل إلى أبي فإني اليوم رجل.

الحاجة : أخشى يا بني ألا تعود إلي.

أحمد : بل أعرف ماذا تخشين يا أماه إنك تخشين أن يفتتني ما عند أبي من الملك والدنيا فأنسى الله والدار الآخرة.

الحاجة : أجل يا بنى إني أخشى عليك ذلك.

أحمد : اطمئني يا أماه فإن ذلك لن يكون. إنما أريد أن أذهب إلى أبي لأعظه وأنصحه، لعل الله ينفعه بموعظتي فيكون كالخليفة العادل الزاهد عمر بن عبد العزيز.

❁ ❁ ❁

الحاجة : فلم يسعني يا أمير المؤمنين ألا أن آذن له فأعطيته الخاتم وزوّدته ببعض الزاد ورحل، ثم كان منه عندك ما كان.

الرشيد : أجل يا سيدتي، لقد أردت أن أجعل له ولاية العهد وأراد هو أن يحملني على أن أسير سيرة عمر بن عبد العزيز. أردت له الدنيا وأراد لي الآخرة، ولما لم يجد عندنا ما أحَب غادر القصر دون أن يودعني وأرسلت في طلبه فلم يُعثر له على أثر حتى جاء عبدالله بن الفرج بخبره.

الحاجة : عاد إلي حينئذٍ يا أمير المؤمنين وأخبرني بكل ما حدث.

الرشيد : ترى ماذا قال لك؟

الحاجة : قال لي والدموع في عينيه:

❁ ❁ ❁

أحمد : إن أبي يا أماه لم يسمع لوعظي، وإن رجال القصر كانوا جميعاً إلباً واحداً عليّ وليس فيهم من يرجو لله وقارا.

الحاجة : هوّن عليك يا بني... إن هذا الذي ابتغيته ليس بـــالأمر الهيِّن وقد أدّيت أنت ما عليك من النصيحة لأبيك.

أحمد : إني خائف عليه يا أماه من مــشهد يــوم عظــيم، ألا أستطيع يا أماه أن أصنع لأبي شــيئاً؟ ألا أســتطيع أن أنفعه بشيء؟

الحاجة : نعم، تتقي الله يا بنى، وتعمل صالحاً، وتدعو له.

❀ ❀ ❀

الرشيد : يا ويحه! لقد ظننت أنه ذهب حاقداً علي.

الحاجة : كلا يا أمير المؤمنين لقد كان يحبك حباً جمــاً... كــان يعمل نهاره ليتصدق بأجر ذلك على الفقراء والمساكين، فإذا كان الليل قام يتهجد ويتعبد ولا يكف لــسانه عــن الاستغفار لله حتى ضعف جسمه فأشفقت عليه من ذلك يا أمير المؤمنين.

❀ ❀ ❀

الحاجة : ويحك يا بني! قد ضعف جسمك، فانقطع عن العمل عند الناس، فعندي بحمد لله ما يكفيني لنفقتي ونفقتك.

أحمد : ويحك يا أماه! إن الصدقة خير العمل، وإن أفضل المال ما يكسبه المرء من عمل يده، فدعيني أتصدق بأفــضل المال، لعل الله يغفر لأبي أمير المؤمنين.

❀ ❀ ❀

الحاجة : لقد سألتني يا أمير المؤمنين، فهل لي أن أسألك؟

الرشيد : حبا وكرامة.

الحاجة : حدثني كيف تزوجت أمينة أم أحمد؟ وكيف تخليت عنها حتى لجأت إلي هنا بالبصرة، فقد علمت أنها كتمت هذا السر عني ولم أشأ أنا أن أحرجها بالسؤال.

الرشيد : أجل، سأحدثك يا سيدتي بما تحبين: كان ذلك في حياة المهدي أبي رحمة الله عليه، وكنت فتى في السابعة عشرة، وكنت مغرما بركوب الخيل.. فبينا أنا أتجول في إحدى ضواحي العاصمة إذ لمحتها أمام كوخها تحلب شاة لها فوقعت من نفسي واستسقيتها فسقتني، وأعجبني حياؤها وحديثها، وجعلت أتردد عليها كل عشية فلم أزدد إلا حبا لها، وإعجابا بجميل خلقها، فزعمت لها ولأهلها أني تاجر أتنقل في البلاد، وتزوجتها سراً من أبي لأنه كان قد سمَّى لي زبيدة بنت عمي. وصرت أختلف إليها، إلى أن تزوجت زبيدة ومات المهدي ووليت الخلافة من بعده، فشغلني ذلك عنها زمنا حتى اشتقت إلى لقائها، فسريت إليها متنكراً لأكشف لها حقيقة حالي وأدعوها إلى الإقامة في القصر.

❋ ❋ ❋

أمينة : ويحك يا حبيبي ماذا قَطَعَك عنا طوال هذه المدة؟

الرشيد : لن أنقطع عنك بعد اليوم يا أمينة، ستقيمين معي في قصري ببغداد.

أمينة : أوقد اشتريت لك قصراً ببغداد؟

الرشيد : ما اشتريته يا أمينة بل ورثته عن أبي.

أمينة : لا حول ولا قوة إلا بالله! أوقد توفي أبوك دون أن أعلم؟

الرشيد : بل سمعت بوفاته يا أمينة.

أمينة : لا والله يا حبيبي. من أين لي ذلك وأنا لا أعرفه. ولا أعلم إلا أن اسمه محمد بن عبد الله.

الرشيد : ما من أحد في البلاد إلا سمع بموته.

أمينة : ماذا تعني يا هارون؟

الرشيد : ألم تسمعي بوفاة المهدي أمير المؤمنين.

أمينة : بلى.

الرشيد : فهو أبي.

أمينة : أبوك؟

الرشيد : نعم، وأنا هارون الرشيد.

أمينة : (تنشج باكية)

الرشيد : ما بالك تبكين يا حبيبتي؟ ألا يسرك أن يكون زوجك أمير المؤمنين؟

أمينة : لا.

الرشيد : فيم يا أمينة؟

أمينة : قد فقدتك يا هارون فلم تعد لي.

الرشيد : ماذا تعنين؟

أمينة : أنت زوج زبيدة بنت جعفر.

الرشيد : وزوج أمينة قبل زبيدة.

أمينة : هيهات! هي ابنة عمك ومن نسبك وحسبك.

الرشيد : لكنك حبيبتي الأولى.

أمينة : هيهات يا هارون أن تصفو لي بعد اليوم.

الرشيد : لا حق لك يا أمينة أن تجحدي حبي لك.

أمينة : فأين تريد أن تنزلني؟

الرشيد : في القصر عندي.

أمينة : لتضار زبيدة بي؟

الرشيد : لا شأن لك بزبيدة، أنا أعرف كيف أرضيها.

أمينة : هيه! أدركت الساعة بعض نيتك.

الرشيد : ماذا تعنين؟

أمينة : أنشدك بالله يا هارون إلا ما أخبرتني فصَدَقتَني: هل تستطيع أن تجعل لي في قصرك نفس المنزلة التي لزبيدة ابنة عمك؟

الرشيد : ...؟

أمينة : ما بالك لا تجيب؟ أجب.

الرشيد : أما هذا فلا، ولكني سأنزلك...

أمينة : اسمع يا هارون. إني تزوجتك دون أن أعلم أنك ابن المهدي أمير المؤمنين، وإنما كنتُ أظنك من سواد الناس، ولو قد علمت أنك من بيت الخلافة ما تزوجتك، فسرحني الآن سراحا جميلا.

الرشيد : كلا، لن أسرحك فإني أحبك.

أمينة : فأبقني حيث أنا و زرني حين تشاء.

الرشيد : لا يا أمينة لم يعد ذلك في إمكاني اليوم.

أمينة : بل تخشى من زبيدة أن تعلم أن لك زوجة أخرى تختلف إليها.

الرشيد : ويلك! قد أكثرتِ من ذكر زبيدة.

أمينة : أو يغضبك أن أذكرها؟

الرشيد : لا غرو فهي ابنة عمي.

أمينة : فاهنأ بها إذن وطلقني.

الرشيد : كلا، لن أطلقك وسأبعث من يحملك حملاً إلى القصر.

أمينة : اذكر يا هارون أنني حرة ولست بأمة.

الرشيد : أنا أمير المؤمنين.

أمينة : وأنا لا أبالي.

❁ ❁ ❁

الحاجة : وأرسلت إليها يا أمير المؤمنين؟

الرشيد : كلا يا سيدتي. لقد ندمت على أني أغضبتها، فرجعت إليها بعد أيام لأسترضيها وأعاود إقناعها بقبول ما اقترحت فوجدت الكوخ خاليا... وأرسلت في البحث عنها فلم يقعوا لها على أثر.

الحاجة : وكنت تعلم أنها حامل؟

الرشيد : نعم، وكان ذلك مما ضاعف قلقي عليها وظلَّت حسرة في نفسي طوال هذه السنين.

الحاجة : يرحمها الله! كان حبها الشديد لك هو الذي دفعها إلى ما فعلت.

الرشيد : آه لو كنت أعلم أنها مقيمة عندك.

الحاجة : تلك مشيئة الله يا أمير المؤمنين... ليقضي أمراً كان مفعولا.

(ستار الختام)

❁ ❁ ❁

---

٦) الخاتم: (هارون الرشيد وولده الذي ترك قصره ولم يُعد) نشرت في كتاب: من فوق سبع سموات ضمن سبع مسرحيات لباكثير، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

الدعوة المستجابة

(في بيت الفضيل بن عياض، وعنده سفيان بن عيينة، يدخل عليهما عبد الله بن المبارك)

ابن المبارك :السلام عليكم يا ابن عياض.

الفضيل : وعليك السلام ورحمة الله. زيارة غير منتظرة. أهلاً بك يا ابن المبارك.

ابن مبارك : الحمد لله إذ وجدتك.

الفضيل : خيراً يا ابن المبارك إن شاء الله.

ابن المبارك : أنت هنا يا ابن عيينة؟ الحمد لله. لقد كنت أريد أن أمر على بيتك.

الفضيل : أدركه المطر في الطريق فألجأه إلى بيتي.

ابن عيينة : وحبسني فيه. أما أنت يا ابن المبارك فكأنك لم تبال بالمطر فرحت تتجول في الشوارع حتى ابتلت ثيابك!

الفضيل : ابن المبارك لا يفوته شيء يا ابن عيينة. هذا غيث الرحمة أنزله الله بعدما هلك الناس.

ابن عيينة : صدقت. كان ينبغي لنا أن نتعرض لهذا الغيث كما فعل ابن المبارك.

الفضيل : إني أراك ترتجف يا ابن المبارك. هل آتيك بثياب من عندي حتى تجف ثيابك؟

ابن المبارك : كلا، لا حاجة بي إلى ذلك. إني لا أشعر بأي برد.

الفضيل : لكنك ترتجف.

ابن المبارك : ليس من البرد أرتجف، بل من شيء آخر.

ابن عيينة : من أي شيء؟

ابن المبارك : من شيء عظيم يا أخويّ. رأيت اليوم أمراً عجباً لم أر مثله في حياتي قط!

الفضيل : خيرا يا ابن المبارك إن شاء الله. حدثنا ماذا رأيت؟

ابن المبارك : شهدتما صلاة الاستسقاء اليوم في المسجد الحرام؟

الفضيل : نعم كنا هناك أنا وسفيان والتمسناك فلم نرك.

ابن المبارك : وانصرفتما حين انصرف الناس؟

الفضيل : أجل.

ابن عيينة : ما انصرفنا إلا بعدما أجمعوا أن يعاودوا الاستسقاء من الغد.

ابن المبارك : فهل رأيتما أي أثر للمطر إذ ذاك؟

ابن عيينة : ولا قزعة سحاب.

ابن المبارك : فهل توقع أحد أن ينزل اليوم أي غيث؟

الفضيل : لا، ولكن رحمة الله قريب في كل حين.

ابن عيينة : وقد شاء الله أن يستجيب لهم بعدما انصرفوا من صلاتهم ودعائهم.

ابن المبارك : أجل، كنت أقول هذا الذي قلتماه الآن لو لم أشهد ما شهدت.

الاثنان : ماذا شهدت يا ابن المبارك؟ حدثنا بالله عليك.

ابن المبارك : واحسرتاه يا أخويّ!

ابن عيينة : ويحك علام تتحسّر؟

ابن المبارك : حريٌّ بكما أن تتحسرا مثلي.

الفضيل : هذا مقام الحمد يا ابن المبارك. حريّ بنا أن نحمد الله على ما أنعم.

ابن عيينة : ألم يثلج صدرك أن الله أغاث المسلمين؟

ابن المبارك : بلى يا ابن عيينة، ولكنا سُبقنا.

الفضيل : سُبقنا إلى ماذا يا ابن المبارك؟

ابن عيينة : أفصح.

ابن المبارك : سُبقنا إلى الله يا أخويّ.

ابن عيينة : إلى الله؟

ابن المبارك : أجل سَبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا.

الفضيل : بالله عليك يا أخي إلا ما أفصحت.

ابن عيينة : فكفيتنا هذه الحيرة.

ابن المبارك : كنت منصرفاً مع المنصرفين من الناس مما يلي باب بني شيبة إذ لمحت غلاماً أسود عليه قطعتا خيش قد اتزّر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه، فكأنما علقت به عيني فلم أستطع أن أصرفها عنه.

الفضيل : هات يا ابن المبارك أتمم.

ابن المبارك : رأيته ينسلّ من بين صفوف الناس ميمماً نحو الكعبة، فتبعته. لا أدري لماذا اتبعته؟ فوجدته يطوف مع الطائفين، فأخذت أطوف معهم وأنا أراه أمامي، ثم

انتقل إلى أحد الأروقة فانتبذ له مكاناً خفياً فوقف فيه وأخذ يرفع يديه كأنه يدعو الله، فقلت: لأعرفن سر هذا الغلام. فمشيت على أطراف أصابعي حتى وقفت خلفه دون أن يشعر بي فقد كان مستغرقاً في دعائه وابتهاله فسمعته يقول:

الغلام : (ميمون) إلهي ما كنت لأدعوك لولا رقة غلبتني على عبادك هؤلاء الذين خرجوا اليوم يستسقونك بألسنتهم وهم يحملون في قلوبهم ما من أجله منعتنا غيث السماء. اللهم إن اغترارهم بحلمك ورجاءهم في رحمتك قد أنسياهم الخوف من غضبك وعذابك... اللهم فاجعل ذلك لهم لا عليهم، يا واسع الرحمة يا غنيا عن العالمين.

يا إلهي، إني ما دعوتك لنفسي يوماً إلا استجبت لي فضلاً منك وكرماً، وهأنذا أدعوك اليوم لعبادك هؤلاء من أمة نبيك وحبيبك محمد -صلى الله عليه وسلم- فإن لم تستجب لي خشيت على نفسي الاغترار بأنك اصطفيتني وحدي عبدا لك من دونهم أجمعين. إلهي يا حليما ذا أناة، يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل: إن كنت تحبني كما أحبك فاسقهم الساعة... الساعة... الساعة...

ابن المبارك : فلم يزل يردد: الساعة الساعة...! حتى تجلت السماء بالغمام.

الفضـــيل : (هاتفاً) الله أكبر... الله أكبر. طوبى لذلك الغلام... طوبى لذلك الغلام!

ابن المبارك : ثم لمع البرق وجلجل الرعد، ثم انهمر الغيث شآبيب في كل مكان.

ابن عيينة : أجل كنا ساعتئذ في الطريق إلى بيوتنا.

الفضـــيل : ثم ماذا صنع الغلام يا ابن المبارك؟

ابن المبارك : جلس مكانه يسبح، فما ملكت دمعي فأخذت أبكـــي. فكأنما سمع نشيجي فالتفت فرآني فـــانتفض مـــذعوراً كأنما لسعته عقرب، ثم انطلق يعدو حتى خرج مـــن المسجد.

الفضـــيل : ويلك! أتركته يفلت منك؟

ابن المبارك : كلا، فقد نهضت خلفه وتبعته أينما سار، فكنت أخب إذا خب، وأتئد إذا اتأد، وأنا أجتهد طـــول الوقـــت ألا يشعر بمكاني فما زال يدخل بي في زقاق ويخرج بي من زقاق حتى انتهى إلى دار كبيرة فانسرب في بابها المفتوح، وهممت أن أدخل وراءه ولكنني لم أفعـــل إذ تبين لي أن تلك الدار هي دار التـــاجر الكبيـــر عبـــد المولى المدني، وقلت لنفسي: يكفينـــي أنـــي عرفـــت موضعه، وكررت راجعاً حتى جئت إليكما الساعة.

الفضـــيل : أحسنت إذ أتيتنا يا ابن المبارك فلا ينبغي لمثل هذا الخير أن يفوتنا.

ابن المبارك : قلت: أخبركما وأستشيركما في أمره.
ابن عيينة :أقلت: إنه غلام أسود؟
ابن المبارك : أجل، لكنه جميل الخلقة مديد القامة، ولولا الخيش الذي عليه لحسبته أميراً من أمراء الحبشة.
الفضيل : ويحك يا ابن المبارك! قم بنا نذهب إليه.
ابن المبارك : الآن؟
الفضيل : نعم! خير البر عاجله.
ابن المبارك : كلا يا ابن عياض، ليس هذا بالوقت الملائم، ولا يصح أن نذهب نحن الثلاثة إليه فنروّع الغلام ونطمع سيده فينا.
ابن عيينة : أجل هذا هو الرأي يا ابن عياض.
ابن المبارك : غدا سأذهب إلى دار المدني وأسأله عن غلامه هذا، فانتظراني هنا بعد صلاة العصر فإني أرجو ألا أعود إليكما إلا به.

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

(في دار الشيخ عبد المولى المدني)

المدني : من؟ عبد الله بن المبارك في دارنا مرحباً بك يا أبا عبد الرحمن، أهلاً وسهلاً.
ابن المبارك : إني جئت إليك اليوم يا عبد المولى في حاجة.
المدني : حاجتك مقضية يا أبا عبد الرحمن.

ابن المبارك : أحتاج إلى غلام أسود.

المـــدنـــي : عندي عدة منهم فاختر أيهم شئت.

ابن المبارك : دعني أراهم لأختار من بينهم.

المـــدنـــي : بل سأختار لك أفضلهم. (ينادي) ياقوت.. تعال يا ياقوت.

يـاقـــوت : لبيك يا مولاي.

المـــدنـــي : انظر.. هذا غلام جلد محمود العاقبة، أرضاه لك.

ابن المبارك : لكنه ليس بحاجتي.

المـــدنـــي : كأنك تريد غلاماً معيناً قد رأيته من قبل؟

ابن المبارك : نعم.

المـــدنـــي : صِفهُ لي.

ابن المبارك : مديد القامة، ليس بأفطس، عليه قطعتا خيش.

المـــدنـــي : هذا ميمون، أين رأيته يا أبا عبد الرحمن؟

ابن المبارك : في المسجد الحرام أمس.

المـــدنـــي : عند صلاة الاستسقاء؟

ابن المبارك : نعم.

المـــدنـــي : أجل، هذا غلام صالح لا يصلي إلا في المسجد الحرام، ولكن ماذا تصنع به؟ إنه لا يصلح لشيء.

ابن المبارك : لكني لا أريد غيره. ادعه لأراه حتى أتأكد أنه هو.

المـــدنـــي : (ينادي) ميمون.. تعال يا ميمون.

ميـــمـــون : لبيك يا مولاي (يدخل).

المـــدنـــي : هذا هو؟

ابن المبارك : (بصوت خافت) نعم هو بعينه، اصرفه الآن.

المـــدنـــي : اذهب الآن يا ميمون.

ابن المبارك : بكم تبيعه لي؟

المـــدنـــي : كلا، هذا لا سبيل إلى بيعه يا أبا عبد الرحمن.

ابن المبارك : ولم يا عبد المولى؟

المـــدنـــي : قد تبركت بموضعه من هذه الدار.

ابن المبارك : فدعني أيضاً أتبرك بموضعه من داري.

المـــدنـــي : إن كان فيه بركة حقاً فأنا أحوج إليها منك.

ابن المبارك : بل أنا والفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة أحوج إلى وجوده بيننا منك.

المـــدنـــي : تريدونه أنتم الثلاثة؟

ابن المبارك : نعم، الفضيل وسفيان أرسلاني إليك لأشتريه منك.

المـــدنـــي : إنكم من وجوه أهل العلم والصلاح في هذا البلد، فلا يصح لي أن أبيعه لكم حتى أخبركم بما فيه من عيب.

ابن المبارك : لا بأس. نحن لا نريد منه أية خدمة أو منفعة.

المـــدنـــي : بل عيب آخر يعنيكم أمره أكثر مما يعني غيركم.

ابن المبارك : ماذا تعني؟

المـــدنـــي : إنه على صلاحه هذا شهواني لا يؤتمن على الحُرم!

ابن المبارك : معاذ الله يا عبد المولى! لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لعلك إنما قلت ذلك لتصرفنا عنه.

المـــدنـــي : لا والله يا ابن المبارك! إن شئت دعوت لك الجارية

السوداء التي دأب حينا يراودها عن نفسها حتى شكته إليّ.

ابن المبارك : هذا كلام عظيم يا عبد المولى! لا يمكن أن أصدقه أبداً فيه. لابد أنها افترت عليه.

المدني : لكنه اعترف بذنبه لما كلمته، وطلب مني أن أسامحه.

ابن المبارك : لابد أن في الأمر سرّا يا عبد المولى. أما أنا فإني لا أصدق أبداً أن شيئاً كهذا يمكن أن يصدر منه.

المدني : قد ذكرت لك ما فيه من عيب، فإن كنت راغباً فيه بعد فُخذه مباركاً لك فيه.

ابن المبارك : جزاك الله خيرا، فكم تريد فيه؟

المدني : خذه بالثمن الذي اشتريته به، عشرين ديناراً.

ابن المبارك : قد قبلت.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(ابن المبارك وميمون وهما يمشيان في الطريق)

ابن المبارك : والله يا ميمون ما فرحت في حياتي قط فرحي بك اليوم.

ميمون : لا تعجل بالثناء يا مولاي حتى تبلوني.

ابن المبارك : لا تدعُني يا مولاي، فلست بمولاك وإنما أنا أخوك.

ميمون : يا سيدي إنك اشتريتني فأنت مولاي.

ابن المبارك : فادعني يا سيدي إن شئت.

ميمـــــون : يا سيدي عندي سؤال لك.

ابن المبارك : لبيك يا حبيبي، هات ما عندك.

ميمـــــون : إنك تحرجني يا سيدي. لا تقل لي: لبيـــك. فالعبـــد أولى أن يلبي سيده.

ابن المبارك : أنت أخي يا ميمون ولست بعبدي، فقـــل لـــي: مـــا سؤالك.

ميمـــــون : ما حملك على شرائي وأنا ضعيف البدن كما تـــرى لا أطيق الخدمة، وقد كان لك في غيري سعة؟

ابن المبارك : لا يراني الله أستخدمك أبداً يـــا ميمـــون، ولكنـــي سأشتري لك منزلاً وأزوجك وأخدمك أنا بنفسي.

ميمـــــون : (يبكي) لا حول ولا قوة إلا بالله! لا حول ولا قـــوة إلا بالله!

ابن المبارك : ويحك يا أخي ماذا يبكيك؟

ميمـــــون : أنت لم تفعل هذا إلا وقد عرفت ســـري؟ وإلا فَلِـــمَ اخترتني من بين أولئك الغلمان؟

ابن المبارك : ويحك ليس فيما عرفته عنك ما يدعوك إلى البكاء يا ميمون.

ميمـــــون : سألتك بالله إلا ما أخبرتني ماذا عرفت عني؟

ابن المبارك : عرفت أنك مجاب الدعوة.

ميمـــــون : سمعت دعائي أمس في المسجد الحرام؟

ابن المبارك : نعم.

ميمـــون : يغفر الله لك! ما كان لك أن تسترق السمع إلى مـا بيني وبين مولاي.

ابن المبارك : ويحك تلك نفحة مـن نفحـات الله فلـم تريـد أن تحرمنيها؟

ميمـــون : لعلك قد ظننت أن الله إنما أنزل الغيـث اسـتجابة لدعائي؟

ابن المبارك : إني ما ظننت ظناً، بل أيقنت.

ميمـــون : اسمع يا سيدي، إني أحسبك رجلاً صـالحاً، إن لله عز وجل خِيرة من خلقه لا يكشف شـأنهم إلا لمـن أحب من عباده، ولا يظهر عليهم إلا من قد ارتضى.

ابن المبارك : بشّرتني يا ميمون... بّشرك الله بالخير.

ميمـــون : إلى أين يا سيدي أنت ماض بي الآن؟

ابن المبارك : إلى منزل الفضيل بن عياض فهو يحب أن يراك.

ميمـــون : الفضيل بن عياض يحب أن يراني؟

ابن المبارك : وسفيان بن عيينة كذلك.

ميمـــون : أطلعتهما أنت على سري؟

ابن المبارك : بل أخبرتهما بسِّر الله فيك.

ميمـــون : سامحك الله! هل لك يا سيدي أن تدخل بنا المـسجد أولاّ فقد بقيت عليّ ركعتان من البارحة؟

ابن المبارك : إن الفضيل وسفيان ينتظراننا الآن فلو ذهبنا إليهما أولا، ثم توجهنا جميعاً إلى المسجد لصلاة المغرب؟

ميمـــون : لا يا سيدي، أمر الله لا يؤخر، وهي في المسجد أفضل.

ابن المبارك : ذلك الفرض يا ميمون، أما النفل ففي البيت أفضل.

ميمـــون : ومن قال لك: إنه نفل؟ إنه يا سيدي الفرض الذي لا فرض بعده.

ابن المبارك : لا فرض بعده؟ ماذا تعني يا ميمون؟

ميمـــون : أعني يا سيدي لا فرض يعلو عليه.

ابن المبارك : كما تشاء يا ميمون، هلم بنا إلى المسجد. تعال ندخل من باب الباعة فهو أقرب.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

(في المسجد الحرام)

ابن المبارك : انتهيت يا ميمون من ركعاتك؟

ميمـــون : الحمد لله.

ابن المبارك : ألا نقوم الآن إلى دار الفضيل فإنه ينتظرنا؟

ميمـــون : يا سيدي ينتظرني هنا أمر أكبر من لقاء الفضيل.

ابن المبارك : ويحك ماذا تعني؟

ميمـــون : هل لك أن تحتسب العشرين دينارا التي دفعتها ثمنا لي؟

ابن المبارك : تعني أنك تريد مني أن أعتقك؟

ميمـــــون : كلا يا سيدي، فسيعتقني الله عنك.

ابن المبارك : ويحك! إياك أن تعني...

ميمـــــون : الانصراف يا سيدي... الانصراف!

ابن المبارك : إلى أين؟

ميمـــــون : إلى الآخرة.

ابن المبارك : متى؟

ميمـــــون : الساعة.

ابن المبارك : كلا، لا تفعل يا ميمون. دعني أُسـر قلـيلا بـك، وأستمد من نورك، وأنل من بركتك.

ميمـــــون : لا مناص يا سيدي من ذلك، فما عدت أحتمل هـذه الحياة.

ابن المبارك : فيم يا ميمون؟

ميمـــــون : إنما كانت تطيب الحياة لي حيث كانت المعاملة بيني وبينه تعالى، فأما إذ اطلعت عليها أنـت وصـاحباك فسيطلع عليها غيركم، فلا حاجة لي في ذلك.

ابن المبارك : لكني أريد أن أنتفع منك بشيء قبل أن تنصرف إلى الآخرة.

ميمـــــون : ماذا تريد مني؟

ابن المبارك : أن تخبرني عن الطريق الذي سلكته إلى الله حتـى وصلت إلى ما وصلت إليه.

ميمـــون : وتسامحني في العشرين ديناراً وتحتسبها عند الله؟

ابن المبارك : لو احتسبت كل ما أملك لكان ذلك قليلاً في جنب هذا المطلب العظيم.

ميمـــون : فاستمع إذن إلى قصة حياتي فستجد فيها ما تريد: كان أبي من كبار تجار البصرة، تسرّى جارية له حبشية، فولدتني له ومنها أخذت سواد اللون.

ابن المبارك : كأنك كنت حرا في الأصل؟

ميمـــون : ومن أسرة ذات غنى وجاه.

ابن المبارك : فهل خطفك اللصوص وأنت صغير فاسترقوك وباعوك؟

ميمـــون : كلا، ما خطفني ولا استرقني ولا باعني أحد! ولكني خطفت نفسي وأنا شاب في العشرين واسترققت نفسي ثم بعت نفسي!

ابن المبارك : كيف يا ميمون؟

ميمـــون : غادرت البصرة دون أن يعلم أبي أو أحد من أهلي، ولحقت بمكة فاتفقت مع رجل من أهلها، فزعم أني عبد وباعني لعبد المولى المدني الذي اشتريتني منه.

ابن المبارك : وما حملك على ذلك ويحك؟

ميمـــون : الرغبة في الوصول إلى الله.

ابن المبارك : بأن جعلت نفسك عبدا وأنت حر؟

ميمـــون : أجل، لأقهر نفسي وأنيقها المذلة والهوان، ولا أعبأ بأي شيء في الدنيا، وأكون من الثلاثة الذي يدخلون

الجنة أول الناس كما جاء في الحديث الشريف الـذي رواه أبو هريرة.

ابن المبارك : الشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال.

ميمـــــون : أجل، سمعت هذا الحديث وأنا في البـصرة فقلـت لنفسي: لأكونن العبد المملوك الذي لا يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه.

ابن المبارك : أهذا كل ما هناك يا ميمون؟

ميمـــــون : كلا، كان هذا بداية الطريق وقد أتاح لي ألواناً من المتاعب والمشاق وصنوفاً من المحن كابدتها صـابرا محتسبا غير متبرم ولا متضجر، أحمد الله عليها كما يحمده غيري على النعمة والعافية. فالغلمان الذين عند سيدي كانوا يسخرون مـن حرصـي علـى صـلاة الجماعة في المسجد الحرام، ويحرضون السيد علـى منعي من ذلك حتى لا يتعطل عملي فيما يزعمون.

ابن المبارك : فهل استجاب لهم السيد؟

ميمون :نعم استجاب في أول الأمر فمنعني، لكنني لم أمتنع. فضربني بالسياط، فلم أُبال بالضرب حتى ضاق بـي ذرعا فتركني وقال لي: لا أطعمك بعد اليوم فاكـسب قوتك بنفسك. فصرت أعمل في فتل الشريط وأبيعـه فأكسب منه دانقا أو نصف دانق أو أقل أو أكثر فهـو

قوتي إن بعت وإلا طويت ذلك اليوم!.

ابن المبارك : لكني وجدته يحبك ويعزك ويتبرك بموضعك من داره.

ميمون : هذا بعد ما اتفقت معه على ألا أرْزأه شيئا، وبعدما استطعت أن أصلح من غلمانه!

ابن المبارك : وكيف استطعت أن تصلحهم وهم كانوا ضدك ؟

ميمون : بالصبر والتضحية وإنكار الذات واحتمال المكاره والصفح والمسامحة وطلاقة الوجه والبشاشة.

ابن المبارك : كان هذا شأنك مع غلمانه، فكيف كان شأنك مع جواريه؟

ميمون : لابد أن عبد المولي حدثك عن مراودتي لجاريته زيتونة؟

ابن المبارك : أجل فلم أستطع أن أصدق كلامه!

ميمون : كانت محنتي بتلك الجارية مفتاح الصلة بيني وبين الله! ذل لي بعدها كل صعب، وانكشف لي بعدها كل حجاب .

ابن المبارك : كيف يا ميمون ؟ حدثني إذن عن هذه المحنة بالتفصيل ولا تجمل.

❀ ❀ ❀

زيتونة : ها نحن أولاء وحدنا يا ميمون.. فماذا تنتظر؟

ميمون : كلا، لسنا وحدنا يا زيتونة.

زيتونة : أتخشى أن يدخل علينا أحد؟ هذه حجرتي وهي لي

خاصة ونحن في نصف الليل والجميع نيام يغطون.

ميمون : أنا أعني ذاك الذي لا ينام يا زيتونة.

زيتونة : الله عز وجل؟

ميمون : نعم.

زيتونة : هذا معنا في كل مكان ولا سبيل إلى الاستتار منه، فعليه أن يغفر لنا هذه المرة الواحدة .

ميمون : إني أخجل منه يا زيتونة، ولاسبيل إلى هذا الأمر مع الخجل.

زيتونة : ويلك علام الخجل؟ ألست رجلا؟ ألا تراني امرأة جميلة؟ انظر .

ميمون : استري نفسك يا زيتونة، واعلمي أني لن آتي الحرام أبدا ولو قطعتني شلوا شلوا .

زيتونة : لو كنت تريد الحلال لطلبتني من سيدي فزوجني لك.

ميمون :قلت لك مرارا يازيتونة: إني لا أستطيع أن أتزوج .

زيتونة : ويلك ياهذا! لقد أذللتني وأهنتني، فوالله لئن لم تستجب لي الآن لأقولن لسيدي: إنك راودتني عن نفسي .

ميمون : افعلي ما شئت يا زيتونة، يغفر الله لك!

❁ ❁ ❁

ميمون : أجل، هذا بعض ما وقع يا سيدي من زيتونة.

ابن المبارك : ولكن لماذا اعترفت على نفسك ولم تكذبها.

ميمون : لأصون سمعتها... عسى أن تهتدي في النهاية.

ابن المبارك : تصون سمعتها وتلوث سمعتك ؟

ميمون : أردت بذلك وجه الله يا سيدي، فكان مفتاح القرب منه والوصول إليه.

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

(في دار الفضيل)

الفضيل : ولم تراجعه يا ابن المبارك في ذلك ؟

ابن المبارك : استحييت أن أراجعه مرة أخرى بعد الوعد الذي قطعته له .

ابن عيينة : لو كنت مكانك يا ابن المبارك لرويت له حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنين أحدكم الموت، فإن كان لا بد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وأمتني إذا كان الموت خيرا لي".

ابن المبارك : ويحك يا سفيان بن عيينة! أو تظن هذا الذي كشف الله عنه الحجاب غافلا عن المعنى الذي في حديث رسول الله ؟

الفضيل : ثم ماذا فعل بعد ذلك يا ابن المبارك ؟

ابن المبارك : قام فصلى ركعتين خفيفتين كأنها صلاة الوداع ثم اضطجع على الأرض جاعلا وجهه إلى الكعبة وهو يقول:

إلهي كما كشفت اليوم سري للناس فاسترني بلقائك.

إلهي إن كنت تحبني فاقبضني إليك الساعة...الساعة...!

ابن المبارك : فدنوت منه وحركته فإذا هو قد مات .

الفضيل وابن عيينة: إنا لله وإنا إليه راجعون!

ستار

❁ ❁ ❁

---

٧) الدعوة المستجابة: (الفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك) نشرت في مجلة الأدب الإسلامي، العدد(١) ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

الـــرزق الحـــلال

ـــ١ــ

(في سوق مكة غير بعيد عن المسجد الحرام)

يقف رجل خراساني من الحجاج على دكة مرتفعة فينادي:

الخراساني : (ينادي بأعلى صوته) يا معاشر الحجاج. يا معاشر الحجاج. من وجد هِمياناً فيه ألف دينار فليرده عليّ أضعف الله له الثواب، ووقاه شر العذاب. يا معاشر الحجاج، يا وفد الله من الحاضر والباد.. ضاع مني هميان فيه ألف دينار هي أمانة عندي، فمن وجده فليرده إليّ أحسن الله له الجزاء، وأجزل له العطاء، ووقاه من البلاء، وكفاه شر الأعداء!.

شاب : (من السامعين) مسكين هذا الخراساني. ينادي كل يوم ولا من يرد عليه.

كهل : من ذا يرد عليه؟ لن يرد عليه أحد ولو نادى سنة كاملة.

شيخ : (أبو الغياث) ما يدريك يا ابن أخي. لعل الهميان وقع في يد رجل مؤمن يخاف الله فيرده لصاحبه.

الكهل : يا عم.. فيه ألف دينار!.

الشيخ : الأمين أمين ولو وجد مئة ألف دينار. والخائن خائن ولو وجد ربع دينار.

الشاب : انظروا إنه ذهب إلى ذلك الشاب.

الكهل : لعله قريبه أو ابن بلده.

الشيـــخ : كلا، هذا الشاب طالب علم مقيم هنا في مكة.

الشـــاب : تعرفه يا عم؟

الشيـــخ : نعم، هو جاري واسمه محمد بن جرير الطبري.

❁ ❁ ❁

ـ٢ـ

ابن جرير : يا أخا خراسان، اصبر قليلاً ولا تعجل.

الخراساني : هذا ثالث يوم أنادي فيه يا ابن جرير.

ابن جرير : إني لمحته اليوم يتطلع إليك من بعيد.

الخراساني : الشيخ أبا الغياب المكي؟

ابن جرير : نعم. رأيته كأنه يهم بالكلام ثم يعدل عنه.

الخراساني : لو كان أميناً صالحاً كما تزعم لتقدم وتكلم.

ابن جرير : يا سيدي، ألم أقل لك إنه يعاني محنة في بيته ويكابد ويجاهد؟

الخراساني : ربما تغلبه امرأته على أمره.

ابن جرير : كلا، إنه صلب في الحق، لا يلين، لو سمعته وهو ينهرها ويصرخ في وجهها لأيقنت أنه سيرد إليك هميانك.

الخراساني : سمعت أنت ذلك بأذنك؟

ابن جرير : نعم، لا يفصل بين بيتي وبيتهم غير جدار قصير فتأتيني أصواتهم واضحة.

❁ ❁ ❁

- ٣ -

الخراساني : (ينادي في السوق) يا معاشر الحجاج. أنا حاج من خراسان. ضاع لي هميان فيه ألف دينار وهي أمانة عندي، والهميان من قماش بخاري غليظ لونه أحمر فمن وجده فليرده إلي أحسن الله له الجزاء، وأجزل له العطاء ووقاه من البلاء وكفاه شر الأعداء.

أبو الغياث : يا خراساني، هل لي أن أشير عليك برأي لعله ينفعك؟

الخراساني : افعل أصلحك الله، فإني في حاجة إلى كل عون يتقدم به أي مسلم.

أبو الغياث : إني كما ترى شيخ كبير ولي أكثر من ثمانين سنة في هذا البلد الأمين، وكل سنة أشهد الحج وأخالط الحجاج، فاجتمعت عندي تجارب كثيرة من الحوادث التي تقع للحجاج كل عام، فإذا أشرت عليك برأي فإنما أدلك على خير طريق لاسترجاع ما ضاع منك.

الخراساني : إني مصغ إليك أيها الشيخ الكبير فهاتِ ما عندك.

أبو الغياث : إن بلدنا هذا فقير أهله، شديد حاله، أيامه معدودة ومواسمه منتظرة فلو جعلت لمن يجد هميانك شيئاً تبذله له حلالاً منك فيرده عليك.

الخراساني : كم ترى أجعل له؟

أبو الغياث : إن أردت رأيي فاجعل له عُشر ما في الهميان.

الخراساني : مائة دينار؟

أبو الغياث : نعم، ففي ذلك ترغيب له، ولا غبن فيه عليك.

الخراساني : كلا، إنه أمانة عندي، ولا أستطيع أن أفرط منها في شيء.

أبو الغياث : خير لصاحب الأمانة أن تؤديها له ناقصة من ألا تؤديها البتة.

الخراساني : كلا، لا أستطيع أن أفعل هذا، ولكني سأحيل غريمي على الله عز وجل.

أبو الغياث : أنت وشأنك، قد نصحتك.

الخراساني : جزاك الله خيراً على نصيحتك.

❊ ❊ ❊

ـ ٤ ـ

لبابة : هيه! مالي أراك منكسراً هكذا؟ كأنما تحمل هموم الدنيا كلها على ظهرك، ألم يرض الخراساني أن يعطي عشر العشر؟

أبو الغياث : لا يا لبابة، ما رضي؟

لبابة : آستكثر عليك عشر الدنانير؟

أبو الغياث : نعم.

لبابة : تستأهل الذي أصابك. لو سمعت نصيحتي من الأول لكفيت نفسك كل هذا العناء ولكان ألف الدينار كلها من حقك لا يشاركك فيها أحد، ولعشنا نحن ما بقي من حياتنا في نعمة الله وستره.

أبو الغياث : ويلك يا لبابة! أأحرق حشاشتي بالحرام بعد ست

وثمانين سنة نعيشها في الحلال؟

لبـــابـــة : أجل إنك لا تفكر إلا في نفسك وتنسى أن لك أربـــع بنات عوانس مرت عليهن الـــسنون دون أن يتقـــدم لخطبتهن أحد.

أبو الغياث : من قال لك: إنني أنساهن؟ والله لولاهن لمـــا ظللـــت أعمل سقاء أكسب الدرهم والدرهمين في اليوم وأنـــا في هذه السن. ولولا خشيتي عليهن من بعدي لسألت الله أن يميتني ويريحني من هذه الحياة.

لبـــابـــة : أنت الذي جنيت عليهن وعلى نفـــسك. إنهـــن لـــسن عوراً، ولا كسحاً، وإنهن لأجمل من كثيرات غيرهن، ولولا فقرهن الذي هو فقرك لتزوجن من دهر طويل.

أبو الغياث : يا لبابة، لا عار على المرء من فقره ما دام شـــريفاً عفيفاً، يخاف الله ويتقيه ويرجو ما عنده.

لبـــابـــة : وما فائدة عفتك وشرفك وتقواك؟ هل اســـتطاعت أن تجلب الخُطّاب لبناتك؟

أبو الغياث : سبحان الله! أعليّ أن أفقد عفتي وشرفي وتقواي من أجل أن أزوج بناتي؟

لبـــابـــة : لو كنت تحبهن حقاً لضحيت في سبيلهن بكل شـــيء كما يفعل الآباء الطيبون الصادقون.

أبو الغياث : ويلك يا هـــذه! إن كلامـــك هـــذا ليخيفنـــي ويثيـــر قشعريرتي، لكأن الشيطان هو الذي يتكلم من فمك.

لبـــابـــة : هذا جزائي إذ صبرت على الفقر معك منذ خمـسين سنة أن تشبهني بالشيطان!

أبو الغياث : أنا لم أقل: إنك تشبهين الشيطان، وإنمـا قلـت: إن كلامك يشبه كلام الشيطان.

لبـــابـــة : لأني أدافع عن بناتي وبناتك، وأطالب لهن بحقهن في الحياة؟

أبو الغياث : يشهد الله أني ما قصرت في حقهن قط، وأنت تعلمين ذلك لو تنصفين.

لبـــابة : يكفي إيثارك الفقر على الغنى تقصيراً فـي حقهـن وجناية عليهن.

أبو الغياث : ويحك! هل كان في وسعي أن أصنع لهن شيئاً فلـم أصنعه.

لبـــابة : نعم، وأقرب مثل لذلك هذا الهميان الـذي سـاقه الله إليك وفيه ألف دينار فأبيت إلا أن تدور هنا وهنـاك بحثاً عمن يزعم لك أنه صاحبه فيأخذه منك.

أبو الغياث : لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله!

❋ ❋ ❋

ـ ٥ ـ

الخراساني : يا معاشر الحجاج، أنا حاج من خراسان ضاع لي هميان فيه ألف دينار وهي أمانة عندي، والهميان من قماش بخاري غليظ لونه أحمر، فمن وجده منكم فليرده إلي أضعف الله له الثواب.

أبو الغياث : يا خراساني، يا أخي في الإسلام! ربما تقول لنفسك: ما لهذا الشيخ المكي يأتيني كل يوم لينصحني؟ أليس له من عمل يشغله غيري وغير الهميان الذي ضاع مني؟

الخراساني : كلا يا شيخ، إني لأشكر لك اهتمامك بي ونصيحتك لي، ولولا أن ذلك المال أمانة عندي لعملت بنصيحتك.

أبو الغياث : اسمع يا خراساني: هداك الله ورد عليك ضالتك. نصحتك أول أمس بأن تجعل لواجدها العشر، ثم أشرت عليك أمس بأن تجعل له عُشر العشر فلم تقبل، فاجعل له اليوم عشر عشر العشر؛ ديناراً واحدا لا غير! ربما تقول لي: لا يعقل أن دينارا واحداً يكفي لجعله ينزل عن ألف دينار، فأقول لك: لعله أن يكون سقّاء مسكيناً تخرقت قربته فانقطع عيشه، ولكنه مؤمن يخاف الله، ويحب الحلال، ويكره الحرام، فسيجد في الدينار ما يقضي حاجته، سيشتري

بنصف دينار قربة يستقي عليها بالأجرة، وبالنصف الآخر شاة يرتفق بها أهله، ويكون لهم فيها غذاء.

الخراساني : يا شيخ مكة، إنك تتحدث عنه كأنك تعرفه وترق لحاله.

أبو الغياث : أجل، لأني أعرف أهل مكة جميعاً على اختلاف مهنهم وأعمالهم وجلهم إن لم يكن كلهم يشكون ضيق الحال وقلة المال، وما ذكرت السقاء إلا لأضربه مثلاً للآخرين من أرباب المهن المختلفة.

الخراساني : أيها الشيخ المكي، لقد كدت تقنعني بقوة حجتك غير أن المال أمانة عندي، ولا أستطيع أن أفرط في أمانتي ولا في دينار واحد.

أبو الغياث : بدينار واحد تسترد أمانتك فتؤديها لصاحبها.

الخراساني : كلا، لا أفعل أبداً. أما غريمي فإني أحيله على الله عز وجل.

أبو الغياث : (ضائق الصدر) أوه يالك من بخيل شحيح!

الخراساني : ويحك لا تجذبني هكذا يا شيخ فقد آلمتني.

أبو الغياث : تعال معي لتأخذ هميانك.

الخراساني : أوجدته أنت يا شيخ؟

أبو الغياث : لا تسألني، تعال خذه، ودعني أنام الليل، وأرحني من محاسبتك.



- ٦ -

أبو الغياث : أهذا هو هميانك؟

الخراساني : نعم، هو بعينه. الحمد لله.

أبو الغياث : هل لك يا محمد بن جرير أن تعد الدنانير التي فيه؟

ابن جرير : حباً وكرامة يا أبا الغياث.

(يسمع رنين الدنانير الذهبية، بينما يستمر الحوار بين الرجلين).

أبو الغياث : مرحباً بك يا خراساني في بيتنا هذا الصغير. لا تؤاخذني إن كنت أثقلت عليك بالمساومة، فقد كنت أختبرك حتى أستيقن أنك حقاً صاحب الهميان.

الخراساني : كأنك ما كنت تريد العشر؟

أبو الغياث : ولا عشر العشر، ولا عشر عشر العشر!

الخراساني : أتسمع يا ابن جرير؟ هذا والله من أعجب ما مر بي!

أبو الغياث : أتدري كيف استيقنت أنك صاحبه؟

الخراساني : لما ذكرت لون الهميان ونوع قماشه؟

أبو الغياث : كلا، ما استيقنت تماماً إلا حين رفضت أن تتزل عن شيء من ألف الدينار ولا عن دينار واحد.

الخراساني : أحقاً يا شيخ مكة؟ وكيف ذلك؟

أبو الغياث : قلت لنفسي: لو كان مدعياً بغير حق لقبل النزول عن العشر، فكيف بعشر العشر، وعشر عشر العشر؟

الخراساني : سبحان الله! لقد ظننت أنك كرهتني وأبغضتني لتشددي وبخلي حتى بالدينار الواحد.

أبو الغياث : كلا، إن الله ما جعل في قلبي كراهية لأحد. لقد

علمني ذلك مولاي جعفر.

ابن جرير : ومن جعفر هذا يا أبا غياث؟

أبو الغياث : أجل، أنت طالب علم فيجب أن تعرف: أنا يا بني من موالي جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

<u>الخراساني</u>

<u>وابن جرير</u> : رضي الله عنهم أجمعين.

ابن جرير : أنت إذن هاشمي بالولاء؟

أبو الغياث : أجل، ولله الحمد على ما أنعم. هل عددت الدنانير؟

ابن جرير : نعم. ألف دينار بالتمام.

أبو الغياث : هل بقي لك عندنا شيء يا أخا خراسان.

الخراساني : لا يا سيدي، بل بقي لك عندي.

أبو الغياث : إني أحللتك من كل شيء، ولا أريد منك أي شيء.

الخراساني : كلا، إني لن أعطيك شيئاً من عندي يا أبا الغياث، ولكني سأنفذ وصية أبي إليك.

أبو الغياث : إلي أنا؟

الخراساني : نعم، أتحب أن تسمع القصة؟

أبو الغياث : هات.

الخراساني : دعاني أبي لما حضرته الوفاة، فقال لي: إني تركت لك ثلاثة آلاف دينار فأخرج ثلثها، فأعطه لأحق الناس عندك في مكة، وبع رحلي فاجعله نفقة لحجتك. ففعلت ما أوصاني، فأخرجت ألف دينار

وشددتها في هذا الهميان. وقد اتضح لي الآن بعد الاختبار الطويل أنك أحق الناس في مكة بوصية أبي.

أبو الغياث : يا خراساني، إن في هذا البلد الأمين لكثيرين ممن هم أفضل مني وأحق بوصية أبيك.

الخراساني : لكني ما اختبرت أحداً منهم، وإنما اختبرتك أنت. وإن أبي رحمه الله قد يسر الأمر عليّ فجعل لي حق البت في اختيار الأحق، والله يشهد إني ما آلوت جهداً في الاختبار وحسن الاختيار.

أبو الغياث : ما أحسبك اختبرتني في شيء، وإنما أنا الذي اختبرتك.

الخراساني : بلى، أنت اختبرتني، وأنا اختبرتك.

أبو الغياث : كيف؟

الخراساني : لما علمت أنك من أهل التقوى والصلاح أسقطت الهميان عمداً في طريقك لتلتقطه.

أبو الغياث : أسقطته عمداً في طريقي.

الخراساني : أجل.

أبو الغياث : وكنت ترقبني حين التقطته؟

الخراساني : نعم.

أبو الغياث : وكنت تعرف أين أقيم؟

الخراساني : نعم.

أبو الغياث : جاري هذا محمد بن جرير هو الذي أخبرك؟

الخراساني : نعم.

أبو الغياث : الآن فهمت كل شيء، فالحمد لله إذ نجحنا في اختبار الدنيا، ونسأل الله النجاح في اختبار الآخرة.

الخراساني : آمين.

أبو الغياث : ألا ترى يا خراساني أن من حقي الآن أن أفرق هذا المال على من أشاء؟

الخراساني : بلى، ذلك من حقك، والأفضل أن تفرقه على أهل بيتك.

أبو الغياث : صدقت. نحن تسعة في البيت. بناتي الأربع وأختاي وامرأتي وأمها وأنا تاسعهم والعاشر هو جاري، هذا الشاب الصالح محمد بن جرير. لكل واحد من العشرة مائة دينار.

ابن جرير : اعفني يا أبا الغياث، فأهل بيتك أولى.

أبو الغياث : أنت من أهل بيتي يا محمد، وهذه هدية من الله، والهدية لمن حضر.

(ستـــــار)

❁ ❁ ❁

٨) (اختبار الأمانة في أداء لقطة الحرم) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٤)

الشــاة والعجــين

ـ ٤ ـ

(في سجن بغداد)

أبو الليث : مالك بن دينار! أهلاً وسهلاً بك يا أبا يحيى... زيارة غير منتظرة.

مـــالك : منذ كم توليت هذا المنصب يا أبا الليث؟

أبو الليث : منذ تسعة شهور.

مـــالك : ما علمت بذلك إلا منذ أيام وإلا لجئت من قبل.

أبو الليث : أفلا زرتني في بيتي يا أبا يحيى فهو أفضل؟

مـــالك : أتراني أثقل عليك إذ أزورك في مكان عملك؟

أبو الليث : مكان عملي كما ترى في السجن فلن تشغلني فيه عن شيء بهيج. إني أعد فضلاً كبيراً منك أن تزورني هنا في هذا المكان الكئيب.

مـــالك : أنا لست من رأيك في ذلك.

أبو الليث : ماذا تعني؟

مـــالك : أنا أرى هذا المكان أبهج مكــان وأطرفــه، وأحفلــه بالعجائب، وأنفعه لطالب علم ومعرفة.

أبو الليث : ويحك يا أبا يحيى أتريد أن تطلب العلم حتــى فــي السجن؟

مـــــالك : إن فيه لعلماً كثيراً يا أبا الليث لمن ينظر ويتدبر.

أبو الليث : (في ضحك) لو سمعك طلاب العلم تقول هذا لتركوا حلقات الدرس في جامع المنصور، وفي دار الحكمة وتقاطروا إليَّ هنا، فما أدري ماذا كنت أصنع لهم أو أصنع بهم؟

مـــــالك : ما أظرفك يا أبا الليث وأملح دعابتك! هكذا أنت من قديم تحوّل كل شيء إلى مادة للفكاهة والتندر.

أبو الليث : فلعلهم أرادوا أن يعاقبوني على ذلك فبلوني بالإشراف على هؤلاء القتلة السفاحين واللصوص والمجرمين.

مـــــالك : لا، بل أحسنوا اختيارك يا أبا الليث لهذا المنصب!

أبو الليث : ويحك يا أبا يحيى، كنت أظنك تحبني وتريد لي الخير، فإذا أنت تكرهني وتفرح لي بالشر.

مـــــالك : لا، والله يا أبا الليث إني لأعني ما أقول. هذا عمل لا ينبغي أن يسند إلا إلى رجل مثلك يجمع بين دماثة الخلق، وسلامة الصدر، ورحابة القلب، وبشاشة الوجه.

أبو الليث : ويحك! إياك أن تكون أنت الذي دللتهم علي لتنكبني.

مـــــالك : لو استشاروني في هذا الأمر لفعلت.

أبو الليث : وأنت أكنت تقبل لو عرضوه عليك لتتولاه؟

مـــــالك : لولا عذري لكنت أقبل.

أبو الليث : وما عذرك؟

مـــالك : آليت على نفسي لا ألي عملاً للسلطان أبداً.

أبو الليث : أهذا عذر يا أبا يحيى؟ لو أن كل رجل يفعل مثلك لفسد أمر الناس، وضاعت بينهم الحقوق، وتعطلت مصالحهم، وكانوا فوضى.

مـــالك : هذا حق يا أبا الليث ولكن الناس لا يفعلون مثلي فجلهم حرصاء على أعمال السلطان فلا بأس عليهم مني إذا رفضت.

أبو الليث : أو تنصحني يا أبا يحيى أن أستعفي من هذا العمل؟

مـــالك : كلا، أنت عندك أهلك وعيالك فمن أين تعيشهم؟

أبو الليث : الله هو الرازق يا أبا يحيى.

مـــالك : فهذا الذي أنت فيه من رزق الله.

أبو الليث : أو لا تخشى على قلبي أن يقسو يا أبا يحيى من مخالطتي لهؤلاء القتلة والمجرمين من كل شكل ولون؟

مـــالك : انظر إليهم على أنهم مرضى في بيمارستانك فستشعر نحوهم بالرقة والعطف والرحمة، ولن يقسو قلبك أبداً.

أبو الليث : والعقوبات الشديدة الواجب تنفيذها عليهم... كيف آمر بها إذن؟

مـــالك : تذكّر كلما أمرت بعقاب أحد منهم الجريمة التي ارتكبها وما ينجم عنها من ضرر على الأبرياء من

جماعة المسلمين، فذلك أحرى أن يخفف عنك الأثـر الذي تخشاه.

أبو الليث : لكني أصبحت اليوم لا أخشى الرقة بقدر ما أخشى القسوة. لقد كنت لا أطيق رؤية العقوبة الشديدة في أول الأمر فأصبحت أراها اليوم كأنها لا شيء. أليس معنى ذلك أن قلبي قد رانت عليه القسوة؟

مـالك : كلا، هذه القسوة التي تجدها غير تلك القسوة التي تخشاها.

أبو الليث : وما يدريك أن هذه غير تلك؟

مـالك : لو كانت هذه تلك لما شعرت منها بخشية.

أبو الليث : جزاك الله خيراً، لقد أفضت على قلبي شيئاً من السكينة.

مـالك : وأموراً أخرى تجدها هنا قد تعينك في السلوك إلى ملك الملوك.

أبو الليث : ما عساها أن تكون؟

مـالك : السرائر تبلوها فترى ما يصطرع فيها من خير وشر، والأهواء تطالعها وهي تتبارى وتتسابق، والشهوات تلحظها وهي تتوهج وتتأجج، والنيات تستشفها وهي تتشكل وتتلون، ونزغات الشيطان وهي تتسلل إلى قلب المسلم، والتقوى وهي تناضل وتقاوم حتى يغرقها المد فتستسلم.

أبو الليث : لله ما أبدع وصفك!

مـــالك : إني لأغبطك يا أبا الليث على مقامك بين هؤلاء.

أبو الليث : إن كنت صادقاً فيما تقول فتـردد علينـا لتغـشاهم وتتصل بمن تشاء منهم عسى أن تعظهم وتنـصحهم فينفعهم الله بك.

مـــالك : أجل، إني أحب أن أفعل ذلك يا أبا الليث، وقد جئـت لمن ولي هذا الأمر قبلك، وعرضت عليه مثل هـذا فلم يقبل.

أبو الليث : أما أنا فإني أقبل، وأرحّب، وأضع كل شيء في هذا السجن تحت تصرفك تفعل فيه ما تشاء.

❊ ❊ ❊

ـ ٢ ـ

أبو الليث : هل بلغك يا أبا يحيى أن بعض الناس تساءلوا: ما بال مالك بن دينار يتردد على السجن؟

مـــالك : فماذا قلت لهم؟

أبو الليث : قلت لهم: إنه يعظ المسجونين وينصحهم. أفتدري ماذا قالوا؟

مـــالك : ماذا قالوا؟

أبو الليث : قالوا: هل أفلح في وعظ من في المساجد حتى يعـظ من في السجون؟

مـــالك : سامحهم الله لو كنا نراعي الناس ما استطعنا أن نعمل شيئاً.

أبو الليث : صدقت يا أبا يحيى إن الناس لا يرضيهم شيء. فدعهم ولا تبال بهم. خبّرني كيف حالك مع أصحابك هؤلاء أهل السجن؟

مـــالك : أحسب أنني استطعت الآن أن أكسب ودهم.

أبو الليث : أجل، إني أراهم يحبونك.

مـــالك : وأنا أحبهم كذلك.

أبو الليث : أما زلت تعالج صاحبنا أمين الخراج؟

مـــالك : أجل، إنه أعضل مشكلة فيهم يا أبا الليث، فهو يعمل الخير والشر في آن واحد، فلا تدري أتأمره أم تنهاه؟

أبو الليث : تريد أن تعودَه اليوم؟

مـــالك : نعم، وأريد أن أعود صاحب الشاة، وصاحب العجين.

أبو الليث : هل تحب أن أحضرهم إلى مكانك هنا أم تذهب إليهم؟

مـــالك : بل أذهبِ إليهم يا أبا الليث أفضل.

أبو الليث : وفقك الله يا أبا يحيى ونفع بك.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

مـــالك : كيف أنت اليوم يا أبا أحمد؟ لعلك بخير.

أبو أحمد : الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

مـــالك : لعل الذي تحسبه مكروها يا أبا أحمد أن يكون خيراً لك والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ

خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٦)

أبو أحمد : أنا لست مثلك يا أبا يحيى. أنت رجل زاهد عابد وأنا كنت أمين الخراج أعمل في خدمة السلطان.

مـــالك : يا أبا أحمد لو كنت أعلم أني خير منك عند الله عز وجل ما جئت هنا ألتمس الهداية والخير منك.

أبو أحمد : تلتمس الهداية مني؟

مـــالك : ومن غيرك من نزلاء هذا المكان.

أبو أحمد : أنت تعظنا وتنصحنا يا مالك بن دينار؛ فكيف تلتمس منا الهداية؟

مـــالك : إني حين أعظكم إنما أعظ نفسي، فإذا أعنتموني على أنفسكم ــ وأنتم فاعلون إن شاء الله ــ فقد أعنتموني على نفسي.

أبو أحمد : خبّرني يا ابن دينار كيف أعينك على نفسي؟

مـــالك : أن تصدقني في كل شيء ولا تكذبني في أي شيء.

أبو أحمد : لك عليّ ذلك يا ابن دينار.

مـــالك : إني سائلك فأجبني: كيف كنت ترى نفسك إذ كنت أميناً على الخراج؟ خادماً للسلطان أم خادماً للمسلمين؟

أبو أحمد : بل خادماً للسلطان فهو الذي ولاني.

مـــالك : ألم تكن تعلم أن الخراج للدولة، والدولة للمسلمين عامة؟

أبو أحمد : بلى.

مالك : ألم تكن تعلم أن للسلطان أملاكاً خاصة ؟

أبو أحمد : بلى .

مـــــالك : وأنه جعل عليها أمناء يديرونها ويدبرونها له؟

أبو أحمد : نعم.

مـــــالك : فهؤلاء هم خدم السلطان. أما أنت فقد كنت خادماً للمسلمين.

أبو أحمد : أجل يا أبا يحيى، هذا حق.

مـــــالك : كنت تختلس أموال الخراج وتزور في حساباتها وأنت تعدها ملكاً للسلطان لا للمسلمين؟

أبو أحمد : أجل يا أبا يحيى كل من يلي مثل هذا الأمر يفعل ما فعلت.

مـــــالك : أنت وحدك مناط حديثنا الآن فلا تتحدث عن غيرك.

أبو أحمد : سمعاً لك وطاعةً.

مـــــالك : أكنت تختلسها بعد لو استشعرت أنها أمانة عندك للمسلمين؟

أبو أحمد : ربما كنت أصيب قليلاً منها عند الحاجة ولكني ما كنت لأختلس منها كل ما اختلست.

مـــــالك : فالآن وقد أدركت إدراكاً تاماً أنها كانت أمانة عندك للمسلمين أفلا تردها عليهم؟

أبو أحمد : من أين وقد صودرت جميع أموالي وأملاكي؟

مـــالك : فمن أين إذن هذا الطعام الخاص الذي يأتيك من خارج السجن كل يوم ألوانا وأفانين؟
أبو أحمد : من إخوان لي كرام طيبين.
مـــالك : يرسلونه إليك من مالهم أم من مال لك عندهم؟
أبو أحمد : من مالهم.
مـــالك : اصدقني يا أبا أحمد.
أبو أحمد : وتحفظ سري؟
مـــالك : نعم.
أبو أحمد : من مال تركته عندهم.
مـــالك : فقد كنت تتوقع أن تصادر أموالك؟
أبو أحمد : أجل، ولولا ذلك يا أبا يحيى لمتُ اليوم من الجوع.
مـــالك : كأنك لا تريد أن ترد هذا المال؟
أبو أحمد : أتعني أن هذا الباقي لي؟
مـــالك : نعم.
أبو أحمد : إلى أين أرده؟ إلى دار الخراج؟
مـــالك : نعم.
أبو أحمد : ليأكله الأمين الجديد الذي حاك الدسائس، ودبر المكايد ضدي ولفّق التهم، ووشى بي عند السلطان فولاه مكاني، وألقى بي في قعر هذا السجن؟
مـــالك : أنت مسؤول عن نفسك. ليس لك أن تدخل الحرام في جوفك، ولكن ليس عليك ألا يدخل جوف غيرك.

أبو أحمد : كلا، والله لا أموت أنا جوعاً ليزداد العدو الذي نكبني في مالي وفي عملي وفي حريتي شبعاً على شبع.

مـــالك : لأن تموت من الجوع يا أبا أحمد خيرٌ لك ألف مرة من أن تعيش على الحرام.

أبو أحمد : وعشرات البيوت التي أنفق عليها من ذوي قرباي ومن غيرهم؟

مـــالك : تنفق عليها حتى الآن؟

أبو أحمد : نعم.

مـــالك : ومنذ متى؟

أبو أحمد : منذ امتلكت شيئاً من المال.

مـــالك : أكان الإنفاق على هؤلاء من الأسباب التي دفعتك إلى كسب المال الحرام؟

أبو أحمد : نعم، ما كنت لأبالي كم ذا أملك لولا حرصي على إعاشة هؤلاء.

مـــالك : كم جملة ما تنفقه عليهم؟

أبو أحمد : أكثر من ثلاثمائة دينار في الشهر.

مـــالك : وكيف كانوا يعيشون من قبلك؟

أبو أحمد : كان والدي رحمه الله ينفق على بعضهم.

مـــالك : والآخرون؟

أبو أحمد : لا أدري. ما سألتهم.

مـــالك : هل أوصاك أبوك بالإنفاق عليهم؟

أبو أحمد : نعم.

مـــالك : وترك لك مالاً واسعاً؟

أبو أحمد : لا، ما ترك لي شيئاً. فقد بدّد ثروته كلها في لعب القمار، ولكنه قال لي وهو يموت: يا بني إذا أغناك الله يوماً فأنفق على هؤلاء الذين كنت أنفق عليهم قبل أن يذهب مالي في القمار، وإياك من القمار!

مـــالك : وكيف جمع والدك ثروته؟

أبو أحمد : من التجارة فقد كان تاجراً كبيراً. انظر يا أبا يحيى هذا ابن عمي قد جاءني بالطعام. (يدخل ابن العم حاملاً ألواناً من الطعام ثم يبسطها أمام أبي أحمد في خوان).

أبو أحمد : بسم الله الرحمن الرحيم... هلم يا أبا يحيى كل معي.

مـــالك : كل أنت هنيئاً مريئاً.

أبو أحمد : وأنت... لابد أن تشاركني فيه، فهو كما ترى كثير، وسيفضل منه فيعطونه للمحتاجين.

مـــالك : أعفني يا أبا أحمد فإني لا آكل هذه الألوان المختلفة.

أبو أحمد : اقتصر منها على لون واحد.

مـــالك : إني أخاف يا أبا أحمد.

أبو أحمد : تخاف من ماذا؟

مـــالك : أخاف إن أكلت مثل هذا أن يوضع في رجلي مثل هذا الذي في رجلك.

أبو أحمد : سامحك الله يا أبا يحيى. إني أعرف ماذا يمنعك منه؟ إنك تعده من المال الحرام.

ابن العم : يا أبا يحيى، إن ابن عمي هذا رجل صالح، كثير البر، كثير الصدقة، لا يعيش لنفسه أكثر مما يعيش لغيره، وهو ينفق عليّ وعلى عيالي وعلى بيوت كثيرة من ذوي قربانا وغيرهم، ولا يقصده أحد في حاجة إلا قضاها له. سل عنه جيرانه في درب أبي حنيفة، وسل من شئت من معارفه يقصّوا عليك الكثير من مبراته وخيراته.

مـــالك : قد علمت بذلك يا...

ابن العم : بدر... اسمي بدر.

مـــالك : قد علمت بذلك يا بدر.

ابن العم : فإني أسألك بالله أن تدعو الله لأبي أحمد أن ينجيه مما هو فيه فأنت مجاب الدعوة ليس بينك وبين الله حجاب.

مـــالك : لا أستطيع أن أدعو الله له يا بدر.

أبو أحمد : فيم يا أبا يحيى؟ لقد بلغني أنك دعوت لكثير من المسجونين هنا فَلِمَ لا تدعو لي أسوة بهم؟

ابن العم : إن أبا أحمد أحقهم جميعاً بدعائك فإنه يقوت بيوتاً كثيرةً.

مـــالك : ما يمنعني من الدعاء لأبي أحمد إلا علمي بأن الله لن يستجيبه أبداً.

ابن العم : أيأساً من رحمة الله يا أبا يحيى؟

مـــــالك : كلا، لا يأس من رحمة الله، ولكن لله سنة في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. أيها الحرسي.

الحرسي : لبيك يا سيدي.

مـــــالك : أحضر إلى هنا صاحب الشاة، وصاحب العجين.

الحرسى : حالاً يا سيدي.

مـــــالك : هذان جاران أكلت شاة أحدها عجين الآخر فانتفخ بطنها فماتت، فاختصما وتشاجرا وتضاربا، فأصاب هذا عين هذا فأعماها، وأصاب هذا رأس هذا فشجه.

أبو أحمد : وما شأننا بهما الآن؟

مـــــالك : إن في قصتهما لمثلا يُضرب وبيانا وحكمة وعظة. إنهما محبوسان من أجل جناية كل منهما على الآخر. وقد عرفتهما وعرفاني فهما يعتقدان فيّ الخير والصلاح وأن دعوتي مجابة.

(يدخل الحرسي بصاحب الشاة والعجين، والأول مربوط العين، والثاني معصوب الرأس).

مـــــالك : مرحباً بالجارين العزيزين، وددت لو تصافيتما فصرتما أخوين.

أبو النعائم : بعد ما فقأ عيني وأعماها؟ كلا يا أبا يحيى، هذا لا يكون.

أبو علي : بعد ما شج رأسي؟ كلا، لن أصافيه أبداً.

مـــالك : إني كما تعلمان لا أملك لكما شيئاً غير الدعاء، فليسألني كل منكما أن أدعو له على صاحبه فيما أصاب شاته أو عجينه.

أبو النعائم : بوركت يا أبا يحيى هذا كل ما أريده منك.

أبو علي : لا أريد منك يا أبا يحيى غير هذا.

مـــالك : (يبتهل إلى الله) اللهم أنت العدل ذو العدل، وأنت المنتقم ذو الانتقام، أرنا عدلك وانتقامك فيمن أكل عجين أبي علي النجار وفيمن قتل شاة أبي النعائم. آمين.

أبو علي : الحمد لله. سترى يا هذا غداً ما يصيبك.

أبو النعائم : بل سترى أنت ما ينزل بساحتك.

مـــالك : أعدهما إلى مكانهما يا حرسي.

الحرسي : سمعاً وطاعةً.

مـــالك : أرأيت يا أبا أحمد؟ خبرني الآن لأي منهما يستجيب الله الدعوة على صاحبه؟ لصاحب الشاة أم لصاحب العجين؟

أبو أحمد : أنت أعلم يا أبا يحيى.

مـــالك : دعوتان متناقضتان تسقط إحداهما الأخرى، فلن يستجاب لا لهذا ولا لهذا!

أبو أحمد : لكن حالي يا أبا يحيى مختلف.

مـــالك : كلا، لا اختلاف. تريد مني أن أدعو الله لك وأنت مقيم على ما يمنع الدعوة أن تجاب، فهاتان دعوتان

متناقضتان تسقط إحداهما الأخرى.

أبو أحمد : إنما هنا دعوة واحدة يا أبا يحيى لا دعوتان.

مـــالك : كلا، بل دعوتان يا أبا أحمد. إحداهما بلسان مقالي والأخرى بلسان حالك.

أبو أحمد : ماذا علي أن أصنع لكي تستجاب الدعوة لي؟

مـــالك : أن تتوب إلى ربك فترد المال الذي عندك كله إلى حيث أخذته منه.

أبو أحمد : وإن جعت وجاعت البيوت التي أنفق عليها.

مـــالك : وإن... لا يقبل الله توبة تائب إذا اشترط.

أبو أحمد : وتدعو لي حينئذ يا أبا يحيى؟

مـــالك : أجل، سأدعو لك بخير الدنيا وخير الآخرة.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

(في بيت أبي أحمد بعد مرور بضع سنين..
مالك بن دينار وأبو الليث يأكلان معه على مائدته)

أبو أحمد : أتدري يا أبا يحيى ما أكبر سعادة عندي؟

مـــالك : قل يا أبا أحمد.

أبو أحمد : أن أراك اليوم تأكل الطعام على مائدتي.

مـــالك : هذا طعام حلال طيب يا أبا أحمد. أين أجد خيراً منه؟

أبو أحمد : وأن أرى أبا الليث يزورني معك اليوم في بيتي.

مـــالك : الحمد لله الذي جمعنا نحن الثلاثة على الخير.

أبو أحمد : ما أراكما تأكلان كما ينبغي. كل يا أبا يحيى.

مـــالك : إني أحب أن آخذ من كل لون بنصيب فدعني وشأني.

أبو أحمد : وأنت يا أبا الليث، ألا تأكل؟

أبو الليث : هذا طعام يدعو إلى نفسه بنفسه يا أبا أحمد، فلا حاجة إلى أن تدعونا إليه.

أبو أحمد : هنيئاً مريئاً... وبالصحة والعافية.

أبو الليث : أحقاً يا أبا أحمد أن السلطان عرض عليك أن تعود لمنصبك في دار الخراج بعد ما عزل العرقوبي غريمك ونكبه؟

أبو أحمد : نعم، ولكني لم أقبل فقد كانت التجارة خيراً لي وأربح وأسلم.

مـــالك : خبرني يا أبا أحمد: أأنت اليوم أوسع غنى وأكثر مالاً أم حين كنت أمينا على دار الخراج؟

أبو أحمد : بل اليوم يا أبا يحيى. إني اليوم أملك في الحلال ضعف ما كنت أملك في الحرام.

مـــالك : وصدقاتك؟

أبو أحمد : هي اليوم أكثر وأوسع بفضل الله. خبِّراني، هل تعلمان ماذا فعلت الأيام بصاحب الشاة وصاحب العجين؟

أبو الليث : أما زلت تذكرهما يا أبا أحمد ؟

أبو أحمد : إن لهما فضلاً علي لا أنساه مدى الدهر. لقد كانت

قصتهما مفتاح توبتي إلى الله.

مـــالك : بحسبك أن تعرف يا أبا أحمد أنهما ما خرجا من السجن إلا متصافيين.

أبو الليث : أجل، خرجا بفضل أبي يحيى أخوين حميمين.

أبو أحمد : ولا تعلم اليوم أين يقيمان؟

أبو الليث : لا يا أبا أحمد لقد انقطعت عني أخبارهما منذ وقت بعيد.

مـــالك : لعلك تتمنى يا أبا أحمد لو كانا معنا في مجلسنا هذا اليوم.

أبو أحمد : إي والله يا أبا يحيى! إذن لتم سرورنا بصاحب الشاة وصاحب العجين.

(ستـــــــار)

❁ ❁ ❁

---

٩) الشاة والعجين: (مالك بن دينار يعظ في سجن بغداد) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٨٩).

تمثيلية شعــرية:

الشــاعــروالــربيــع

ـ ١ ـ

(يرى الشاعر جالساً في مكتبه مطرقاً وقد وقف أمامه خادمه)

الخادم : يـــا ســـيدي هـــلاّ تنـــا مُ فقــد تغــوّرت النجــوم؟

الشاعر: عد يا غــلام إلــى الكــرى دعنـــي وشـــيبي والهمـــوم

الخـــادم: مـــاذا يـــؤرق ســـيدي أقـــصيدة تبغـــي الظهـــور؟

الشاعر: هيهات! مات الـشعر فـــي قلبـــي ولـــيس لـــه نـــشور

عد يا غــلام إلــى سـرير ك إننـــي بـــاق هنـــا

طِيبُ الكــرى حــقٌ لمثلـــ ــك لـيس مــن حقــي أنــا

الخادم: (يتثاءب)

الشاعر: مولاي طابت ليلتك فغــداً تروعـــك شـــيبتك

اهنأ بنومك يا غلام فتبيـــت مثلـــي لا تنـــام

(يخرج الخادم)

الشاعر: واها علـــى عهـــد الـــشباب مضى وخلّف لـــي المـــشيب!

أحســـست لا نـــومٌ ألـــذ بـــه ولا صـــحوٌ يطيـــب

(يصمت هنيهة ثم ينهض واقفاً وقد علا وجهه الدهش)

عجباً لقلبي ما يجـيش بـــه ســـبحانك اللهـــم يـــا ربـــي

إني أحـــس همـــيم جائـــشة كتـــدفُّق الينبـــوع فـــي قلبـــي
وحفيـــف أجنحــــة مـــصفقّة ورفيـــــف أوراق وأغـــــصان
ونثيـــث أكمـــام تفـــتح عـــن زهـــــر بأشــــكال وألــــوان
ونـــسيم أنفـــاس معطـــرة بالدفء تـــنعش كـــل مقـــرور
وطنين ألــوان الفــراش إذا طافـــت بمنـــضود ومنثـــور
وحسيس أصداء توسوس في سمعي بألحـــانٍ مـــن الحـــب
ســبحانك اللهـــم يـــا ربـــي ما هذه الأصداء فـــي قلبـــي

❀ ❀ ❀

ـ ٢ ـ

(يسمع صدى صوت كأنما يهبط من عل)

الصوت : الربيع.. الربيع.

(يتوجه الشاعر نحو الشرفة كالمأخوذ، ويقول:

الشاعر : عجباً! لكأني أسمع صوتاً يهبط من علياء السماء.

"الربيع... الربيع". تردده أجواز الفضاء.

الصوت : الربيع... الربيع. قد أهل الربيع.

الشاعر : آه أين شبابي ليلقى الربيع؟

الصوت : الربيع... الربيع.

الشاعر : آه أين الشباب؟

كيف ألقى الربيع بهذا الإهاب؟

الصوت : يا بَنِي الأرض هيا احتفوا بالربيع.

رحّبوا بالربيع   اهتفوا للربيع

الشاعر : آه واحسرتا! أين مني الصِّبا؟ قد تولى الصِّبا.
كيف ألقى الربيع؟ وكيف أقول له: مرحباً؟

(يرتد من الشرفة ثقيل الخطو مهموماً)

الصوت : الربيع... الربيع.

الشاعر : قد ذوى في لساني زهر الغزل.
منذ جفَّ بثغري معين القبل.

الصوت : الربيع... الربيع.

الشاعر : (ينطرح على مقعده):

الـــــشباب الهــــــوى   والـــــشباب الأمــــــل
فـــــإذا مــــــا انطـــــوى   كـــــل شــــيء رحـــــل

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(يظهر فجأة بحجرة الشاعر فتى جميل هو الربيع)

الشاعر : ويلتا! من أنت؟

الربيع : لا تخف... أنا أنت.

الشاعر : عجباً! حقاً أنت في صورتي إذ كنتُ صبياً.
لكنني من كبري قد بلغت اليوم عِتياً.

الربيع : كلا، لم تزل ــ إن وافقتني وأردت الحياة ــ فتيا.

الشاعر : من أنت؟

الربيع : أنا روح الحياة الربيع..

الشاعر : الربيع؟

الربيع : نعم، أوَ لَمْ تسمع اسمي يردده الملأ الأعلى للجميع؟

كنتَ أولَ من في الأرض أحسَّ بإقبالي

فعلام تقاعسُ عن أفراح استقبالي؟

ألأنك شيخ كبير؟

الشاعر : أجل أنا شيخ كبير.

الربيع : لا تيأس... إن الحياة بمن لا ييأس منها رؤوم

والشباب لمن لا يعرض عن آمال الشباب يدوم

انظر، سأُريك حبيبتي السمرا

كيف ألقي إليها آيتي الكبرى

الشاعر : من حبيبتك السمرا؟

الربيع : هذي الأرض الغبرا

ما تراها الساعة راقدة هامدة؟

قد ران عليها الشتاء فصيرّها جامدة

سأغازلها أمامك يا أستاذي الأجل.

الشاعر : (متعجباً) أستاذك تدعوني يا روح الحياة؟

الربيع : أجل.

الربيع : هل تلقيت إلا عنك فنون الهوى والغزل؟

أو لم تعلم أني لصنيعك أذكر؟

فبعينك أنظر

وبقلبك أشعر

وعلى أسلوبك أنظم أو أنثر
هيا يا سيدي اشهد آيتي الكبرى
كيف أحيي فاتنتي كرة أخرى
(ينطلق نحو الشرفة فيهبط إلى الأرض كالطائر)

❁ ❁ ❁

— ٤ —

(يتوجه الشاعر إلى الشرفة فيطل منها ليرى ما يصنع هذا الفتى الجميل)

ربيع :

سمراء يا سمراء قومي فالهوى يدعوك يا سمراء يا سمراء

(يظهر للشاعر شبح فتاة سمراء جميلة التكوين تقف أمام الفتى وهي تمسح عن عينيها النوم)

الأرض : من ذا يناديني؟

ربيع : محب كلُّه شوق إليك وكله بُرُحاء

الأرض : ماذا تريد؟

ربيع : أريد أن يتقاربا... روحي وروحك حيث يشفى الداء

الأرض : **مه يا خليع إليك عني، إنني عذراء من عبث الهوى عصماء**

الربيع : **عذراء مثلك أنجبتني من أبي ولمثل ذلك تؤمل العذراء**

الأرض : ويلك! ابتعد عني.

الربيع : حنانك.

الأرض : كُفَّ عن مسّي...

الربيع : كففت فهل لديك رضاء؟

نفسي فداؤك إنني بك مغرم فَتَنْتِه منك بتوله وحياء

الأرض : ويلك! إنني سوداء

الربيع : قرة عيني السوداء

الأرض : عد للسماء تجد بها ما تشتهي فيها حسان كالشموس وضاء

الربيع : من عندهن أتيت يا سمراء، ما فيهن مثلك هذه الغَلْوَاء

عندي لك الحُلل الحسان جعلتها مَهراً لوصلك أنت يا سمراء

واشوق عيني أن تراك لبستها ولها عليك تألق ورواء

الأرض : رفقاً بضعفي... إنني أخشاك يا هذا...

الربيع : بلغت الأمن يا حسناء

(يعانقها)

تخشين من هذا العناق وإنه صكّ الأمان...

(يقبلها).

وهذه الطغراء

الأرض : ما كنت أحسب أن ثغرك هكذا حلوٌ، وأنك للكُلُوم شفاء

الربيع : أجريت في دمي الحياة، أردتها فجرى الغداة بما أردت قضاء

الله خالقها وواهبها معا يقضي بها في الخلق حيث يشاء

الأرض : يا ويلتا من ذاك يرقب وصلنا أفما لديه مروءةٌ وحياء؟

الربيع : لا تعذليه فإنما هو شاعر فقد الشباب فطال منه بكاء

الأرض : ماذا يريد؟

الربيع : شهود بعثك للهوى من بعد ما غطى عليك شتاء

الأرض : فلننأ عن عينيه، إن الشر في عينيه، تَبٌّ وتَبّت الرقباء

الشاعر : (متمتماً)

شتمتني السوداء، آه لم تعد بيضاء تعشقني ولا سوداء

(يختفي الحبيبان).

أين اختفى؟ هذا الفتى وفتاته قد عز حتى النظرة العذراء

أترى الشباب يعود إن أملته وأردته أم أن ذاك هراء؟

❋ ❋ ❋

ـ ٥ ـ

الربيع : (يجري منطلقاً في الحقول والروابي وهو جذل نشوان)

قد بلغت المنى وقضيت الوطر

فليكن عرسنا بهجة للبشر

غردّي يا طيور وابسمي يا زهور

وانطلق يا نسيم بالعبير الشميم

وازدهي يا حقول بالحلى والحلل

واكتسي يا سهول بالنبات الخضل

واشـــــهدي يـــا ســـما فــي الثـــرى مـــوكبي
بـــــاركي الموســـــما بـــــالجنى الطيـــــب

❊ ❊ ❊

— ٦ —

(يرى الشاعر من شرفته جمعاً من الفتيان
قد خرجوا في الصباح الباكر)

الجميع : (يهتفون)

الربيـــع الربيـــع مرحبـــاً بـــالربيع

الـشاعر : خرج الناس يـسـ ـتقبلـون الربيـع

أفـــأبقى أنـــا واقفـــاً هـــا هنـــا؟

الجميع :

يا رفاق هلموا بنا للرُّبـى نقض حق الربيع وحق الـصِّبا

الشاعر : (متحسراً)

الـصِّبا... الـصبا أين منـي الـصبا؟

الجميع :

الربيـــع الربيـــع مرحبـــاً بـــالربيع

الشاعر : آه لا تتركـــوني وتمـــضوا بـــدوني

كنـــت يومـــاً فتـــى مـــثلكم فـــارحموني

اجمعـــوا مـــن فـضول صـــباكم قلـــيلاً قلـــيلاً

فـــاخلعوه علـــيّ لألـــبس ذاك الـــرداء الجمـــيلا

الجميع : (يبتعدون)

يـــــا رفـــاق هلمـــوا بنـــا للرُّبـــى

نقـــض حـــق الربيـــع وحـــق الـــصبا

(يرتد الشاعر مغموماً إلى داخل حجرته)

الشاعر :

آه لـــم يـــستجيبوا دعـــاء الـــشيخ وســـاروا

لا جناح علـــيهم، فثـــوب الـــصبا لا يعـــار

(يظهر له الربيع مرة أخرى)

الربيع :

مـــا قعـــودك يـــا أســـتاذي الأجـــلّ

أو لـــم تـــشهد الكـــون كيـــف احتفـــل

بانبعـــاث الـــصبا وانبثـــاق الأمـــل

فـــانهض يـــا رســـول الهـــوى والغـــزل

وأرد كـــل مـــا تـــشتهيه تنـــل

(يمضي لينصرف)

الشاعر : أمولٍّ أنت الآن؟

الربيع : أجل

الشاعر : أو تتركني وحدي؟

الربيع : لا تُبل

انظر آية الله (يختفي)

الشاعر : (ينطلق إلى الشرفة): عز وجل.

(يتأمل أمامه في نشوة)

الله أكبر الله أكبرْ هذا الثرى بالنبات أخضرُ
وتلك الزهر بين أحمرْ وأبيض ناصع وأصفرُ
والأرض في حسنها عروسُ بكل أبرادها تميسُ
والطير فوق الغصون تشدو والظبي بين الربوع يعدو

الله أكبر الله أكبر

هذا فؤادي الذي تبلّدْ بين الضلوع انتشى وعربدْ
وذا شبابي الذي تولى قد عاد، أهلاً به وسهلاً

الله أكبر الله أكبر

(يمر سرب من الفتيات وهن يتغنين)

الفتيات :

حيّين عيد الربيع حيّينه يا عذارى
في ظل واد بديع نقضي هناك النهارا

الشاعر : (منادياً):

مهلاً عذارى الحيّ عُجْنَ صبايا الحيّ

الفتيات : ما تبتغي يا عم؟

الشاعر : إني أخ لا عم

الفتيات : ما تبتغي منا؟

الشاعر : أبغـــي رضـــاكنّا نفـــسي فـــداكنّا
عـــذب هواكنّـــا سُـــؤل فتاكنّـــا

(يتضاحكن)

إحداهن :

هـــذا شـــيخ يتـــصابى أكلته الـسنون وشـــابا
وهو يزعم بعد شبابا

الشاعر :

بل عـــدت اليـــوم صـــبيا يا صبايا انظـــرن إليـــا
تبصرن غلاماً فتيا

ثانية : إنه والله لطيف

ثالثة : وخفيف الروح

رابعة : ظريف

الشاعر : وعفيف الخلق شريف

الأولى : ما هذا وجه عفيف... (يتضاحكن)

دعنـــا منـــه يـــا فتيـــات لا تُضيِعْن الوقت معـــه

الشاعر :

مهـــلاً بعـــدُ يـــا ظَبَيَـــات لم يزل في الوقت سعة

الأولى : الزهر يدعونا

الشاعر : الزهر أنتُنّا

الأولى : والسحر يحدونا

الشاعر : السحر فيكنّا

الأولى : هيا بنا نمضي.

الشاعر : مهلاً عذارى الحي

الأولى : ويلك ما تبغي؟

الشاعر : ما يشتهيه الحي

هـــل لـــي أن أمـــضي في صـــحبة الحـــسن؟
لعلنـــــي أقـــــضي حـــق الهـــوى منـــي
أنــــشد أشـــعاري لكـــن فـــي الـــوادي
والجـــدول الجـــاري يـــصغي لإنـــشادي

الفتيات : (جميعاً) أشاعر أنتا؟

الشاعر : لست سوى شاعر

الفتيات : هلم إن شئتا

الشاعر : تبارك القادر!

هـــذا شـــبابي عـــاد والـــشعر والحـــب
والوصـــل والميعـــاد والـــصدّ والعتـــب

(يخرج الشاعر إليهن فيمشي متهادياً بينهن وهو يترنم)

الشاعر :

هيـــا بنـــا هيـــا بنـــا هيـــا إلـــى الـــوادي

الفتيات : هيـــا بنـــا هيـــا

الشاعر :

نـــستقبل الـــدنيا فـــي حـــسنها البـــادي

الفتيات : هيـــا بنـــا هيـــا

الشاعر :

نلقـــى بـــه ريّـــا مـــن حـــر أكبـــاد

الفتيات : هيـــا بنـــا هيـــا

الشاعر :

مـــا أطيـــب اللقيـــا مـــن غيـــر ميعـــاد!

الفتيات : هيا بنا هيا

(ستـــــار)

❁ ❁ ❁

---

٣) الشاعر والربيع: (مسرحية شعرية) نشرت في مجلة الهلال،عدد أبريل ١٩٥١م، ومجلة الأدب الإسلامي، العدد(٥) السنة(٢) ١٤١٥هـ.

الفضيل بن عياض وهارون الرشيد

(في مكة المكرمة حيث حج هارون الرشيد ذات عام)

الفضل : أحسب يا أمير المؤمنين أنك لو ذهبت إلى الرقة بعد الحج فاستجممت بها شهراً أو شهرين فسيكون لهوائها الجميل ما يزيل هذه العلة من نفسك.

الرشيد : كلا يا فضل، لا أبرح هذا البلد الأمين حتى أجد شفائي فيه. انظر لي رجلا من علمائه وصلحائه لأسأله في أمري وليعظني وينصحني عسى أن أجد عنده شفاء نفسي.

الفضل : غدا يا أمير المؤمنين ننظر لك هذا الأمر.

الرشيد : غدا! لو أطيق الصبر إلى غد لما جئتك الليلة.

الفضل : تريد الآن يا أمير المؤمنين؟

الرشيد : نعم في الحال.

الفضل : لكنك ستروعه يا أمير المؤمنين إذا ما استدعيته في الليل.

الرشيد : كلا، لن نستدعيه سنمضي نحن إليه.

الفضل : أنفاجئه بالزيارة في مثل هذه الساعة.

الرشيد : ذلك أفضل لنا، لنرى ما يكون من أمرنا وأمره.

الفضل : كما تحب يا أمير المؤمنين. لكنني لا أعرف الليلة غير بيت واحد.

الرشيد : من هو ؟

الفضل : الفضيل بن عياض.

الرشيد : ففيه كفايتنا الليلة إن شاء الله، فامض بنا إليه.

الرشيد : هلم بنا.

❁ ❁ ❁

الفضل : (يقرع باب الفضيل بن عياض) يا فضيل بن عياض.

الفضيل : من الطارق؟

الفضل : أنت الفضيل بن عياض؟

الفضيل : نعم ماذا تريد؟

الفضل : أجب أمير المؤمنين؟

الفضيل : أمير المؤمنين؟ ما لي ولأمير المؤمنين؟

الرشيد : اقرع الباب عليه مرة أخرى يا ابن الربيع.

الفضل : كان ينبغي أن نرسل إليه الشرط يا أمير المؤمنين.

الرشيد : كلا يا ابن الربيع، لا ينبغي أن نفعل هذا مع أهل العلم.

الفضل : كما تشاء يا أمير المؤمنين (يقرع الباب قرعا شديدا) يا فضيل بن عياض.

الفضيل : أليس لك من عمل آخر في هذا الليل غير إزعاج المسلمين.

الفضل : قلت لك: أجب أمير المؤمنين.

الفضيل : وأنا قلت لك: مالي ولأمير المؤمنين؟

الفضل : هاهنا أمير المؤمنين قد جاء يزورك.

الفضيل : ليس هذا بالوقت الذي يتزاور فيه الناس.

الفضل : كأنك لا تصدق ما أقول، أنا الفضل بن الربيع وهذا أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى جانبي.

الفضيل : أنا مصدق بما تقول.

الفضل : مصدق ولا تنزل مسرعا فتستقبله؟
الفضيل : كنت أرجو أن يتفضل أمير المؤمنين فينصرف الآن ويزورني في وقت آخر بالنهار .
الفضل : إنه لن ينصرف حتى يلقاك.
الفضيل : إن للزيارة أدبا لا ينبغي أن تجهله يا فضل بن الربيع.
الفضل : إن جئتك يوما فارددني من بابك إن شئت، فلا طاعة لي عليك، ولكن هذا أمير المؤمنين.
الفضيل : أمير المؤمنين أحق أن يرعى أدب الزيارة منك ومن غيرك.
الفضل : أليس عليك له الطاعة؟
الفضيل : بلى، ولكن ليس للمؤمن أن يذل نفسه.
الفضيل : إنما يريد أمير المؤمنين أن يكرمك.
الفضيل : فما هكذا تكون الكرامة.
الرشيد : (هامسا) قل له: إني أريد أن أستمع إلى نصحه ووعظه.
الفضل : إن أمير المؤمنين يريد أن يستمع إلى نصحك ووعظك.
الفضيل : إن للموعظة أيضا أدبها ووقتها.
الرشيد : (هامسا) قل له: أريد أن أستفتيه في مسألة مهمة.
الفضل : إنه يريد أن يستفتيك في مسألة مهمة.
الرشيد : (هامسا) لا تحتمل التأجيل.
الفضل : لا تحتمل التأجيل.
الفضيل : انتظرا قليلا حتى أنزل لكما.

❁ ❁ ❁

(هارون الرشيد والفضل بن الربيع، وقد أخذا مجلسيهما في بيت الفضيل، فيبادره الفضل بالكلام)

الفضل : أمير المؤمنين يحب أن يكرم أهل العلم.

الرشيد : جئت لأسألك - يا شيخ - وأستشيرك.

الفضيل : هات يا أمير المؤمنين مسألتك.

الرشيد : خرجت الليلة إلى المسجد الحرام متنكرا في ثيابي هذه ودون أن يرافقني أحد، فصليت العشاء ثم طفت بالبيت ما شاء الله لي أن أطوف، فاعترتني حالة من الرقة، فبكيت ما شاء الله لي أن أبكي، وإذا رجل من عامة الناس دنا مني فوضع في يدي دينارا ثم انصرف. ولما جمعت شتات نفسي أردت أن أدركه لأعرف من هو فكأنما ابتلعته الأرض. ثم ظهر لي بعد قليل وحياني فإذا هو يعرف أني أمير المؤمنين. فقلت له: خذ دينارك، فأبى وقال: العائد في صدقته كالعائد في قيئه. قلت له: تصدق بها على فقير أومسكين. فقال لي: ليس في الناس من هو أفقر منك.

الفضيل : ثم ما ذا يا أمير المؤمنين؟

الرشيد : ولى الرجل عني واختفى في لمح البصر، مثل ذلك الرجل الخراساني الذي وضع في يدي دينارا ذات مرة واختفى، فصرت في حيرة من أمري، وأبغضت نفسي حتى هممت أن أهجر الخلافة وأهيم على وجهي وأفرّ إلى الله ربي حتى يأتيني أجلي. فما ذا ترى - يا فضيل- في أمري وأمر ذلك الرجل؟ وبم تشير علي في هذه المحنة التي نزلت بي فكادت تفقدني صوابي؟

الفضيل : يا أمير المؤمنين، على الخبير سقطت. إن هذا الرجل هو نفس ذلك الرجل الخراساني الذي وضع في يدك الدينار.

الرشيد : من أين عرفت يا ابن عياض؟

الفضيل : إني أعرفه يا أمير المؤمنين.

الرشيد : تعرفه؟

الفضيل : كما أعرف نفسي، إنه ابني.

الرشيد : ابنك؟

الفضيل : محبك يا أمير المؤمنين، إنه لا يقطع أمرا دون مشورتي.

الرشيد : فماذا أراد بما فعل الليلة، وما فعل من قبل؟

الفضيل : أراد أن يستثيرك يا أمير المؤمنين حتى تستجيب لما قد دعاك له من قبل لتجري على فقراء مكة ومساكينها ما يسد خلتهم. أتدري من أين جاء بذلك الدينار؟

الرشيد : من أين؟

الفضيل : جمعه من أولئك الفقراء والمساكين دراهم ودوانيق.

الرشيد : إذن فقد جعل فقراء مكة ومساكينها يتصدقون علي؟

الفضيل : أجل هذا أسلوبه الحكيم في الموعظة يا أمير المؤمنين، ولقد وعظني ذات يوم موعظة لم أسمع مثلها ولن أنساها ما حييت.

الرشيد : ماذا قال يا ابن عياض؟

الفضيل : رأيته ذات يوم يبكي، فسألته ما يبكيك يا بني؟ فقال لي:

يا أبت إني أخاف ألا تجمعنا القيامة.

الرشيد : (بصوت فيه رقة) الله! الله! أين علي بن الفضيل؟ فإني أحب أن أراه.

الفضيل : (ينادي) يا عليّ بن الفضيل، يا عليّ.

علي : (صوته من الداخل) لبيك يا أبي.

الفضيل : تعال سلم على أمير المؤمنين.

علي : (يدخل) السلام عليك يا أمير المؤمنين.

الرشيد : وعليك السلام يا خراساني. ويا صاحب الدينار.

علي : لعل أمير المؤمنين قد سمع حجتي فقبل عذري، ووهب لي سوء أدبي.

الرشيد : أجل – يا علي بن الفضيل– قد فعلت. وهذا دينارك معي سأحفظه تذكارا عندي لمن جمعته منهم من الفقراء المساكين.

علي : حياك الله يا أمير المؤمنين وجعلك ملاذا للفقراء المساكين.

الرشيد : يا فضل بن الربيع، مر بإحصائهم غدا لنجري عليهم ما يكفيهم.

الفضيل : وفقك الله يا أمير المؤمنين لكل خير. لقد جعلتني الآن أغبط عليا ابني على ما فعل.

الرشيد : أنت الذي أحسنت تربيته.

الفضيل : ما كنت أحسن تربيته لولا توفيق الله يا أمير المؤمنين.

الرشيد : عظني يا فضيل بن عياض.

الفضيل : أين يمينك يا أمير المؤمنين فإني لا أراها في الظلام.

الرشيد : هذه يميني.

الفضيل : يا لها من كف! ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله!

الرشيد : (ينشج باكيا حتى يسمع نشيجه) اللهم اغفر... اللهم اغفر.

الفضل : ويحك، ارفق بأمير المؤمنين يا ابن عياض، فلقد قتلته!

الفضيل : يا ابن أم الربيع، تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟

الرشيد : اسكت يا ابن الربيع. زدني - أيها الشيخ- زدني.

الفضيل : إياك يا أمير المؤمنين أن تمسي أو تصبح وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة.

الرشيد : زدني يا ابن عياض.

الفضيل : يا صاحب الوجه الجميل، إن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل.

الرشيد : (يبكي) حسبك يا ابن عياض... حسبك. اعلم أيها الشيخ الجليل أننا قد أثقلنا عليك فنرجوك أن تسامحنا.

الفضيل : سامحك الله يا أمير المؤمنين.

الرشيد : أيها الشيخ، هل من ديْن عليك؟

الفضيل : نعم يا أمير المؤمنين، كل امرئ منا عليه دين.

الرشيد : كم دينك؟

الفضيل : ديني كبير يا أمير المؤمنين.

الفضل : لا تخف. اذكر المبلغ مهما عظم فإنك بين يدي أمير المؤمنين.

الفضيل : أو تظن يا ابن الربيع أن أموال أمير المؤمنين تكفي لقضاء ديني؟

الفضل : يا سيدي الشيخ إن أمير المؤمنين يقول للسحابة في السماء: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.

الفضيل : إن أموال الدنيا كلها لا تكفي لقضائه يا ابن الربيع. إنه دين ربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أؤد إليه حجتي.

الرشيد : يابن عياض إنما أعني دَيْن العباد.

الفضيل : الحمد لله، ليس لأحد من العباد ديْن علي.

الرشيد : أيها الشيخ، هذه ألف دينار، خذها وأنفقها على عيالك، وتقوّ بها على طاعة الله.

الفضيل : سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بالمال؟ يا أمير المؤمنين لقد كان اجتماعنا الليلة في طاعة الله، فلنفترق الساعة قبل أن تشوبه أي شائبة.

الرشيد : يا ابن عياض، لي رجاء إليك قبل أن أنصرف من عندك.

الفضيل : ما هو يا أمير المؤمنين؟

الرشيد : إذا احتجت يوما إلى شيء فلا تلجأ إلى غيري، فأنا أولى بك.

الفضيل : يا أمير المؤمنين، أرجو أن يميتني الله قبل أن يحوجني إلى أحد من خلقه.

❁ ❁ ❁

أم علي : يا أبا علي، إنك ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال الذي عرضه عليك أمير المؤمنين.

الفضيل : يا أم علي، قد أغنانا الله عن مال أمير المؤمنين ومال غيره، وتلك نعمة ينبغي أن نشكر الله عليها ونسأله أن يديمها.

أم علي : يا أبا علي، كنا فرّجنا به ضيقنا ووسعنا به على عيالنا.

الفضيل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!. كيف أُقنع الناس وأنا لا أستطيع أن أقنع أهلي؟ يا أم العيال، إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر وضعف نحروه وأكلوا لحمه.



(خارج البيت)

الفضل : كيف تجد نفسك يا أمير المؤمنين؟

الرشيد : كيف أجد نفسي؟ لقد شفاني الله به - يابن الربيع- وأحياني، هذا سيد المسلمين.

- ستار -

❁ ❁ ❁

المشـــرك الأول

ـ ١ ـ

(حجرة في دار عمرو بن لحيّ بمكة، الحجرة بسيطة في بنائها غير أنها غنية بالرياش بصورة صارخة تدل على الوفرة والإسراف دون تنظيم ولا ترتيب، يُرى عمرو بن لحيّ جالساً على الأريكة يتكئ على وسائد الحرير وعليه حلة من الحرير الفاخر وقد طرزت أكمامها وأطرافها بخيوط الذهب وفوق رأسها عصابة من اللؤلؤ كأنها تاج وقد وقف أمامه حاجبه عامر)

عمرو : هل تذكر يا عامر كم نحرنا للحجيج في الموسم الماضي؟

عامر : نحرنا لهم خمسة آلاف رأس.

عمرو : وكم كسونا؟

عامر : كسونا ستة آلاف حلة.

عمرو : فلننحرن لهم هذا العام عشرة آلاف رأس، ولنكسون عشرة آلاف حلة.

عامر : إذن تُصفر الخزانة يا سيدي ولا يبقى فيها شيء.

عمرو : لا تخف... إن هبل معنا... كلما زدنا في الإنفاق زادنا هبل غنى. سوف تأتينا النذور من جميع قبائل العرب، انطلق يا عامر فأحص ما عندنا من الأنعام لنرى كم

يعوزنا بعد!

عامر : سمعاً يا سيدي "يهم بالخروج".

عمرو : وأذن لمن بقي بالباب من الزوّار.

عامر : سأفعل "يخرج"

(يدخل شيخ كبير، ورجل، وامرأة شابة وضيئة فيركعون جميعاً لعمرو ويلثمون فضل ردائه وأطراف حُلته).

عمرو : مرحبًا يا أحباء هُبل، ما حاجتكم؟ أنت أولاً يا شيخ العرب.

الشيخ : جئت أيها الصفيّ أستفتيك على فحل لي لم يمض عليه عندي غير خمس سنين.

عمرو : أو قد شهد فحلك هذا نتاج نتاجه.

الشيخ : نعم:

عمرو : فهو حام لا يركب ظهره ولا يمنع عن كلأ ولا مرعى.

الشيخ : فلمن هو يا عمرو.

عمرو : هو لله.

الشيخ : كلا، لا أريد أن أهديه لله بل لهُبل.

عمرو : ويلك يا شيخ! إذا أهديته لله فقد أهديته لهبل، وإذا أهديته لهبل فقد أهديته لله.

الشيخ : (يهتف فرحاً) أعلُ هُبَل. أعلُ هُبل (يخرج).

المرأة : وأنا أيها الصفي...

عمرو : (يغمز لها جفنه) انتظري أنت! هذا السيد أولاً، ما حاجتك؟

الكهل : جُزيت الخير أيها الصفي. إن امرأتي عليلة دنيفة، فادع لي هُبل أن يشفيها لي.

عمرو : إني أراك على يسار، فكم تنذر لهبل إذا شفاها لك؟

الكهل : عشرين ناقة.

عمرو : ألا تستطيع أن تضاعفها فتجعلها أربعين؟

الكهل : لا يا ابن لحيّ، إنها نصف ما أملك.

عمرو : أنت وما تسخو به نفسك، إذا كان الغد فسُقْ نذرك إلى حظيرة هبل فسيعُافي لك زوجتك.

الكهل : أحقاً يا ابن لحيّ؟

عمرو : نعم.

الكهل : (يهتف فرحاً) أعلُ هُبَل. أعلُ هُبل! (يخرج)

عمرو : (ينظر إلى المرأة نظرة غزلة) وأنت أيتها الحسناء... أية لبانة نفس ساقتك إليّ؟

المرأة : أنا عاقر يا عمرو، فماذا أنذر لهبل كي يهبني الولد؟

عمرو : أهدي له أنفس ما عندك.

المرأة : هذا السوار الذهب يا عمرو؟

عمرو : هلا خيراً منه؟

المرأة : والآلهة! ما أملك خيراً منه.

عمرو : بل تملكين ما يسبي اللب ويرضي القلب!

المرأة : ويلك يا ابن لحيّ، إنما جئنا نبغي رضوان هبل، لا رضوانك.

عمرو : ويلك يا خرقاء! هل تتالين رضوانه إلا برضواني؟
المرأة : يقضي لي حاجتي يا عمرو، يعطيني الولد؟
عمرو : نعم، نعم.
المرأة : فماذا عليّ أن أصنع؟
عمرو : إذا كانت الليلة القابلة فاطرقي دار الضيافة عند العتمة فستجدين ما تحبين، فاشكريني يومئذ واحمديني.
المرأة : كلا لن أحمد غير هُبل. أعلُ هُبَل.. أُعلُ هُبل!

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

"في بيت جابر بن سهل الخزاعي، حجرة متواضعة".

جابر : (يستقبل مسعود بن وائلة الجرهمي) مرحباً يا مسعود، متى قدمت من مكة؟
مسعود : الساعة يا جابر؟
جابر : أهلاً وسهلاً. كأنك آثرتني بالنزول عندي؟
مسعود : نعم.
جابر : بوركت من صديق كريم. لقد كنت والله حرياً أن تنزل عند صديقك الآخر الذي أصبح علماً في الناس. بل أصبح إلهاً يُعبد.
مسعود : عمرو بن لحيّ؟
جابر : أجل، فتجد عنده من التكرمة ما لا تجد عند فقير مثلي.
مسعود : كلا يا جابر، لا أنزل إلا عندك، وإن كان الغرض من قدومي من بادية قومي هو لقاء عمرو بن لحيّ.

جابر : لتدخل فيما دخل الناس من دينه؟

مسعود : معاذ الله يا جابر أن أشرك بربي وأنسلخ من دين إسماعيل وإبراهيم!.

جابر : غداً يا مسعود يمتد هذا الشرك إلى ديار قومك فيهدي لهم عمرو وثناً من أوثانه يعبدونه هناك.

مسعود : أجل هذا والله ما أخشاه. لا ينبغي لجرهم أن تكفر بدين إسماعيل.

جابر : ولا ينبغي لخزاعة يا مسعود. ولكنها فتنة ابتلانا الله بها على يد هذا الفاسق الفاجر.

مسعود : وكيف سكتّم أنتم على ذلك؟ كيف سكتّ أنت يا جابر يا شيخ خزاعة؟

جابر : لقد قاومته في أول الأمر وحاولت أن أثني الناس عنه، ولكني لم أفلح، فلقد همّوا أن يثبوا عليّ ويفتكوا بي، فسكتّ يا مسعود على مضض حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

مسعود : ليت شعري! كيف استطاع أن يصنع كل هذا الذي صنع؟

جابر : إن لذلك حديثاً يطول يا ابن واثلة.

مسعود : بالله عليك إلا ما حدثتني به.

جابر : أخشى أن تكذّب حديثي كما كذبه غيرك.

مسعود : ويحك يا جابر كيف يكون ذلك؟

جابر : لا تعجب فإني لأجد في نفسي أحياناً أن أرتاب في صواب ما اخترته لنفسي من الامتناع عن الدخول فيما دخل فيه الناس من حولي.

مسعود : معاذ الله يا ابن سهل، ومعاذ دينك وحجاك، هلم حدثني كيف بدأ هذا الذي أحدثه عمرو بن لحيّ؟

جابر : لعلك تذكر ما يُكنه عمرو لهانئ ابن عمه من الحسد والغيرة إذ كان هانئ وجيهاً في قومه لغناه وجاهه، وهو فقير.

مسعود : أجل أذكر بعض ذلك.

جابر : فآلى عمرو على نفسه ليرحلن في طلب الغنى ويعودن بالوفير العريض فليرتدين حلة من الدمقس يجر ذيله في البطحاء، فتتحدث عنها عواتك مكة في خدورها.

مسعود : فارتحل إلى الشام.

جابر : أجل، وانقطعت عنا أخباره بضع سنين، وكانت أختي سُعدى في عصمته كما تعلم فاستيأست من رجوعه فلحقت بي... فما راعنا ذات ليلة إلا أن طرق بابنا طارق، فإذا هو عمرو بن لحيّ فأخذ سُعدى معه إلى داره، وأصبح الصباح، وخرجت أنا لأزوره، فإذا المدينة كلها تتحدث عن إله هبط من السماء، واستقر في دار عمرو بن لحي.

مسعود : هذا الصنم هُبل.

جابر : أجل.

❋ ❋ ❋

ـ ٣ ـ

(ينتقل المشهد إلى بيت عمرو بن لحيّ في الماضي)

جابر : ما هذا الذي شاع في الناس يا سُعدى؟

سُعدى : (في شيء من الخوف) اجلس أولاً يا أخي.

جابر : خبريني ما هذا الذي أحدثه زوجك؟

سُعدى : إنه لم يحدث شيئاً يا جابر.

جابر : لم يحدث شيئاً؟

سُعدى : هذا إله هبط من السماء.

جابر : (ساخراً) واستقر في داركم؟

سُعدى : نعم، أنا رأيت ذلك بعيني رأسي.

جابر : (يستشيط غضباً ويهم أن ينقض عليها) كذبت يا كافرة! والله لأقتلنك.

سُعدى : (تهرب من وجهه) مهلاً يا أخي، ما ذنبي أنا؟ ها هو ذا عمرو زوجي فكلمه إن شئت؟

(يدخل عمرو فيبالغ في الترحيب بجابر)

عمرو : جابر هنا؟ أهلاً أهلاً بالأخ الماجِد الكريم، أسمعت يا جابر بالمعجزة التي هبطت في دارنا؟ في دار أختك.

جابر : الفرية التي افتريتها على الله وعلى الناس؟

عمرو : (يتفرس في وجه جابر ملياً ثم يأخذه بيده ملاطفاً) اجلس يا أخي أولاً لأتحدث إليك.

جابر : لتسمعني أكاذيبك؟

عمرو : لا، والله لأصدقنك الحديث، ثم افعل ما بدا لك.

جابر : (يجلس) هات ما عندك.

عمرو : نشدتك بالله هل تعلم أني أحب سُعدى أختك.

جابر : نعم.

عمرو : ومن أجلها طوفت في الآفاق ما طوفت؟

جابر : بل من أجل جمع المال حسداً منك لهانئ ابن عمك.

عمرو : أجلن حتى لا تستكبر امرأته على امرأتي.

جابر : فإني لم أرك قد عدت بثروة، بل بفِرية مجلجلة!

عمرو : ما حيلتي يا جابر؟ لقد سلكت في طلب المال كل سبيل، فلم أنجح حتى كدت أقتل نفسي يأساً.

جابر : فرأيت أن تأتي بصنم وتدعو قومك إلى عبادته؟

عمرو : هذه هي الطريقة الوحيدة لجمع الثروة يا جابر.

جابر : اخسأ يا لعين.

عمرو : رويدك يا أخي سيكون لك نصيب كبير مما يأتينا من المال. ستكون شريكي في كل شيء.

جابر :(غاضبا) قبحك الله، أنا بريء منك ومن كفرك، هيا يا سُعدى اجمعي متاعك واتبعيني.

عمرو : تدعوها لتفارق زوجها يا جابر؟

جابر : نعم. إنك قد كفرت، فلا ينبغي لها أن تقعد معك هيا يا سُعدى.

عمرو : لئن أطعته يا سُعدى لأبنين غداً بعروس أجمل منك، ولأجعلنّها أغنى امرأة في العرب.

جابر : هيا بنا يا سُعدى.

سُعدى : دعني يا أخي، سأبقى عند زوجي.

جابر : أنا بريء منك، لست بأختي ولست بأخيك.

❀ ❀ ❀

ـ ٤ ـ

(عودة إلى المشهد السابق في بيت جابر)

(مسعود يبدو في وجهه الدهش والأسى مما سمع من جابر،
وإذا سُعدى يسمع صوتها من داخل البيت)

سُعدى :(صوتها) من ذا عندك يا جابر؟ هل لي أن أدخل؟

جابر : عندي مسعود بن وائلة الجرهمي يا سُعدى، ادخلي يا أخية.

(يؤمئ جابر لمسعود بأنها مختلة العقل بإشارة من يده)

(تدخل سُعدى وهي في حالة سيئة وتتصرف كالمجانين
إذ تدنو من مسعود فتقول له بغلظة)

سُعدى : ويلك هل آمنت أنت بدين عمرو بن لحيّ؟ هل آمنت بهبل؟

مسعود : كلا يا سُعدى أنا على دين إسماعيل وإبراهيم.

سُعدى : (تلثم رأسه وكتفيه) الحمد لله... الحمد لله. إياك أن تؤمن به. أنذر قومك ألا يؤمنوا به، إنه كاذب، إنه فاسق، فاجر، داعر!

(تتوجه نحو الباب لتخرج وهي تصيح) أيها الناس اكفروا

بعمرو بن لحيّ! إنه كاذب، اقتلوا عمرو بن لحيّ... إنه فاجر!

(تخرج وهي تردد هذا القول حتى يتلاشى صوتها)

جابر : هذا دأبها يا مسعود منذ تغير ما بينها وبينه إذ غارت عليه من النساء.

مسعود : مسكينة. كأنها تحبه.

جابر : أجل هذه محنتها. إنها تأمل أن يكفر به الناس لتعود إليه.

مسعود : إني أريد أن ألقاه يا جابر وأخلو به فأعظه وأنصحه، لعله يسمع لي فيرعوي عن غيه هذا الذي فتن به الناس.

جابر : هيهات يا مسعود!

مسعود : قد تنفع الذكرى يا جابر. وقد كان يحبني ويعزني، فهل لك أن ترسل غلامك إليه ليقول له: إني عندك وإني أشتهي أن أجتمع به؟

جابر : حباً وكرامة وإن كنت لا أطيقه، ولا هو يطيقني بغضاً.

❋ ❋ ❋

— ٥ —

(نفس المنظر السابق)

جابر : انظر يا مسعود... إنه أقبل... انظر إليه كيف يختال في حلته السيراء يفتن بها قلوب النساء.

مسعود : يا لضيعة دين إسماعيل وأبناء إسماعيل!

جابر : استقبله أنت وحدك.

مسعود : وأنت؟

جابر : سأحتجب عنه فإني لا أطيق رؤية وجهه ولا سماع حديثه.

مسعود : كما تشاء.

(ينسحب جابر إلى داخل الدار ثم يدخل عمرو بن لحيّ)

عمرو : مرحباً بالصديق القديم والأخ الحميم، مرحباً بك يا مسعود. ألا تعانقني؟

مسعود : لا ينبغي أن أعانق من بدّل دين إسماعيل!

عمرو : ويحك يا ابن وائلة أدعوتني لتسمعني هذا؟ ألا تراني لبيت دعوتك وأنت في دار عدوي إكراماً لك، عرفاناً لقديم حقك؟ ثم تستقبلني بهذا الجفاء؟

مسعود : أنا أنصحك يا عمرو لمكان الصداقة التي بيننا فوالله لعزيز عليّ أن أراك تضل هذا الضلال البعيد وقد كنت ذا رشد.

عمرو : يا أخي، لو قبلت نصحاً من أحد في هذا الأمر لقبلته منك، ولكن لا سبيل إلى ما تريد.

مسعود : ألست تؤمن بالله يا عمرو، وباليوم الآخر؟

عمرو : بلى.

مسعود : فما هذا الصنم الذي تعبده من دون الله؟

عمرو : كلا، لست أعبده يا مسعود.

مسعود : فقد دعوت الناس إلى عبادته، ففتنتهم عن دينهم.

عمرو : لو كانوا يؤمنون حقاً بدين إسماعيل ما استطاع أحد أن يفتنهم عنه، ولكن ذلك الدين قد بطل معناه في نفوسهم، ما بقي إلا رسمه، فلو لم أجئهم أنا بهذا الشرع الجديد، لجاءهم به غيري فآمنوا به كما آمنوا لي. وإذن لكنت حرياً أن أدخل فيما دخلوا فيه تابعاً من الأتباع ليس لي شأن يذكر ولا مجد ينشر.

مسعود : أتعد ذلك مجداً يا ابن لحيّ؟

عمرو : وأي مجد يا مسعود، ما في أرض العرب اليوم من يكثرني مالاً أو يفوقني جاهاً، أو يطاولني مجداً ورفعة.

مسعود : والآخرة يا عمرو؟

عمرو : لن أكون يومئذ شراً مكاناً من هؤلاء الخلائق الذين دخلوا في ديني وعبدوا هُبل من حيث لا أعبده.

مسعود : أتوقعهم في هذا الشر وتزعم أنك بمنجاة منه؟ أما إنهم بعد لقومك يا عمرو، أفلا يعطف قلبك عليهم حقوق جوار أو وشائج قربى ودم ورحم؟

عمرو : بلى يا مسعود، إني ما أبتغي لهم سوى الخير، لقد عسُر عليهم أن يعبدوا إلهاً لا تدركه أبصارهم، فأتحت لهم هذا الرب المنظور فاطمأنت به نفوسهم، فهم يعبدونه مخلصين ويجدون حوائجهم تُقضى به، والضر يكشف عنهم، والخير يبارك لهم فيه.

مسعود : ذلك الشيطان يا ابن لحي قد اتخذك مطية له.

عمرو : أفليس ذلك خيراً من أن يتخذ الشيطان مطية له غيري، وأكون أنا مطية لمطية الشيطان؟

مسعود : أعوذ بالله منك، اُغرب من عيني أيها الفاسق اللعين، أيها الشيطان الرجيم.

عمرو :(مغضباً) تلعنني يا أخا جرهم؟ ويلك!

مسعود : أجل، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، والله لأكشفن كذبك وخداعك حتى يكفروا بك ويرجموك.

عمرو : أنصحك يا هذا ألا تفعل، فوالله الذي لا إله إلا هو ليثبُنّ عليك فليقطعُنًك إربا إرباً.

مسعود : إني والله لا أبالي. لأهيبن بهم ليرجعوا إلى دين إسماعيل.

عمرو : قد ذهب دين إسماعيل يا أخا جرهم، وحل محله دين عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف.

مسعود : كلا والله، لا يذهب الدين الحق أبداً، إنه باق في قومي في جرهم.

عمرو : غداً أبعث رسلي إلى قومك، فلسوف يدخلون فيما دخل فيه الناس، ويقدمون على ليلثموا أطراف هذه الحلة الدمقس. و(يختال في حلته وهو يتهيأ للخروج) انظر: هل رأت عينك أيها الجرهمي أفخر أو أجمل منها قط.

مسعود : لتجرجرن ذيلها في نار جهنم.

عمرو :(ضاحكاً) إذن يحسدني أهل النار عليها.

مسعود : لن تكون يومئذ في حلة من الدمقس.

عمرو : فماذا تكون؟

مسعود : قصبك يا كافر وأمعاءك. لتجرجرنها ولتؤذين أهل النار بريحها النتنة.

عمرو :(يقهقه ضاحكاً) إذن أكون أنا سوط عذاب عليهم. عانقني غداً يا صديقي القديم إذا لقيتني هناك.(يخرج)

مسعود : (يزفر زفرة حرى) وي! وي! وي!

جابر :(يدخل) ما خطبك يا مسعود؟

مسعود : ويل بني إسماعيل من شر مستطير. والله لا أقيم بهذه البلدة ساعة من نهار

جابر : بل تبقى اليوم عندي.

مسعود : كلا، كلا، إني أخاف أن يصيبني العذاب إذا حل.

جابر : ويحك أخي أو ما تؤمن برب هذه الكعبة؟

مسعود : بلى يا جابر.

جابر : أفتظن أن الله يرضى لحرمه هذا أن يدنس ويضام؟ والذي نفسي بيده ليبعثن من يطهر حرمه من هذا الرجس وليحيين به دين إسماعيل وإبراهيم.

(ستـــــــــــار)

❋ ❋ ❋

---

١٠) المشرك الأول:(إحضار عمرو بن لحي الخزاعي أول صنم إلى المسجد الحرام) نشرت في «المسلمون»، العدد (٣) السنة (٣). ومجلة الأدب الإسلامي، العدد (٢١).

النصيحـــة

ـ ١ ـ

(في بيت محمد بن مقاتل قاضي الري)

القاضي : كيف ترينني اليوم يا مزنة؟

مزنة : أحسن حالاً يا سيدي من أمس.

القاضي : أحقاً يا مزنة؟

مزنة : وجهك أقل شحوبا، وعيناك أقل ذبولا، وشفتاك أقل جفافا، غير أن النُّحول بادٍ عليك اليوم أكثر من أي يوم آخر.

القاضي : لعله نهاية الأمد الذي يبلغه مرضي يا مزنة، وأبدأ من اليوم فصاعدا مرحلة النقاهة.

مزنة : نعم، هذا حالك إن شاء الله. فعليك أن تزيد قليلاً من طعامك ليكون أسرع في استرداد عافيتك.

القاضي : ما أحسب أن للطعام دخلاً في ذلك. فما زال طعامي هو هو لم يزد ولم ينقص.

مزنة : لكنك اليوم بحاجة إلى مقدار أكبر لتعوض به ما أخذ المرض منك.

القاضي : ما أحب يا مزنة أن أخلّ بعادة من عاداتي في عافية أو مرض. والله عز وجل هو الذي يعطي القوة والعافية.

مزنة : خبرني يا أبا مقاتل ألا تشتهي شيئاً فنعمله لك اليوم؟

القاضي : بلى، ولكنك لا تستطيعين أن تعمليه؟

مزنة : ما هو يا سيدي؟

القاضي : أن أعود إلى مجلس القضاء وأسمع إلى أقوال الخصوم وأفصل في القضايا التي تعرض عليّ.

مزنة : أهذا كل ما تشتهيه؟

القاضي : نعم إني لأحسب أن مرضي هذا إنما طال لحرماني من هذا الذي أشتهيه.

مزنة : يا سيدي القاضي لا ينبغي لك أن تنسى أن عملك المضني في القضاء هو الذي صرعك وألزمك الفراش.

القاضي : يا أم مقاتل، اعلمي أن المرء لا يعتل بدنه أبداً إلا إذا اعتلت نفسه؛ والقضاء روحي وريحاني، فلا يعقل أن يكون سبب سقمي وعلتي.

مزنة : طب بالا إذن! فما هي إلا أيام حتى تعود إلى روحك وريحانك.

غلام : (يدخل) سيدي القاضي، بالباب الشيخ رُوَيْم بن محمد ومعه صاحب له.

مزنة : ماذا يريدان في مثل هذه الساعة؟

القاضي : ويحك ماذا عساهما يريدان وأنا عليل إلا أن يعوداني؟

مزنة : إني أخشى أن يُتعباك أو يُرهقاك.

القاضي : كلا فهذا الشيخ رويم بن محمد من أئمة الزهد، وهم أهل دماثة ونقاء وشفافية وصفاء. ائذن لهما يا غلام.

الغلام : سمعاً يا سيدي.

القاضي : سنستأنف حديثنا يا مزنة حين يخرجان.

مزنة : إذا جاء الأصحاب خرج الأحباب.

(يدخل رويم وصاحبه)

رويم : السلام عليك يا محمد بن مقاتل.

القاضي : وعليكما السلام ورحمة الله. أهلا بك وبمن معك.

رويم : هذا يا سيدي القاضي أبو عبد الرحمن حاتم الأصم.

القاضي : حاتم الأصم؟

رويم : قد شاء أن يجيء معي ليعودك.

القاضي : أهلاً به وسهلاً.

رويم : ما كنت تعرفه من قبل يا سيدي القاضي؟

القاضي : لم أره من قبل ولكني سمعت به.

حاتم : لعلك سمعت عني خيراً يا ابن مقاتل.

القاضي : كل خير يا أبا عبد الرحمن.

رويم : كيف أنت اليوم يا أبا مقاتل؟

القاضي : الحمد لله أنا اليوم أحسن، ولكني ما زلت واهناً يا أبا محمد.

رويم : لا بأس عليك إن شاء الله.

القاضي : ادعُ لي يا أبا محمد فأنت ممن نّور الله قلوبهم باليقين، ورطّب ألسنتهم بالذكر، وصقل أرواحهم بالحب والصفاء.

رويم : شفاك الله وعافاك، ونفع أهل الإسلام بعلمك وفقهك.

القاضي : آمين يا رب العالمين.

حاتم : أصغِ إلي يا رويم بن محمد.

القاضي : إنك لقائم بعد يا حاتم؟ ألا تقعد يا أخي أصلحك الله؟

حاتم : دعني أكلم رفيقي هذا يا ابن مقاتل.

رويم : خيراً يا أبا عبد الرحمن. ماذا عندك؟

حاتم : إنك دعوت لهذا القاضي بالشفاء والعافية، فالله يستجيب لك، ولكن كيف ينفع الله أهل الإسلام بعلمه وفقهه؟

رويم : أتعترض على دعائي يا حاتم أم على قدرة الله؟

حاتم : بل على دعائك.

رويم : فالدعاء لا يُعترض عليه إلا إن كان فيه معصية لله، فهل ترى في دعائي معصية لله؟

حاتم : نعم.

رويم : كيف؟

حاتم : سأبين لك ذلك فيما بعد، ولكن دعني الآن أوجه حديثي إلى صاحب هذه الدار الكبيرة الفخمة.

القاضي : اقعد بالله عليك وكلّمني يا أخي وأنت قاعد مستريح.

حاتم : ما يدريك لعل لي حاجة.

القاضي : ما هي يا أبا عبد الرحمن لنقضيها لك؟

حاتم : مسألة في العلم أريد أن أسألك عنها.

القاضي : حباً وكرامة. أعنّي يا غلام واسندني.

حاتم : مكانك كما أنت فأنت عليل.

القاضي : كلا، لا ينبغي أن أجيب في العلم وأنا مضطجع. (ينهج من الإعياء والضعف).

رويم : هلا أجلت مسألتك يا حاتم، فإنما جئنا لنعود القاضي لا لنتعبه ونرهقه.

حاتم : هذا القاضي قد استوى جالساً يا رويم وهؤلاء غلمانه قد أسندوه.

القاضي : هات يا أخي مسألتك.

حاتم : خبرني يا قاضي الري عِلمُك هذا من أين جاءك؟

القاضي : تلقيته عن الثقات من أهل العلم.

حاتم : وهم تلقوه عمن؟

القاضي : عن التابعين ثم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حاتم : هل سمعت في العلم: من كان في داره متعة ونعيم أكثر كانت له المنزلة عند الله أكبر؟

القاضي : اللهم لا!

حاتم : هل سمعت: من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين كان له عند الله منزلة أكبر؟

القاضي : اللهم نعم!

حاتم : فأنت بمن اقتديت واهتديت؟ بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحين، أم بكسرى وقيصر وغيرهما من الملوك الظالمين؟

القاضي : أطمع في كرم الله يا أبا عبد الرحمن أن يحشرني مع الأولين... مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحين.

حاتم : وأنت ساكن في هذا البيت الفخم وغارق في هــذا النعــيم الضخم؟

القاضي : وأما بنعمة ربك فحدث.

حاتم : هيهات! لقد خاطب الله تعالى بهذا نبيه، فهل كان صلى الله عليه وسلم يتقلب في مثل هذا الذي تتقلب فيه؟

القاضي : معاذ الله يا أبا عبد الرحمن أين أنا من مقام النبوة؟ ولكــن الآية ينسحب الأمر فيها على سائر المسلمين.

حاتم : يا علماء السوء! فعلكم هذا يراه الجاهــل الطالــب للــدنيا فيقول: العالم فلان يفعل هذا، فلم لا أفعل مثله؟ فلن أكون شرا منه.

رويم : على رسلك يا حاتم يا أصم. لو كنت أعلم أنك لا تراعــي أدب النصيحة، ولا أدب العيادة، ولا أدب الصحبة ما جئت بك معي في زيارة ولا عيادة.

حاتم : أتريد يا رويم أن تمنعني مما أوجب الله عليّ مــن الأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

رويم : إن لكل مقام مقالاً يا أصم. ويحــك أوَ قــد غــرك أن الله أعطاك لساناً طويلاً فجعلت تضرب به ذات اليمين وذات الشمال لا تبالي حرمة بيت تدخلــه أول مــرة، ولا علــة مريض تلقاه أول مرة، وهو يرجو أن تواســيه وتهــون عليه، فإذا أنت تسلقه بلسانك وتخزه بسنانك، وكأنما الناس مذنبون خاطئون جميعاً وأنت وحدك النقي مــن الــذنوب

المبرأ من العيوب، القريب من نفحات الرحمن، البعيد عن نزغات الشيطان؟

القاضي : رفقاً بأبي عبد الرحمن يا أبا محمد، فإنه مــا أراد بــي إلا الخير وما قال فيَّ غير الحق.

رويم : يا أبا مقاتل: هذا الأدب السامي الذي تأخذ به نفسك، وهذا الحب الخالص الذي ينبع من قلبك خير عند الله من كل ما تحرك به لسان هذا الأصم من كلام يقرع الآذان دون أن يمس شغاف القلوب.

القاضي : أستغفر الله يا أبا محمد. أين أنا الغارق في الدنيا وزينتهــا من أبي عبد الرحمن الزاهد فيها الراغب في الآخرة الذي لا يخاف في الحق لومة لائم؟

رويم : إن الله تبارك وتعالى يقول لنبيه وصفيه وهو يدعو المشركين إلى الإسلام : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران: ١٥٩). فماذا فعلت يا أصم اليوم؟ جئت معي لعيادة أخ مريض من أهل العلم والفضل، ولاه الله منصب القضاء في هذا البلد الكبير فتعمى عينك إلا عن رؤية داره وجداره وفراشه ورياشه وآنيته وأمتعته، ولا يلتفت عقلك إلى أدبه ووقاره وتواضعه وانكساره، وعفوه وحلمه، على فقهه وعلمه!

فتنسى أن تقول له: كيف حالك؟ ولا بأس عليك، وشفاك الله وعافاك! بل تنهال عليه بسياط غضبك ونقمتك، محملا إياه وزر هذا العصر كله إذ اختلفت حياة الناس فيه عن حياة الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه.

ويحك يا أصم! أما تعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنّ على المسلم ألا ينسى نصيبه من الدنيا؟ وإنك يا أصم إذا نظرت إلى عملك وجدته قاصراً عليك وحدك، فلا عليك أن تلبس من الثياب ما يحلو لك. أما القاضي فلو خرج في ثياب رثة كثيابك فمن ذا كان يحترمه أو يصغي إليه؟

القاضي : حسبك يا أبا محمد فما أحب أن تقرّع أبا عبد الرحمن وهو ضيف عندي وفي بيتي.

حاتم : بل دعه يا أبا مقاتل. دع أبا محمد يؤنبني ويقرعني، فإني والله إلى نصيحته ووعظه لأحوج منك إلى نصيحتي ووعظي. امض في كلامك يا أبا محمد أصلحك الله.

رويم : الآن بعد ما اعترفت بخطئك وأذعنت للحق؟ كلا يا أبا عبد الرحمن بحسبي من الكلام ما قلته لك، وأستغفر الله مما قلته فيك، فسامحني يا أبا عبد الرحمن فيما بدر مني في حقك.

حاتم : ويحك يا أبا محمد! كيف أسامحك في خير سقته إلي؟ والله ما انتفعت بعد كلام الله وكلام رسوله بخير من كلامك

الذي سمعته اليوم. لكأني كنت أعمى فأبصرت، وأصم فسمعت.

القاضي : وأنا والله ما تأثرت ولا اهتززت بعد كلام الله وكلام رسوله بأبلغ من النصيحة التي سمعتها من أبي عبد الرحمن اليوم. لكأني كنت نائماً فاستيقظت، وغافلاً فتنبهت.

حاتم : لقد عرفت الآن يا أبا مقاتل أن هذا الذي تقوله عني لهُو من أدبك السامي الذي أخذت به نفسك، فياليتني أستطيع أن أقتبس منه ما يبصرني بعيوبي قبل عيوب الناس، وما يفتح أذني لسماع الوعظ والنصيحة من غيري قبل أن أعظ الناس وأنصح الناس.

رويم : هيا بنا يا أبا عبد الرحمن ننصرف ليستريح القاضي فقد أرهقناه.

القاضي : بل اجلسا قليلاً بعد، فإني أنست بكما وقويت.

رويم : سنزورك مرة أخرى وقد تم شفاؤك إن شاء الله.

القاضي : افعل يا أبا محمد ولا تنسني من صالح دعائك.

رويم : وأحضر معي هذا الأصم المتعب؟

القاضي : نعم، نعم، لا تأتني بغيره فإني والله قد أحببته.

رويم : وي! هذا حاتم الأصم يبكي.

القاضي : ويحك يا أبا عبد الرحمن ماذا يبكيك؟

حاتم : (يبكي) سامحني يا ابن مقاتل سامحني يا أخي فيما أسأت إليك.

القاضي : يا سيدي إنك ما أسأت إلي بل أحسنت.

حاتم : بل دعني أقبل رأسك.

القاضي : أستغفر الله.. أستغفر الله.

حاتم : وقل لي: سامحتك يا أصم.

القاضي : سامحتك يا أبا عبد الرحمن.

حاتم : كلا بل قل: سامحتك يا أصم.

القاضي : سامحتك يا أصم.

رويم : الحمد لله الذي جمعنا على الود والإخاء، وأزال من قلوبنا الخصومة والشحناء، ورفعنا من أرض الجدال والمراء إلى سماء الحب والصفاء.

(ستـــــــــار)

❁ ❁ ❁

---

٣) النصيحة: (العابد حاتم الأصم، وقاضي الري محمد بن مقاتل والموعظة بالحسنى) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٥).

إمام عظيم
(أحمد بن حنبل)

(مجلس الخليفة المتوكل، وعنده خواص أصحابه، يدخل الحاجب يعقوب قوصرة)

المتوكل : ما وراءك يا يعقوب؟

يعقوب : هذا أحمد بن أبي دؤاد يا أمير المؤمنين، قد جاؤوا به محمولا إليك كما أمرت.

المتوكل : فليدخلوا بالمخذول هنا.

يعقوب : سمعاً يا أمير المؤمنين.

(يخرج يعقوب ثم يعود بابن أبي دؤاد، يحمله اثنان من الشرطة فتتوجه الأبصار إليه)

المتوكل : ضعوه على الأرض، وأسندوه إلى ذلك الجدار.

(يوضع ابن أبي دؤاد على الأرض، ويسند إلى جدار في أحد الأركان، وهو مريض بالفالج لا يستطيع الحركة)

ابن أبي دؤاد : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

المتوكل : وعلى غيرك السلام. هيه يا ابن أبي دؤاد، هل لك أن تحدثنا عما فعلتموه بأحمد بن حنبل؟

ابن أبي دؤاد : ما أخال أمير المؤمنين يجهل ذلك.

المتوكل : أحقاً جيء له بالجلادين فضربوه حتى غُشي عليه؟

ابن أبي دؤاد : نعم يا أمير المؤمنين.

المتوكل : هل تعتقد أنه كان يستحق كل هذا العذاب؟

ابن أبي دؤاد : ....؟

المتوكل : ماذا كانت جريرته؟

ابن أبي دؤاد : أبى يا أمير المؤمنين أن يقول: إن القرآن مخلوق.

المتوكل : أكنت ترى أنه يكيد للدين ويبغي به شرا؟

ابن أبي دؤاد : لا يا أمير المؤمنين، ولكنه أخطأ.

المتوكل : وكيف علمت أنه أخطا؟ ألأنت أعلم بالدين وأفقه للسنة من هذا الإمام الكبير؟

ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين، ما كنت أنا وحدي في هذه السبيل. لقد كنت مع أبيك المعتصم أمير المؤمنين في ذلك.

المتوكل : أفكان المعتصم أفقه وأعلم من أحمد بن حنبل؟

ابن أبي دؤاد : وكان على ذلك أيضاً عمك المأمون أمير المؤمنين.

المتوكل : ويلك، ألأن المأمون قد شدا شيئا من فلسفة يونان، يكون أعلم بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم– من ابن حنبل؟

ابن أبي دؤاد : كانت سياسة الدولة يا أمير المؤمنين تقتضي ذلك.

المتوكل : أي دولة تعني؟ دولتنا أم دولة خصومنا العلويين؟
ابن أبي دؤاد : بل دولتكم يا آل عباس.
المتوكل : أفلم يكن المأمون من الساعين في هدمها؟ ألم يرد أن ينزعها من أيدينا ليجعلها لآل أبي طالب؟
ابن أبي دؤاد : إنك تعلم يا أمير المؤمنين ألا يد لي في تلك السياسة.
المتوكل : فإني لن أعاقبك عليها، ولكني سأعاقبك على ما ظلمت هذا الإمام الجليل. وعرضته للعذاب، طوال حكم المأمون عمي، والمعتصم أبي والواثق أخي.
ابن أبي دؤاد : إنه كان يتشيع لآل علي يا أمير المؤمنين.
المتوكل : قد فتشوا داره فلم يجدوا فيها أحداً من أعدائنا العلويين، كما ادعيت عليه زوراً منك وبهتانا.
ابن أبي دؤاد : لعله كان قد سرَّبه وهرَّبه يا أمير المؤمنين.
المتوكل : كذبت أيها المجرم الأثيم. والله لأستصفين ما بقي من أموالك حتى لا يبقى عندك دانق واحد.
ابن أبي دؤاد : حنانيك يا أمير المؤمنين! أبق شيئاً لأهلي وأولادي. أما كفى ما أخذت من مالي حتى أصابني هذا الفالج؟ عافاك الله.
المتوكل : تلك عقوبة الله، وبقي أن تذوق عقوبتي.
ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين ليس من العدل أن تعاقبني وحدي فيما حل بابن حنبل.
المتوكل : ويلك! أألنبش قبور شركائك: المأمون والمعتصم

والواثق؟ أهذا ما تريد مني يا عدو الله؟

ابن أبي دؤاد : معاذ الله يا أمير المؤمنين، ولكنـي أطمـع فـي عفوك أنت، كما أطمع لهم فـي عفـو الله وغفرانـه (يدخل يعقوب).

يعقوب : يا أمير المؤمنين، هذا أحمد بن حنبل قد وصل.

المتوكل : أهلا به، فليدخل.

(يخرج يعقوب)

المتوكل : أتقبل يا هذا أن أحكّم أحمد بن حنبل فـي أمـرك ليقضي عليك بما يشاء؟

ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين، أنت أرحم وأعدل من أن تكـل أمري إلى خصمي.

المتوكل : ألا تريد أن تحتكم إليه؟

ابن أبي دؤاد : إليك وحدك أحتكم يا أمير المؤمنين.

المتوكل : فابق حيث أنت ولا تنطق بكلمة حتى يؤذن لك.

(يدخل الإمام أحمد بن حنبل فيقـوم لـه الخليفـة وجلساؤه إعظاما، ثم يجلسه المتوكل إلى جانبه)

المتوكل : مرحبا بك يا أبا عبدالله. أنت عندنا علـى الرحـب والسعة.

أحمد : أصلحك الله يا أمير المؤمنين! هاأنذا قد حـضرت اليوم إلى قصرك امتثالا لأمرك، فماذا يريـد أميـر المؤمنين مني؟

المتوكل : عندي لك عتب يا أبا عبدالله، أريد أن أسمعك إياه.

أحمد : فيم العتب يا أمير المؤمنين؟

المتوكل : أنت تكره أن تغشى مجلسي يا أبا عبد الله.

أحمد : إنما أكره أن أجيئك لغير حاجة يا أمير المؤمنين حتى لا أشغلك عن ذوي الحاجات من رعيتك.

المتوكل : بل كرهت الرحلة إلينا من بغداد.

أحمد : إنما أشفقت من مشقة الرحلة يا أمير المؤمنين، فإني كما ترى شيخ هرم.

المتوكل : قبحا لهم! لقد بلغني أنك تكره لقائي وتتنصل، وإلا لأعفيتك من هذه المشقة.

أحمد : هذا يا أمير المؤمنين مثل الذي بلغك عن داري، أني أؤوي فيها أحد أعدائك.

المتوكل : أجل.. سامحني يا أبا عبد الله إذ أمرت بتفتيش دارك.

أحمد : قد سامحتك يا أمير المؤمنين من قبل.

المتوكل : والهدية التي أرسلتها إليك بلغني أنك استنكفت منها ففرقتها على الفقراء والمساكين.

أحمد : يا أمير المؤمنين، لقد وجدت هؤلاء أحوج مني إليها فتصدقت بها عليهم، وما قصدت ــ والله ــ أن أغضبك.

المتوكل : فقد أغضبني ذلك يا أبا عبد الله منك.

أحمد : (ممازحا) ماذا تركت لصالح ابني يا أمير المؤمنين؟ لقد كان له عذره حين غضب. أما أنت فلا عذر لك.

المتوكل : (يبتسم ضاحكا) صدقت يا أبا عبد الله. والله لا أسمع

فيك مقالة واش بعد اليوم.

أحمد : حياك الله يا أمير المؤمنين وبياك.

المتوكل : إنك سامحتني فيما كان مني في حقك. فهل لك أن تسامح المعتصم أبي وتجعله في حل؟

أحمد : قد فعلت يا أمير المؤمنين.

المتوكل : (فرحا) أحقا يا أبا عبد الله!؟ ما بقي في قلبك من شيء عليه؟

أحمد : ولا على أحد ممن آذاني. قد جعلتهم جميعاً في حل.

المتوكل : حتى هذا المجرم الأثيم!. (يشير إلى ابن أبي دؤاد) .

أحمد : (ينظر إلى حيث أشار المتوكل) ومن يكون هذا يا أمير المؤمنين؟

المتوكل : ألا تذكره؟ هذا عدوك أحمد بن أبي دؤاد.

أحمد : ما هو لي بعدو يا أمير المؤمنين. لقد سامحته وعفوت عنه.

المتوكل : يعقوب.

يعقوب : لبيك يا أمير المؤمنين.

المتوكل : احملوا هذا المخذول إلى أهله.

ابن أبي دؤاد : (يحمله الشرطيان ليخرجا به) يا أمير المؤمنين حكم أبا عبدالله في أمري.

المتوكل : هيهات! قد رفضت ذلك من قبل، فليس لك غير حكمي أنا.

ابن أبي دؤاد : حنانيك يا أمير المؤمنين، اجعل حكمي إليه.

(يخرجانه وهو يصيح ويستغيث).

أحمد : ما خطبه يا أمير المؤمنين؟ ما خطب ابن أبي دؤاد؟

المتوكل : كنت أردت أن أنتقم لك منه، ولكنك عفوت فأمرتهم أن يعيدوه إلى أهله.

أحمد : أكرمك الله يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى يقول: (فمن عفا وأصلح فأجره على الله).

المتوكل : هذا الذي عذبك يا أبا عبد الله واضطهدك، هذا الذي دفع أبي وعمي إلى عذابك.

أحمد : (يرفع يديه مبتهلا)اللهم اغفر لابن أبي دؤاد. اللهم تب عليه.

المتوكل : وتدعو له يا أبا عبدالله؟ تدعو للعصاة المجرمين؟

أحمد : (ماضياً في دعائه) اللهم إن قبلت من عصاة أمة محمد – ﷺ– فداء، فاجعلني لهم فداء.

(يستولي على الحاضرين خشوع عميق، وتندى عيونهم بالدمع، ويسود بينهم الصمت برهة).

المتوكل : (والدمع في عينيه) أبا عبدالله، لا غنى لنا عن صحبتك. أفلا تقيم عندنا في "سُرَّ من رأى" إلى ما شاء الله؟

أحمد : لو أعفيتني يا أمير المؤمنين، وأذنت لي في العودة إلى داري ببغداد كنت لك من الشاكرين.

المتوكل : أترغب عن جواري يا أبا عبد الله؟ أم تشكو من تقصير في حقك؟

أحمد : سأصدقك القول يا أمير المؤمنين: إني لا أحب لك أن تكون أقسي على من المعتصم أبيك.

المتوكل : كيف يا أبا عبد الله ؟

أحمد : سامني أبوك فتنة الدين أمس، وأنت اليوم تسومني فتنة الدنيا بما تغدق علي وعلى أهلي من عطاياك.
وقد نجوت من الأولى يا أمير المؤمنين، وأخشى ألا أنجو من الثانية.

المتوكل : قد فهمت قصدك يا أبا عبدالله ولك عندنا ما تحب.

أحمد : (فرحا) أبقاك الله يا أمير المؤمنين، ووفقك لكل خير.

المتوكل : عظني يا أبا عبد الله قبل أن ترحل عني..
عظني موعظة أحفظها عنك ما حييت.

أحمد : يا عبدالله: السفر قريب، والطريق طويل، والزاد قليل.

المتوكل : (يتمتم باكيا) يا عبد الله... السفر قريب، والطريق طويل... والزاد قليل.

ستار

❀ ❀ ❀

---

٣) إمام عظيم: (أحمد بن حنبل) نشرت في مجلة الأدب الإسلامي، العدد(١١)، السنة (٣) ١٤١٧هـ.

امرأة في الطلق

(في رحبة من رحاب المدينة، في أطرافها قد نصب بيت من الشعر، يظهر فيه على ضوء النار الموقدة خارج الخباء أعرابي وامرأته... هي تتوجع وهو يواسيها)

الأعرابي : ألا تصبرين قليلاً يا جليلة!

المرأة : ماذا أصنع يا عامر وهذا الوجع يكاد يقتلني؟

الأعرابي : دعيني إذن أنطلق إلى بعض البيوت في المدينة لعل امرأة صالحة تتطوع لمعاونتك.

المرأة : كلا لا تتركني... لا تتركني يا عامر، آه! آه!

(يظهر عمر من يمين المسرح حتى يقترب من باب الخباء)

عمر : يا أهل الخباء، يا أهل الخباء.

الأعرابي : (يطل من باب الخباء) من؟

عمر : السلام عليكم يا أخا العرب.

الأعرابي : وعليكم السلام.

عمر : هل من حاجة فنقضيها لكم؟

الأعرابي : حاجتي ليست عندك.

عمر : إني أسمع أنين امرأة داخل الخباء.

الأعرابي : ليس من شأنك. انطلق يرحمك الله لحاجتك.

عمـــر : إنا نريد أن نساعدك.

الأعرابي : سبحان الله! أمر لا تستطيع أن تساعدنا فيه.

عمـــر : امرأة في الطلق؟

الأعرابي : نعم.

عمـــر : وما عندها أحد؟

الأعرابي : ما عندها أحد غيري.

عمـــر : الحمد لله، هذه امرأتي قد جئت بها ومعها ما يصلح امرأتك من الخرق والدهن.

الأعرابي : فأين هي؟

عمـــر : هلمي يا أم كلثوم. (تظهر أم كلثوم) ادخلي إليها.

(تدخل أم كلثوم الخباء وترخي الستار على بابه)

الأعرابي : الحمد لله. لقد كنتما نجدة لنا من الله. الآن اطمأن قلبي.

عمـــر : أليس عندكم أثفية؟

الأعرابي : ماذا تصنع بها؟

عمـــر : أمسك هذه البرمة (يناوله البرمة التي في يده، ثم يلتقط ثلاثة أحجار كبار فينصبها أثفية على النار، ثم يأخذ قربة صغيرة معلقة في حقوة فيفتح وكاءها) هات البرمة يا أخا العرب.

الأعرابي : حتى الماء جئت به معك؟

عمـــر : هل عندكم ماء؟

الأعرابي : نعم.

عمـــر : لا ضير يا أخا العرب (يغرف قليلاً من الماء في البرمة) ضعها الآن على الأثفية (يضعها الأعرابي على الأثفية) هلم الآن فلنجلس (يجلسان حول البرمة وعمر يحرك ما في البرمة بعود في يده) من أين جئت يا أخا العرب؟

الأعرابي : من ديار عبس.

عمـــر : وما اسمك؟

الأعرابي : عامر بن قيس العبسي. وأنت من أهل المدينة؟

عمـــر : نعم.

الأعرابي : من صحابة رسول الله؟

عمـــر : أرجو أن أكون كذلك. وما الذي جاء بك يا عامر؟

الأعرابي : الحاجة.

عمـــر : أليس لك عطاء؟

الأعرابي : بلى، ولكن نفق لي ناضحان، ولي أبوان كبيران أُنفق عليهما فأتيت لأرجو أمير المؤمنين أن يقدم لي عطائي.

عمـــر : وأتيت بامرأتك تجَرجرها وهي توشك أن تضع؟

الأعرابي : ما كنا ندري أنها توشك أن تضع، وكنت أريد أن أزور بها أخوالها من بني سُلَيمْ. ادع لنا يا صاحب رسول الله أن تجيء بغلام.

عمـــر : أو بجارية.

الأعرابي : لا، بل غلام.

عمـــــر : الجارية أحنى على أبيها من الغلام.

الأعرابي : كلا، لا أريدها! أريد غلاماً. مكان ابني علقمة الـذي قتلته عام أول.

عمـــــر : (في دهش) تقول يا هذا: قتلته؟

الأعرابي : كنت السبب في موته إذ أمـرت أمـه ففطمتـه قبـل موعده.

عمـــــر : وما حملك على ذلك؟

الأعرابي : الطمع.

عمـــــر : أفصح.

الأعرابي : لا يفرض أمير المؤمنين لوليد قبل فطامه.

عمـــــر : فأمير المؤمنين هو الذي قتله!

الأعرابي : كلا، لو لم أطمع فيما ليس لي بحـق لعـاش الغـلام، ولفرض له أمير المؤمنين.

عمـــــر : هل تعرف أحداً صنع صنيعك؟

الأعرابي : نعم. ابن عمي صنع ذلك قبلي فجرى لابنه ما جـرى لابني وكان ينبغي أن أتعظ به ولكني لم أفعل.

عمـــــر : يا بؤسا لأمير المؤمنين! كم قتل من أولاد المسلمين!

الأعرابي : (معرضاً عن كلام عمر) والله لئن رزقني الله بغـلام هذه المرة لأتركنه حتى يعاف هو ثدي أمه تلقاء نفسه.

عمـــــر : والله يا أخا عبس إنك لذو سريرة طيبة.

الأعرابي : (يشم رائحة الطعام من البرمة) والله يا صاحب رسول الله... إنك لتحسن الطبخ والطهي!

عمــــر : (يضحك قليلاً) وأنت ألا تحسن الطبخ والطهي؟
الأعرابي : أنا لا أعرف غير الشيّ.
عمــــر : لو كانت عندي سخلة لذبحتها وشويتها لكم.
الأعرابي : جزاك الله صالحة، لا نريد أكثر مما جئتنا بــه، والله إنك لأكرم الناس.
عمــــر : غدا تنساني حين تلقى أمير المؤمنين وتنال من بره.
الأعرابي : كلا والله لا أنساك أبدا ما حييت، ومــا أخــال أميــر المؤمنين سيكون أكرم منك ولا أبر، ربما يعطيني أكثــر مما أعطيتني، ولكنك أنجدتني وقــت الــشدة، وأنجــدت امرأتي بامرأتك، فهل يفعل أمير المؤمنين مثل ذلك؟
عمــــر : (ينظر في البرمة) يخيل إليّ عامر أن البرمة استوت.
الأعرابي : (يرفع يديه إلى السماء) يا رب غلاماً كعلقمة!
أم كلثوم : (صوتها) يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام!
عمــــر : أبشر يا عامر فقد استجاب الله دعوتك.
الأعرابي : (كأنما هابه فجعل يتنحى عنه) ما كنت أعلم يا هذا أنك أمير المؤمنين.
عمــــر : مكانك كما أنت!
الأعرابي : قطع الله لساني إذ نلت منك!
عمــــر : لا عليك يا عامر، لأنا والله بما سمعت منك إذ كنت لا تعرفني أفرح مني بما سمعت منك بعد إذ عرفتنــي. خــذ هذه البرمة فادخل بها إلى الخباء. أمــسكها بالخرقــة ولا

تحرق يدك (يأخذ الأعرابي البرمة ويدخل بها إلى الخباء).

عمر : يا أم كلثوم، أشبعي أم الغلام، فإذا فعلت فأخرجي البرمة لأبي الغلام. (يعود الأعرابي وهو يحمل وليداً ملفوفاً في الخرق).

الأعرابي : تعال يا غُلَيم سلم على أمير المؤمنين.

عمر : ماذا صنعت ويحك؟ هلا أبقيته داخل الخباء من البرد؟

الأعرابي : يا أمير المؤمنين هذا وليد بدوي لا يضره حر ولا برد، ولا يقتله إلا الجوع.

عمر : (يأخذ الطفل فيقبله) أما إنه لطفيل جميل، خذه فأرجعه إلى أمه.

الأعرابي : (يعود فيأخذ الطفل) والله ليفخرن غداً حين يلعب مع الصبية أن أمير المؤمنين حمله وهو وليد وقبّله! (يخرج بالطفل ثم يعود بالبرمة فيضعها بين يدي عمر).

عمر : أم كلثوم، هل فرغت؟

أم كلثوم : (صوتها) نعم.

عمر : هيا اخرجي لننصرف.

(تظهر أم كلثوم من الخباء)

الأعرابي : شكر الله لك يا زوج أمير المؤمنين.

عمر : ادخل فكل عند أهلك، فإنك قد سهرت من الليل.

الأعرابي : والبرمة يا أمير المؤمنين؟

عمــــر : أبقها عندك حتى إذا كان الغد فأتنا بها نأمر لــك بمــا يصلحك إن شاء الله، ونفرض لابنك في الذرية.

الأعرابي : تفرض لابني هذا؟

عمــــر : نعم ولغيره من أولاد المسلمين.

الأعرابي : قبل الفطام؟

عمــــر : من ساعة ما ولد.

الأعرابي : جليلة، أسمعت يا جليلة؟ (يتوارى في الخباء).

(ينصرف عمر وأم كلثوم يظهر الأعرابي حاملاً وليده)

الأعرابي : (ينادي) يا أمير المؤمنين! يا أمير المؤمنين!

عمــــر : (صوته) ما خطبك يا عامر؟

الأعرابي : (يلوح بابنه في يده) انظر يا أميــر المــؤمنين... والله لأسمينه عمر!

ــ ستـــــار ــ

❁ ❁ ❁

---

٤) امرأة في الطلق: (عمر بن الخطاب يتفقد أحوال الرعيــة لــيلا بالمدينــة) نشرت في مجلة الشبان المسلمون، العــدد (١٥١)١٩ /١٣٨٩/٦هـــ، الموافق ١٩٦٩/٩/١م.

بلّغه يا ربّ عنّي السَّلام

(الأسير الكريم خبيب بن عدي)

— ١ —

(في بيت من بيوت سراة مكة)

(الصبي عامر يقبل مسرعاً إلى أمه الجالسة في الحجرة)

عامر : (صوته قبل ظهوره في الحجرة) يا أمَّه! يا أمَّه!

جليلة : عامر! ما خطبك؟

عامر : (يدخل لاهثاً) إن خالي عقبة قد جاء بأسير معه.

جليلة : أين يا عامر؟

عامر : أدخله المربد فحبسه فيه. يقولون إنه من أصحاب محمد.

جليلة : من أصحاب محمد؟ ما الذي جاء به إلى خالك؟

عامر : لا أدري. (ينظر إلى جهة الباب) هاهو ذا خالي عقبة فاسأليه.

(يدخل عقبة بن الحارث)

جليلة : من هذا الذي جئت به يا عقبة؟

عقبة : هذا قاتل أبينا يا جليلة. قاتل الحارث ببدر.

جليلة : خُبيب بن عدي؟

عقبة : أجل، إنك لتعرفين اسمه يا أخية.

جليلة : كيف لا وما من امرأة في قريش أصيب لها أحد في بدر إلا اجتهدت أن تعرف اسم قاتله فحفظته عسى أن تنتقم يوماً منه.

عقبة : فها هو ذا قد جئت به إليك فانتقمي منه وعذبيه.

جليلة : إي والله لأشفين وُحرَ صدري منه. أمكنِّي منه يا عقبة فلأقطعنه بهذا المشقص فلذة فلذة.

عقبة : كلا يا أختاه، لا يحلّ لنا قتله الآن حتى تنقضي الأشهر الحُرم. ولكن عذبيه عذاباً لا يقضي عليه.

جليلة : كأنك جئت به لتحبسه عندنا حتى ينقضي هذا الشهر، شهر المحرم؟

عقبة : هو ذاك.

جليلة : خير، سيتاح لنا بذلك أن نفتنَّ في تعذيبه.

عقبة : أجل، افتنيّ في تعذيبه ما شئت، أريني براعتك يا جليلة ووفاءك لأبيك.

جليلة : ثق يا أخي أنني سأريه الويل أفانين، ولكن كيف تمكنت منه يا عقبة.

عقبة : كان محمد قد بعثه فيمن بعث إلى بني هذيل ليعلموهم الإسلام فوثب بهم الهذليون وباعوهم إلينا.

جليلة : واشتريته أنت منهم؟

عقبة : بخمسين من الإبل.

جليلة : خمسين من الإبل؟

عقبة : استكثرتها؟ والله لو طلبوا به مائة بعير لأعطيت. إنه دم

أبينا الحارث يا جليلة.

جليلة : صدقت كل مالٍ يُشترى به دم أبينا فهو قليل.

عقبة : هات له شيئاً من الطعام يا جليلة.

جليلة : تريد أن تطعمه؟ أتطعم قاتل أبينا يا عقبة؟

عقبة : لابد من إطعامه حتى لا يموت قبل أن ننزل بـه العقـاب الأشد. قد اتفقت أنا وصفوان بن أمية على ذلك.

جليلة : وما شأن صفوان بن أمية؟

عقبة : إنه هو أيضاً اشترى منهم قاتل أبيه لينتقم منه.

جليلة : قاتل أمية بن خلف؟

عقبة : نعم.

جليلة : وما اسم هذا القاتل؟

عقبة : زيد بن الدثنّة.

جليلة : ودفع فيه صفوان خمسين من الإبل؟

عقبة : نعم.

جليلة : إذن والله ليثرينّ الهذليون من ذلك.

عقبة : (يضحك) أجل. ليتركن تجارة الأنعام. وليتّجرن في أتباع محمد. (يخرج).

جليلة : (لابنها الصبي) انزل بنا يا عامر إلى هذا الأسير لنضربه ونعذبه. خذ تلك العصا معك.

عامر : لكن يا أُمه...

جليلة : أليس برجليه القيد؟

عامر : بلى يا أمه.

جليلة : فأي شيء تخشى منه؟

عامر : لست أخشى شيئاً منه ولكنه لا يستحق الضرب. إنه رجل طيب.

جليلة : ويلك هذا قاتل جدّك الحارث يا لُكَع.

عامر : ما أحسب مثل هذا الرجل يقتل أحداً يا أماه. لقد نظرت إليه من الباب. فلما رآني حيّاني وابتسم.

جليلة : اسكت. لو سمعك خالك عقبة تقول هذا لأدّبك فأوجعك. هيا خذ تلك العصا وانزل معي إلى المربد.

(يأخذ عامر العصا وهو كاره ويخرج خلف والدته)



— ٢ —

في المربد... مكان مظلم له باب محكم خبيب جالس على الأرض وفي رجليه القيد الثقيل وجليلة وابنها عامر يضربانه بالعصيّ.

خبيب : (يردد كلما ضرب ضربة) الحمد لله! الحمد لله!

جليلة : (في غيظ) ويلك! تُضرب وتقول الحمد لله؟ أهكذا أمركم صاحبكم محمد؟

خبيب : أجل يا أخت بني الحارث. إن نبينا (ﷺ) أوصانا بالصبر على ما نلقى في ديننا من مكروه.

جليلة : فدعه الآن ينفعك.

خبيب : إنه قد نفعنا وسينفعنا دائماً يا أخت بني الحارث.

جليلة : كيف؟ ويلك!

خبيب : لقد وعدنا أن مَن يقتل منا في سبيل الله فله الجنة.

جليلة : هيهات، ما وعدكم إلا غرورا.

خبيب : يا أخت بني الحارث لو قد سمعت من محمد كما سمعنا ما قلت هذا. أتحبين أن أسمعك شيئاً مما جاء به من عند الله؟

جليلة : (تضربه) كلا، لا أريد أن أسمع شيئاً.

خبيب : إذن يفوتك خير كثير.

جليلة : اسكت، والله لأضربنك حتى تكفر بصاحبك.

خبيب : هيهات! إنك لن تجني من ضربي غير أن تكل يدك.

جليلة : (تضربه بقوة) اضرب يا عامر!

خبيب : وتكل يد صبيك هذا.

جليلة : لا شأن لك، اضرب يا عامر.

عامر : هأنذا أضربه يا أمه.(يضربه على كره).

جليلة : اضربه بشدة... بكل قوتك. (تمضي في ضربه).

خبيب : الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله!

جليلة : أمسك عن هذا القول، ويلك!

خبيب : لو أمسكت عنه لأوجعني ضربك، إنه هو الذي يدرأ عني الوجع، ما بالكِ وقفت عن الضرب؟ أو قد كلَّت يدك؟ أريحيها قليلاً ثم عاودي ما أنت فيه.

جليلة : (في غيظ) الساعة يأتي عقبة أخي فيضربك ويوجعك.

خبيب : أجل يا أم عامر، دعي أخاك يفعل ذلك فهو أقوى منك ومن هذا الصبي الذي دفعته إلى ضربي فأرهقته.

❁ ❁ ❁

- ٣ -

عامر : (يجيء إلى المربد متلصصا ويدخل رأسه من الباب) هل لي أن أدخل عندك أيها الأسير؟

خبيب : (في حنان) عَامر! ادخل يا بني.

عامر : ولا تؤذيني أو تبطش بي؟

خبيب : معاذ الله، إني لأعلم أن أمك هي التي دفعتك إلى ضربي وأنت كاره.

عامر : أجل إنها هي التي أكرهتني. وقد قلت لها إنك رجل طيب فلم تصدقني. خبرني، أحقاً قتلت أنت جدي الحارث بن عامر؟

خبيب : نعم يا بني، جدك أراد قتلي فقتلته.

عامر : وكنت تعرف أنه جدي؟

خبيب : لا يا بني، ما كنت أعرف أنه جدك.

(يدخل عامر حتى يقف قريباً من خبيب).

عامر : ما دمت لا تعرف أنه جدي فليس بيني وبينك شيء.

خبيب : أجل ليس بيني وبينك غير المودة والمعروف.

عامر : أنت تحبني؟

خبيب : إي والله يا عامر.

عامر : إن كنت تحبني حقاً فاحك لي قصة الرجل الذي حمته الزنابير.

خبيب : أو قد سمعت أنت عنها؟

عامر : سمعت طرفاً منها وأريدها كاملة منك. ألست كنت معه؟

خبيب : بلى يا بني. ذاك رئيسنا عاصم بن ثابت الأنصاري ما زال يقاتل بني هذيل الذين غدروا بنا حتى قتل فأرادوا أن يجتزوا رأسه ليقدموه لامرأة في مكة كان قد قتل لها ابنين في بدر فجعلت لمن يأتيها برأسه مائة ناقة.

عامر : أنا أعرفها يا عم. أعرف تلك المرأة هي سلافة من آل عبد الدار التي نذرت إن قدرت على رأسه لتشربن في قحفه الخمر. لكن ما قصة الزنابير؟ أحقاً كانت كبيرة جدا كل واحد منها في حجم الحدأة؟

خبيب : لا تصدقهم، إنها زنابير في الحجم المعتاد طفقت تذب عن جسد عاصم وتلسع كل من يقترب منه إلى أن جاء السيل فاحتمله وذهب به حيث أراد الله.

عامر : يقولون إنه ساحر.

خبيب : لا تصدقهم يا عامر، بل هو رجل مؤمن شجاع دعا ربه دعوة فاستجابها له.

عامر : ماذا دعا؟

خبيب : كان قد قاتلهم طوال النهار فلما أيقن بالموت وخشي أن يمثلوا بجثته دعا ربه فقال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار، فاحم جسدي آخره.

عامر : ما دام ربه يستجيب له فلماذا لم يدعه أن ينقذه من القتل؟

خبيب : إنه آثر أن يموت شهيداً في سبيل الله ليدخله الله الجنة.

عامر : خبرني ماذا في الجنة يا عم؟

خبيب : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

عامر : هل أستطيع أنا أن أدخلها؟

خبيب : نعم إذا آمنت بالله وبرسوله وعملت عملاً صالحا.

عامر : (بعد صمت يسير) اسمع يا عم... ليس في البيت أحد فهل لك في شيء أحضره لك؟

خبيب : نعم احضر لي موسى يا بني.

عامر : موسى.. ماذا تصنع بها؟

خبيب : إنهم سيقتلونني غداً فأريد أن أستحد بها وأتطهر حتى ألقى ربي وأنا في هيئة حسنة.

عامر : وأين تلقى ربك؟

خبيب : في الجنة إن شاء الله.

عامر : انتظر قليلاً... سأحضرها لك. (يخرج).

❁ ❁ ❁

— ٤ —

نفس المنظر السابق. خبيب يسوّي شعر لحيته وشاربه بشفرة وبجانبه عامر يصغي إلى قصة يقصها عليه.

عامر : أجميل هو؟

خبيب : جميل جداً وطيب جداً وشجاع جداً. آه لو رأيته (ﷺ) لأحببته يا عامر ولو رآك هو لأحبك!

(يسمع صوت جارية من الخارج وهي تصيح في رعب)

الصوت : سيدتي! سيدتي! ابنك عامر قاعد عند الأسير وفي يده شفرة ماضية.

جليلة : (صوتها) في يد من؟

الجارية : (صوتها) في يد الرجل!

جليلة : (صوتها) يا ويلتا سيثكلني الولد كما أثكلني الوالد. انطلقي إلى سيدك عقبة فادعيه. (تدخل جليلة وهي مرعوبة).

جليلة : ويلك ماذا تصنع بولدي؟

خبيب : (يجذب عامر إليه) قد أمكنني الله منكم مرة أخرى يا أخت بني الحارث.

جليلة : كلا لا تفعل، حنانك إنه صبي صغير وليس لي غيره. أليس في قلبك رحمة؟

عامر : لا تخافي يا أُمه، إنه إنما يمزح معك.

جليلة : أيمزح وفي يده الحديدة؟

خبيب : لا تراعي يا أم عامر، إنما أردت أن أريك أنني قادر عليه لو شئت، ولكن ديني ينهاني عن ذلك وما كانت لأفعله ولو لم ينهني ديني، اذهب يا بني إلى أمك.

عامر : لا، حتى اسمع بقية القصة.

جليلة : ويلك تعال يا شقي!

خبيب : اذهب إليها يا بني وسأتم لك قصتي فيما بعد.

(يدنو الصبي من أمه فتحتضنه في فرح وهي لا تكاد تصدق أنه حي بعد).



ـ ٥ ـ

في العراء خارج مكة وقد نصبت خشبة من جذوع النخل ليصلبوا خبيباً عليها في نشز مرتفع من الأرض. خبيب يسوقه عقبة واثنان آخران وخلفهم جليلة وعامر الصبي. ومن خارج المشهد تسمع أصوات الجمهور من الخلق الذين خرجوا ليشهدوا صلب خبيب وقتله.

خبيب : إن كنتم تريدون قتلي الساعة فدعوني أصلي ركعتين قبل أن تقتلوني.

أصوات : كلا لا تجيبوه إلى طلبه. اقتله يا عقبة! اقتله يا عقبة!

جليلة : مهلاً يا عقبة، أجب هذا الرجل إلى طلبه، فمن حقه أن يجاب. (همهمة استنكار من الجمع).

عقبة : ما خطبك يا أم عامر؟

جليلة : إن له يداً عندي يا عقبة، كان في وسعه أن يقتل عامراً ابني فلم يفعل.

عامر : أجل يا خالي أجبه إلى طلبه.

عقبة : صل يا هذا ما شئت واسرع.

خبيب : (يكبر للصلاة) الله أكبر.

❀ ❀ ❀

ـ ٦ ـ

خبيب : (يسلم من صلاته) السلام عليكم ورحمة الله. السلام عليكم ورحمة الله (ينهض قائماً). والله لو لا أن تحسبوا أن ما بي من جزع لزدت، هيا اقتلوني الساعة.

عقبة : هلم ارق هذه الخشبة.

خبيب : ويلكم أتريدون أن تصلبوني؟

عقبة : نعم، هل جزعت؟

خبيب : يا هذا إن المسلم لا يجزع من الشهادة.

(عقبة وصاحباه يشدونه إلى الخشبة بالحبال).

خبيب : الحمد لله، الحمد لله. (يهم عقبة بقلته).

أصوات : مهلاً يا عقبة، دعنا نسأله أولاً: أتحب يا هذا أن محمداً مكانك؟

خبيب : لا والله ما أحب أن يؤذى محمد بشوكة في قدمه.

أصوات : ارجع عن الإسلام لنخلي سبيلك ولا نقتلك.

خبيب : ساء ما قلتم يا جند الباطل. (يدعو) اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً.

عقبة : سمعتم ما يقول كيف يدعو عليكم؟ إني لن أقتله وحدي، هلموا كل من بيده رمح فليطعنه معي.

أصوات : أجل دعونا نتعاوره برماحنا من كل جانب.

خبيب : اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عني السلام، فبلغه أنت عني السلام.

(تسمع حركة الرماح وهي تندق في خبيب والصبي وأمه يشيحان بوجهيهما عن المنظر وصوت خبيب من خـــلال الضوضاء والأصوات يقول:

بلّغه يا رب عني السلام!

(ختـــــــــــــــــام)

❁ ❁ ❁

---

٥) بلغه يارب عني السلام:(الأسير الكريم خبيب بن عدي)، نشرت في كتـــاب: من فوق سبع سموات ضمن سبع مسرحيات لباكثير، مكتبة مصر، القـــاهرة، بدون تاريخ. ومجلة الفيصل، العدد (٢٠٢)

بيت أمير المؤمنين عمر بالمدينة

(يدخل عمر من خارج المنزل)

عمـــر : ألم تأت الشفّاء بعد يا عاتكة؟

عاتكة : لا، لم تأت بعد، لعلك تنتظر منها أن تأتيك بأخبار جدد؟

عمـــر : نعم.

عاتكة : أصبحت يا أمير المؤمنين ولا هم لك إلا ما تتسقطه لـــك الشفّاء من أسرار النساء.

عمر : ويحك إني لأرجو أن يفض الله لي أسرار هـــذا الأمـــر وتفاصيله حتى يوفقني لعلاجه على هدى وبصيرة. أوقـــد نسيت يا عاتكة أنني أخذت على نفسي للمسلمين عهدا من فوق منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم إذا غـــابوا في البعوث فأنا أبو العيال؟

عاتكة : ولا كل هذا يا أمير المؤمنين. ما أنت وما يهتفن به فـــي مخادعهن؟

عمـــر : ذلك أصدق شيء يخبر عنهن. والله مـــا فرحـــت بـــشعر سمعته من أحد قط فرحي بما سمعته مـــن تلـــك المـــرأة المغيبة وهي تقول من حيث لا تتوقع أن يسمعها أحد:

تطاول هذا الليـل واخضـــلّ جانبــه
وأرقنـــــــي ألا خليــــل ألاعبــــه
فــوالله لــــولا الله - لا رب غــــــيره
لحُّــرك من هــذا السريــر جوانبـــه

عاتكة : أعجبك هذا الشعر يا أمير المؤمنين؟

عمــر : أعجبني أو لم يعجبني! فقد نبهني إلى أمر كنــت غـافلاً عنه. لأجعلن للبعوث أمدا لا يتجاوزونه فلا يغيب الرجل عن امرأته أكثر مما تحتمل.

عاتكة : وتلك التي سمعتها تقول:
هل من سبيــل إلى خمر فأشربها
أو من سبيل إلى نصر بن حجاج
ماذا أنت صانع بها؟

عمــر : قد أمرت الشفّاء فتحرت عنها، فوجدت أنهــا امــرأة ذات عفاف ودين، وأن الشعر ليس لها وإنما تمثلت به.

عاتكة : فلمن هو إذن؟

عمــر : لنصر بن حجاج وعصابته من الفتيــان الرقعــاء، فهــم ينظمون هذه الأشعار لتترنم بها العواتق في خدورهن.

عاتكة : وتركتهم يا أمير المؤمنين؟

عمــر : كلا، لقد تحريت عنهم وأرسلت في طلبهم. والله لأجعلنهم نكالاً لغيرهم.

أسلم : (يظهر على الباب). يزيد ابن أخــت النمــر يــا أميــر المؤمنين.

عمـــر : دعه يدخل. (تنسحب عاتكة).

(يدخل يزيد ومعه نصر بن حجاج وأبو ذئب السَّلَمِيَّان وقد تكحل كل واحد منهما، وزجج حواجبه، ورجَّل جمته على هيئة خاصة، ولاث عليها عمامته بحيث تظهر الشطر الأكبر من الجمة).

يزيـــد : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

عمـــر : وعليكم السلام يا يزيد ورحمة الله. (يلتفت إلى نصر) أنت يا هذا نصر بن حجاج؟

نصـــر : نعم يا أمير المؤمنين.

عمـــر : (لأبي ذئب) وأنت ذئبهن؟

أبو ذئب : أنا أبو ذئب يا أمير المؤمنين؟

عمـــر : ترى أيكما أعدى الآخر؟

نصـــر : بأي شيء يا أمير المؤمنين؟

عمـــر : بهذا التأنث والتخنث.

نصـــر : أتجدنا كذلك يا أمير المؤمنين؟ إنما أردنا أن نتجمل ونبدو في أحسن صورة.

عمـــر : ويلكما ما هكذا يصنع الرجال، إنما يصنع هذا النساء!

أبوذئب : أصلحك الله يا أمير المؤمنين. هذا مختلف عما تصنعه النساء.

عمـــر : وهذه الجمة الناتئة إلى العلا كأنها قرن الشيطان.

نصـــر : هذه نحن ابتدعناها يا أمير المؤمنين ولا تعرفها النساء.

عمــر : بخ! بخ! فقد قلتما النساء.

أبوذئب : إنهن يا أمير المؤمنين لا يلثن العمائم هكذا على جممهن.

عمــر : ليت يا أبا ذئب! غداً يتشبهن بك وبابن عمك، خبّراني هل خرجتما للجهاد قط؟

نصــر : لا يا أمير المؤمنين.

عمــر : إنكما لشابان جلْدان فما أخركما عن الجهاد؟

نصــر : أنت منعتنا من ذلك يا أمير المؤمنين.

عمــر : متى جئتما فمنعتكما؟

نصــر : إنك أصدرت أمراً يا أمير المؤمنين أن من له أب كبير وأم عجوز فليس له أن يتركهما ويخرج إلى الجهاد وأنا لي أم عجوز.

أبوذئب : وأنا لي أبوان كبيران.

عمــر : (يرفع يديه إلى السماء): اللهم اغفر لعمر ما يعلم وما لا يعلم. خبرني يا نصر ما عملك؟

نصــر : لا عمل لي يا أمير المؤمنين.

عمــر : وأنت يا أبا ذئب؟

أبوذئب : وأنا كذلك لا عمل لي يا أمير المؤمنين.

عمــر : فمن أين إذن تعيشان؟

نصــر : إن أبي ترك لنا ميراثاً حسناً يا أمير المؤمنين.

أبوذئب : وأبواي موسران وأنا في كنفهما أعيش.

أسلم : جرير بن عبد الله البجلي يا أمير المؤمنين.

عمــر : دعه يدخل.

(يدخل جرير بن عبد الله البجلي)

جرير : أرسلت في طلبي يا أمير المؤمنين؟

عمـــر : نعم ليراك هذان الفتيان من بني سليم، اللذان يتزينان كمـــا تتزين النساء. انظرا إلى يوسف هذه الأمة. ويلكما هكـــذا جمال الرجال.

نصـــر : لكل منا أسلوبه في التجمل والتزين يا أمير المؤمنين.

عمـــر : اخلع عمامتك يا نصر. (يخلـــع نـــصر عمامتـــه برفـــق) أعطنيها (يقلبها عمر متعجبا) ترى كم تقضي من الوقـــت في لوث هذه العمامة؟ (يبعجها).

نصـــر : (يصيح) دعها يا أمير المؤمنين، لا تحلها، دعها بربك.

عمـــر : ألا تستطيع أن تعقدها مرة أخرى؟

نصـــر : بعد لأي وجهد يا أمير المؤمنين.

عمـــر : تعال ادنُ مني يا أبا ذئب. (يدنو منه أبو ذئب فـــي حـــذر فينزع عنه عمامته بشدة)

أبوذئب : (يصيح كالمستغيث) : الجمة يا أمير المؤمنين!

عمـــر : ما بالها؟

أبوذئب : أفسدتها إذ نزعت العمامة بشدة.

عمـــر : فلأجزنها لك يا لكع. يا يزيد جُزّ ناصيته وناصية نصر بن حجاج.

نصـــر : حنانيك يا أمير المؤمنين لا تفعل.

أبوذئب : ليس لك يا أمير المؤمنين أن تفعل ذلك!

نصـــر : الله أنبتها وليس لك أن تجزها.

عمـــر : الله أنبتها ولأجزنها ولا كرامة.

يــزيد : (يدنو من نصر بالمقص في يده فيتباعد عنه نصر) ويلك أتعصي أمير المؤمنين؟

نصـــر : ليس على أن أطيعه فيما لا يعنيه من أمري.

عمـــر : كيف لا يعنيني أمرك يا عدو الله وأنت تستغوي النساء بما تصقل من هيئتك، وترخـــي مـــن إزارك، وترســـل مـــن أشعارك؟

نصـــر : معاذ الله يا أمير المؤمنين!

عمـــر : ويلك! أتظنني غافلاً عنك وعن أشباهك؟ هل من سبيل إلى خمر فأشربها؟ أو من سبيل إلى نصر بن حجاج؟ ألـــست أنت الذي تصنع هذا الشعر لتتمثـــل بـــه العواتـــق فـــي خدورهن؟ أمسكه يا جرير ليجز يزيد ناصـــيته. (يمـــسكه جرير فلا يستطيع حراكاً فيجز يزيد ناصيته).

نصـــر : يا أمير المؤمنين لو كانت لك جمة مثلها لضننت بها على الجز، ولكنها غيرة الأصلع من الأقرع!

عمـــر : عليك الآن بأبي ذئب فجز ناصيته.(يمسكه جريـــر فيجـــز يزيد ناصية أبي ذئب).

أبوذئب : لقد ظلمتنا يا عمر ولم تكن من العادلين.

عمـــر : أجل لقد ظلمتكما إذ أعفيتكما من الجهاد فصرتما إلى مـــا صرتما إليه. يا جرير بن عبد الله: إني قد عهـــدت بهمـــا إليك فتربيهما وتدفعهما في ميادين القتـــال حتـــى يكونـــا رجلين.

جرير : إني مرتحل غداً يا أمير المؤمنين.

عمـــر : فخذهما معك.

أبوذئب : وأبواي يا أمير المؤمنين من ذا يقوم بشأنهما؟

عمـــر : أنا أقوم بشأنهما ولأكونن أبر بهما منك.

نصـــر : وأمي يا أمير المؤمنين ألا ترق لحالها؟

عمـــر : إنما أرق لحالها حين أُقصي عنها بلاءك وشرك. انصرفا الآن. خذهما يا جرير إليك واتفق معهمـــا علـــى موعـــد الرحيل من الغد.

(يخرج جرير ونصر بن حجاج وأبوذئب)

(تدخل عاتكة)

عاتكة : الشفّاء يا أمير المؤمنين قد حضرت منذ قليل.

عمـــر : أين هي؟ دعيها تدخل.

عاتكة : ادخلي يا أم عبد الله.

(تدخل الشفاء)

الشفاء : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

عمـــر : وعليك السلام ورحمة الله. ويحك يا شفاء ماذا أخرك؟

الشفاء : ستعذرني يا أمير المؤمنين إذا سمعت حديثي.

عمـــر : حدثيني يا ابنة العم.

الشفاء : ذهبت إلى أم نصر بن حجاج، وأم أبي ذئب كما أمرتنـــي فوجدتهما غير راضيتين عن ولديهما، ولكنهما زعمتـــا أن الذي أفسد ابنيهما هو جعدة السلمي.

عمـــر : ومن جعدة السلمي؟

الشفاء : أدركت من حديثهما عنه يا أمير المؤمنين أنه هو الأبيض الشيظمي الذي كنت تبحث عنه.

عمـــر : صاحب بقيلة الأشجعي؟

الشفاء : نعم، فرأيت يا أمير المؤمنين أن أتــصل بامرأتـــه لعلـــي أعرف المزيد منها عنه.

عمـــر : واتصلت بامرأته؟

الشفاء : نعم، فذلك هو الذي أخرني.

عمـــر : إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصـــه.. أحسنت يا أم عبد الله، فماذا عرفت منها عن زوجها؟

الشفاء : إني أحضرتها معي يا أمير المؤمنين لتسألها بنفسك.

عمـــر : فأين هي؟

الشفاء : (تدنو من الباب الداخلي) ادخلي يـــا ســلمى عنـــد أميـــر المؤمنين. (تدخل سلمى) حدثي أمير المؤمنين يـــا ســـلمى عن زوجك.

سلمى : يا أمير المؤمنين كان زوجي يكون من أفضل الرجال لولا تلك الخصلة فيه.

عمـــر : وما هي يا سلمى؟

سلمى : أنه غَزِل صاحب نساء. يُحدّثهن ويُضحكهن ويُمازحهن... فكُنَّ يستلطفن مجلسه ويجتمعن حوله.

عمـــر : أكان يعقلهن بالحبال؟

سلمى : كيف عرفت يا أمير المؤمنين؟

عمـــر : من قول بقيلة الأشجعي في أبيات له وجهها إلي:

قلائـــصنا هـــداك الله أنـــا شغلنا عنكم زمن الحـــصار

يعقلهـــن أبـــيض شـــيظمي وبئس معقل الذود الخيـــار

سلمى : أجل يا أمير المؤمنين إنه ليعقل المرأة منهن ثم يأمرها أن تثب، ويزعم لها أن المرأة الحَصان تثب في العقال، فـإذا وثبت سقطت، فتتكشف، فيتضاحكن من ذلك!

عمـــر : لا حول ولا قوة إلا بالله، يا ويل عمر! أيحدث كل هذا في ظهر المدينة وعمر على الناس؟

سلمى : لا أحب أن أظلمه يا أمير المؤمنين. إنه يفعل ذلك لغيـر ريبة إلا المداعبة والممازحة ولولا الغيرة ما شكوته إليك.

عمـــر : قبحه الله من رجل سوء! إخوانه يجاهدون في سـبيل الله وهو قاعد يمازح نساءهم ؟ لا والله لا يكون هذا أبداً.

سلمى : ماذا أنت فاعل به يا أمير المؤمنين؟

عمـــر : لأنفينه إلى بلد بعيد لا يعرف أحداً فيه ولا يعرفه أحد.

سلمى : وإذا صلح هناك واستقام أتعيده يا أميـر المـؤمنين إلـى المدينة؟

عمـــر : نعم.

سلمى : إذن فانفني معه يا أمير المؤمنين؟

عمـــر : وما ذنبك أنت؟

سلمى : إني أحبه يا أمير المؤمنين وأرجو أن يـصلحه الله بهـذا النفي.

عمر : بوركت من امرأة صالحة. اذهبي معه إن شئت فإذا رأيته قد تاب واستقام فاكتبي إلي لآذن له بالرجوع إذا أحب.

سلمى : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين.. وأخرى أريدها منك.

عمر : اقترحي.

سلمى : ألاّ يعلم جعدة أني شكوته إليك.

عمر : كلا ما شكوته أنت، بقيلة الأشجعي هو الذي شكاه.

(تستأذن سلمى وتنصرف)

الشفاء : (تنهض) هل من مهمة أخرى يا أمير المؤمنين اليوم؟

عمر : نعم، استقرئي لي من النساء: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ حتى أكتب إلى الآفاق ألا يغيب الرجل عن امرأته في البعوث أطول من ذلك.

الشفاء : أمهلني إذن يا أمير المؤمنين يوماً أو يومين حتى أسأل لك عدداً كبيراً منهن.

عمر : قد فعلت يا أم عبد الله.

(تخرج الشفّاء)

عاتكة : (تدنو من عمر وتتنفس الصعداء) الحمد لله يا أمير المؤمنين.

عمر : على ماذا؟

عاتكة : على أن فرغت من هذه الأمور.

عمر : هيهات يا عاتكة! رب أمور أخرى أنا غافل عنها سيحاسبني الله عليها يوم القيامة.

عاتكة : ويلي عليك يا عمر. أبعد الروم وفارس، وهرقل ويزدجرد تشغل نفسك بجعدة وامرأة جعدة، وأبي ذئب وأم أبي ذئب؟

(ستـــــــار)

❁ ❁ ❁

---

٦) بيت عمر بالمدينة (تحري عمر بن الخطاب عن أحوال رعيته) نـــشرت فـــي مجلة الفيصل، العدد(١٨٦)

ثلاثة أيام مع رهين المحبسين

(أبي العلاء المعري)

اليوم الأول : (أبو العلاء المعري يصلي ركعتي الضحى وعنده تلميذه ابن أبي هاشم)

أبو العلاء : (يسلم من صلاته وهو يرتجف من البرد) أبغني ردائي يا ابن أبي هاشم.

ابن أبي هاشم : هذا من وضوئك بالماء البارد يا سيدي الشيخ. فلو توضأت بالماء الذي سخنته لك...

أبو العلاء : كلا يا ابن أبي هاشم، مالي وللماء الحميم؟ إن على التخوم لمجاهدين مرابطين في العراء يدفعون عنا العدو، فإذا لم أحتمل الماء بارداً فأنى يكون جهادي؟

ابن أبي هاشم : هاهو ذا رداؤك.

أبو العلاء : (يلتحف بالرداء) بارك الله فيك... هل لي الآن أن أملي عليك؟

ابن أبي هاشم : (يسرع إلى كراسته وقلمه) أملِ يا سيدي:

أبو العلاء :

أجاهـــد بالطهارة حين أشتـــو

وذاك جهـــاد مثلي والربـــاط

مضى كانون ما استعملـــت فيه

حميم الماء فاقـــدم يا شبـــاط

صوت : (ينادي من الخارج) يا أبا العلاء! يا أبا العلاء!

ابن أبي هاشم : هذا أبو يوسف القزويني قد جاء ليؤذيك ويضايقك، فهل لي يا سيدي أن أصرفه عنك؟

أبو العلاء : بل ائذن له وأحسن استقباله.

ابن أبي هاشم : إنه يشنؤك ويحقد عليك.

أبو العلاء : لكني لا أشنؤه ولا أحقد عليه... دعه يدخل.

(يفتح ابن أبي هاشم الباب الأيمن فيدخل أبو يوسف)

أبو يوسف : السلام عليكم يا أبا العلاء.

أبو العلاء : وعليك السلام ورحمة الله، مرحباً بك يا أبا يوسف، ابسط له هذه السجادة يا ابن أبي هاشم.

أبو يوسف : بل ابق مكانك يا أبا العلاء... فهأنذا قعدت على هذه اللبدة بجانبك.

أبو العلاء : أهلاً بك ومرحباً.

أبو يوسف : ليت شعري أكنت تصلي الصبح يا أبا العلاء؟

أبو العلاء : بل نافلة الضحى يا أبا يوسف.

أبو يوسف : نافلة الضحى! ما أرى الضحى والصبح إلا سواء عندك يا أبا العلاء؟

أبو العلاء : أجل، كلتاهما لله عزوجل!

ابن أبي هاشم : إنه يعرض يا سيدي ببصرك!

أبو العلاء : بل بشيء آخر وقد أجبته، والله يغفر لنا وله.

أبو يوسف : كلا ما قصدت تعريضاً... وإنما غلبتني الشفقة ألا يبصر النور مَن عنده مثل ذكاء الشيخ وفطنته!

أبو العلاء : لا ترث لي، إني لأحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر.

أبو يوسف : صدقت، لا يحمد على المكروه سواه.

أبو العلاء : كلا يا أبا يوسف، ما هذا عندي بمكروه بل نعمة لقد صنع لي ربي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء.

أبو يوسف : أتهجوني يا أبا العلاء؟

أبو العلاء : معاذ الله أن أهجو ضيفي.

أبو يوسف : لا غرو أن هجوتني فقد هجوت من هم خير مني!

أبو العلاء : ويحك إني لأكره ما يتعاطى الشعراء من الهجاء وقد أسقطت هذا الباب من شعري، فما هجوت أحداً قط.

أبو يوسف : صدقت يا أبا العلاء، لم تهج أحداً إلا الأنبياء!

أبو العلاء : (متألما) الأنبياء؟

أبو يوسف : نعم.. ألست القائل:

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا فبادت سنة اللوماء

أبو العلاء : بلى قد قلت ذلك ولكني ما عنيت الأنبياء، فإنهم لم يجمعوا حطاماً وإنما جمعه آخرون فإياهم عنيت.

أبو يوسف : وما تقول في قولك:

إذا رجع الحصيف إلى حِجاه تهـاون بالشرائع وازدراها؟

أبو العلاء : قلت: المذاهب لا الشرائع.

أبو يوسف : بل قلت الشرائع.. هكذا رويته عن تلاميذك.

أبو العلاء : سامحهم الله، يخطئون الرواية عني وأنا بعد حيّ!

أبو يوسف : بل هكذا أمليت عليهم فلا تتنصل!

أبو العلاء : أو قد ظننت أنني أتنصل؟ إذن فاروه عني كما تشاء، فليس بين المذاهب والشرائع كبير فرق فيما قصدت.

أبو يوسف : أو تزدري الشرائع يا شيخ، ثم تصلي الضحى وتقول إنك مسلم؟

أبو العلاء : ويحك إني ما ازدريتها إلا لأني مسلم.

أبو يوسف : إنك تقصد شريعتنا.

أبو العلاء : نعم، كيف لا أزدريها اليوم وقد صار علماؤها يرون الماخور يبنى بجوار الجامع في بلدتهم فلا ينكرون.

مساجدكم ومواخيركم سواء فتبا لكم من بشر!

أبو يوسف : إنما تتكلف هذا التأويل تقية منك.

أبو العلاء : يغفر الله لك... إن كنت لا أخشى الله ربي فكيف أخشى من دونه؟ (يتنهد) ما للناس ومالي؟ قد تركت لهم دنياهم فماذا يبتغون عندي؟

أبو يوسف : بل تركت لهم الآخرة كذلك!

أبو العلاء : (في أسى) سامحك الله يا أبا يوسف!

حوربت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا

أبو يوسف : أي زهد هذا؟ إنك لتحرّم ما أحل الله من الطيبات.

أبو العلاء : ما أنا برسول فأحلل وأحرم، ولكني زهدت في ذلك رحمة بالحيوان.

أبو يوسف : معاذ الله...

أبو العلاء : هو أحكم وأرحم سبحانه، غير أني مخلوق ضعيف وتلك رقة أجدها في نفسي لا أملك لها دفعاً... فيجري ذلك في شعري كما يجري النسيب والبكاء في أشعار المتيمين من الشعراء، فإن يكن ذلك ذنباً، فالله أسأل أن يغفره لي، فما أنا بمعصوم وإن لي لذنوباً جمة لا يعلمها الناس، ويعلمها الله وحده.

أبو يوسف : بل جريت في ذلك على مذهب البراهمة واتبعت دينهم.

أبو العلاء : الله أعلم بسريرتي منك ومن نفسي..

ليفعل الدهر ما يهم به   إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تيأس النفس من تفضّله   ولو أقامت في النار ألف سنه

(يقرع الباب فينهض ابن أبي هاشم ثم يعود فيسار أبا العلاء بحديث)

أبو العلاء : لا يكن هذا سراً على أبي يوسف فيظن ظناً وبعض الظن إثم، هذه جارتك يا أبا يوسف.

أبو يوسف : جارتي؟

أبو العلاء : نعم، أم عيسى الدمشقية.

أبو يوسف : التي تعمل في الماخور؟

أبو العلاء : نعم.

أبو يوسف : وتريد أن تدخلها عندك؟

أبو العلاء : إنما تعمل خادماً فيه لتعول نفسها وعيالها.

أبو يوسف : ما يدريك؟ ائذن لي انصرف.

أبو العلاء : لعلها جاءت لتشكو لي حالها فلا عليك أن تبقى.

أبو يوسف : كلا إني لا أجالس النساء!

أبو العلاء : سامحك الله، وهل تراني ممن يجالسهن؟

أبو يوسف : ما ينبغي ذلك لمن حج مثلي واعتمر... ائذن لي أنصرف.

أبو العلاء : كما تشاء، وأشكرك على زيارتك.

أبو يوسف : لله الشكر! (يخرج).

ابن أبي هاشم : إلى حيث ألقت! (يأذن لأم عيسى فتدخل).

أم عيسى : أصلحك الله يا أبا العلاء يا سيد الناس!

أبو العلاء : مرحباً بأم عيسى، لعلك بخير.

أم عيسى : أهذا أبو يوسف القزويني الذي قام مِن عندك؟

أبو العلاء : نعم، جارك يا أم عيسى.

أم عيسى : بئس الجار هو، يسمع عيالي يتضاغوْن جوعاً بعد وفاة أبيهم فما حدثته نفسه بأن يواسينا يوماً قط. آه يا أبا العلاء لو كان في قلوب هؤلاء الناس رحمة... لو عطفوا علينا مثلك أفكنت أضطر إلى الخدمة في ماخور هذا العلج الرومي؟ حسبهم الله!

أبو العلاء : اكتب عندك يا ابن أبي هاشم.

ابن أبي هاشم : (يستعد للكتابة) نعم يا سيدي.

أبو العلاء :

توهمت يا مغرور أنك ذو دين علىّ يمـــين الله، مالك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكاً ويشكـوك جار بائس وخدين

أم عيسى : الويل على أهل هذا البلد! الويل على هذا البلد!

أبو العلاء : مهلاً يا أم عيسى لا تسبي بلداً يحبنا ونحبه.

أم عيسى : حاشاك أنت وحدك يا أبا العلاء (أضحوا جميعاً يزوّرون عني ويظنون بي الظنون).

أبو العلاء : هوّني عليك فالله يعلم أنك محمولة على ذلك لإعاشة عيالك، ولعل الله يجعل لك بعد عسر يسرا... كم تحتاجين اليوم؟

أم عيسى : كلا يا سيدي، ما لهذا جئت اليوم (تنشج باكية).

أبو العلاء : تبكين يا أم عيسى؟ ما خطبك؟

أم عيسى : هذا العلج الرومي...

أبو العلاء : ما باله؟

أم عيسى : آه يا سيدي! لا أدري كيف أقولها لك؟ ما ينبغي لمثلك أن يسمعها!

أبو العلاء : بل حدثيني لعلي أستطيع أن أصنع لك شيئاً، ما بال الرومي؟

أم عيسى : أخذ يراودني عن نفسي...

ابن أبي هاشم : ويل للكلب!

أبو العلاء : أعرضي عنه فلن يقدر على إرغامك... إنه فيما أعلم شيخ كبير.

أم عيسى : إنه يا سيدي لا يريدني لنفسه، بل للخراب الذين يترددون على ماخوره.

أبو العلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله!

أم عيسى : وقد هددني بالطرد إن لم أفعل، فماذا أصنع يا أبا العلاء؟

أبو العلاء : استعصمي واصبري حتى يجعل الله لك مخرجاً.

أم عيسى : هل أترك عيالي يموتون من جوع؟

أبو العلاء : (يتنهد) ليت هؤلاء المصلين يعلمون؟ ليتك تصيحين فيهم يوماً ليروا كيف تُنتهك الحرمات بجوار جامعهم لعلهم ينتبهون؟

أم عيسى : لقد نبهت مني غافلة! والله لأعلننها اليوم في صلاة الجمعة!

أبو العلاء : لكن يا أم عيسى...

أم عيسى : (تنهض) دعني يا سيدي... سأرى إن كان فيهم بقية من نخوة؟

ابن أبي هاشم : حذار أن تخبري أحداً بأن الشيخ هو الذي اقترح عليك.

أبو العلاء : أجل فإنهم يتجنون عليّ كما تعلمين.

أم عيسى : كلا يا سيدي.. لا تعرفني ولا أعرفك. ما كان أحراني أن أفعل هذا من تلقاء نفسي. أستودعك الله يا أبا العلاء (تنصرف).

أبو العلاء : (يُطرق ملياً ويعتريه الوجوم)

ابن أبي هاشم : هل تريد يا سيدي أن أصنع لك شيئاً؟

أبو العلاء : لا وأشكرك، إن كنت تريد أن تتجهز لشهود الجمعة فافعل.

ابن أبي هاشم : أجل يا سيدي، سأعود إليك من العصر.

أبو العلاء : صحبتك السلامة.

(يخرج ابن أبي هاشم)

(ينفتح الباب الأيسر المؤدي إلى داخل الدار فتدخل امرأة شابة في رفق وأناة حتى تقف خلف أبي العلاء دون أن يشعر بها فتضع كفيها على عينيه مازحة).

أبو العلاء : سبحان الله! مَن هذا؟ (يتحسس يدها) هيه فاطمة!

فاطمة : (تضحك) كيف عرفت يا عمي؟

أبو العلاء : ويحك يا ابنة أخي، إنما يُصنع ذلك بالمبصرين. أما مثلي فلست بحاجة إلى أن تحجبي عينيه من خلفه لئلا يبصرك!

فاطمة : (تقبل عليه) إنك يا عمي لتعدل ألف بصير... لقد رأيتني باللمس؟

أبو العلاء : (كالمتعجب مما قالت) رأيتك باللمس؟

فاطمة : نعم فإنك لم تسمع لي صوتاً.

أبو العلاء : هاتي نسخة ابن أبي هاشم لأملي عليك.

فاطمة : (فرحة) حباً يا عمي وكرامة... هذا ما كنت أبغيه.(تخرج الديوان من الخزانة) لحا الله هذا الرجل...

كلما جئت لأراك وجدته مرابطاً عندك فيمنعني من الجلوس إليك.

أبو العلاء : كلا لا تسبيه يا فاطمة؛ فقد ألزمني حقوقاً جمة وأيادي بيضاء، لأنه أفنى فيّ زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمنه.

فاطمة : أنا أولى منه يا عمي بكتابة رسائلك، وإن خطي لأجمل من خطه (تفتح الديوان) انظر: إن خطه مثل خرابيش الدجاج!

أبو العلاء : (يضحك) ويحك كيف لي أن أنظر وأقارن؟

فاطمة : ليتك يا عمي تستطيع التمييز بينهما بيدك!

أبو العلاء : افتحي قافية السين المكسورة بعد ميم ساكنة.

فاطمة : (تقرأ):

دعا موسى فزال، وقام عيسى
وجاء محمـــد بصلاة خمـــس

أبو العلاء : نعم هي هذه... اكتبي في آخر الأبيات. (يملي وهي تكتب):

كأنّ منجّـــمَ الأقـــوام أعمى
لديه الصحف يقرؤهـــا بلمـــس

فاطمة : وهل يعقل ذلك يا عمي؟

أبو العلاء : لم لا؟ لقد اخترع الناس أشياء كثيرة ما كانت معروفة لآبائهم من قبل.

فاطمة : إذن تستغني يا عمي عمن يقرأ لك!

أبو العلاء : أجل، إذن أقرأ كما أريد! خبريني يا ابنة أخي: متى حضرت إلى الدار؟

فاطمة : من دهر... انتظرت في المخدع الجواني حتى انصرفوا من عندك.

أبو العلاء : أو قد سمعت؟

فاطمة : سمعت كل شيء.

أبو العلاء : يا ويلتا! أسمعت حديث أم عيسى؟

فاطمة : نعم.

أبو العلاء : ويلك! ما كان ينبغي لمثلك أن تسمعي مثله.

فاطمة : علام يا عمي؟ إني لأسمع الكثير، وإني لأعلم من ذلك أموراً كثيرةً لا تعلمها أنت.

أبو العلاء : العياذ بالله! اكتبي عندك في باب السين.

فاطمة : هات.

أبو العلاء : (يملي وهي تكتب):

قد فاضت الدنيا بأدناسها   على براياها وأجناسها

والشر في العالم حتى التي   مكسبها من فضل عرناسها

فاطمة : ما العرناس يا عمي؟

أبو العلاء : المغزل.

فاطمة : (تضحك) لو قلت لوالدتي: ناوليني عرناسي هذا لحسبتني أرطن!

أبو العلاء : وَيْلُمّها لغة ضيعها بنوها! (في أسى) لا غرو فقد أضاعوا كل شيء!

أين امرؤ القيس والعذارى   إذ مال من تحته الغبيط

استنبط العُرْب في الموامي بعدك واستعرب النبيـــط

فاطمة : لكنك يا عمي لو سميت الأشياء بأسمائها لكان أفضل!

أبو العلاء : ويحك يا ابنة أخي كأنك لست من تنوخ!

فاطمة : تنوخ! وأي شيء كان تنوخ؟ أنا من آل سليمان بمعرة النعمان وعمي أبو العلاء!

أبو العلاء : (في صوت وقور):

سيسأل ناسٌ: ما قريـــش ومكـــة

كما قال ناس: ما جديـــس وما طسم؟

(ستـــــــــار)

❊ ❊ ❊

اليوم الثاني :

فاطمة : كيف أنت يا عمي؟ لقد خشيت عليك.

أبو العلاء : تخشيْن عليّ وأنا في بيتي ولا تخشين على نفسك أن تخرجي وحدك في مثل هذه الهيعة الجائشة إذ الجنود والأهالي يتقاتلون في الطرق؟

فاطمة : إني ما جئت وحدي بل أوصلني زوجي إلى باب دارك.

أبو العلاء : ما باله لم يدخل ليسلم علي؟

فاطمة : انطلق ليقضي شغلاً له، وسيعود ليأخذني من عندك.أرأيت يا عمي كيف قبضوا أمس على سبعين رجلاً من وجوه المدينة، فزجوا بهم في السجون.

أبو العلاء : نعم لقد عزّ على أولي الأمر أن يهدم الماخور فيخسروا الجزية التي يأخذونها من صاحبه.

فاطمة : الناس يقولون: إن هذا كان بأمر الوزير، إذ لم يحضر الأمير بعد من ضواحي حلب.

أبو العلاء : ما أمر الوزير إلا بسلطان الأمير.

مل المقام فكــــم أعاشـــــر أمة
أمــرت بغير صلاحها أمراؤهــا
ظلموا الرعية واستجازوا كيدهـا
وعَدَوْا مصالحهـا وهم أجـراؤه

ابن أبي هاشم : (يقرع الباب) يا أبا العلاء، هل عندك أحد؟

أبو العلاء : نعم يا ابن أبي هاشم، انتظر قليلاً حتى يخرجوا من عندي.

فاطمة : أوه! ماذا يصنع عندك الآن، ولا قراءة ولا إملاء؟

أبو العلاء : صه! لا يسمعك.

فاطمة : قل له يدخل فقد خرجت (تنسحب).

أبو العلاء : (بصوت خافض) ويلي من النساء يخرجن ويتركن وراءهن أثراً من عرفهن! (يروح بطرف ردائه ليطرد العرف الذي خلفته فاطمة) ادخل الساعة يا ابن أبي هاشم!

ابن أبي هاشم : (يدخل) السلام عليك.

أبو العلاء : وعليك السلام، ماذا وراءك من أنباء؟

ابن أبي هاشم : نبأ عظيم يا سيدي، قد وثب رجال المدينة بالوزير، وكادوا يبطشون به لولا أن فر ناجياً بنفسه وفر جنوده معه.

أبو العلاء : والسبعون رجلاً المحبوسون؟

ابن أبي هاشم : أطلقوهم جميعاً وقرروا إغلاق أبواب المدينة والدفاع عنها بأنفسهم.

أبو العلاء : لله در أم عيسى! لقد فعلت خطبتها في الجامع مالم تفعل ألف خطبة من على منبره! لكن هؤلاء قد أخطؤوا في الوثوب بالوزير قبل أن يروا رأي الأمير لعله لا يقر عمل وزيره.
فقد ناصبوه العداء بعملهم هذا قبل أن يعرفوا ما عنده.
ليت شعري ماذا فعلت أم عيسى؟ إني عليها لمشغول فما أتاني عنها شيء منذ يوم الجمعة.

ابن أبي هاشم :أتريد يا سيدي أن أعلم علمها لك؟

أبو العلاء : افعل مشكوراً، وخذ هذا الدينار لها لعلها تحتاجه.
(يأخذ ابن أبي هاشم الدينار فيخرج)

فاطمة : (تدخل) أما إنك لحفي بأم عيسى هذه... أتراها يا عمي أعجبتك؟

أبو العلاء : يا فاطمة لا تسخري بامرأة مسكينة!

فاطمة : أمسكينة هذه التي هيجت المدينة وأشعلتها ناراً؟

أبو العلاء : لو أحسنوا إليها ما وقع هذا الذي وقع. إنها تعول أيتاماً لا كاسب لهم، ولا أدري كيف حالها وحالهم اليوم؟ قاتل الله الأيام ما أبقت لي على مال!

فاطمة : أضعت مالك يا عمي على الناس.

أبو العلاء : هل تحبينني حقاً يا فاطمة؟

فاطمة : كيف لا وأنت فخري وفخر آل سليمان؟

أبو العلاء : فطوفي غداً على آل سليمان هؤلاء، واجمعي منهم ما تجود به نفوسهم لهذه الأرملة وأولادها.

فاطمة : حباً يا عمي وكرامة.

أبو العلاء : على ألا تخبريهم أنني أنا الذي بعثتك.

فاطمة : فيم يا عمي؟ إنهم سيطيعون جميعاً أمرك، ويبادرون لتحقيق رغبتك.

أبو العلاء : كلا يا فاطمة، اجعلي هذا كأنه من تلقاء نفسك.

فاطمة : إنك لا تطلب شيئاً لنفسك.

أبو العلاء : أطيعي هذا الشيخ الضرير الذي جعلته فخر آل سليمان.

فاطمة :سمعاً وطاعة.

أبو العلاء : أين زوجك هذا، أما آن له أن يجيء لأخذك؟

فاطمة : أو قد ضجرت مني؟ دعني أبق قليلاً عندك.

صوت : (يسمع من الخارج) يا أبا العلاء!

فاطمة : هاهو ذا زوجي، قد جاء ليريحك مني!

أبو العلاء : (يضحك) دعيه يدخل... ادخل يا سليمان!

(ستـــــــــــار)

❀ ❀ ❀

اليوم الثالث

(تسمع أصوات المجانيق تضرب المدنية)

أبو العلاء : ألا تكف هذه المجانيق لحظة؟ ويلهم لقد روعوا النساء والأطفال؟

ابن أبي هاشم : هذا ابن مرداس لا يرحم. لم لا يسلمون له فيحفظوا البلدة من الدمار؟

(يقرع الباب بشدة)

أبو العلاء : انظر يا ابن أبي هاشم من هذا.

(يفتح ابن أبي هاشم الباب وهو خائف، تدخل أم عيسى فزعة ومعها أولادها الثلاثة)

أم عيسى : أدركني يا أبا العلاء وأدرك أولادي الصغار، احمنا عندك!

أبو العلاء : ما خطبك يا أم عيسى؟

أم عيسى : بعض الرعاع يريدون أن ينتقموا مني ومن أولادي.. زعموا أني سبب هذه المصيبة الحاقّة بالبلد.

أبو العلاء : لا تراعي يا أم عيسى، ادخلي وإياهم إلى المخدع الجواني ريثما أدبر لكم مأوى تأمنون فيه.

أم عيسى : حماك الله يا أبا العلاء (تخرج وأولادها من الباب الأيسر)

(تسمع أصوات من خارج الدار وجلبة جمع كبير).

أبو العلاء : ما هذا؟

ابن أبي هاشم : يا ويلنا! لعلهم رأوها حين دخلت هنا فجاؤوا يطلبونها.

أصوات : يا أبا العلاء! يا أبا العلاء!

ابن أبي هاشم : (ينظر من الكوة) هذا جمع غفير من الناس.

أبو العلاء : مِن الرعاع؟

ابن أبي هاشم : بل من وجوه الناس.

أبو العلاء : الحمد لله... افتح الباب.

ابن أبي هاشم : (يفتح الباب) ماذا تريدون!

كبير القوم : نريد أن نكلم الشيخ أبا العلاء.

ابن أبي هاشم : فليدخل بعضكم فإن حجرته لن تسعكم جميعاً.

الكبير : أجل سندخل نحن السبعة إليه.

(يدخل سبعة رجال فيهم أبو يوسف)

الكبير : السلام عليك يا أبا العلاء.

أبو العلاء : وعليكم السلام... خيراً إن شاء الله.

الكبير : قد رأيت ما نحن فيه اليوم، وليس للأمير صالح بن مرداس غيرك يا أبا العلاء.

أبو العلاء : ويحكم ماذا يستطيع شيخ ضرير مثلي أن يصنع؟

الكبير : إن لك مكانة عنده فاخرج إليه واشفع لأهل بلدك.

أبو العلاء : لكني لا أعرفه ولا هو يعرفني، فكيف ترجون أن يقبل شفاعتي؟

أبو يوسف : لا تعتذر يا أبا العلاء، فكما أوقدت أنت الفتنة فحق عليك أن تطفئها!

أبو العلاء : أ أبو يوسف هذا؟

أبو يوسف : نعم.

أبو العلاء : يغفر الله لك يا أبا يوسف، هل يقدر مثلي أن يوقد أو يطفئ؟

أبو يوسف : نعم أنت الذي أوعزت إلى تلك المرأة ففعلت ما فعلت... لقد رأيتها ضحى الجمعة عندك.

أبو العلاء : سامحك الله، فقل لهم: إذن يستشفعوا بغيري، فإن الأمير لن يقبل لموقد الفتنة شفاعة.

الجميع : كلا يا أبا العلاء، إنا لا نعتقد ذلك. اسكت أنت يا أبا يوسف.

أبو العلاء : لم لا توفدون أبا يوسف، فإنه لأوجه مني وأرجى أن يأتيكم بعفو الأمير.

الجميع : كلا، لا نريد سواك.

الكبير : أنت رجل هذه المدينة، ولن يحترم الأمير صالح غيرك.

الجميع : افعل يا أبا العلاء، وارحم قومك وأهل بلدك.

أبو العلاء : انتظروني إذن لأصلح ثيابي (ينهض ويتوجه نحو الباب الأيسر ليخرج).

الجميع : أبقاك الله يا أبا العلاء.

❁ ❁ ❁

(في معسكر صالح بن مرداس خارج المدينة)

أحد رجاله : عجباً! هذا باب المدينة قد فتح أيها الأمير!

آخر : وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى!

صالح : ويلكم بطّلوا القتال!

أصوات : (من كل جانب) بطلوا القتال! بطلوا القتال!

صالح : إن يصدق ظني فهذا أبو العلاء الشاعر.

(يقبل أبو العلاء يقوده ابن أبي هاشم)

أبو العلاء : السلام عليك أيها الأمير الجليل!

صالح : وعليك السلام، أأنت الشيخ أبو العلاء؟

أبو العلاء : نعم يا سيدي، هكذا يدعوني الناس.

دعيت أبا العلاء وذاك مَيْنٌ ولكن الصحيح أبو النزول

صالح : بل أنت أبو العلاء حقاً وأبو الصيت الطائر والشرف الباذخ (يصافحه ثم يجلسه إلى جانبه).

أبو العلاء : رعاك الله يا ابن مرداس.. يا سيد الناس!

صالح : مرحباً بك، هل من حاجة فأقضيها لك؟

أبو العلاء : أجل يا سيدي الأمير، حاجة مائة ألف من شيوخ ونساء وأطفال كلهم يرجو عظيم عفوك.

صالح : ألم تعلم بما جنى سفهاؤهم؟

أبو العلاء : بلى يا سيدي الأمير... لولا هذه الجناية ما خرجت اليوم من حيث حبست نفسي منذ نيف وأربعين عاماً لأرجع من عندك بعفو يشمل الجناة الذين ندموا على ما فرط منهم، والأبرياء الذين صُلُوا بحَرّ نار لم يوقدوها!

صالح : هذه أول مرة تخرج من دارك؟

أبو العلاء : إي والله! وسأرجع إليها بعفوك، ولن أخرج منها أبقاك الله إلا محمولاً على الآلة الحدباء، إلى حيث يطول الثواء، وتنقطع الأنباء، وإلى الله المصير.

صالح : قد والله أنلتني شرفاً باقياً ما بقي للشعر رواة في الدهر! ولكن قومك يا أبا العلاء قد جاؤوا أمراً إدا.

أبو العلاء : الأمير – أطال الله بقاءه – كالسيف القاطع، لان متنه، وخشُن حدّاه. وكالنهار المائع، قاظ وسطه، وطاب أبراده. خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين.

صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء.

أبو العلاء : وهب الله لك خير الدنيا وخير الآخرة.

صالح : أفلا تنشدنا شعرك؟

أبو العلاء : يا سيدي الأمير لو تقدم مثولي بين يديك لأثنيت عليك بما تحسدني عليه فحول شعراء العرب.. أما اليوم فقد حال الجريض دون القريض.

صالح : إني لمن رواة ديوانك سقط الزند.

أبو العلاء : قد كبا ذلك الزند أيها الأمير فلم يعد يُورِي، وما بقي إلا لزوم ما لم يكن لازماً من قيود الزمان والمكان حتى يبلغ الكتاب أجله.

صالح : فأنشد من لزومياتك ليكون لنا شرف روايته عنك.

أبو العلاء : بل يشرف الشعر بروايتك أيها الأمير.

صالح : علي بالقرطاس والقلم! (يحضرون له القرطاس والقلم)

أبو العلاء : (يرتجل وصالح يكتب).

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما انقضى العمر إلا الأقل وحم لروحي فراق الجسد
بُعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام واسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

صالح : لله درك يا أبا العلاء، ما أحسن والله ما ارتجلت! اللهم إلا قولك:

فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

أبو العلاء : فيم يا سيدي الأمير؟

صالح : نحن الذين تسمع منا سجع الحمام، وأنت الذي نسمع منك زئير الأسد! ارجع يا أسد المعرة بالأمان لأهلها، وأوصيهم ألا يتعرضوا للحمام مرة أخرى!

أبو العلاء : (ينهض لينصرف) أحسن الله إليك أيها الأمير الكريم! لقد عشت ما عشت فلم أشهد كاليوم ذا لبدة من بني الغيل يزعم للناس أنه من بني الهديل!

(ستار)

❀ ❀ ❀

ثلاثون ألف دينار

ـ ١ ـ

(في بيت ربيعة بن أبي عبد الرحمن)

هالة : الحمد لله هأنتذا جئت يا ربيعة.

ربيعة : هذا موعد مجيئي من المسجد كل يوم فما خطبك يا هالة؟

هالة : لا يمكن أن يستمر هذا الحال أبدا.

ربيعة : ويحك قد سبقك إلى ذلك الشاعر لبيد بن ربيعة إذ يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

هالة : لا تحاول أن تتجاهل ما أعني يا ربيعة.

ربيعة : يا أم فاطمة إنك ترينني أقضي سحابة يومي في حل مشكلات الناس في المسجد، وأعود من الظهر لأستريح فأجدك تستقبلينني بأعضل منها في البيت.

هالة : كان أحرى بك أن تحل مشكلات بيتك قبل أن تتصدى لحل مشكلات الناس.

ربيعة : لو كان بيتي حراً مستقلاً لا سلطان لأحد من خارجه على أحد فيه لما قامت به أي مشكلة.

هالة : إنك تقصد أمي، لا شغل لك غير أمي، كل ما يقع في الكون فسببه أمي عندك!

ربيعة : في الكون كله يا هالة؟ إذن لكان نصيبنا من كيدها يسيراً لا يذكر فاحتملناه ولكنها ـ وا أسفاه ـ لا تسلط كيدها على الكون كله بل على بيتنا وحده.

هالة : هكذا أنت دائماً تحمل على أمي وتُغضي عن أمك التي هي السبب في كل ما يحدث.

ربيعة : (كالساخر) في الكون كله يا هالة؟

هالة : (في حدة) بل في بيتنا هذا.

ربيعة : أصغي إليّ يا أم فاطمة وكوني منصفة: أمك لها بيت غير بيتنا هذا، فأما أمي فهذا بيتها لا بيت لها غيره.

هالة : بيتها؟

ربيعة : نعم.

هالة : وليس بيتنا؟

ربيعة : بلى.

هالة : كلا، إما أن يكون بيتنا نحن أو بيتها هي.

ربيعة : إذن فهو بيتها وبيت زوجها في الأصل.

هالة : زوجها؟

ربيعة : الذي هو أبي واسمه فرّوخ، وكنيته أبو عبد الرحمن، ومن موالي آل المنكدر.. أما سمعت به من قبل قط؟

هالة : ذاك الذي ذهب ولم يرجع؟

ربيعة : خرج يقاتل في سبيل الله يا هالة، ولعله قتل في سبيل الله فهو شهيد.

هالة : أليس ذلك منذ عشرين سنة؟

ربيعة : بل منذ سبع وعشرين سنة، خرج وأنا حمْل في بطن أمي، وأنا الآن في السابعة والعشرين.

هالة : ويبقى هذا البيت بيته بعد هذا الدهر الطويل؟

ربيعة : يبقى بيت أرملته التي هي أمي كما بقي بيت أبيك بعد وفاته بيت أرملته التي هي أمك.

هالة : إذن فليس لنا نحن بيت.

ربيعة : بيت أمي هذا هو بيتنا.

هالة : يحق لها إذن أن تصنع بنا ما تشاء ما دام من حقها أن تطردنا من البيت حين تريد.

ربيعة : أجل، إن لها ذلك، ولكنها أحنى وأكرم من أن تطرد ابنها أو امرأته أو ابنته.

هالة : بل لا تريد أن تطردنا فتريحنا! كي تعذبنا وتنكل بنا ما شاء لها حقدها وهواها، آه لو طردتنا!

ربيعة : أمي التقية المؤمنة الصابرة تحقد على أحد منا؟

هالة : عليّ أنا خاصة لاعتقادها أنني سرقت منها قلبك وحبك.

ربيعة : يا هذه، اتقي الله فإنها هي التي اختارتك لي زوجة.

هالة : اختارتني لأكون لها أَمَةً تأمرها فتطيع، وتقهرها فتسكت.

ربيعة : خبريني ماذا جنت عليك اليوم فأثارت فيك كل هذه الموجدة؟

هالة : انهالت على الطفلة الصغيرة ضربا ولطماً وقرصاً حتى كاد يغشى على المسكينة.

ربيعة : ولم تمت المسكينة بعد هذا كله؟
هالة : تضحك وتسخر؟ أنا الملومة إذ أشكوها إليك، أنت لا تسمع فيها أي شكاية.
ربيعة : أين هي الآن؟
هالة : خرجت.
ربيعة : وأين فاطمة؟
هالة : جرجرتها معها.
ربيعة : والطفلة تبكي وتصيح؟
هالة : نعم.
ربيعة : إلى أين؟
هالة : لا أدري.
ربيعة : لتبتاع لنا بعض الفاكهة. ألا تحمدين الله يا هالة؟ إنها هي التي تعمل لك كل شيء في البيت وخارج البيت.
هالة : هذا من حرصها على السيطرة. لا تترك لي من العمل إلا ما تأمرني به.
ربيعة : سبحان الله لا يرضيك منها شيء أبدا!
(يُسمع صوت فتح الباب) صه ها هي ذي جاءت.
أم ربيعة: (يُسمع صوتها)هاهو ذا أبوك قد سبقنا إلى البيت يا فاطمة.
فاطمة : انظر يا أبي ماذا اشترت لي جدتي اليوم.
ربيعة : أريني يا فاطمة.. يالله! هذه لُعبة جميلة.
فاطمة : حلوة يا أبي؟
ربيعة : حلوة مثلك يا فاطمة، لكنها كبيرة، ألا يثقل عليك حملها؟

فاطمة : لا يا أبي. هذه خفيفة. سأريها لصاحبتي عزة.

أم ربيعة: لا تتأخري عندها كثيراً يا فاطمة فإننا سنتغدى بعد قليل.

فاطمة : لا يا جدتي لن أتأخر. سأعود في الحال.(تخرج).

ربيعة : هل ضربتها اليوم يا أماه؟

أم ربيعة: من الذي أخبرك يا بني؟

هالة : أنا التي أخبرته.

أم ربيعة: أتريد يا بني أن تعرف لماذا ضربتها؟

ربيعة : لا يا أماه لابد أنها فعلت ما تستحق عليها الضرب.

هالة : لماذا لا تريد أن تسمع السبب؟

ربيعة : لأن هذه يا هالة هي التي ربتني فجعلتني وأنا في العشرين أزاحم شيوخ العلم والفقه في هذا البلد.

أم ربيعة: سأذكر لك السبب يا بني. عادت اليوم تلعب مع الغلمان وكنت قد حذرتها مراراً ألا تلعب إلا مع البنات.

هالة : أمثل هذا يقتضي ضربها ذلك الضرب الشديد؟

أم ربيعة: نعم. أتدرين يا أم فاطمة لماذا ابتعت لها هذه اللعبة؟

هالة : لتسترضيها فلا تشكوك إلى أبيها.

أم ربيعة: ويحك! من أبوها هذا؟ أليس ابني؟ أفأخاف أنا من ابني؟

هالة : هذه طريقتك، تجرحين وتأسين.

أم ربيعة: سامحك الله يا بنيتي.إنما اشتريت لها اللعبة لتقوم منها مقام الأم فتشعر أنها أنثى فلا تلعب إلا مع البنات.

ربيعة : أسمعت يا هالة كيف تكون التربية؟ اسمعي الآن ما يقول

الشاعر في مثل ما نحن فيه الآن:

هالة : دعني من أشعارك.

ربيعة : إن من الشعر لحكمة يا هالة، اسمعي أخا الخنساء إذ يقول:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ... وملّت سليمى مضجعي ومكاني

وأي امرئ ساوى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاش إلا في أشد هوان

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

(في مشارف المدينة المنورة).

صالح : أهلا بك يا فروخ. الحمد لله إذ عدت إلينا سالما بعد هذا الغياب الطويل.

فروخ : الحمد لله يا صالح. ما كنت أظن أن عيني سترى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى.

صالح : لقد ظن الناس فيها أنك...

فروخ : قد مت؟ ويحهم سيفاجؤون غدا حين يرون أني حيّ بعد وقويّ جلْد.

صالح : أجل أنت والله شاب بعد. لكن ما الذي أطال غيبتك إلى هذا الحد؟

فروخ : كنت في أسر العدو يا صالح.

صالح : طوال هذه المدة؟

فروخ : نعم ما خلا بضعة شهور بعد إطلاق سراحي قضيتها في التجارة لأعود إلى أهل بيتي يا صالح. لكن خبرني: كيف

عرفت موعد قدومي إلى المدينة؟

صالح : من الكتاب الذي أرسلته إلى أهلك من ينبع.

فروخ : كأنهم هم الذين بعثوك لتستقبلني؟

صالح : من؟ أمينة... ابنة عمي؟

فروخ : ويلك! امرأتي.

صالح : ويحك يا أبا عبد الرحمن كأنك لا تعلم شيئاً مما حدث البتة.

فروخ : ماذا تعني ويلك؟ ماذا حدث؟

صالح : يعز علي والله أن أكون أول من يبلغ هذه الأنباء السيئة إليك.

فروخ : لا بأس. قل وعجل ماذا حدث؟ هل ماتت أمينة؟

صالح : إذن لهان الأمر يا أبا عبد الرحمن؟

فروخ : ويلك أتريد أن تقول إنها...

صالح : نعم.. تزوجت يا أبا عبد الرحمن.

فروخ : ويلها! كيف وهي في عصمتي؟

صالح : حكم لها القاضي بفسخ العقد إذ طالبته بذلك قبل زواجها من ذلك الرجل الذي أحبته ورفضت من أجله سائر خطابها الكثيرين.

فروخ : هي التي طلبت فسخ العقد من القاضي؟

صالح : نعم.

فروخ : خائنة، قليلة الأصل! ثلاثين ألف دينار تركتها عندها

وتتزوج بعد سبع سنوات من غيابي. لا تقدر أن تـصبر أكثر من سبع سنين.

صالح : لو كنت مكانك يا فروخ لعدت الآن من حيث أتيت فليس في وسعي أن أحتمل رؤية زوجها الجديد يقيم معها في بيتي!

فروخ : كلا، والله لأقتحمن البيت عليها ولأخرجنه منه.

صالح : خذ حذرك يا فروخ! فإن زوجها شاب جلد اسمه ربيعة.

فروخ : اسمه ربيعة؟

صالح : نعم.

فروخ : شاب؟

صالح : في سن ابنكما عبد الرحمن لو لم يمت وعاش حتى الآن.

فروخ : ويل له مني... لأرينه أنني أقوى منه وأجلد.

❀ ❀ ❀

— ٣ —

(أمام بيت ربيعة بالمدينة)

ربيعة : ما هذا الذي تصنع هنا يا رجل؟

فروخ : أنت ربيعة؟

ربيعة : نعم.

فروخ : تسألني ماذا أصنع؟

ربيعة : نعم.

فروخ : ما شأنك أنت؟ أريد أن أربط فرسي بحلقة الباب.

ربيعة : ليس هذا مربطا للخيل. اربطها في مكان آخر.

فروخ : لا أربطها إلا بهذه الحلقة.

ربيعة : لا بأس. سأحتملك من أجل أنك غريب. فاربط فرسك في فناء الدار.

فروخ : كلا، لا أربطها إلا هنا.

ربيعة : يا أخي لا ينبغي للرجل الغريب أن يكَون أحمق.

فروخ : أنا أحمق يا لكع؟

ربيعة : كلا، أنا ما قلت: إنك أحمق. بل قلت: إن الحماقة لا تحسن بالغريب.

فروخ : تنح عن الباب ودعني أدخل.

ربيعة : أين تريد أن تدخل يا رجل؟

فروخ : إلى بيتي.

ربيعة : ويحك ليس هذا بيتك!

فروخ : ويلك أخذت امرأتي، وتريد أيضاً أن تأخذ بيتي؟

ربيعة : يا هذا لعلك ضللت الطريق إلى بيتك من طول الغربة.

فروخ : كلا، هذا بيتي فتنح عن الطريق وإلا أدبتك.

ربيعة : ويلك نح هذا الرمح عني فقد كدت تصيب بزجه ساقي.

فروخ : هذا جزاء من يقيم في دار غيره بغير حق. وددت والله لو أغرسه في نحرك!

ربيعة : يخيل إلي أنني بين يدي رجل مجنون.

فروخ : (في غضب) مجنون؟ أنا مجنون؟ لآخذن بتلابيبك يا هذا؟

ربيعة : أرسل عنقي... ويلك!

فروخ : لا، والله لافارقتك إلا عند السلطان.

ربيعة : اشهدوا يا قوم ماذا يفعل هذا المعتدي العتل.

(يجتمع الناس من كل مكان ويعلو الضجيج ويكثر الصخب).

صوت : صه، اسكتوا يا قوم، هذا مالك بن أنس قد أقبل. (يسكت الجميع).

مالك : أيهذا الرجل، لك سعة في غير هذه الدار.

فروخ : هذه داري يا سيدي الشيخ. أنا فروخ مولى آل المنكدر.

ربيعة : كلا يا مالك بن أنس .هذا مدع كاذب، إن فروخا مولى آل المنكدر قد مات في حرب خراسان من زمن بعيد.

فروخ : كلا، ما مات فروخ! ولكنكم أمتموه لتعطوا امرأته لهذا الرجل!

ربيعة : انظروا يا قوم إلى جرأة هذا الرجل على الحق. يزعم بكل صفاقة أن امرأتي ــ وكلكم يعلم أني تزوجتها بكرا ــ كانت امرأته.

أم ربيعة: (صوتها من أعلى الدار) يا ربيعة! هذا الذي تقاتله هو فروخ أبوك.

ربيعة : ماذا تقولين؟

أم ربيعة: هذا زوجي الذي غاب عني سبعا وعشرين سنة.

فروخ : ويحك يا أمينة.. أليس ربيعة هذا زوجك؟

أم ربيعة: لا زوج لي غيرك يا رجل، هذا ابني وأنت أبوه.

مالك : الحمد لله الذي جمع الشمل ورد الغائب إلى الأهل. تفرقوا الآن يا قوم... يرحمكم الله.

(يتفرق الناس في صخب وهم يتبادلون العجب).

ربيعة : سامحني يا أبي إذ لم أعرفك.

فروخ : (يعانقه) بل سامحني أنت يا بني فقد استفززتك عامداً ظناً مني أنك غريمي.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

(في داخل البيت)

فروخ : إذن فكل ما قاله صالح ابن عمك يا أمينة كذب واختلاق.

أمينة : أجل يا أبا عبد الرحمن لا سامحه الله.

ربيعة : إنه يحقد على أمي منذ رفضت مشورته.

فروخ : وماذا كانت مشورته؟

ربيعة : أن تذهب إلى القاضي ليحكم لها بالفسخ فيتزوجها هو.

أمينة : لحاه الله! إنه كان يطمع في المال الذي عندي.

فروخ : أكنت تقبلينه يا أمينة لو لم يكن طامعاً في مالك؟

أمينة : كلا، لقد آليت لا أتزوج من بعدك أبداً حتى أتفرغ لتربية ابنك ربيعة.

ربيعة : لكن كيف علم صالح بموعد قدومك يا أبي فاستقبلك من دوننا؟

فروخ : زعم لي أنه علم بذلك منكم، من الكتاب الذي أرسلته إليكم

من ينبع.

ربيعة : أنت أرسلت إلينا كتاباً من ينبع؟

فروخ : نعم.

ربيعة : إذن فلابد أن صالحا هو الذي تلقى الكتاب فلم يشأ أن يسلمه لنا.

فروخ : وكتبت إليكم كتاباً قبله من خراسان على أثر خروجي من الأسر.

أمينة : ما وصل إلينا شيء يا أبا عبد الرحمن.

ربيعة : لعل صالحا هو الذي تلقاه أيضاً فحجبه عنا.

فروخ : الويل له! والله لأقتلنه، إنه يستحق القتل.

ربيعة : يا أبي دعه لما به، خيراً لك وشراً عليه. فكفاه ما به من الحسد والخيبة. وبحسبك أن الله قد ذخر أمي لك وحدك، وأعادك إلينا سالما. فالحمد لله على ذلك.

فروخ : صدقت يا بني إنها لنعمة تهون من بعدها كل المحن والخطوب.

امينة : إنك لم تسألني عن ثلاثين ألف الدينار التي تركتها عندي يوم رحلت.

فروخ : أجل، كم بقي منها يا أمينة.

أمينة : لقد نميتها لك يا أبا عبد الرحمن فصارت ضعفيها.

فروخ : ستين ألف دينار؟

أمينة : نعم.

فروخ : أحقا يا أمينة؟

أمينة : حقاً وصدقاً.

فروخ : فأين هي؟

أمينة : خبأتها في مكان أمين تحت الأرض، وسأخرجها لك بعد أيام، بعد أن ينقطع سيل المهنئين والزوار.

ربيعة : وأنا يا أبت الذي سأحملها إليك، وأضعها بين يديك.



— ٥ —

فروخ : هل من شيء يضايقكما في البيت يا بني؟

ربيعة : لا والله يا أبي، لا شيء غير حرصنا على أن نوفر لكما الراحة والهناءة.

فروخ : ففي وجودكم معنا راحتنا وهناءتنا.

ربيعة : سنكون عندكما كل يوم، لن ننقطع عن زيارتكما أبدا.

فروخ : أنت التي حرضته على ذلك يا هالة؟

هالة : لا والله يا عمي، بل هو الذي فاتحني هذه المرة.

فروخ : ماذا تعنين بقولك هذه المرة؟

هالة : معذرة يا عمي! فقد كنت مخطئة.

أمينة : كانت تحرضه على الانتقال من بيتنا هذا إلى بيت مستقل.

فروخ : ويتركونك هنا وحدك؟

أمينة : تريد يا أبا عبد الرحمن أن يكون لها بيتها الخاص.

ربيعة : ولكني رفضت رفضاً قاطعاً أن أترك أمي وحدها.

فروخ : بوركت يا بني، لقد أصبت.

ربيعة : أما الآن يا أبي وقد عدت بحمد لله إلى بيتك فلا بأس أن

تأذن لنا ليكون لنا بيتان: بيتك هذا، والبيت الآخر.

فروخ : لكني لا أصبر عن حفيدتي فاطمة.

هالة : هذه يا عمي ستكون عندك كل يوم لأنها متعلقة بجدتها أكثر من تعلقها بي.

فروخ : ماذا ترين يا أمينة؟

أمينة : الرأي رأيك يا أبا عبد الرحمن.

فروخ : إني أريد رأيك أنت.

أمينة : أن تجيبهما إلى ما يطلبان فإن البعد والقرب ليسا بالمكان بل بالقلوب.

فروخ : اشهد يا ربيعة أني ما قبلت أن أفرط فيك وفي أهلك، ولكن أمك هي التي قبلت.

أمينة : افعل يا أبا عبد الرحمن ما شئت. أخل نفسك من اللوم واجعله كله علي!

(يتضاحكون)

❁ ❁ ❁

— ٦ —

فروخ : (ينادي) أمينة... أمينة.

أمينة : أنت جئت يا أبا عبد الرحمن؟ ماذا أخرك اليوم؟

فروخ : لقد رأيت اليوم عجباً يا أمينة.

أمينة : خيراً إن شاء الله! أين يا أبا عبد الرحمن؟

فروخ : في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمينة : ماذا رأيت؟

فروخ : لست أدري كيف أقوله يا أم ربيعة.

أمينة : يا أم ربيعة! هذه أول مرة تدعوني فيها أم ربيعة.

فروخ : لن أدعوك بعد اليوم إلا أم ربيعة.

أمينة : ألا تخبرني ماذا حدث؟

فروخ : شيء عظيم يا أم ربيعة، وما كان لكم أن تكتمـوه عنـي حتى اليوم.

أمينة : معاذ الله! ما كتمنا عنك شيئاً يا أبا عبد الرحمن.

فروخ : ادعيني منذ اليوم أبا ربيعة، أنا أبو ربيعة.

أمينة : الناس كلهم يدعونك أبا عبد الرحمن.

فروخ : لا شأن لك بالناس، ادعيني أنت أبا ربيعة.

أمينة : حبا وكرامة يا أبا ربيعة. حدثني الآن مـاذا جـرى فـي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فروخ : تلبثت في المسجد اليوم قليلاً بعد صلاة الصبح.

أمينة : بل تأخرت اليوم كثيراً عن موعدك.

فروخ : يا ليتني تأخرت في المسجد من قبل، إذن لشهدت هذا الذي أقر عيني من قبل.

أمينة : إنك شوقتني إلى معرفة هذا الذي تجمجم عنه ولا تريد أن تفصح.

فروخ : ماذا كنت أقول يا أم ربيعة؟

أمينة : تلبثت في المسجد قليلاً بعد صلاة الصبح.

فروخ : فإذا حلقة كبيرة في صحن المسجد لا أدري كيف قامـت، وإذا الناس يهرعون إليها من كل جانب، وإذا هم يتحلقون

حول رجل من شيوخ العلم والفقه! فقلت: لأستمعن اليوم إلى درسه. فاخترقت الصفوف لعلي أجد موضعا قريباً منه، فكأن بعضهم عرفوني ففرجوا لي حتى اتخذت لي مجلسا في الصف الثالث. وأخذ يلقي درسه، فراعني أن صوته صوت أعرفه!

أمينة : صوت من؟

فروخ : صوت ربيعة.

أمينة : ألم تنظر إلى وجهه؟

فروخ : لم أستطع أن أرى وجهه، فقد كان ناكساً رأسه كأنه لا يريد أن أراه، فركبني ما ركبني حتى تجرأت فسألت من يليني: من هذا العالم؟ قال لي: ويحك ألا تعرفه!؟ هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن. فلم أستطع أن أرى شيئاً أو أسمع شيئاً بعد ذلك. فما أن انتهى الدرس الأول حتى انسللت خارجاً من الحلقة، فأخذت أتجول في أرجاء المسجد وأنا في حالة لا أستطيع أن أصفها، وإذا أنا بعبد الله بن عمر بن الخطاب وهو يصلي إلى سارية في المسجد، فانتظرت حتى سلم من صلاته فسلمت عليه، وسألته: ما رأيك في ربيعة؟ قال: ربيعة بن أبي عبد الرحمن؟ قلت: نعم. قال:" هذا صاحب معضلاتنا وهو أعلمنا وأفضلنا". فانطلقت من عنده دون أن أقول له شيئاً فما شعرت إلا وأنا على باب الدار.

أمينة : أعجبك إذن ابنك ربيعة؟

فروخ : أعجبني؟ هذا كاد يطير بعقلي. لقد رأيته في حالة ما رأيت

أحداً من أهل العلم والفقه عليها قط وناهيك بشهادة عبد الله ابن عمر.

أمينة : خبرني الآن يا أبا ربيعة أيهما أحب إليك: ستون ألف الدينار أم هذا الذي ابنك فيه من الرفعة والجاه وعلو المكانة بالعلم؟

فروخ : لا والله إلا هذا! لقد خِيل إلي اليوم أنني أملك عز الدنيا وعز الآخرة، فلو خُيرت بين هذا وبين الدنيا كلها لاخترت هذا.

أمينة : فاعلم إذن أن المال الذي تركته عندي قد أنفقته كله على ربيعة ليبلغ هذا المقام الذي رأيته فيه اليوم.

فروخ : والله يا أم ربيعة ما ضيعت ذلك المال بل صنته ونميته.

أمينة : الحمد لله إذ أنت راض عنا يا أبا ربيعة.

فروخ : أتدرين يا أم ربيعة أي شيء أثمن من هذا كله عندي وأحب إلي؟

أمينة : أي شيء يا أبا ربيعة؟

فروخ : أنت يا أم ربيعة!

(ستار)

❀ ❀ ❀

---

٧) ثلاثون ألف دينار: (ربيعة الرأي ووالده فروخ) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٧).

جار أبي حنيفة

ـ ١ ـ

(في منزل الإمام أبي حنيفة. يدخل صاحبه أبو يوسف)

أبو حنيفة : ماذا وراءك يا أبا يوسف؟ هل علمت لي علم جارنا الطروب الذي افتقدنا صوته منذ ليال؟

أبو يوسف : نعم، قيل لي: إن العسس كبسوا بيته فوجدوه يعاقر الخمر، فأخذوه إلى الحبس.

أبو حنيفة : ويح المسكين! هلمّ بنا يا صاح نغْدُ على أمير المدينة لنكلمه فيه.

أبو يوسف : رويدك يا أبا حنيفة. طالما احتال الأمير لتكرمه يوما بزيارتك فلم تفعل، ثم تغدو اليوم عليه لتشفع لسكير فاجر قد أراح الله الناس من شره!

أبو حنيفة : (في شيء من الحدة) آعتراضاً عليّ يا يعقوب؟

أبو يوسف : نعم، إن الدين النصيحة، ولو كان الناصح يعقوب، والمنصوح أبا حنيفة النعمان.

أبو حنيفة : صدقت، ولكن أين المنكر؟ ويحك!

أبو يوسف : لا ينبغي لأحد أن يشفع في حد من حدود الله.

أبو حنيفة : أنا لا أشفع في حد يقام عليه، وإنما ألتمس منهم إطلاق سراحه بعد ذلك.

أبو يوسف : الحبس جدير بمثله، فطالما أزعج الناس ليلا بصوته.

أبو حنيفة : أشهد ما كان صوته ليزعج الناس، فلقد كان عذبا نـــديا يطمئن به النائم، ويستأنس به المريض المكروب. وطالما آنسني في جوف الليل.

أبو يوسف : لكنك تعلم أنه كان يشرب طول الليل على غنائه.

أبو حنيفة : يعقوب... أتمضي معي إلى الأمير أم أمضي وحدي؟

أبو يوسف : بل أمضي معك يا سيدي، ولكن بعد أن يطمئن قلبي إلى أن ذلك هو ما ينبغي لأبي حنيفة أن يعمله!

أبو حنيفة : ويحك يا يعقوب، إن لهذا الجار أيادي عندي تقتــضيني المروءة أن أجزيه عليها.

أبو يوسف : ما سمعت كاليوم عجباً. ترى أي أياد يسديها سكير مثل هذا لأبي حنيفة؟

أبو حنيفة : ما خطبك اليوم يا يعقوب؟ أو ليس يسعك يـــا بنـــي أن تصدق قولي؟

أبو يوسف : كلا يا سيدي، حتى أسمع تفصيله منك لأكون على بينة من أمري!

أبو حنيفة : (محتداً) أصغ إذن وافهم! إني كنت أسمعه يتغنى طـــول الليل فتنثال على خاطري معان ولطائف ما كانت لتخطـــر لي لولاه. كنت أسمعه فأقول لنفسي: إذا كان هذا يعـــاف النوم ويقضي الليل كله مردداً.

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وهو لا يرجو ثوابا على ذلك من الله ولا جـــزاء مـــن الناس ولا منفعة تعود عليه في دنياه، فما بالي أتثاقل عن

القيام لربي وأنا أرجو ثوابه، وأخاف عقابه، وأطمع في خير ما عنده، وأنا أجد إلى ذلك كله من لذة المناجاة وتلاوة آيات الله ما ينسيني كل لذة؟ وما أحقر معه الدنيا وما فيها!

أبو يوسف : هذه يا سيدي يد واحدة، فماذا غيرها؟

أبو حنيفة : ألقي في روعي أن هذا الرجل ما تخير هذا البيت ليتغنى به كل ليلة إلا لأن حيفاً ربما وقع عليه من بعض مَن كان يرجوهم من الناس. فكنت أقول لنفسي: الحمد لله الذي أغنائي عن الناس جميعاً فلا أشكو منهم ظلما ولا حيفا، وأفقرني إليه وحده وهو العادل الرحيم لا يظلم أحداً.

أبو يوسف : هذه ثانية، والثالثة؟

أبو حنيفة : (مطرقا على حاله عاقداً يديه فوق حاجبيه كدأبه حين يملي المسائل على أصحابه) كنت أحْدس من نبرات صوته وطريقة ترجيعه في الغناء أنه لابد عاكف على شراب، فكنت أعجب من أمره؛ كيف يرفع عقيرته باللحن ليدل العسس على مكانه ويرشدهم إلى نفسه؟ فكنت كلما قمت ليلة وسمعته بعد هناك تعجبت من طول حلم الله وستره عليه! فأقول لنفسي: هذا ستر الله سبحانه على هذا المتهتك فما بالك بستره على المستورين من عباده؟ (يرفع رأسه فيدهَش إذ يرى أبا يوسف منهمكا يكتب ما يسمع) ويحك، ما تصنع يا يعقوب؟

أبو يوسف : أقيد يا سيدي ما سمعت.

أبو حنيفة : هيه ويلك.. أكنت تعمدت خلافي لتستدرجني إلى هذا؟

أبو يوسف : هو ذاك يا سيدي الإمام فهب لي سوء أدبي اليوم معك.

أبو حنيفة : (ضاحكاً) ويلك، يا أمكر من قصير! ما أرى إلا أن هذا سينتهي بك يوماً إلى السلطان لا لتشفع إليه في سكير بل لتتربع على السرير بعد الحصير!

أبو يوسف : معاذ الله يا سيدي، والله لا ...

أبو حنيفة : (يقاطعه) مه! لا تحلف على ما في غيب الله، فعسى أن ينفع الله بك الناس يومئذ. وكل ميسر لما خلق له. قم بنا الآن إلى الأمير!

أبو يوسف : اليد الرابعة يا سيدي الإمام، دعني أسمع اليد الرابعة.

أبو حنيفة : آلآن وقد كشفتك؟ انهض، ويلك!

❁ ❁ ❁

— ٢ —

(في مجلس أمير الكوفة)

الأمير : مرحبا بك يا أبا حنيفة، ألف مرحب!

أبو حنيفة : ما هذا الذي صنع رجالك؟

الأمير : أي شيء صنعوا؟

أبو حنيفة : اعتنقوا بغلتي فحالوا بيني وبين النزول، وأقبلوا بي راكبا حتى وطئت البساط.

الأمير : أنا أمرتهم بذلك يا أبا حنيفة تكرمة لك.

أبو حنيفة : لعلك بالغت في تكرمتي عند القدوم لتمهد لنفسك سبيل الاعتذار عن قضاء حاجة قد ألتمسها منك؟

الأمير : حاشاي يا أبا حنيفة. إنه ليسعدني أن تقضى لك عندنا حاجة. فطالما التمسنا هذا الشرف فأعيانا، اقترح يا سيدي واحتكم فإني أنا ورجالي رهن مشيئتك. قل لنا، ما حاجتك؟

أبو حنيفة : جار لي أخذه عسسكم فأخلوا منه بيته ليعمروا به مكانا في سجنكم.

الأمير : قد وهبنا لك جارك.

أبو حنيفة : ألا تنتظر حتى تعلم ما ذنبه؟

الأمير : مهما يكن ذنبه فلن أرد شفاعتك.

أبو حنيفة : مهلا فما جئت لأشفع له ولكن لأراه.

الأمير : ائت به يا غلام!

الغلام : بمن يا سيدي الأمير؟

الأمير : ويلك، سل عن جار أبي حنيفة بين المسجونين فائتنا به!

أبو حنيفة : (يضحك) ما اسمه يا أبا يوسف؟

أبو يوسف : اسمه عاصم بن عبد العزيز.

الأمير : ائتنا بكل من اسمه عاصم بن عبد العزيز... انطلق!

الغلام : سمعاً يا سيدي الأمير. (يخرج)

الأمير : أما من حاجة أخرى يا أبا حنيفة ؟

أبو حنيفة : لا، وجزاك الله خيراً.

الأمير : هل لك أن تصيب عندنا ذواقا؟

أبو حنيفة : إني اليوم صائم.

الأمير : وصاحبك هذا الفتى؟

أبو حنيفة : هذا أبو يوسف يصوم يوم أصوم، ويفطر يوم أفطر.

(يدخل الغلام يسوق رجلا في يديه القيد)

الغلام : ما وجدنا بهذا الاسم - يا سيدي الأمير- غير هذا.

الأمير : أهذا طلبتك يا أبا حنيفة؟

أبو حنيفة : لعله هو!

الأمير : عجباً كأنك لا تعرفه؟

أبو حنيفة : من اليسير أن أعرفه. (للرجل) أ أنت الذي كنت تغني:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر؟

عاصم : يا ويلتا! أ كنت تسمعني يا سيدي الإمام؟ إني أعدك ألا أعود لمثلها.

أبو حنيفة : بل عد إلى مثلها، فما كان للعسس أن يأخذوك من أجل أن الله قد وهبك صوتاً عذباً فجعلت تترنم به في جوف الليل إظهاراً لنعمته عندك!

عاصم : أصلحك الله يا سيدي، ما لهذا أخذني العسس.

أبو حنيفة : فلعلهم أخذوك لأنهم حسبوا أنك كنت تتهمهم جهاراً بأنهم أضاعوك، وما أضاعوك؟

عاصم : لقد كنت يا سيدي ...

أبو حنيفة : (مقاطعا) أعلم أنك كنت تلتمس العزاء في الغناء كما يلتمس غيرك العزاء في تلاوة القرآن. أليس هذا ما أردت

أن تقول؟

عاصم : كلا يا سيدي...

أبو حنيفة : لا تنكر، ويحك! ألا تدري يا عاصم بن عبد العزيز أنني هممت ذات يوم أن أزورك لأبلغك أن لو استعملت صوتك العذب في تلاوة آيات الله مكان باطل الشعر لكان ذلك أشكر لنعمة الله عندك!

عاصم : (في اندفاع كأنما خشي أن يؤول قوله) يا سيدي لقد كنت أشرب الخمر! (يجِم الجميعُ متعجبين)

أبو حنيفة : (في هدوء غير منتظر) أعلم ذلك يا عاصم!

عاصم : تعلم ذلك؟

أبو حنيفة : نعم، أعلم أنك كنت تقرن الباطل بالباطل، ولكن أتراك كنت تشربها لو كنت ترتل آيات الله؟

عاصم : معاذ الله يا سيدي الإمام! (يبكي)

أبو حنيفة : ويحك، ما يبكيك؟ أو ظننت أنني جئت لتقريعك وتأنيبك؟ لا، والله – يا جاري العزيز– ما جئت إلا لأراك وأطمئن عليك منذ افتقدت صوتك الذي طالما آنسني في ظلام الليل!

عاصم : (ماضيا في بكائه) ليس هذا الذي أبكاني يا أبا حنيفة، ولكن أن تسأل عني، وتحضر لرؤيتي وأنت تعلم أنني أعصي الله في كل ليلة!

أبو حنيفة : هذا حق الجوار – يا عاصم– لا يسقطه عني أنك

تعصي الله في كل ليلة، فالله وحده هو الذي يدين العباد بذنوبهم فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

عاصم : والله – يا سيدي– ما أدري كيف أشكرك؟ ولكن والله لأتوبن توبة نصوحا تجعلني أهلا لجوارك.

أبو حنيفة : جزاك الله عني خيراً يا عاصم. الآن قلدتني مِنّة لن أنساها لك ما حييت!

عاصم : ماذا تقول يا سيدي الإمام؟ أي منة لي عليك؟ أنت صاحب المنة عليّ!

أبو حنيفة : رويدك يا بني، لقد كنت أدعو الله كل ليلة أن يهديك ويتوب عليك فكنت أرتقب كل ليلة نتيجة دعائي فأراك وقد انقطعت عما كنت فيه. حتى إذا افتقدت صوتك سألت عنك، فإذا أنت في الحبس، فأشفقت أن يكون في سوء عملي مما لا علم لي به ما منع من قبول دعائي. فكيف لا تكون صاحب المنة عليّ وقد بشرتني الآن بأن الله استجاب الدعاء وأنه سبحانه وتعالى غير ساخط عليّ؟

عاصم : (تغرورق عيناه بالدموع) يا أبا حنيفة، هل لك أن تسدي إليّ جميلا بعد؟

أبو حنيفة : اقترح يا عاصم.

عاصم : أنشدك الله إلا ما أرشدتني إلى أفضل عمل عند الله لأقوم به؟

أبو حنيفة : وإن شق عليك؟

عاصم : وإن شق عليّ!

أبو حنيفة : كنت تردد يا عاصم:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليـوم كريهـة وسداد ثغر؟

عاصم : أجل يا سيدي الإمام.

أبو حنيفة : فهذه ثغور بلاد الإسلام لا ترد من ينتدب للدفاع عنها من فتيان المسلمين!

عاصم : (يهتف فرحا) أجل والله يا سيدي الإمام، لئن خرجت من هذا الحبس معافى لأنطلقن إلى ثغر من تلك الثغور فأجاهدن في سبيل الله حتى ألقى الشهادة!

أبو حنيفة : (يتهلل وجهه بشرا) بخ بخ لك يا عاصم! (للأمير) ماذا ترى الساعة أيها الأمير؟ أتبقيه بعد في سجنه؟

الأمير : ويحك يا سيدي الإمام! أبعد هذا الذي سمعناه منه؟ اذهب يا عاصم فأنت مطلق السراح.

عاصم : شكراً لك يا سيدي الأمير.

الأمير : كلا، لا فضل لي عليك. الله هو الذي أطلقك. (يلتفت للغلام) اسمع يا غلام .. انطلق فمرهم يحصوا كل من أخذ تلك الليلة إلى يومنا هذا فليطلقوهم جميعاً.

أبو حنيفة : شكر الله فضلك أيها الأمير. قد أبيْت إلا أن تتفضل علينا.

الأمير : والله يا أبا حنيفة ما شهدت كاليوم هدى وحكمة! والله لو بعت به عمري لكنت الرابح.

أبو حنيفة : الفضل لعاصم بن عبد العزيز.

الأمير : أجل، لولاك يا عاصم ما أولاني أبو حنيفة شرف زيارته.

أبو حنيفة : يا ابن عبد العزيز، هل لي أن أوصيك؟

عاصم : حباً وكرامة أيها الإمام.

أبو حنيفة : إن أكرمك الله بالشهادة فلا تنس أن تتشفع عند ربك لهذا الأمير الكريم... ولجارك أبي حنيفة!

(ستـــــــار)

❁ ❁ ❁

حارس البستان

(إبراهيم بن أدهم)

ـ ١ ـ

(خارج مدينة طرسوس.. يلتقي اثنان عليهما سيماء الزهاد، أحدهما إبراهيم بن أدهم، والآخر شقيق البلخي)

إبراهيم : أنا أيضاً من بلخ.

شقيق : أهلاً وسهلاً بأخي وابن بلدي.

إبراهيم : أرحلت مثلي في طلب الرزق؟

شقيق : الرزق يا أخي في كل مكان حتى في بلخ.

إبراهيم : ففيم إذن هاجرت؟

شقيق : ألتمس الطريق.

إبراهيم : الطريق إلى الله؟

شقيق : هو ذاك.

إبراهيم : فالله موجود معنا برعايته وحفظه في كل مكان حتى في بلخ.

شقيق : هيه ما أراك إلا سائحاً مثلي تلتمس الطريق.

إبراهيم : أنا ماش في الطريق.

شقيق : يا أخي إياك والغرور.

إبراهيم : الغرور أحياناً في أن تظن بغيرك الغرور.

شقيق : منذ كم سرت في الطريق؟

إبراهيم : منذ سبع سنين.

شقيـــق : أنت إذن غير ملوم.

إبراهيم : وأنت منذ كم؟

شقيـــق : منذ عشرين سنة وما زلت في أول الطريق.

إبراهيم : يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ (الحج: ٤٧)

شقيـــق : ماذا ترى في مقامَيِ الشكر والصبر؟

إبراهيم : هل لي أن أسمع رأيك أولاً؟

شقـــيق : إنَّا إن وجدنا شكرنا، وإن لم نجد صبرنا.

إبراهيم : يا أخي هكذا كلاب بلخ... إن وجدت شكرت وإن لـــم تجد صبرت.

شقيـــق : فماذا تقول أنت؟

إبراهيم : إنَّا إن وجدنا آثرنا، وإن لم نجد شكرنا.

شقـــيق : (في طرب وفرح وقد زال ما كان يجده من الحرج في أول الأمر) الله الله! أنت الضالة التي أنشدها. الحمد لله إذ هداني إليك، أنت إبراهيم ابن أدهم!

إبراهيم : (يتغير وجهه) وأنت شقيق البلخي؟

شقيـــق : عجباً، كيف عرفت؟

إبراهيم : كما عرفتني أنت.

شقيـــق : كلا، أنا لست مثلك يا ابن أدهم، أنت رجل مشهور.

إبراهيم : قاتل الله اللسان! لا يؤتى المرء إلا من لسانه.

شقيـق : اللسان أداة التسبيح يا ابن أدهم.
إبراهيم : ما نفع تسبيح اللسان إذا لم يسبحّ القلب؟
شقيـق : الله الله! ائذن لي يا سيدي أن ألازمك.
إبراهيم : بل ائذن لي يا سيدي أن أودعك.
شقيـق : لم يا سيدي؟ ألأنني عرفتك؟
إبراهيم : نعم.
شقيـق : إني أعاهدك يا سيدي أن أكتم سرك فلا يعرفك أحد.
إبراهيم : أنت تريد أن تلازمني؟
شقيـق : لا، لن ألازمك. بحسبي أن أجتمع بك بين الفينة والفينة فإني أعرف أنك تنتقل من بلد إلى بلد هربا من معرفة الناس لك.
إبراهيم : أجل.
شقيـق : فسأكون لك عوناً على التخفي والتنكر فلا يعرفك أحد. هلم بنا إلى طرسوس. سأبحث لك فيها عن عمل يناسبك.
إبراهيم : ولا تدعوني باسمي؟
شقيق : اقترح أي اسم لأدعوك به.
إبراهيم : ادعوني أبا إسماعيل الخراساني .
شقيـق : يا أبا إسماعيل أي نوع من الأعمال تختار؟
إبراهيم : أي عمل ينأى بي عن الناس ولا يشغلني عن ذكر الله.
شقيـق : إني أعرف صاحب بستان في الضاحية، ما ترى لو تعمل ناطوراً عنده في البستان؟

إبراهيم : عمل حسن، اذهب بي إليه.

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

إبراهيم : (لمعتوق وكيل صاحبة البستان) خذ هذا يا سيدي.

معتوق : ما هذا يا أبا إسماعيل؟

إبراهيم : ثمن رمانتين أخذتهما من البستان أمس.

معتوق : كل يوم تأخذ شيئاً من البستان، وتعطيني به ثمناً. والله لا أدري أنت ناطور عندنا أم تاجر؟

إبراهيم : أنا يا سيدي ناطور.

معتوق : اسمع يا هذا! إن مالت نفسك إلى شيء من البستان فكله ولا حرج عليك.

إبراهيم : كلا يا سيدي إني لا أستحل ذلك.

معتوق : قد أذنت لك.

إبراهيم : ما يدريني هل ترضى سيدتك مالكة البستان إذا علمت أم تسخط؟

معتوق : ما شأنك بمالكة البستان؟ أنا هنا مكانها.

إبراهيم : شكراً لك على كل حال. لكن دعني وما اخترت لنفسي لو تكرمت.

معتوق : كما تحب يا أبا إسماعيل. اسمع الآن قبل أن أنسى، إن السيدة المالكة تنوي زيارة البستان اليوم ومعها صديقتان من علية القوم فاجمع لها شيئاً من التفاح ومن العنب ومن

الرمان. تخيّر أجود ما في البستان.

إبراهيم : سمعاً يا سيدي. (يخرج).

معتوق : (يتمتم) يظن أنني سأسلم هذه الدراهم للسيدة المالكة. يا له من أحمق! لكن من يدري لعله يغتال لنفسه كثيراً من الفاكهة ويظهر لنا ورعه! هذا خديعة منه لئلا تتكشف خيانته. إنه كثير الصلاة كثير الذكر. لكن ألا يجوز أن تكون هذه حبائله؟ حبائل الشيطان؟

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(غرفة في القصر الذي في البستان، تجلس السيدة المالكة ومعها صديقتان لها حول مائدة وقد رُفعت الصحاف، وجاء دور الفاكهة، فقُدمت أطباق التفاح والعنب والرُّمان)

إحداهما : هذه الفاكهة من بستانك؟

المالكة : نعم، لا يوجد في طرسوس كلها أجود فاكهة من هذا البستان.

الثانية : (تأكل من تفاحة فتكف) وي هذه تفاحة حامضة.

المالكة : حامضة؟

الأولى : (تأكل من عنقود عنب) والعنب أيضاً حامض.

المالكة : حامض.

الأولى : ألا تصدقين؟ ذوقي إن شئت.

الثانية : وذوقي هذه التفاحة.

المالكة : (تتذوق من التفاح والعنب فتثور غاضبة) قبح الله هذا الوكيل يقدم لنا الفاكهة التي لم تنضج. (منادية) معتوق، يا معتوق!.

معتوق : (يدخل) لبيك يا سيدتي.

المالكة : ما هذا الذي قدمت لضيوفي يا أحمق؟ تفاح حامض وعنب حامض أتستأثر بالحلو وترمي لي ولضيوفي الحامض؟

معتوق : معذرة يا مولاتي! الناطور هو الذي جمع الفاكهة.

المالكة : ويلك كيف تعتمد عليه في أمر كهذا؟ لماذا لم تتخير أنت بنفسك؟

معتوق : ما خطر ببالي يا مولاتي أنه لا يحسن اختيار الفاكهة.

المالكة : أنت مسؤول أيضاً عن اختيار هذا الناطور. ألست أنت الذي عينته؟

معتوق : بلى يا مولاتي، لما بلغني من صلاحه واستقامته.

المالكة : ادعه لي الساعة.

معتوق : حالاً يا مولاتي. (يخرج منطلقاً).

المالكة : (تتخير من الأطباق ما تراه جيدا فتقدمه لصديقتيها) هذه حلوة. كلي. يا فاطمة وأنت يا خديجة كلي من هذا العنقود.

(يدخل معتوق ومعه إبراهيم)

المالكة : أنت الذي جمعت لنا الفاكهة اليوم؟

إبراهيم : (خجلاً يتقي النظر نحو النسوة) نعم يا سيدتي.

المالكة : أقصدت أن تحرجني أمام ضيوفي بتقديم هـذا التفـاح الحامض والعنب الحامض؟

إبراهيم : معاذ الله يا سيدتي أن أقصد ذلك.

معتوق : ألم أؤكد عليك أن تتخير أجود ما في البستان؟

إبراهيم : بلى وقد ظننت أني فعلت ولكن لعلي أخطأت.

المالكة : (لمعتوق) ويلك! تعين ناطوراً لا يميـز بـين الحلـو والحامض؟

معتوق : يا مولاتي غير معقـول أنـه لا يميـز بـين الحلـو والحامض. لقد صار له عندنا اليوم عام ونصف عام فلـو كان طفلاً صغيراً لميَّز!

إبراهيم : (متلعثما) أنا... أنا...

المالكة : أنت ماذا؟ تكلم.

إبراهيم : أنا لم أذق شيئاً مما في البستان.

المالكة : طوال هذه المدة لم تذق شيئاً؟ اضحكن معي وتعجـبن من هذا الناطور.

(يقهقهن ضاحكات).

معتوق : يا أبا إسماعيل! لقد كنت أظنك صالحاً فما حملك على أن تكذب؟

المالكة : وكذاب أيضاً؟ أي ناطور هذا؟

إبراهيم : أنا والله ماكذبت.

معتوق : هذه كذبة ثانية! يا مولاتي إنه كثيرا ما يطلب مني أن

أقتطع من أجره الشهري دراهم معدودة يزعم أنها ثمن ما استهلك لنفسه من فاكهة البستان في بعض الأيام، فكيف يزعم الساعة أنه لم يذق شيئاً من البستان قط؟

المالكة : ما تقول في هذا أيها الناطور الورع؟

إبراهيم : يا سيدتي أرجو أن تبحثوا لكم عن ناطور غيري فإني لم أعد أصلح لهذه المهنة.

النسوة : (يتضاحكن) مسكين! إن كان لا يصلح ناطوراً فلأي شيء يصلح؟

إبراهيم : سامحيني يا سيدتي فيما بدر مني دون قصد.

المالكة : اذهب يا معتوق فأعطه حسابه.

معتوق : تعال معي يا أبا إسماعيل. (يخرجان).

❊ ❊ ❊

— ٤ —

شقيق البلخي ومعتوق أمام مصطبة إبراهيم وقد ظهر في وجه شقيق الأسف والحزن)

معتوق : أقسم لك ما طردناه نحن، ولكنه هو الذي استعفى.

شقيق : لا بد أنكم أحرجتموه.

معتوق : بل هو الذي أحرجني أمام سيدتي وأحرج سيدتي أمام ضيوفها، والله لولا مكانه منك لكان لي معه شأن آخر.

شقيق : كنت تظن أنه كذبك حين قال: إنه لم يذق شيئاً من البستان قط؟

معتوق : لست أظن ظناً بل أوقن وأجزم.

شقيق : أنت لا تعرف هذا الرجل يا معتوق، لو كذب من في الأرض جميعاً ما كذب هذا.

(تظهر المرأة الفقيرة على باب البستان وتتطلع إلى الرجلين)

معتوق : ما خطبك؟ ماذا تريدين يا امرأة؟

المرأة : سأنتظر حتى يجيء؟

معتوق : من؟

المرأة : الناطور.

معتوق : ماذا تريدين منه؟

المرأة : (في حذر) لا شيء... حتى يجيء هو.

شقيق : (بلطف) يا سيدتي قولي ما عندك ولا تخافي فأنا من أصدقاء الناطور.

معتوق : هل كان يعطيك من فاكهة البستان؟

المرأة : نعم، جزاه الله خيراً. أين هو يا سيدي؟

(يتبادل شقيق ومعتوق النظر)

معتوق : انتظري قليلاً (يغيب لحظة).

المرأة : (لشقيق) أين الناطور الطيب يا سيدي؟

معتوق : (يعود بشيء من الفاكهة فيعطيه المرأة) خذي.

المرأة : الناطور هو الذي أوصاك أن تعطيني؟

معتوق : نعم.

المرأة : جزاه الله خيراً وجزاكما أنتما أيضاً خيـــرا، ســـيفرح أطفالي اليتامى بهذه الفاكهة.

(تذهب)

شقيق : أرأيت يا صاحبي؟ لقد فاتك خير كثير إذ تركته يرحل عنك. أتدري من كان هذا الرجل؟

معتوق : من؟

شقيق : إبراهيم بن أدهم.

معتوق : (فاغرا فاه من الدهشة) إبراهيم بن أدهم؟

شقيق : نعم، نعم.

معتوق : لأبحثن عنه في المدينة وأعيدنه.

شقيق : هيهات! لابد أنه قد ترك المدينة إلى مدينة أخرى.

معتوق : هلا أخبرتني مِنَ الأول يا سيدي؟

شقيق : لو عرف أنك عرفته ما رضي أن يبقى عندك ســـاعة واحدة.

معتوق : وا أسفاه على كنز ما علمت به إلا حين ضاع!

ـــ ستار ـــ

❋ ❋ ❋

---

٣) حارس البستان: (إبراهيم بن أدهم) نشرت في كتاب: من فوق سبع سموات ضمن سبع مسرحيات لباكثير، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ. ونشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٩٧) بعنوان أصدق أهل زمانه.

رسـل المسلمين بين يـدي رستـم

(سرادق كبير مفروش بالبسط الفاخرة، يُرى رستم جالساً على سرير من ذهب وحوله على الأرائك قـواده وكبـار رجاله فيهم: بَهْمَن جاذويْه، والجـالينوس، والفيْـرزُان، والهُرمُزان، وبزرجَمْهر.)

رستم : (يتكلم في حماسة) أستحلفكم يا قوم، ألا ترون ما أرى؟ ألا تجدون في هؤلاء أمراً غريباً لا عهد لنا بمثله من قبل؟

بزرجمهر : صدقت يا رستم. ما رأينا مثل هذا، ولا سمعنا بمثله، ولا قرأناه فيما قرأنا من تاريخ الشعوب.

الفيرزان : (في سخرية) مجّدهم أنت أيضاً يا بزرجمهر. ألف كتابـاً في مناقبهم لعل ملكِهم الذي اسمه عمر يجيزك عليه.

بزرجمهر : يا فيرزان، دعني أذكّرك بما قاله الحكماء قبلي:

الفيرزان : ماذا قالوا؟

بزرجمهر : إن الذي يسخر في غير موضع السخرية إنما يسخر مـن نفسه.

الفيرزان : ما أهون الحكمة وأضيعها في لسان من يتزلف بهـا إلـى الزعماء والرؤساء!

بزرجمهر : وما أشقى الحكيم حين يجادله من لا يشاكله!

الفيرزان : أأنت تعد نفسك حكيماً؟ فوا رحمتاه إذن للحكماء!

رستم : على رسلك يا بزرجمهر. دعني أشرح للفيرزان ما كنت أريد. ألم تشهد يا فيرزان مجلس أمس ومجلس أول من أمس؟

الفيرزان : بلى.

رستم : سمعت ما قال العربيان؟

الفيرزان : نعم.

رستم : ألم يدهشك ما سمعت؟

الفيرزان : كلام واحد مكرر يرددونه كالببغاء.

رستم : قد فاتك إذن شيء هام، وما كان ينبغي أن يفوتك.

الفيرزان : ما هو؟

رستم : إن لكل منهما أسلوباً يختلف عن أسلوب صاحبه مع اتفاقهما في المعنى الذي يقصدان، بل إنهما ليتباينان في كل شيء: في القامة والسحنة، والحركة والمِشية، والنظرة والسمت.

الفيرزان : هكذا هم منذ كانوا، لا يجمعهم شيء إلا في كُنْه الدعوة التي إليها يدعون.

رستم : ذلك سر عجبي من اتفاقهم في كنه الدعوة التي إليها يدعون!

الفيرزان : وما تقول فيما فعلاه أمامنا؟ أعجبك أيضاً سلوكهما الهمجي؟

رستم : لا غرو أن تحسبه همجيا إذ فاتك المعنى الذي ينطوي عليه.

الفيرزان : علام ينطوي... إلا على الوقاحة وسوء الأدب وقلة الذوق؟

رستم : أعمِل ذهنك قليلاً يا فيرزان وحاول أن تفهم.

الفيرزان : يا قوم! أنصفوني من هذا الذي يضفي على هؤلاء الهمج ما ليس فيهم. ألم تروا أحدهما كيف ربط فرسه على مدخل الإيوان، ثم جلس على الأرض، وركز رمحه في البساط؟

رستم : أخبروه يا قوم... ماذا قصد من ذلك؟

الفيرزان : جِلف أراد أن يتحداك في سلطانك، وقد فعل.

رستم : إني أعيذكم يا قوم ألا يكون بينكم من يدرك أكثر من ذلك.

جاذويه : رآنا نعظم هذه البسط والأرائك والرياش فأراد أن يرينا أن همتهم فوق ذلك.

رستم : أحسنت يا جاذويه.

جاذويه : وأراد كذلك أن يشعرنا بأنه غلبنا على أرضنا إذ جلس عليها دوننا.

رستم : ألم تفهم ماذا قصد؟

الفيرزان : ماذا قصد إلا أنه أهانك وأهاننا جميعاً معك.

رستم : كلا يا فيرزان.. أراد أن يشعرنا بأنه هو في يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا.

الفيرزان : خبرني يا رستم: أفهمت ذلك ساعة وقع أم فهمته الآن فقط؟

رستم : بل ساعة وقع.

الفيرزان : فكيف تركتهما دون أن تعاقبهما على ذلك؟

رستم : ويحك! أتريدنا أن نفقد حلومنا؟ فذلك ما يبغيه أميرهم سعد ومن ورائه عمر.

الفيرزان : فلقد بلغت سعدا وعمر ما يريدان بتشاغلك عن الحرب وترددك بين الإقدام والإحجام حتى وقع علينا هؤلاء الأجلاف.

الهرمزان : (ينظر إلى الفيرزان كالمؤيد له) والثالث الذي هو آت إلينا اليوم... تُرى ماذا هو فاعل؟

الفيرزان : (متشجعاً) ألا يستطيع أحد أن يتكهن ماذا هو فاعل؟ فكروا من الآن حتى لا تتهموا بالغباوة وسوء الفهم.

❁ ❁ ❁

(يدخل أحد الحجاب مسرعاً).

الحاجب : رسول العرب يا مولاي قد حضر.

رستم : دعوه يدخل. (يخرج الحاجب) انظروا يا قوم إليه. لقد أطلنا اليوم مسافة البسط التي يقطعها إلينا حتى نتمكن من تأمله وهو يمشي عليها. إنك لا تستطيع أن تهزم عدوك إلا إذا عرفت سر قوته فانظروا وتأمّلوا وتبصّروا.

(يدخل كثير من الخدم والأتباع متسللين حيث يختبئون في جوانب السرادق).

(تتوجه أبصار الجميع جهة المدخل، ثم يظهر المغيرة بن شعبة ماشيا في خطى ثابتة دون أن يلتفت يمنة أو يسرة

حتى إذا دنا من كرسي رستم اعترضه أحد الجلاوزة).

الجلواز : قف هنا عندك.

المغيرة : أنت رستم؟

الجلواز : (مستعظما) لا، أليس عندك نظر؟ ذاك رستم.

المغيرة : (بلهجة آمرة) تنح إذن عن طريقي. (محييا) عم صباحا يا رستم. (يثب نحو رستم فإذا هو جالس بجوار رستم على سريره، يدهش الجميع. ويراع الحرس فينقضون عليه وينزلونه من السرير في غلظة، مخاطبا رستم:)

ألهذا دعوتنا يا رستم؟

الحرسي : أيها العربي، كيف تريد أن تجلس على سرير رستم؟

المغيرة : ليحادثني وأحادثه.

الحرسي : وما ينبغي لأحد أن يجلس على سرير رستم. اجلس هنا على هذا المقعد.

المغيرة : كلا، لا أجلس إلا حيث أريد. (يدير بصره في وجوه الحاضرين، ويخاطبهم):

(يا أهل فارس! كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسْفَهَ اليوم منكم. إنَا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا، فظننت أنكم تتواسون فيما بينكم كما نتواسى. وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض. إذن لتركتكم وما ارتضيتم لأنفسكم من الذل. وأنا لم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل،

وأنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هـذه الـسيرة ولا على هذه العقول.

(همهمة سخط في صفوف العِلية، وهمهمة استحسان مـن صفوف الخدم والسّقِلة).

رستم : هذا فعل الحرس وليس من فعلنا.

المغيرة : أنتم الذين نصبتم هؤلاء الحرس ليذلوا الناس لكم، وكـان عليكم أن تنبهوهم من قبل أن يتركوني وشأني، إذن لمـا سمعتم مني ما يحرجكم أمام هـؤلاء المستـضعفين مـن قومكم.

رستم : هلم اجلس بجنبي على السرير لتعلم أن ما قلته عنا غيـر صحيح.

المغيرة : (يجلس على سرير رستم) يسرني يا أهل فارس أن قائدكم رستم قد فاء إلى الحق معي، وأرجو أن يفيء إلى الحـق معكم.

رستم : دع عنك هذا يا عربي.إننا لم نزل متمكنين فـي الـبلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافا في الأمم، ليس لأحد مثـل عزنا وسلطاننا. أما أنتم فلم يكن في الأمم أمـة أضـعف عندنا شأناً منكم، وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ثم نردكم.

المغيرة : كل ما قلته حق! ولكن ذلك كان فيما مضى قبل أن يبعـث الله فينا هذا الرسول بالحق والهدى ليقوم بنـشرها علـى العالم كله. والدنيا كما تعلم دول، ولم يزل أهـل الـشدائد

يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم.

رستم : ويلكم! أتريدون أن تملكوا جميع العالم؟

المغيرة : كلا، ولكن علينا حقاً أن نُخرج الناس من عبادة أشرافهم ورؤسائهم وملوكهم إلى عبادة الله وحده في كل مكان يسوقنا الله إليه.

رستم : إنني أحسب أنه ما حملكم على ما صنعتم إلا الجَهْد والقحط في بلادكم كدأبكم فيما سلف، فماذا ترون لو أعنّاكم بما يعوزكم من الطعام والميرة، وتنصرفون عنا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم.

المغيرة : يا رستم! عن أي جهد تتحدث اليوم؟ ألا تعلم أننا استولينا على معظم بلاد سورية حتى اضطر هرقل إلى الفرار بنفسه إلى عاصمته؟

أما تعلم يا رستم أن أميرنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يمدنا بالغنم والجُزر والصبرة طوال مسيرنا من المدينة إلى القادسية؟ وأنه يعلم كل صغيرة وكبيرة عنا وعنكم، وأنه يشاركنا بالرأي والنصيحة من مقامه بالمدينة فكأنه حاضر لدينا. أفهذا يا رستم فعل من أضر به الجهد ليرده القليل مما عندكم؟

رستم : لعلكم تريدون أن تضموا إليكم هذا الجزء من السواد الذي يقطنه قبائل من بني جنسكم من النَّمِر وتَغْلِب وإياد، فإن

كان ذلك ما تطلبون فسنتفاوض في هذا الأمر لعلنا نتفق على حل يرضينا ويرضيكم.

المغيرة : يا رستم! ينبغي أن تعلم أن نبينا لم يبعث للعرب خاصة بل بعث للناس عامة، وأن ديننا لخير البشر أجمعين، ولا فضل فيه لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، فليس هؤلاء العرب المقيمون في هذه الناحية بأكرم علينا منكم إن اهتديتم إلى الحق. وإنك لتعلم - يا رستم- أن هؤلاء العرب قد قاتلونا في سبيلكم بأشد مما قاتلتمونا أنتم، فقاتلناهم بأشد مما قاتلناكم، وإن قليلاً منهم رغب أن يقاتل معنا فقبلنا ذلك منهم لعلهم يهتدون لما اهتدينا إليه.

رستم : إذن.. فماذا تريدون؟

المغيرة : اختاروا إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

رستم : إني لأعجب من ذكركم الجزية. إن الجزية إنما يدفعها الأضعف للأقوى، فكيف تطمعون في ذلك؟

المغيرة : نحن الأقوى بالله، وبالحق، وبالعدل، والحرية، وأنتم الأضعف، بالباطل، وبالظلم، واستعباد الأشراف للمستضعفين.

رستم : أي حق وأي عدل إذا طمعتم في أموالنا فطلبتم منا الجزية بغير حق؟

المغيرة : هذه الجزية تدفعونها من أجل حمايتكم والذّب عنكم، فإذا أسلمتم فعليكم دفع الصدقة.

رستم : جزية... صدقة! إنكم تريدون المال بأي سبيل.. تأخذونه منا إذا لم نُسلم، وتأخذونه منا إذا أسلمنا.

المغيرة : هداك الله يا رستم... ليس الأمر كما ذكرت. فالجزية ضريبة الدفاع نقاتل بها عنكم، ونصون أموالكم وأعراضكم وأنفسكم، فإذا عجزنا عن ذلك فلا جزية لنا عليكم. فأما الصدقة فإذا أسلمتم تؤخذ من أغنيائكم وترد على فقرائكم، كما تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا.

رستم : لقد تبين لنا الآن أنكم تأبون إلا القتال فاعبروا إلينا ليفصل السيف بيننا وبينكم.

المغيرة : بل اعبروا أنتم.

رستم : اتركوا لنا هذه القنطرة نعبر عليها.

المغيرة : كلا، لا نرد عليكم شيئاً غلبناكم عليه.

رستم : فماذا نصنع إذن؟

المغيرة : اعبروا إلينا من طريق آخر غير القنطرة، أو ابقوا بهذا المكان ما شئتم، فإننا باقون هنا عاما أو عامين أو أكثر حتى تقبلوا منا إحدى الخصلتين الإسلام أو الجزية.

رستم : (في حدة) كلا، ليس بيننا وبينكم غير السيف.

المغيرة : فما الذي يمنعكم من ذلك؟ أهذه القنطرة يا رستم أم خوفك مما ينتظركم بالضفة الأخرى من سوء المصير؟

رستم : اسكت يا أعور!

المغيرة : لو كنت جبانا مثلك لبقيت عيناي سليمتين كعينيك هاتين.

رستم : اسكت!

المغيرة : لا أسكت حتى تسمع قصة عيني، أتدري أين فقدتها؟

رستم : أين؟

المغيرة : في معركة اليرموك حيث هزمْنا الروم هزيمة ما حقة.

رستم : غدا يا أعور نجعلك أعمى فإن عندنا لرماة لا يخطئون الحدق.

المغيرة : ليكن حظنا في القادسية مثل حظنا في اليرموك، ولتذهب عيني الأخرى! لكنك وا أسفاه لن تراني وأنا أعمى كما يراني باهان قائد الروم وأنا أعور.

(يصمت رستم قليلاً كأنما تطيرّ من هذا القول)

رستم : إني ما زلت أطمع أن ترجعوا إلى صوابكم، فأبلغ أميركم ذلك، وقل له يبعث إلينا رجلاً يكلمنا ونكلمه لعلنا نتفق معه على شيء.

المغيرة : حبا وكرامة. سيأتيك الرجل غداً، ويأتيك غيره بعد غد، ثم غيره... ثم غيره، لن نكلّ أبداً حتى تكلّوا أنتم. نحن دعاة حق، فأحق شيء إلينا أن تسمعوا منا مرة بعد مرة لعلكم تهتدون. إننا لا نرهب قتالكم لأننا واثقون بنصر الله لنا، ولكن إسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، وحياتكم أحب إلينا من موتكم.

رستم : يا هذا حسبك! إني أوصيتك رسالة إلى أميرك وأريد جوابها منه لا منك.

المغيـرة : يا رستم! أنا وأميري شيء واحد. نحن -المسلمين- كالجسد الواحد بعضنا من بعض، يُجير أدنانا على أعلانا، ولسنا مثلكم بعضكم أرباب بعض. (يخرج)

(يتسلل الخدم والأتباع خارجين خلفه لينظروا إليه)

الفيرزان : أرأيتم كيف افتتن به العبيد والسفلة؟ لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه!

الجالينوس: ليتنا كنا منعنا هؤلاء السفلة والعبيد من دخول هذا السرادق اليوم.

جاذويه : أجل، لقد كثروا اليوم كأنما دعاهم داع.

الهرمزان : كلا يا قوم، لقد سمعوا شيئاً من هذا الكلام أمس فلو منعتموهم اليوم لكان ذلك أحرى أن يضاعف الخطر الذي تخشونه.

الفيرزان : ما كان ينبغي أن يُسمح لهؤلاء العرب بالحضور البتة. لقد كان ذلك من خطل الرأي.

رستم : كن أنت يا فيرزان كالنعامة تخفي رأسها في الرمل حين ترى الخطر، أما أنا فليس ذلك من طبعي ولا أرضاه لقومي.

الفيرزان : أفيرضيك أن يفتتن عبيدنا وخدمنا بأقوال هؤلاء ومذهبهم؟

رستم : بل أشفق عليهم من ذلك.

الفيرزان : فما تماديك في دعوة هؤلاء للحضور واحدا بعد واحد؟ لقد جاءك ثلاثة منهم، فسمعت منهم وسمعوا منك، فماذا تريد

بعد؟ أتطمع أن تحملهم على ترك دينهم إلى دينك؟ أم تريد أن تعرف المزيد عن دينهم لعلك تقنع به فتعتنقه؟

الهرمزان : أجل يا رستم، ما كان لك أن تطلب منهم رجلاً آخر بعد هؤلاء الثلاثة.

رستم : أواه! ماذا أصنع لأجعلكم تفهمون ما أرمي إليه؟ إني أطاولهم لعل أمراً يحدث مما لا يخطر لنا ولا لهم على بال. لعل خلافا في الرأي يقع بينهم، فقد بلغني أن فريقا منهم قد شعبوا على أميرهم سعد، قل لهم يا جاذويه: ماذا حدث؟

جاذويه : أنكروا على أميرهم احتجابه عنهم في قصر قديس لمرضه وعجزه عن الخروج.

الفيرزان : إذن... فماذا تنتظرون؟ هذا أصلح وقت لمناجزتهم القتال إن كنتم تريدون القتال؟ وإلا فيا ضيعة فارس في قائدها! بالليل ينظر في النجوم، وبالنهار ينظر في وجوه العرب.

رستم : ما أنت وذاك؟ إنما أنت نفاج، فإذا عضتك الحرب بنابها فررت ونجوت بنفسك.

الفيرزان : سوف يعلم الجيش غداً أينا النفاج.

رستم : إنك خرجت معنا وعقلك في المدائن تدبر الخطط للمستقبل، ويلك! إن خسرنا هذه المعركة فلن يكون لفارس مستقبل.

الفيرزان : رمتني بدائها وانسلت، بل أنت الذي تركت عقلك في المدائن... في مخدع هناك. إنك لا تريد أن تحارب خشية

أن تفقد حياتك فيقيم في المخدع سواك.

رستم : كذبتك نفسك. لقد عزمت أن أناجزهم القتال فاستعد أيها الفارس الشجاع!

الجميع : متى يا رستم؟

رستم : في الحال.

الهرمزان : لكنك أرسلت إلى أميرهم ليبعث لك رجلاً آخر.

رستم : لا بأس... لكي نفاجئهم على غرة... انصرفوا الآن. ليذهب كل قائد إلى رجاله فليأمرهم بالتعبئة ليكونوا على أهبة.

(يخرجون جميعا ما عدا جاذويه والبندوان فقد استبقاهما بإشارة من يده).

جاذويه : ماذا حملك على تغيير خطتك؟ إن كان الفيرزان فسنكفيك أمره.

رستم : لو كان الفيرزان وحده لهان علينا أمره. ولكن ماذا تصنع في شاهنشاه؟ لقد أرسل إلي اليوم يهددني إن لم أعبر إليهم وأناجزهم القتال ليحضرن هو بنفسه.

جاذويه : لا مناص إذن من المناجزة.

رستم : فليشهد التاريخ غدا أنني أُكرهت على هذه الخطة، وأنني أطعت مليكي وعصيت صوابي.

البندوان : وعلام يا أخي؟ على اقتحام القنطرة أم ردم العقيق؟

رستم : ماذا ترى يا جاذويه؟

جاذويه : إن جيشنا كبير، والقنطرة غير مأمونة حتى لو انتزعناها من يد العدو، فإذا أردنا أن نضمن لنا طريقا ثابتا، وألا يشطر بعض جيشنا عن بعض فلنردم جانبا من النهر.

رستم : أحسنت يا جاذويه! هذا هو الرأي الذي عولت عليه قد زدتني به بصيرة. آه لو وافقني على خطتي هذا الملك الصغير! إذن لطاولت هؤلاء العرب وصابرتهم، وإذن لضمنت النصر.

جاذويه : لا تبتئس يا رستم فإننا سننتصر عليهم بمشيئة أهومن.

رستم : (يتمتم شارد الفكر كأنه لم يسمع ما قاله جاذويه) أواه! لقد غلبني عمر... عمر أكل كبدي... أكل كبدي عمر!

(ستار)

❁ ❁ ❁

---

٨) رسل المسلمين بين يدي رستم: (في معركة القادسية) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٨٨)

زهرة الوادي

ـ ١ ـ

(في قصر الأميرة "زهرة الوادي" من بنات عمومة الخليفة الفاطمي " الآمر بأحكام الله"- الخليفة في زيارتها، والجواري قائمات على الخدمة)

الخليفة : أخشى يا ابنة عمي أن أملَّك بكثرة الزيارة.

الأميرة : كلا يا أمير المؤمنين... هذا شرف تحسدني عليه بنات أعمامي.

الخليفة : (يلتفت إلى الجواري) ألا تريحين هؤلاء الجواري من طول الوقوف؟

الأميرة : دعهن فإنهن لا يقفن على خدمة أكرم منك.

الخليفة : أريد أن أستشيرك في أمر هام... أرجوك!

الأميرة : استرحن إذن يا جواري بأمر أمير المؤمنين.

الجواري : سمعاً يا مولاي (ينسحبن ويخرجن).

الأميرة : في أي أمر تريد استشارتي؟

الخليفة : في الأمر الذي تعرفين!

الأميرة : أي أمر؟

الخليفة : ما أحلى تجاهلك هذا! وما أمرّه!

الأميرة : كيف؟

الخليفة : ما أحلاه على سمعي! وما أمره في قلبي! حنانيك يا زهرة الوادي... يا أقحوانة العين... يا ريحانة الفؤاد. بالله لا تطيلي عذاب ابن عمك وحيْرته بين قبولك وإعراضك!

الأميرة : تلك جنايتك على نفسك، فكأنك تستعذب هذا العذاب. ما عندي غير جواب واحد وقد سمعته مني غير مرة، طلّق سلمى البدوية أكن لك.

الخليفة : قد علمت ألا سبيل إلى ذلك الآن، فأمهليني حتى أجد السبيل...

الأميرة : قد أمهلتك حتى تجد السبيل.

الخليفة : لكني أريد يدك الآن!

الأميرة : ما يمنعك من تنفيذ شرطي الآن؟

الخليفة : ليس من المروءة يا زهرة أن أسرحها اليوم بعد أن فرقت بينها وبين ابن عمها الذي كانت مسماة عليه.

الأميرة : ما حملك على الزواج منها، وأنت تعلم أنها كذلك؟ وكيف طوعت لك نفسك أن تفرق بين أليفين حبيبين؟

الخليفة : حكم الهوى يا زهرة وبدوات الشباب.

الأميرة : بل صولة الملك يا آمر وسلطان الخلافة.. ما هكذا ينبغي أن يصنع خلفاء الله في أرضه!

الخليفة : أنا ضيفك يا زهرة الوادي، وما ينبغي أن يقابل الضيف بالملامة والعتاب.

الأميرة : إني لا أعدّك ضيفاً عندي... أنت هنا في بيتك.

الخليفة : لو كنت في بيتي لأمرت ونهيْت.

الأميرة : إن كنت تريد أن تأخذني بأمر منك كما أخذت سلمى البدوية قبلي، فأمر الخليفة لا يُعصى.

الخليفة : حاش لي وحاش لك... أريد أن تأمريني أنت بأخذك!

الأميرة : الآمر لا يؤمر!

الخليفة : سأغير لقبي من أجلك... سأكون من اليوم فصاعدا (المأمور بأحكام الله)

الأميرة : (تتضاحك)... خبرني، هل لك قلبان؟

الخليفة : معاذ هواك، بل قلب واحد.

الأميرة : أفئن غيرت لقبك يكون لك قلب ثان؟

الخليفة : لا يا حبيبتي، ليس لي غير قلب واحد.

الأميرة : فهل من العدل أيها الخليفة أن أعطيك كل قلبي وتعطيني نصف قلبك؟

الخليفة : بل سأعطيك كل قلبي!

الأميرة : ما هذا بعدل منك ولا يجمل بي أن أدعك تنصفني وتظلم غيري!

الخليفة : لا ظلم يا ابنة عمي فيما أباحه الشرع الحنيف.

الأميرة : أباحه الشرع الحنيف وما أوجبه... لا بل أباحه واشترط العدل.

الخليفة : في وسعها هي أن تعفيني من هذا العدل.

الأميرة : لكن ليس في وسعي أن أدعك تظلمها من أجلي!

الخليفة : ليس من أجلك بل من أجلي.

الأميرة : إذن فلن أعينك على ظلمها مرة أخرى.

الخليفة : عجباً لك يا ابنة عمي.. تشفقين عليها من هذا الظلم الهين، ولا تشفقين عليها من ظلم الطلاق وهو أعظم!

الأميرة : إنما الظلم أن تحبسها على قلب ليس لها فيه نصيب فلو سرحتها لتقدمت إليها قلوب كثيرة تختار منها ما تريد.

الخليفة : هيهات... لن تسلو ابن عمها أبداً!

الأميرة : عجباً لك! تعرف هذا وتمسكها بعد عندك! لم لا تدعها لابن عمها الذي يريدها وتريده؟

الخليفة : أين منها هو؟ لقد ارتحل عن حيها ولم يسمع له خبر منذ ذاك.

الأميرة : إنما ترك ذلك العاشق المسكين دياره وهام على وجهه من جرائك. ليت شعري أي سماء تظله الآن وأي أرض تتقاذفه؟ ما أقسى قلبك! ألم يخالجك يوماً قط من عطف عليه؟

الخليفة : صدقيني يا بنت عمي... لو أعلم مكانه اليوم وله فيها هوى لنزلت عنها له.

الأميرة : أرسل العصفورة إلى عشها يعدُ أليفها إليه!

الخليفة : ما يكون لي أن أرسلها قبل أن أعرف مكان الأليف.

الأميرة : هذه الرحمة ليست من طباع الصقر... فالعصفور لا يستطيع أن يؤمن بها إلا إذا ابتعد الصقر عن أهله وسكنه!

الخليفة : يا لي منك!

الأميرة : يا لك من نفسك!

الخليفة : إنك ترتابين في صدق قولي... ليت شعري كيف أجعلك تؤمنين بأنني أعني ما أقول؟

الأميرة : حين يؤمن قلبك بمذهب الشاعر الذي يقول:

هـــواك يـــا بنـــتَ عمـــي في قلبيَ الـــدهر كـــامن
ســـواكِ مـــا حـــل قلبـــي لا عاش في الحب خائن

الخليفة : عجبا... كأن هذا الشعر قد مر على سمعي!

الأميرة : ولكنه لم يدخل في قلبك!

الخليفة : ممن سمعته يا زهرة؟

الأميرة : من شاعر الربابة الجديد.

الخليفة : أين سمعته منه؟

الأميرة : هنا في القصر، دعوته فأحيا عندنا ليلة ممتعة.

الخليفة : هلا دعوتني لشهودها، فإنني أحب سماعه؟

الأميرة : في وسعك أن تسمعه عند زوجتك البدوية كل يوم في قصر الهودج.

الخليفة : أجل، إن سلمى تحب أشعاره البدوية.. لكن مـــن أيـــن علمت ذلك؟

الأميرة : حذار يا ابن عمي أن تكاذبني فإني لا يخفى علي سر من أسرارك.

الخليفة : كيف خفي عليك إذن أنني لا أحب أحداً سواك؟

الأميرة : لو كان ما تقول حقاً لما ترددت في تنفيذ ما اقترحتـــه عليك.

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

(الأميرة في خلوة مع أمها)

أم الأميرة : لم لا تقبلينه يا بنتي وقد وعدك أنه سيسرح البدوية حين يجيء الأوان؟

الأميرة : كلا يا أماه... لا أقبله حتى يسرحها أولاً.

أم الأميرة : فستخطفه منك إحدى بنات أعمامك، ويومئذٍ تندمين على عنادك هذا وتعنتك.

الأميرة : إنك لا تعرفين الأمر كما أعرفه. هو من ذلك الطراز الذي يزداد تعلقه بالمرأة كلما صدّت عنه. هذا سر تعلقه بزوجته البدوية لأنها لا تميل إليه. دعي هذا الأمر لي... إني أعرف كيف أدبره.

(تدخل إحدى الجواري)

الجارية : زمردة يا مولاتي تستأذن عليك...

الأميرة : ويلك! أدخليها... (تخرج الجارية) هل لك يا أماه أن تدعينا وحدنا؟

أم الأميرة : لا أدري ماذا تصنع هذه الوصيفة من قصر الهودج عندك؟

الأميرة : ستعرفين ذلك فيما بعد يا أماه.

أم الأميرة : ألا تخافين أن يغضب الآمر إذا علم؟

الأميرة : اطمئني فإني أعرف ما أصنع.

أم الأميرة : هداك الله يا بنتي! (تخرج).

(تدخل زمردة)

الأميرة : هلمي يا زمردة... ماذا عندك من جديد؟

زمردة : (بصوت خافض) عندي نبأ هام يا مولاتي!

الأميرة : ما هو؟

زمردة : إن شاعر الربابة الذي يتردد علينا في القصر هو ابن مياح.

الأميرة : ابن مياح!

زمردة : هو ابن عم سيدتي سلمى الذي كان يعشقها من قبل.

الأميرة : (مدهوشة) ماذا تقولين؟ هذا غير معقول!

زمردة : بل هو ما قلت لك...

الأميرة : كيف عرفت ذلك؟

زمردة : جاء هذا الشاعر إلينا أمس كعادته، فجلس في فناء القصر يغني أشعاره، وكانت سيدتي تستمع إليه من شرفتها وعندها وصيفتها البدوية ليلى، فلما انسحب الخدم إلى المطبخ ساعة الغداء تسللت أنا إلى شرفة مجاورة لشرفة سيدتي فلمحت الشاعر واقفاً كأنما يريد أن يناجيها، وسمعتها تنهره بلهجة شديدة وتقول له: " والله يا ابن مياح لئن بقيت غدا في هذا البلد لأخبرن الخليفة بأمرك وليكن ما يكون".

الأميرة : فماذا قال لها؟

زمردة : وعدها بأنه سيرحل غداً وقال لها:" لا تغضبي يا بنت

عمي فإنما جئت لأودعك إلى الأبد"، ثم سألها أن تعطيه منديلاً فبصرت بمنديل يهوي من شرفتها...

الأميرة : ثم ماذا؟

زمردة : ثم لم يلبث أن انصرف .

الأميرة : انصرف؟

زمردة : نعم.

الأميرة : انصرفي الآن يا زمردة وخذي هذا (تعطيها صرة صغيرة).

زمردة : شكراً يا مولاتي الأميرة (تخرج).

الأميرة : (تنادي من أحد الأبواب) ميمون! ميمون!

ميمون : (يسمع صوته) لبيك يا مولاتي!

الأميرة : تعال!

ميمون : (يدخل) نعم يا مولاتي الأميرة.

الأميرة : أتعرف شاعر الربابة الذي جاءنا تلك الليلة؟

ميمون : الشاعر البدوي ؟

الأميره : نعم، انطلق الساعة وائتني به حالاً.

ميمون : إن وجدته في الخان الذي ينزل به فسآتيك به الساعة وإلا...

الأميرة : وإلا... فابحث عنه في كل مكان ولا ترجع إلا به، أفهمت؟

ميمون : سمعاً يا مولاتي... (ينسحب ليخرج).

الأميرة : اسمع يا ميمون.. إن جئتني به فأنت حر لوجه الله.

ميمون : (يرتد مغموماً) حر لوجه الله! لا يا مولاتي لا أريد أن أطرد من خدمتك.

الأميرة : بل ستبقى في خدمتي وأنت حر.. ولكن إن عجزت عن الإتيان به فسأطردك... انطلق حالاً.

ميمون : سمعاً يا مولاتي... حالاً، حالاً. (يخرج)

الأميرة : (تبتسم ابتسامة الظفر) إنها والله لفكرة!

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

أم الأميرة : ماذا أنت صانعة يا بنتي؟ من أين جاءك هذا الأمير الطرابلسي، وكيف أنزلته عندنا في القصر؟ والله إن الخليفة لن يحتمل هذا منك!

الأميرة : دعيني اليوم وشأني يا أماه... ستعرفين غداً أنني لا أعبث وأن تدبيري هو الصواب.

أم الأميرة : أي صواب يا زهرة في تحدي أمير المؤمنين وإغضابه إلى هذا الحد؟

الأميرة : (في تبرم مكبوت) قد كان ما كان يا أمي ولا سبيل إلى التراجع فأرجوك ألا تفسدي خطتي بكثرة لومك.

ميمون : (يدخل) مولاتي، مولاتي، الوزير الأفضل شاهنشاه بالباب يريد مقابلتك.

الأميرة : ائذن له يا ميمون. (يخرج ميمون).

أم الأميرة : قد توقعت أن هذا سيكون... لابد أن الخليفة هو الذي بعثه.

الأميرة : هذا ما قصدت أن يكون.

أم الأميرة : هداك الله يا بنتي! (تخرج).

(تخرج الأميرة ثم تعود وقد لبست وشاحها وأرخت على وجهها الخمار)

الوزير : (يدخل فينحني احتراما) السلام على سيدتي الأميرة.

الأميرة : وعليك السلام يا وزير أمير المؤمنين (تومئ له بالجلوس أمامها) تفضل.

الوزير : (يجلس) شكراً يا مولاتي الأميرة.

الأميرة : خير... إن شاء الله.

الوزير : أي خير يا مولاتي؟ لقد وقعنا في ورطة لا ينقذنا منها إلا الله ثم أنت!

الأميرة : سبحان الله! أفي هذا بعثك أمير المؤمنين؟ هل يليق به أن يشغلك بهذه الشؤون الخاصة عن تصريف شؤون دولته وتدبير أمور رعيته؟

الوزير : اغفري لي يا مولاتي إن قلت: إنك أنت السبب. أفي الحق أن تقبلي خطبة هذا الأمير الطرابلسي وقد سبق لابن عمك أمير المؤمنين أن خطبك؟

الأميرة : خطبني أمير المؤمنين فلم أقبله، وهذا خطبني فقبلته فأي شيء في ذلك؟

الوزير : أفهذا الأمير أفضل عندك من ابن عمك الخليفة؟

الأميرة : ما ينبغي لهذا الأمير ولا لغيره أن يكون أفضل من الخليفة، ولكن الزواج عن تراض، وقد عرضت على الخليفة شرطاً فأبى أن يقبله، فاعتبرت نفسي في حل من خطبته.

الوزير : لكنه وعدك بأن...

الأميرة : قد صارحته أني لا أكتفي بالوعد دون التنفيذ، فلو كان يريدني حقاً لنفذ طلبي.

الوزير : (بعد صمت قصير) هل تأذنين لي أن أقابل هذا الأمير الطرابلسي؟

الأميرة : ما حاجتك عنده؟ هل بعثك الخليفة لتقابله؟

الوزير : لا يا مولاتي الأميرة، ولكني أريد أن أحادثه لأستوثق من حقيقته وصحة نسبه.

الأميرة : قد استوثقت أنا من ذلك... ويلك! هل يدخل في روعك أنني سأتزوج رجلاً لا أعرف نسبه؟

الوزير : حاش أيتها الأميرة، ولكنك تعلمين أن من حق ابن عمك الخليفة أن يستوثق هو من ذلك.

الأميرة : ذلك لو كان الخليفة غير مغرض. وبعد، فما تداخلكم في خويصة أمري؟ أنا التي سأتزوج هذا الأمير الذي ارتضيته... لا الخليفة، ولا أنت!

الوزير : أنقذيني يا سيدتي... إنني في مأزق حرج!

الأميرة : إني لست مسؤولة عن ذلك.

الوزير : ألا تخشين يا أميرتي أن يتحدث الناس غداً أنك رفضت يد الخليفة وآثرت عليه هذا الأمير الأجنبي؟ ألا تشفقين من سوء هذه القالة؟

الأميرة : لن يتحدث الناس بذلك إلا إذا تمادى الخليفة في إعناته وتهوره.

الوزير : هذا ما أخشاه يا سيدتي الأميرة. أخوف ما أخافه أن يضطرني الخليفة إلى اتخاذ سبيل لا أرضاه لمقامك!

الأميرة : (غاضبة) أجئت تهددني ويلك؟ ارجع إلى من أرسلك فقل له: إنني سأتزوج الأمير الطرابلسي، وليفعل ما بدا له، فإني لا أبالي.

الوزير : معذرة يا مولاتي... إني والله ما قصدت إغضابك... ما أنا إلا رسول خير، وما على الرسول إلا البلاغ.

الأميرة : فارجع إليه إذن، وبلّغه ما قلته لك.

الوزير : سأفعل يا مولاتي... ولكن خبريني هل تفسخين خطبة هذا الأمير إن قبل أمير المؤمنين شرطك؟

الأميرة : نعم، إن جاءني هو بنفسه وفي يده وثيقة الطلاق.

❀ ❀ ❀

ـ ٤ ـ

(الخليفة في قصر الأميرة)

الخليفة : (ضاحكاً) هل يليق بك يا ابنة عمي أن تؤثري غيـري علي؟

الأميرة : ماذا أصنع؟ أنت الذي دفعتني إلى ذلك.

الخليفة : والآن وقد منَّ الله علي برضاك وقبولك، هل لـي أن أرى أميرك الطرابلسي؟

الأميرة : ماذا تريد من ذلك؟

الخليفة : أريد أن أرى أي رجل في الرجال هذا الذي أوشك أن يظفر بك من دوني؟

الأميرة : كلا يا ابن عمي لا ينبغي أن تراه اليوم ولكني سأصفه لك إن شئت...

الخليفة : حسناً... صفيه...

الأميرة : إنه شاعر مجيد!

الخليفة : شاعر؟

الأميرة : نعم، وفارس شجاع!

الخليفة : أأشجع مني؟

الأميرة : لا أدري أيكما أشجع؟ ولكنه قد خاض المعـارك فـي فلسطين في قتال الصليبيين.

الخليفة : تحت لوائنا؟

الأميرة : نعم.

الخليفة : هذا عجيب، وماذا بعد؟

الأميرة : ماذا تريد أن تعرف بعد؟

الخليفة : هل... أجميل هو؟

الأميرة : جداً.

الخليفة : أجمل مني؟

الأميرة : لولا أني قد اخترتك دونه لقلت: إنه أجمل منك!

الخليفة : (يتضاحك) واحسرتاه! إذ ليس في إمكاني أن أجد أجمل منك!

الأميرة : وإلا...

الخليفة : لآثرتها عليك!

(يتضاحكان)

الأميرة : هل من شيء بعد تريد أن تعرفه عن الأمير الطرابلسي؟

الخليفة : نعم، أريد أن أعرف كيف دخل إلى مصر، وكيف اتصل بك أنت دون أن أعلم؟

الأميرة : بل قد علمت أنت ذلك.

الخليفة : كيف؟

الأميرة : قد رأيته أنت غير مرة، وسمعت أشعاره في قصر الهودج!

الخليفة : ماذا تقولين؟ أهو...؟

الأميرة : الشاعر البدوي شاعر الربابة الذي يقول:

ما حل غيرك قلبي   لا عاش في الحب خائن

الخليفة : هل ذلك الشاعر البدوي هو الأمير الطرابلسي؟

الأميرة : نعم، هو هو بعينه.

الخليفة : وما حمله على التنكر في زي شاعر الربابة؟

الأميرة : جاء يطوف مصر على هذه الصورة ليتسنى له أن ينتقي أجمل أميرة فيها فيخطبها.

الخليفة : ويْله! ما أجرأه على التعرض لحريمنا!

الأميرة : هذه سنة سننتها أنت قبله، وأول راض سنة من يسيرها. ألم تخطب أنت سلمى البدوية بهذه الطريقة؟ لا، بل إنه لأكرم وأنبل إذ رام أن يختار له أميرة تليق بمقامه، لا بدوية تحب ابن عمها فيكرهها على الزواج به وهي لا تحبه!

الخليفة : لأؤدبنه على اجترائه.

الأميرة : حذار يا آمر... أن تأتي في حقه أمراً يسقطك في عين من تحب.

الخليفة : فأرسليه إذن من قصرك الساعة... لا ينبغي أن يبقى هنا لحظة واحدة.

الأميرة : ألا تحب أولاً أن تراه؟

الخليفة : لا أريد رؤيته، اصرفيه الآن، دعيه يرجع إلى بلده.

الأميرة : إنك لا تعرف أين بلده يا آمر.

الخليفة : أليس طرابلس الغرب؟

الأميرة : لا.

الخليفة : عجباً! فأين إذن بلده؟

الأميرة : هل تعدني أنك لن تمسه بسوء؟

الخليفة : ماذا يحملني على ذلك؟ لقد رجوت منك أن تدعيه يمضي لسبيله.

الأميرة : عدني ألا تمسه بسوء.

الخليفة : قد وعدتك.

الأميرة : وأنك ستطيعني في كل ما آمرك أن تصنع به.

الخليفة : أما هذا، فلا.

الأميرة : لماذا؟

الخليفة : أخشى أن تأمريني بتزويجه منك!

الأميرة : (تنفجر ضاحكة) ما أشد خوفك! وما أقصى مرماك! ألا تثق بحبي لك يا آمر؟

الخليفة : ما يدريني يا حبيبتي ماذا في قلبك بعد الذي رأيته اليوم منك؟

الأميرة : إنك يا ابن عمي لم تر شيئاً بعد.

الخليفة : ماذا تعنين؟

الأميرة : في الأمر ما هو أعجب مما رأيت!

الخليفة : أفصحي يا زهرة... بالله عليك.

الأميرة : عدني أولاً أنك ستطيع أمري... لا تخف... لن أغدر بك!

الخليفة : قد وعدتك.

الأميرة : فاعلم أنه من بادية الصعيد ومن حي سلمى مطلقتك!

الخليفة : ماذا تقولين؟

الأميرة : وهو ابن عمها الذي كان يعشقها!

الخليفة : ابن مياح؟

الأميرة : نعم، ابن مياح الذي انتزعت حبيبته منه.

الخليفة : (غاضباً) ويله! كيف جرؤ هذا البدوي على التعرض لخطبتك بدعوى أنه أمير طرابلسي؟

الأميرة : هذا كله من تدبيري أنا... فلا ذنب عليه.

الخليفة : ثم كيف اجترأ على التعرض لحرمتي؟

الأميرة : أتعني سلمى ابنة عمه؟

الخليفة : نعم، كيف تلصص عليها وهي في عصمتي؟ أفهذا أيضاً من تدبيرك؟

الأميرة : (محتدة) اسمع يا آمر... تذكر وعدك لي... حذار أن تخل بوعدك وإلا...

الخليفة : حسناً يا ابنة عمي.. ولكني أريد أن أعرف كيف...

الأميرة : سأشرح لك كل شيء، وسترى أن ليس في الأمر أي ريبة، وليس عليه ولا عليها أي مغمز. وقد دبرت في نفسي أمراً وما عليك إلا أن تسمع وتطيع... لا تخف... ليس في تدبيري إلا كل ما يسرك...

الخليفة : حسناً.. إني سامع لك مطيع.

الأميرة : (باسمة في دلال) لقبك اليوم...!

الخليفة : (باسما) المأمور بأحكام الله!

(يضحكان)



ـ ٥ ـ

(في قصر الهودج... الوقت أول الليل)

الخليفة : هل صرفت خدم القصر جميعاً يا سلمى كما أمرتك؟

سلمى : (محزونة) نعم يا سيدي ما سوى ليلى فإني لا أدري كيف أصرفها وإلى أين.

الخليفة : كلا، لا تصرفي ليلى، فهذه يجب أن ينالها العقاب جزاء اشتراكها في الخيانة..

سلمى : (تنفجر باكية) أي خيانة يا مولاي؟ والله ما جرى بيني وبينه أي ريبة؟

الخليفة : هل كان يليق بك أن تسمحي له بالتردد على القصر وأنت تعرفين حقيقته؟

سلمى : والله ما كنت أعلم أنه ابن مياح، فلما عرفت ذلك أمرته أن يغادر القصر، وأن يرحل عن البلد. وتوعدته بأن أكشف لك أمره إن لم يفعل. سله يا مولاي، فمن لطف الله بي أنك قبضت عليه.

الخليفة : (ينادي) ميمون! ميمون!

ميمون : (صوته من خارج الحجرة) لبيك يا مولاي.

الخليفة : أحضر أسيرك.

ميمون : (صوته) سمعاً يا مولاي.

الخليفة : (يخرج منديلاً من بين ثيابه) وما هذا يا سلمى؟

سلمى : يا ويلتاه! هذا منديل لي طلبه الخائن مني فرميت به

إليه رجاء أن يمضي من حيث جاء.

(يدخل ميمون يسوق ابن مياح أمامه والقيد في يديه)

سلمى : هاهو ذا الخائن، سله يا مولاي.

الخليفة : دعه يا ميمون، وانتظر أسفل عند الباب لتستقبل مولاتك حين تجيء.

ميمون : سمعاً يا مولاي (يخرج).

ابن مياح : مولاي أمير المؤمنين: إن كنت تريد قتلي فاقتلني فإني مقر بذنبي، ولكني أحلف بالله إن سلمى لبريئة... والله لقد طردتني وتوعدتني ساعة علمتْ بأمري. وقد أوشكت أن أغادر البلد لولا أن الأميرة زهرة الوادي بعثت غلامها في طلبي، ولم يخطر ببالي أنها ستدبر لي هذه المكيدة لتوقعني في غضبك، وتشوه سمعة ابنة عمي عندك كي تحملك على طلاقها وتتزوجك!

سلمى : (باكية) الله ينتقم لي من هذه الأميرة الباغية!

الخليفة : لا تتعجلي بالدعاء عليها حتى تعرفي موقفها منك.

سلمى : ماذا عسى أن يكون موقفها مني إلا موقف الغيرة أمس والشماتة اليوم؟ لقد علمت يا مولاي أنك كنت تريد أن تتزوجها، وأنها اشترطت عليك طلاقي، فهلا سرحتني بإحسان من قبل؟ إذن لما اضطررتها إلى تلفيق هذه التهمة عليّ.

الخليفة : لكن هذه ليست تهمة ملفقة يا سلمى فالبينة موجودة.

سلمى : أي بينة يا مولاي؟
الخليفة : كفى بهذا الداعر الواقف أمامنا بينة!
ابن مياح : ما أنا بداعر يا مولاي.
الخليفة : من لا يغار على ابنة عمه فليس بالشريف ولا بالعفيف.
ابن مياح : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت أي سوء.
الخليفة : فماذا جاء بك إذن؟
ابن مياح : ما أردت إلا أن أودعها بنظرة قبل أن أعود إلى ميدان القتال بفلسطين فأستشهد هناك.
الخليفة : فما حملك على هذا التخفي والتنكر؟ قد كان في وسعك أن تزورنا فتراها وتراك، ونكرمك ونصلك، فأنت ابن عمها، ولك فينا حرمة ونسب.
ابن مياح : مولاي، إنك تعرف ما كان بيني وبينها، والعاشق متهم!
(تدخل الأميرة زهرة الوادي)
الأميرة : هل تأذن لي يا أمير المؤمنين؟
الخليفة : ادخلي يا زهرة الوادي فأنا في انتظارك... ألا تقومين يا سلمى لضيفتك؟
سلمى : لا أقوم لمن كادت لي وجاءت لتشمت بي.
الأميرة : (باسمة) أخطأت يا سلمى... ما جئت إلا لتهنئتك.
سلمى : بالتهمة التي لفقتها علي؟
الأميرة : (تدنو منها فتقبل رأسها) كلا يا أختي بل بعودتك إلى

ابن عمك وحبيبك!

سلمى : (غاضبة) لولا مقام أمير المؤمنين لرددت على سخريتك بي أمامه.

ابن مياح : حنانيك أيتها الأميرة... لا تسخري بنا، فكفى ما خدعتني وأوقعتني في غضب أمير المؤمنين وعرّضت ابنة عمي لسوء ظنه!

الأميرة : (لا يفارق الابتسام شفتيها) والله يا ابن مياح ما كان مني شيء مما تقول، وما أردت بكما إلا الخير.

ابن مياح : ألم تعديني أيتها الأميرة بأن تدعيني أمضي لسبيلي إن أنا أطعتك فيما دبرته من قصة الأمير الطرابلسي؟

الأميرة : بلى، وقد بررت بوعدي وزيادة. ألا تحب يا ابن مياح أن ينزل لك أمير المؤمنين عن ابنة عمك فتتزوجها وتعود بها إلى الحي الذي من أجلها هاجرت منه وهمت على وجهك؟

ابن مياح : أيتها الأميرة، رفقاً بحالي!

الخليفة : (باسماً) أو يقيمان هنا إذا أحبا في هذا القصر، وأجري عليهما ما يكفيهما من الرزق.

سلمى : يا أمير المؤمنين أسألك بمن ولاك شرف الخلافة أن تسرحني إلى أهلي وتكفيني هذا الموقف المذل!

الأميرة : ويحك يا أختي! ألم تؤمني بعد بأن أمير المؤمنين يريد بك وبابن عمك الخير والكرامة؟

سلمى : قد علمت أنه خطبك وأنك اشترطت عليه طلاقي.

الأميرة : هذا حق! ولكني ما اشترطت عليه طلاقك إلا ليصلح الزلة التي ارتكبها بتفريقه بينك وبين ابن عمك. وهذا أمير المؤمنين يشهد لك بصحة ما أقول.

الخليفة : أجل يا سلمى، لقد كانت تلومني دائماً على هذه الزلة وتأبى أن تقبلني إلا إذا أصلحتها أولاً، وطالما وددت أن أبعث إلى ابن عمك هذا لولا أننا ما كنا نعرف أين مقره؟ وها قد ساقه الله إلينا على هذه الصورة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

الأميرة : أرهما البرهان يا أمير المؤمنين ليطمئن قلباهما.

الخليفة : (يُخرج طومارين من بين ثيابه فيناول أحدهما لسلمى) هذه وثيقة طلاقك مني يا سلمى ويشهد الله ما طلقتك إلا ابتغاء خيرك وسعادتك. (يناول الآخر لابن مياح) وهذه يا ابن مياح براءة لك منا بتوليتك حاكماً على بادية الصعيد.

ابن مياح : شكراً لك يا أمير المؤمنين... نفسي فداؤك.

الخليفة : اشكر هذه التي خدعتك فهي صاحبة الفضل عليك!

ابن مياح : (باسماً) أشكرك أيتها الأميرة... اغفري لي ما قلت في حقك.

الأميرة : بل أنت صاحب الفضل علينا يا ابن مياح، فلولا مجيئك لما استطاع أمير المؤمنين أن يصلح زلته ولبقيت ممتنعة عليه.

ابن مياح : (لسلمى) يا ابنة عمي ما أحسب الخليفة إلا يريد بنا الخير والكرامة حقاً.

سلمى : اسكت أنت.. فمثلك لا يستحق الخير ولا الكرامة!

الخليفة : علام يا سلمى؟ إن ابن عمك لأصدق الناس حباً، وأعظمهم وفاءً ومروءةً.

الأميرة : (باسمة) هنيئاً لك يا سلمى بحبه ووفائه! ليت ابن عمي هذا عنده عشر ما عند ابن عمك!

(يضحك الجميع)

سلمى : (وقد تطلق وجهها) رويدك أيتها الأميرة الكريمة، والله ما أعلم على أمير المؤمنين إلا أنه أبر الأزواج وأكرمهم فهنيئاً لك به وهنيئاً له بك.

الخليفة : (ضاحكاً) هل سمعت يا زهرة الوادي؟ هذه شهادة عن تجربة!

الأميرة : مهلاً يا آمر... إني لا أومن إلا بما أعلمه بنفسي.

الخليفة : غداً ستعلمين.

الأميرة : غداً سأرى!

(يضحك الجميع)

ـ ستار ـ

❀ ❀ ❀

---

٣) زهرة الوادي: (زواج الآمر الفاطمي من ابنة عمه) نشرت في مجلة الهلال، عدد أكتوبر ١٩٥٠م.

زوجتان صالحتان

ـ ١ ـ

(في بيت أم حكيم وعندها ابنة عمها الفاختة، يدخل صفوان بن أمية دون استئذان)

أم حكيم : ماذا جاء بك يا صفوان ؟

صفوان : عجبا يا أم حكيم! أهكذا تحيين زوج ابنة عمك ؟

أم حكيم : ما عدت زوجا لها، إن الإسلام قد حال بينها وبينك .

صفوان : هبيني زائرا، أفهكذا تحيين الزائر في بيتك ؟

أم حكيم : كلا ما أنت بزائر فنكرمك، وإنما أنت شيطان تريد أن تحملها على الكفر بعد أن أكرمها الله بالإسلام .

صفوان : ألا تتكلمين أنت فاختة فتسكتي بنت عمك .

أم حكيم : إنها لن تكلمك أبدا .

صفوان : فاختة .

أم حكيم : لقد أقسمت بالله لا تكلمك أبدا حتى تؤمن بالله ورسوله .

صفوان : (محتدا) يا هذه هلا اهتممت بزوجك خيرا لك ؟ أليس عكرمة أحق مني بوعظك هذا وإرشادك ؟

أم حكيم : وأين عكرمة مني ويلك؟

صفوان : (ساخرا) لعله نجا بنفسه منك أن تفتنيه عن دين آبائه .

أم حكيم : (في صرامة) صفوان! ليس من المروءة أن تقول هذا عن صاحبك أنك تعلم لماذا نجا عكرمة بنفسه وهرب .

صفوان : لأن محمدا نذر دمه فيمن نذر.

أم حكيم : فلتقل في عكرمة خيرا أو فلتصمت، فأنت تعلم أنه رجل كريم .

صفوان : إن كنت تحبينه بعد فقد كان عليك أن تتبعيه حيثما ذهب.

أم حكيم : لو أعلم أين توجّه لاقتفيت أثره .

صفوان : إنه توجه صوب اليمن .

أم حكيم : وكيف عرفت ؟

صفوان : أنا الذي جهزته يا أم حكيم .

أم حكيم : والله لأذهبن الساعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليأذن لي في اللحاق به .

صفوان : ويلك! إن علم محمد بوجهته ليرسلن في طلبه حتى يظفر به فيقتله .

أم حكيم : يا صفوان! إن محمدا أكرم من ذلك .



— ٢ —

(في مكان ما على الطريق إلى اليمن)

أم حكيم : (تلمح وجه عكرمة) عكرمة!

عكرمة : (ينهض إليها) أم حكيم! (ينتحي بها بعيدا عن بقية القوم) ماذا جاء بك إلى هذا المكان القصيّ ؟

أم حكيم : السعي إليك يا عكرمة . ويحك أتظن أنني أستطيع العيش بغيرك ؟

عكرمة : لا حق لك أن تتجشمي هذه المشقــة من أجلــي... من أجل رجــل قد أهــدر دمــه فليس له إلا الهروب إلى أقصى البلاد.

أم حكيم : إلى اليمن ؟

عكرمة : كيف علمت ؟ من ذا أخبرك ؟

أم حكيم : أخبرني الذي أخبرني...

عكرمة : صفوان بن أمية ؟

أم حكيم : نعم .

عكرمة : تبّا له!

أم حكيم : بل تبا لك أنت! هل يَجمُل بك يا ابن عمي أن ترحل هذا الرحيل الذي لا تؤوب منه أبدا دون أن تودع زوجتك التي تحبك ؟

عكرمة : ما حيلتي يا بنت العم؟ لقد استولى محمد على مكة ونذر دمي فيمن نذر، فلم أشأ أن أشركك في مصير كنت وحدي صاحب التبعة فيه .

أم حكيم : بل كنت شريكتك في ذلك يا عكرمة. أنسيت أنني خرجت معك يوم أحد؟

عكرمة : ذلك يا بنت عمي يوم كان لنا الحول والقوة .

أم حكيم : تبا لك! أوقد هان عليك أن تفارقني إلى غير لقاء ؟

عكرمة : لا ورب هذا البلد الذي استولى عليه محمد إن فراقك عليّ لشديد، ولكن ماذا أصنع ؟ إنه قاتلي لو بقيت. ولخير لي

أن أعيش بعيدا عنك عسى أن ألقاك يوما ما من أن أُقتل بين يديك فتلبسي الحداد علي .

أم حكيم : ويحك يا عكرمة. ما كان ينبغي لك أن تيأس من عفو محمد، فقد عفا عن كثير ممن كانوا أعداءه .

عكرمة : كلا، ليس أحد منهم مثلي. لقد كنت أشد الناس أذية لمحمد وعداوة له، وكان أبي عدوه الألد حتى لقبه محمد وأصحابه بأبي جهل .

أم حكيم : إنك مازلت تنظر في محمد رجلا من قريش انتصر على قومه فهو يعاقب من يشاء ويعفو عمن يشاء .

عكرمة : مهما يكن من شأنه فلا يعدو أن يكون كذلك .

أم حكيم : كلا يا عكرمة! إنه نبي يُوحَى إليه وهدى للناس ورحمة.

عكرمة : قد علمت أنك صبأت يا أم حكيم .

أم حكيم : بل أسلمت وآمنت أن لا إله إلا الله... وأن محمدا رسول الله .

عكرمة : فمن الخير ألا يتصل حبالك بحبال رجل لا يؤمن كما آمنت .

أم حكيم : ويلك يا بن عمي ألمثلي تقول هذا القول ؟ ألم تكن تحبني يا عكرمة؟ ألم أكن أحبك ؟

عكرمة : بلى والله، ومن أجل ذلك تركتك وما اخترت لنفسك من هذا الدين الجديد .

أم حكيم : لست والله أولى به منك يا عكرمة، أنت بما وهبت من عقل وحكمة أجدر أن تتبع الهدى وتدعوني أنا إليه. أنشدك

الله يا بن عمي بما بيننا من مودة ورحمة . ألم يلق في روعك بعد أن محمدا على حق فيما دعا إليه، وأنه يدعو إلى الخير والهدى والرشاد .

عكرمة : أما وقد حلفتني بأعز شيء عندي، فوالله لأصدقنك الحديث: إني لأعلم يا أم حكيم أن محمدا لكما وصفت .

أم حكيم : فما يمنعك أن تعلن ذلك له، وتدخل فيما دخل فيه الناس؟

عكرمة : بعد ما أهدر دمي يا أم حكيم ؟

أم حكيم : أوهذا وحده هو الذي يمنعك ؟

عكرمة : نعم.

أم حكيم : فالحمد لله إذن، إنك عائد معي إلى محمد يا عكرمة .

عكرمة : ماذا تعنين ؟

أم حكيم : إني جئتك يا ابن عمي من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، قد استأمنت لك منه ؟

عكرمة : ورضي أن يؤمنني؟

أم حكيم : بل فرح يا عكرمة وتهلل وجهه!

عكرمة : إن يكن ما تقولين حقا فوالله ما يصدر هذا إلا عن نبي؟

أم حكيم : فهلم يا عكرمة نسرع بالعودة.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(في مكة ... صفوان بن أمية وفاختة)

صفوان : أتدرين يا فاختة أن حبك في قلبي قد زاد فصار أضعاف ما كان ؟

فاختة : بعد ما هداك الله للإسلام ؟

صفوان : أجل .

فاختة : فلتحب محمدا صلى الله عليه وسلم خيرا مني يا صفوان.

صفوان : والله إني لأحبه. لقد شهدت حُنينا وما في الأرض أبغض إلي من محمد وانصرفت من حنين وما في الأرض أحب إلي منه .

فاختة : (ممازحة) لأنه أجزل لك العطاء من غنائم هوازن ؟

صفوان : لا والله يا فاختة . إن المال لا قيمة له عندي كما تعلمين، ولكن لما شهدت من شجاعته وثباته لمّا حمي الوطيس وانهزم عنه الناس فبقي وحده في نفر قليل وهو يقول في صوت قوي مطمئن:" إليَّ أيها الناس، إليّ أيها الناس.

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"

حتى فاء المسلمون إليه، فكروا على المشركين . حينئذ أيقنت يا فاختة أنه نبي مرسل من عند الله.

فاختة : الحمد لله يا صفوان إذ جمعنا على الهدى والحق .

صفوان : لولاك يا فاختة لما قدر لي أن أشهد حنينا، ولما خالط قلبي الإسلام فأنت يا حبيبتي صاحبة الفضل .

فاختة : بل الفضل لأم حكيم يا صفوان، هي التي شجعتني على ذلك الموقف الذي وقفته منك، وأكدت لي أنك لا تلبث أن تفيء إلى الحق .

فاختة : لله درها من امرأة صدق!

صفوان : ترى في أي صقع من الأرض هي الآن ؟ لقد مضى على سفرها اليوم شهران ولم نسمع عنها شيئا .

فاختة : إنها شقة بعيدة يا فاختة .

فاختة : أخشى أن تكون قد ضلت الطريق، أو لقيت فيه ما تكره.

صفوان : اطمئني يا فاختة فإني قد أوصيت بها رجالا أعرفهم كانوا يقصدون اليمن .

فاختة : سمعت يا صفوان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعتزم السفر قافلا إلى المدينة.

صفوان : أجل، بعد يومين أو ثلاثة فيما سمعت، استعدي يا فاختة فسننضم نحن إلى ركبه .

فاختة : لا يا صفوان. خير لعكرمة وأم حكيم أن نسبقهما إلى المدينة لنهيئ لهما فيها ما يجب.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

(في المدينة المنورة بعد رجوع النبي ﷺ إليها بعد فتح مكة وغزوة حُنين)

صفوان : (يدخل بيته في المدينة) أبشري يا فاختة .

فاختة : أوقد رجعت من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

صفوان : نعم .

فاختة : حدثني ماذا فعل عكرمة في المسجد، وكيف لقيه النبي صلى الله عليه وسلم؟

صفوان : أوجز لك أم أسهب ؟

فاختة : بل أسهب يا صفوان حتى كأنني أشهده معك .

صفوان : إني لجالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، إذ دخل عكرمة لائذا بأم حكيم فوقف بعيدا وصاح :"يا محمدا! هذه أخبرتني أنك أمنتني" فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"صدقَتْ أم حكيم، إنك آمن". فتقدم عكرمة وهو يقول:"إذن فهاكها يا نبي الله كلمة أعلنها من قلب مخلص، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله".

فوثب النبي قائما وهو يتهلل فرحا واستنار وجهه كأنه القمر وقال: "مرحبا بمن جاء مؤمنا مهاجرا".

فاختة : طوبى لعكرمة! فقد لقي مِن تِكرمة النبي صلى الله عليه وسلم مالم يلقه أحد .

صفوان : انتظري... ليس هذا كل ما هناك .

فاختة : حدثني ماذا حدث بعد ؟

صفوان : لحظ النبي أن عكرمة ظل مطأطئا رأسه من شدة الحياء، فقال مطيّبا خاطره: "يا عكرمة ما تسألني شيئا أقدر عليه إلا أعطيتك إياه "

فاختة : (في اهتمام بالغ) فماذا طلب عكرمة منه ؟

صفوان : قال عكرمة: استغفر لي كل عداوة عاديتكها يا رسول الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به .

فاختة : هذا حظ عكرمة لا مزيد عليه.

صفوان : انتظري، ليس هذا كل ما هناك.

فاختة : ماذا أيضا ؟ حدثني .

صفوان : سمعت الحاضرين يتناجون فيما بينهم. هذا تأويل رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم. فسألتهم عنها، فحدثوني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد رأى فيما يرى النائم أنه دخل الجنة فرأى فيها عذقا فأعجبه، وسأل لمن هذا ؟ فقيل لأبي جهل. وأنهم تعجبوا. فلما جاء عكرمة اليوم مسلما أدركوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أول رؤياه بإسلام عكرمة .

فاختة : (كأنها تتذكر شيئا) وأين هما الآن؟ أين عكرمة وأم حكيم؟ لماذا لم يحضرا معك؟

صفوان : تركتهما واقفين مع أخيك خالد بن الوليد وعجلت إليك لأبشرك .

فاختة : لعلك دعوت خالدًا للغداء معنا اليوم ؟

صفوان : بل سبقني أبو سليمان فدعا نفسه قبل أن أدعوه .

فاختة : (يقرع الباب) ها هم أولاء قد جاؤوا. (يفتح صفوان

(الباب فيدخل عكرمة وأم حكيم وخالد بن الوليد)

(تتعانق فاختة وأم حكيم في فرح، كما يتعانق صفوان وعكرمة)

خالد : (ينظر إليهم ضاحكا) ويلكم! تركتموني دون ترحيب ولا تأهيل.

صفوان : معذرة يا أبا سليمان. لقد شغلنا الفرح عن ذلك .

فاختة : (تحيي أخاها) مرحبا بك يا خالد. لا شك في أنك فرح بما تم اليوم لعكرمة ابن عمك .

خالد : إي والله! ماشهدت كاليوم سرورا وبهجة، هذا يوم من أيام مخزوم .

صفوان : لله در نسائكم يا بني مخزوم! يسبقن أزواجهن إلى الإسلام، ثم يجاهدن حتى يفيء أزواجهن إلى الإسلام .

خالد : الحمد لله. (يلتفت إلى عكرمة) كيف تجد نفسك الآن يا عكرمة ؟

عكرمة : (في تأثر شديد) ماذا أقول يا أبا سليمان؟ أجدني كأني ولدت من جديد حين وضعت يدي في يد خير الناس، وأبر الناس، وأكرم الناس.

- ستـــــار -

❁ ❁ ❁

---

٣) زوجتان صالحتان: (زوجة عكرمة، وزوجة صفوان بن أمية) نشرت في كتاب: من فوق سبع سموات ضمن سبع مسرحيات لباكثير، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

شجـــــــــر الــــــدر

صورة من حياة بلاط

ـ ١ ـ

(شجر الدر في قصرها بقلعة الجبل تستقبل فارس الدين أقطاي... من كبار أمراء المماليك)

شجر الدر : بورك فيك يا أقطاي.. لقد أدبت الملك الناصر خيــر تأديب وعمدت إلى أحلامه في ملك مصر فجعلتها هباء منثوراً. إني أهنئك على هذا الانتصار المجيد.

أقــــــطاي : ما جئت لأتلقى التهنئة يا شجر الدر.

شجر الدر : فماذا تريد؟

أقــــــطاي : أريد المكافأة.

شجر الدر : أي مكافأة؟

أقــــــطاي : يد الملكة شجر الدر كما وعدتني.

شجر الدر : ويلك يا أقطاي ... هل تطمح عين المملــوك إلــى سرير سيده؟

أقــــــطاي : إنك تعلمين يا سيدتي أنه أقوى رجل في مصر، وأنه خليق بعرش سيده، أفلا يكون خليقاً بسرير سيده كذلك؟

شجر الدر : لكن العرش اليوم يشغله شخص آخر ...

أقــــــطاي : أتعنين هذا التمثال الذي نصبناه لعلــو ســنّه ولقلــة خطره؟

شجر الدر : تذكر أنك رضيت به وحلفت له يا أقطاي.

أقطاي : رضيت به نزولاً على أمرك يا سلطانتي إذ كان خطر الملك الناصر على الأبواب، وما أنا ممن يؤثر مصلحته على مصلحة الوطن والوطن في خطر. إنما رضيت بعز الدين أيبك سلطاناً مؤقتاً.

شجر الدر : إذن فأنت تطمح إلى الملك يا أقطاي؟

أقطاي : نعم، إنه حقي بفضلي وقوتي ... ويحك يا سلطانتي الجميلة أكنت أطمح إليك لو لم تطمح نفسي إلى الملك؟

شجر الدر : أيهما تؤثر يا أقطاي : شجر الدر أم العرش؟

أقطاي : هما عندي شيء واحد ... أنت المُلك يا شجر الدر والمُلك أنت!

شجر الدر : لك عندي أحدهما فاختر ما يحلو لك!

أقطاي : يا سلطانتي إني ما جئت أستجديك المُلك فهو على طرف سيفي، وإنما أستجديك قلبك، ولو أن قلوب الحسان تملك بالقوة لما جئت أيضاً أستجديه.

شجر الدر : إذن كنت تأخذني بالقوة كأنني جاريتك!

أقطاي : أجل كنت آخذك جارية فأجلسها على عرش قلبي وأرفعها فوق حرائر العالمين!

شجر الدر : ما يمنعك من ذلك؟

أقطاي : يمنعني أنني أحبك.

شجر الدر : إن تكن لي هذه المنزلة في قلبك فاحلف لي أنك لا تنازع عز الدين ملكه وأكون لك!

أقطاي : هيهات يا شجر الدر. قد قلت لك: إنك والمُلك عندي شيء واحد.
شجر الدر : ألا يرضيك أن تكون زوج شجر الدر؟
أقطاي : لا، بل أريد أن تكون شجر الدر زوجتي.
شجر الدر : عجيب ... أي فرق بين هذا وذاك؟
أقطاي : فرق بعيد يا شجر الدر ... إني أربأ بسلطانتي أن تتزوج إلا من يكافئها، وإلا كنت زوجاً مصنوعاً كما أن عزالدين سلطان مصنوع!
شجر الدر : إذن فأنت تؤثر المُلك عليّ!
أقطاي : لو كان ما تزعمين حقاً لأخذته من عز الدين دون أن أرجع إليك. إن الملك عندي لا قيمة له بدونك!
شجر الدر : وأنا لا قيمة لي عندك بدون الملك؟
أقطاي : معاذ الله!... ولكني لا أرضى أن أقتني الجوهرة وما عندي الصندوق الذي يليق بها... إنها أجلّ عندي وأكرم عليّ من ذلك.
شجر الدر : دعها إذن لمن عنده ذلك الصندوق.
أقطاي : لو علمت أحداً أجدر به مني لتركته له.
شجر الدر : أمصمم أنت على أخذ الصندوق؟
أقطاي : نعم من أجلك أيتها الجوهرة؟
شجر الدر : ولو فقدت في سبيله رأسك؟
أقطاي : هيهات يا سلطانتي... دون ذلك خرط القتاد.

شجر الدر : انصرف الآن ودعني أفكر.

أقـــــطاي : أمرك يا سلطانتي مطاع!

(يخرج) و (تدخل وردة كبيرة الوصائف)

شجر الدر : هل سمعت حديثنا يا وردة؟

وردة : نعم يا مولاتي سمعته كله. كنت واقفة خلـف هـذه الستائر.

شجر الدر : ماذا ترين في هذا العنيد الذي لا يريد أن ينزل عن مطمعه في الملك والسلطان؟

وردة : الأمر إليك يا مولاتي.

شجر الدر : أريد رأيك يا وردة .

وردة : ولي الأمان من غضبك؟

شجر الدر : نعم ... ما أمرتك بالاستماع إلى حديثنا إلا لأفيد من مشورتك.

وردة : اصدقيني يا مولاتي ... إنك شديدة الميل إلى فارس الدين أقطاي ... أليس هذا حقاً؟

شجر الدر : هذا ليس من شأنك!

وردة : إن الناصح يا مولاتي كالطبيب يجب أن يعرف حال المنصوح قبل أن يشير عليه... إنك يا مولاتي تحبين هذا الرجل!

شجر الدر : ثم ماذا؟

وردة : وما يمنعك من الزواج بـه إلا أنـك تخـافين علـى سلطانك.

شجر الدر : أجل، فيم تشيرين عليّ؟

وردة : لقد سمعتك يا مولاتي تخيرينه بين شجر الدر وبين العرش أيهما يؤثر؟ فهل لي أن أسألك أولا: أيهما تؤثر السلطانة ؟

شجر الدر : ويلك يا وردة! إن جوابي مثل جوابه.

وردة : فقد سمعت منه أن ذلك ليس في الإمكان... إنه يريد الأمرين معاً.

شجر الدر : هذا غرور منه!

وردة : لا تلوميه يا مولاتي فحسبك منه أنه اعترف لك بكل ما في نفسه ولم يحاول أن يغشك .

شجر الدر : أراك تدافعين عنه يا وردة!

وردة : كلا، بل أدافع عنك يا مولاتي وعن سعادتك. لن تتم سعادتك يا مولاتي حتى تلبي صوت الفطرة فيك.

شجر الدر : ماذا تعنين ؟

ورده : إنك ما آثرت أقطاي بميلك إلا لأنه قوي يستطيع أن يسيطر عليك وعلى غيرك، فهذا صوت الفطرة في المرأة، أما تشبثك بالسلطة التي تمارسينها من وراء عز الدين أيبك فإنما هو من أثر العادة منذ تربعت على عرش البلاد، ثم نزلت عنه مكرهة لعز الدين، فبقيت تصرفين أمور الدولة باسمه. وإن صوت الفطرة يا مولاتي أحق بالتلبية من صوت العادة.

شجر الدر : كلا، لا أتخلى عن سلطاني ونفوذي لرجل مغرور وسأبقى قابضة على أزمّة الحكم ما بقيت.

وردة : إن كنت واثقة أنك لا تندمين غدا على أنك لم تلبي صوت فطرتك فالأمر إليك.

شجر الدر : آه لو خلا هذا الرجل من عناده وغروره!

وردة : إذن لما مال قلبك إليه! أليس كذلك؟

شجر الدر : اخرجي ويلك من عندي... لا أريد مشورتك!... سأتزوج عزالدين أيبك على رغمك وعلى رغم هذا الأحمق المغرور!

وردة : معذرة يا مولاتي، فقد قطعت لي عهد الأمان من غضبك .

شجر الدر : دعيني الآن وحدي!

وردة : سمعا يا مولاتي... لا أبتغي إلا رضاك (تخرج).

شجر الدر : آه لقد صدقتني (وردة) وقالت ما في نفسي... هل أتزوج أقطاي وأستريح؟ كلا، كلا... لا أنسى كتاب الخليفة العباسي أبداً... إن لم يكن في بلادكم رجل فأعلمونا نبعث إليكم رجلاً. فهاأنذا قد عينت الرجل على حكم البلاد كما أشتهي ولكني ـــ أنا الأنثى ـــ ما زلت أصرّف أمورها بيدي وسأظل كذلك ما حييت... على رغم أنف الخليفة... على رغم أنف الخليفة.

❀ ❀ ❀

- ٢ -

شجر الدر جالسة... عز الدين أيبك يدخل القاعة عليها.

عز الدين : كيف أنت اليوم يا زوجي الغالية؟

شجر الدر : إن كنت تسأل عن صحتي فأنا بخير ولله الحمد.

عز الدين : هذا غاية ما أتمناه يا شجر الدر .

شجر الدر : أمنية يسيرة يا عز الدين تجدر بمثلك ... آه... ما هذا الذي بيدك؟

عز الدين : كتاب من أقطاي.

شجر الدر : ماذا يقول السلطان أقطاي؟ ويلكم! ما فيكم رجل يوقفه عند حده؟! أليس عاراً عليك ألا تَرِدِ الرسائل السلطانية إليك إلا بعد أن يفضها ويطلع عليها أقطاي، وأنك لا تملك أن تجيز أمراً إلا إذا أجازه هو؟

عز الدين : إن الغيرة قد أعمته عن صوابه فطغى وبغى، واستبد بالأمر من دوني ومن دونك!

شجر الدر : بل القوة قد أغرته بالضعف.

عز الدين : ماذا نصنع يا حبيبتي؟ لا سبيل إلى ردعه غير القتل، وليس في وسعنا أن نقتله إلا بأمرك!

شجر الدر : (ساخرة) هل أمرتك بتركه ينتزع مقاليد الحكم من يدك؟ ألست سلطاناً؟ ألست رجلاً؟

عز الدين : تعلمين يا حبيبتي أنني لا أريد أن أغضبك.

شجر الدر : أغضبني يا رجل ولو مرة واحدة في حياتك!

عز الدين : كلا، لن أغضبك في حياتي ولا مره واحدة، ولكن أقطاي قد أمكنني اليوم من نفسه فسأقتله دون أن أخشى غضبك.

شجر الدر : ماذا تعني؟

عز الدين : إن هذا الوقح قد تجاوز كل حد، انظري ماذا يقول في كتابه هذا.

شجر الدر : ماذا يقول؟ اتله علي .

عز الدين : أعفيني يا حبيبتي من تلاوته. هاكي اقرئيه بنفسك.

شجر الدر : قلت لك: اقرأه علي، أترتعد خوفاً حتى من كتابه؟

عز الدين : كلا يا شجر الدر، ولكنه قال في حقك كلاماً لا ينبغي أن أحرك به لساني في حضرتك.

شجر الدر : يا للناس! للرجل الناعم! .. للسلطان الناعم!

عز الدين : لا تغضبي... سأقرؤه عليك: (بعد التحية، إذا جاءك كتابي هذا فمر زوجتك المملوكة شجر الدر بأن تخلي القصر في قلعة الجبل لمولاتها وسيدتها الأميرة ابنة ملك حَماة التي ستقدم قريباً إلى مصر لتزف إلى سيد البلاد فارس الدين أقطاي. قل لها: إني أمهلها سبعة أيام من تاريخ هذا الكتاب والسلام).

شجر الدر : (متأثرة) ألا تخجل أن تقرأ مثل هذا علي وأنت ساكن الأطراف؟

عز الدين : أنت أمرتني يا شجر الدر.

شجر الدر : ويلك هلا قتلت كاتبه أولا! ثم قرأته علي! يا له

مغرور وقح! يدعوني مملوكة ويدعو نفسه سيد البلاد؟ لكن يحق له ذلك، ما له لا يصنع أكثر من هذا وهو الحاكم المطلق في البلاد؟

عز الدين : سيرى عاقبة بغيه وتطاوله.

شجر الدر : كلا، لن أعتمد على مثلك... لأرينه أنا بنفسي مَن شجر الدر؟

❀ ❀ ❀

— ٣ —

(على أحد أبواب قلعة الجبل.. شبحان يلتقيان ساعة الغروب)

أقطاي : أفي انتظاري أنت هنا يا وردة؟

وردة : في انتظار مَن يا سيدي غيرك؟ جئت يا فارس الدين في الوقت الملائم.. لقد خرج السلطان الساعة لزيارة زوجته الأخرى أم علي.

أقطاي : ما يعنيني يا وردة وجوده هنا أو عدم وجوده؟

وردة : ويحك يا سيدي! لكن مولاتي شجر الدر يعنيها ذلك. إنها تريد أن تكلمك في أمر خطير لا ينبغي أن يعلم به أحد إلا بعد نفاذه.

أقطاي : خبريني يا وردة ماذا تعني مولاتك بقولها في كتابها لي: إنها تبذل كل شيء ولا تفرط في قلعة الجبل؟

وردة : هلم .. ستعرف ذلك منها أنت بنفسك.

أقطاي : أريد أن أعرفه منك أولاً لأعلم ما ينبغي في

حضرتها أن أقول. سأجزيك يا وردة على خدمتك.

وردة : ما أجهلكم معشر الرجال بقلوب النساء! إن شجر الدر تحبك أنت، وما منعها أن تتزوجك فيما مضى إلا خوفها من أن تنازعها السلطة التي تحبها أيضاً.

أقطاي : أعرف هذا يا وردة.

وردة : إذن كان عليك لو كنت حكيماً أن تقبل الجوهرة أولا ثم يأتيك الصندوق من تلقاء نفسه!

أقطاي : كيف يا وردة ؟ أفصحي عما في نفسك.

وردة : الصندوق اليوم كأنه في يدك؟

أقطاي : أجل، أنا سيد البلاد وصاحب الأمر والنهي.

وردة : فهل تريد أن تقتني الجوهرة التي فيه، أو تريد أن تلقيها عنه لتوُدعه جوهرة أخرى من الشام أو من الهند؟

أقطاي : بل أريد الجوهرة القديمة يا وردة لو كان إليها من سبيل! هل ترضى هي أن تقبلني؟ لكن ماذا تصنع في زوجها عز الدين؟

وردة : إنها قد أجابتك على هذا السؤال من قبل.

أقطاي : كيف يا وردة؟ أين؟

وردة : ألم تقل لك: إنها تبذل كل شيء ولا تفرط في قلعة الجبل؟

أقطاي : وعز الدين أيبك؟

وردة : يا سيدي، إن شجر الدر لا يعجزها شيء.

أقطاي : بشّريني... بشّرك الله بالخير يا وردة.

وردة : هلم معي من هذا الممر.

أقطاي : فيم يا وردة؟ إني لا أحب المسالك الضيقة.

وردة : هذا ممر يوصل إلى حجرتها رأساً. (تمشي في الممر فيتبعها أقطاي وتلتفت إليه فجأة) لا تنس أن هذا سر ينبغي ألا يذاع إلا بعد أن يتم كل شيء.

أقطاي : لا خوف من ذيوعه لأن كل شيء سيتم اليوم.

(يخرج له بغتة ـ من مكمن في الممر ـ قطز وآخران من مماليك عز الدين الأشداء وتولّي وردة فراراً).

قطز : أجل يا أقطاي، ولكنك لن تذيع سره إلا بين أهل الجحيم! (يطعنونه بسيوفهم).

أقطاي : آه! ويلكم غدرتم بي أيها الجبناء! غدرتْ بي شجر الدر! (يسقط على الأرض وهو يتشحط في دمائه).

شجر الدر : (من شرفة فوق الممر) دعوه... لا تجهزوا عليه!

أقطاي : (يرفع بصره إلى الشرفة) صدق عز وجل: إن كيدكن عظيم.

قطز : متى عرفت ربك يا سفاك ؟

أقطاي : لا تشغلني أيها الخادم عن الجوهرة أمتع بها عيني قبل أن أموت.

شجر الدر : أين أميرتك الأيوبية يا سيد البلاد؟ هل عرفت اليوم من هي المملوكة شجر الدر؟

أقطاي : هي الأفعى التي تحمل الجوهرة كما يُروى في الأساطير.

شجر الدر : وأنت ضحيتها المخدوع.

أقطاي : مهلا أيتها الأفعى الجميلة.. اسمعي نصيحة من ضحيتك الذي يحبك: إني أعلم أنك تحبينني، وما آثرت عز الدين عليّ إلا حرصاً منك على الاحتفاظ بسلطتك. فاعلمي أن عز الدين هذا الجبان الذي توارى الآن خلفك ولا يجرؤ أن يكشف لي وجهه، لن يبقى على سلطتك بعد اليوم. إنما كان يخضع لك ويداهنك حين كان يخشاني.

عز الدين : (من الشرفة) أسكتوه... أجهزوا عليه.

أقطاي : وداعاً أيتها الجوهرة الغالية! احتفظي بصندوقك. لا تفرطي فيه. آه...! (يجهزون عليه فيموت).

❀ ❀ ❀

— ٤ —

(بعد عدة أسابيع ... شجر الدر وعز الدين أيبك في قلعة الجبل)

شجر الدر : دعني من هذا، ولكن قل لي كيف جرؤت أمس أن ترد على بريد الشام دون أن ترجع إلي؟

عز الدين : أنا السلطان وهذا حقي. لن أدع أحداً ينازعني هذا الحق بعد اليوم.

شجر الدر : عجباً ... هكذا بسرعة أصبح العصفور نسراً؟

عز الدين : بل عاد النسر إلى أصله بعد أن استكان طويلا لك .

شجر الدر : ها... لقد صدق أقطاي فيما قال يوم مصرعه.

عز الدين : لا تذكري لي أقطاي.

شجر الدر : إنما تغار من ذكره لأنه كان رجلاً.

عز الدين : إن كنت لا تزالين تحبينه فابعثيه من قبره.

شجر الدر : اطمئن يا عز الدين فإني أقدر أن أقتل ولكني لا أقدر أن أبعث مَن قُتل.

عز الدين : لا تحاولي أن تصرفيني بهذا عما قلت لك بصدد زوجتي أم علي.

شجر الدر : أبقها مكانها في منظرة اللوق في بيتها الحقير ذلك خير لك.

عز الدين : كلا، يجب أن تفردي لها جناحا في هذا القصر... تذكري يا شجر الدر أن هذه أم ولدي وولي عهدي!

شجر الدر : اسمع يا عز الدين... إذا لم تسكت عن هذا فسوف آمر بتطليقها منك، وأزوجها بعد ذلك لأحد عبيدي.

عز الدين : إني لن أطلق أم علي لقولك أو لقول غيرك... أنا سلطان البلاد يا شجر الدر.

شجر الدر : كيف تجرؤ أن تخاطبني في الإتيان بهذه الخادمة إلى قصري؟ أهي أميرة أيوبية أخرى تريد أن تسكنها القلعة مكاني؟ لقد قتلت أقطاي من أجل ذلك وهو رجل أُجلة وأحترمه، فما بال عز الدين أيبك الذي ما اخترته

للملك وآثرته على غيره إلا لفضل واحد فيه هو الخضوع لأوامري. هل نسيت أنني هنا الملكة وما أنت ألا "قرقوز" في الناس أحركه بيدي من وراء الستر .

عز الدين : كان هذا صحيحاً يا شجر الدر أمس، أما اليوم فإن البلاد لا ترضى أن يحكمها "قرقوز" تحركه امرأة من وراء الستر. ستطيعين أمري من الآن فصاعدا وستسكن أم علي هذا الجناح الشرقي من القصر.

شجر الدر : كلا بل طلقها الآن .. طلق أم علي الآن إن شئت أن تبقى أنت في هذا القصر، وإلا فالحق بها في منظرة اللوق، وإياك ثم إياك أن يلف سواد الليل سوادك هنا في هذا القصر! أتفهم ما أعني؟

عز الدين : إن لم تستطع هذه الخادمة أن تساكنك في قصرك فلآتينك بسيدة من سيداتك تطردك منه أو تستبقيك لها خادمة.

شجر الدر : ماذا تعني يا "قرقوز" ؟

عز الدين : ليأتينك هذا القرقوز بأميرة أيوبية تعرف حق زوجها وسلطانها، ثم لا يكون "قرقوزا" تحركه بيدها في الناس.

شجر الدر : هيهات! ذلك ما حاوله أقطاي الرجل من قبلك فشهدت أنت مصيره بعينيك .

عز الدين : لن يكون حظي يومئذ كحظ أقطاي.

شجر الدر : بل سلّم لي يومئذ على أقطاي، وقل له: قد وقع كل

ما تنبأ بي ولكني احتفظت بصندوقي... اخرج يا هـذا من هنا وابعث رسلك الآن إلى الشام ليخطبوا لك أرملة أقطاي ليتجدد أملها في القدوم إلى مصر.

عز الدين : أرملة أقطاي أو غيرها... من منهن لا تقبل سلطان مصر؟

شجر الدر : أجل، من منهن لا تقبل مَن قبلته شجر الدر ولو كان "قرقوزا"!

عز الدين : (ماضياً ليخرج) أقسم أن أفعلها.

شجر الدر : (حانقة...) سوف نرى أيها "القرقوز".

❀ ❀ ❀

ـ ٥ ـ

(منظرة اللوق حيث تقيم أم علي ويقيم معها عز الدين أيبك بعد مغاضبته لشجر الدر ... قطز مملـوك عـز الدين أيبك يقف في إحدى القاعات مع سيده)

قـطز : كلا يا سيدي لا تذهب إليها... هذه مكيدة.

عز الدين : أنت لا تفهم يا قطز أن قلبي يحن إليها.

قـطز : هنا يا سيدي الخطر... خطر النار علـى الفراشـة الحائمة .

عز الدين : كلا يا قطز. لا يمكن أن تكون هذه مكيدة إن كتابها يفيض رقة واستعطافا !

قـطز : هذه يا مولاي شجر الدر!

عز الدين : آه يا قطز! إنني أذوب إليها شوقاً... صه هذه أم علي مقبلة!

أم علي : (تدخل) ماذا قررت يا عز الدين؟

عز الدين : ما قررت شيئاً بعد يا أم علي.

أم علي : إني أعرف ما يجول في نفسك... تريد أن ترتفع بالأميرة الأيوبية عني وعن شجر الدر.

عز الدين : كلا يا أم علي... ما خطبت الأميرة الأيوبية إلا لأذل هذه المملوكة المتجبرة، وأرغمها على احترامك أنت وتقدير منزلتك. إني ما صنعت ذلك إلا من أجل أم ولدي وولي عهدي .

أم علي : فها هي ذي قد نزلت عن كبريائها ورضيت أن أسكن في القصر... فماذا يمنعك من مصالحتها الآن؟

قطز : يا سيدتي، هذه مكيدة دبرتها شجر الدر للإيقاع بزوجك!

أم علي : لا يا قطز، لو كانت تريد به كيداً لما أرسلت له كتابها عن طريقي!

قطز : بل فعلت ذلك يا سيدتي مبالغة في الكيد لكي تحملي زوجك على الرضا بمصالحتها، وها هي ذي قد بلغت منك ما تريد.

أم علي : يا هذا لا تحاول أن تقنعني بقبول مجيء الأميرة الشامية لتسلب زوجي مني ومن ولدي. لابد أن عز الدين هو الذي أوعز إليك بهذا ليبلغ ما تشتهي نفسه

من مصاهرة الملوك.

عز الدين : كلا والله ما فكرت في شيء من هذا يا أم علي .

قطز : اعلمي يا سيدتي أن مولاي عز الدين لو أمرني بغشك ما أطعته. ولولا أن الأمر يتعلق بحياته لما أدخلت نفسي في هذا الشأن.

أم علي : يجب أن تفسخ خطبة الأميرة. ويجب أن أسكن في قلعة الجبل. إني لا أقبل بعد اليوم أن أعيش هنا وأنا أم ولي العهد!

قطز : وزوجك السلطان يا سيدتي ألا تخافين عليه؟

أم علي : إنه رجل يعرف شأنه مع شجر الدر.

عز الدين : إنها لن تمسني بسوء يا قطز... لقد افترسها الندم لما علمت بقبول الأميرة طلبي.

قطز : يا مولاي، كيف تأمنها على نفسك بعد ما بعثت إلى الملك الناصر ليتزوجها وتوليه مكانك؟

أم علي : من أين علمت بهذا؟

قطز : من عيوني بالشام. هذا نبأ لا شك في صدقه.

أم علي : فقد اعترفت شجر الدر بذلك في كتابها لعز الدين .

عز الدين : نعم ... لو كانت تنوي الغدر لما أقرت لي بهذا الأمر الخطير.

أم علي : اقرأ له كتابها يا عز الدين لعل مملوكك هذا أن يقتنع.

عز الدين : (يفتح رسالتها) اسمع يا قطز ماذا تقول: (يكاد يقتلني الندم على ما كان مني. لقد علمت يقينا أن ليس لي إلا أحد أمرين: الزوج أو السلطة. أما السلطة فدونها أنني امرأة والناس لا يعترفون للنساء بهذا الحق. وأما الزوج فقد أردت أن أرغمك لما وقفت في وجهي فبعثت إلى الملك الناصر ليتزوجني ويَلِيَ عرش مصر وأنا ــ يعلم الله ــ له كارهة ولك محبة، فلم يستجب لي لما يعلم من عداوتي له، فلم يبق يا عز الدين إلا أنت. فارحم حيرتي ولا تمض في إذلالي إلى أبعد مما قد بلغته بحدة طبعي وسوء تدبيري. واذكر يا عز الدين أنني كنت يوماً ما زوجة مولانا الملك الصالح أيوب، وكنت يوماً ما سلطانة المسلمين! افسخ خطبة الأميرة أكن لك زوجة مطيعة، وأُنزل أم علي حيث شئت من القصر فهي أحق بك مني لأنها زوجك قبلي وأم ولي عهدك. وكلتانا أحق بك من تلك الشامية الغريبة. وكل ما أريده منك يا عز الدين أن تسوي بيني وبين أم علي ولا تفضلها علي لأنها أم ولدك، فتثير بذلك غيرتي منها).

أم علي : هل سمعت يا قطز؟ أفهذا كلام من تنوي سوءاً بسيدك؟

قطز : يا له من كتاب! هذه يا سيدتي شجر الدر... قولها بليغ وفعلها أبلغ! حذار يا سيدي أن تذهب إليها! اسمع نصيحتي.

أم علي : أراك قد جاوزت حدك.

قطز : قولي فيَّ ما تشائين يا سيدتي فإني إنما أنصح مولاي. يا سيدي تذكر مصرع أقطاي.

عز الدين : يا قطز، إن أمري يختلف عن أمر أقطاي، إنما قتل أقطاي في القصر بأمري وبيدك أنت وأيدي جماعتك فهل أنتم قاتلي إن أمرتكم شجر الدر.

قطز : إن شجر الدر لا يعييها التدبير يا سيدي، ولو لم يكن عندها غير جواريها.

عز الدين : ستكونون أنتم معي على كل حال.

قطز : ماذا نصنع لك يا مولاي هل تدخلنا الحريم معك؟

عز الدين : ويحك يا قطز! أتخاف علي من الحريم؟

قطز : لا أخاف عليك إلا من الحريم.

أم علي : حسبك يا هذا... قد أغضبتني فلا تغضب سيدك. نحن أعرف بشؤوننا منك ومن غيرك. فهل عندك غير ما قلت؟

قطز : لا يا سيدتي. قد قلت ما أردت، وليس عندي مزيد.



ـ ٦ ـ

(في قلعة الجبل ... يسمع صـياح النائحـات ينـدبن السلطان عز الدين أيبك وقد أصبح ولي عهده ملكـاً، وأصبحت أم علي .. أم الملك، وأقـوى سـيدة فـي الدولة)

أم علي : (بغضب) أيتها الجواري.. أيـن القباقيـب التـي أمرتكن بإحضارها؟

إحدى الجواري : ها هي ذي يا مولاتي.. قد أحضرنا ثلاثة .

أم علي : هذه لا تكفي ... لتأت كل واحدة منكن بقبقاب!

الجواري : سمعا يا مولاتي أم علي.

أم علي : أنا أم الملك المنصور.

(ستـــــــــار)

❁ ❁ ❁

---

٣) شجر الدر:(صراع المماليك على الحكم في مصر) نشرت في مجلة المصور، يناير ١٩٥٢م.

صِدِّيقة من كرمان

-١-

(في منزل الشيخ شاه ابن شجاع الدين الكِرْماني بكِرْمان)

شـــاه : إني أعلم يا حميراء... يابنتي العزيزة أنك لا تفكرين في الزواج الآن.

حميراء : لا الآن يا أبي، ولا بعد الآن.

شـــاه : أنت مشغولة عن ذلك بعبادة ربك.

حميراء : أنت الذي ربيتني على ذلك.

شـــاه : أجل أجل يا بنيتي الحبيبة.

حميراء : فهل بدا لك اليوم غير ذلك يا أبي؟

شـــاه : نعم يا حميراء، على كره مني.

حميراء : ماذا جرى يا أبتاه؟

شـــاه : الملك فيروز شاه ابن عمك يريد أن يخطبك مني، وأنا أعلم يقيناً أنك لن ترضي به زوجاً لك.

حميراء : لا بالملك فيروز شاه يا أبي ولا بغيره، ليس عندي من الوقت ولا من الميْل ولا من الصبر ما يؤهلني للقيام بحقوق الزوج عليَّ.

شـــاه : أعلم ذلك يا حميراء ولكن ماذا نصنع الآن... وهو آت عندي ليخطبك مني بعد ثلاثة أيام؟

حميراء : هل بعث إليك يا أبي بذلك؟

شـــاه : لا يا ابنتي ولكن بلغني من أحد المحبين لي في القصر.

حميراء : فماذا أنت فاعل يا أبي؟

شـــاه : يخيل إليّ يا حميراء أن المخرج الوحيد لنا من ذلك هو أن نسرع فنختار لك زوجاً صـــالحاً لا يـــتحكم فيـــك ولا يشغلك عن عبادتك.

حميراء : ومن لك بذلك الزوج يا أبي؟ ذاك زوج لا وجود له في هذه الدنيا.

شـــاه : بلى، أنا كفيل لك به يا حميراء إن رضيت .

حميراء : لم لا تصارحه بالحقيقة أني لا أصلح للزواج.

شـــاه : كلا، لن يقتنع بذلك أبداً يا حميراء، وسيظن بنا الظنون.

حميراء : إنه إذن متعنّت... أعرض عنه ولا تُبال به.

شـــاه : كلا، ليس هو بمتعنت يا حميراء بل له عذره الواضح.

حميراء : أي عذر يا أبي؟

شـــاه : لعلك يا بنيتي قد شُغلت زمناً عن المرآة فنسيت أن لك جمالاً بديعاً لا نظير له في بنات ملوك هذا العصر.

حميراء : يا أبت كل والد يرى ابنته كما تراني أنت.

شـــاه : كلا يا حميراء، إن أباك كان أخبر الناس بالجمال ومـــا اختار أمك عبثاً... لقد كانت ـــــ رحمها الله ـــــ أجمـــل نساء عصرها قاطبة.

حميراء : وأين أنا يا أبي من أمي يرحمها الله؟

شـــاه : لا أقول: إنك أجمل منها أو مثلها، ولكنك أقرب الناس

شبهاً بها وما فاتتك إلا بقليل.

حميراء : يا أبت افعل ما تراه، ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

❀ ❀ ❀

ـ ٢ ـ

(الشيخ شاه يستقبل فيروز شاه ملك كِرمان في منزله)

شاه : مرحباً بالملك المعظم فيروز شاه... أهلاً بك يا ابن أخي... شرفت بيتنا الصغير بزيارتك.

فيروز : أيها العم الجليل، إني إذ أزور بيتك إنما أزور بيت صلاح وتقوى، فأنا الذي أتلقى الشرف وأستمد الخير والبركة.

شاه : بوركت يا ابن أخي.. بوركت.

فيروز : لقد كان في نيتي من قديم أن أخطب إليك حميراء ابنتك لأصل حبلي بحبلك وتكون ذريتي من ذريتك، ولكن علمي بصغر سنها وبحاجتك إليها بعد وفاة أمها جعلني أؤجل خطبتها حتى اليوم، فهل لي يا عمي شاه أن أطمع في شرف الانتساب إليك؟

شاه : يا ابن أخي أنت مني وأنا منك ولو لم تصهر إليَّ، وابنة عمك حميراء كانت تتشرف بالزواج منك لو لم تكن قد عقد عليها لغيرك، فلتكن لك أختاً إن فاتها أن تكون لك

زوجة.

فيروز : ومتى كان ذلك يا عم؟

شـــاه : منذ يومين فقط يا بني.

فيروز : ومن يكون ذلك الرجل السعيد؟ أملك هو أم أمير؟

شـــاه : كلا، ليس هو بملك ولا بأمير، بل هو رجل من سواد الشعب.

فيروز : أهو إمام من أئمة العلم؟

شـــاه : لا.

فيروز : فقيه من حملة الشريعة؟

شـــاه : لا يا بني.

فيروز : سيد من السادات العارفين بالله؟

شـــاه : ولا هذا يا بني.

فيروز : هو إذن ليس بأفضل مني، فعلام يُقدّم عليّ؟

شـــاه : معاذ الله يا ابن أخي... إن أحداً لم يقدمه عليك.

فيروز : أو لست أنا أولى بابنة عمي وأحق بها منه؟

شـــاه : بلى يا ابن أخي لو لم يكن سبق إليها قبلك.

فيروز : منذ يومين فقط.

شـــاه : نعم.

فيروز : أو قد دخل بها يا عم؟

شـــاه : لا، ما دخل بها بعد... ما زلنا نجهز لها.

فيروز : الحمد لله.

شـــاه : لكنا عقدنا له عليها فهي امرأته بحكم الشرع.

فيروز : يا شيخ شاه لولا احترامي لسنك وما اشتهر في النــاس من صلاحك وتقواك لكان لي معك شأن آخر.

شـــاه : ماذا تعني يا فيروز شاه؟

فيروز : إن ابنتك ما كانت تفكر في الزواج، ولا كنت أنت تفكر لها فيه لو لم يبلغك منذ أيام قلائل أنني ســأخطبها منــك، فأردت أن تتقيني، فجعلت تطوف من مسجد إلى مــسجد بحثاً عمن تزوجها له قبلي... حتى عثرت على ذلك الغلام الصغير الفقير، فعقدت لــه عليهــا فــي الحــال دون أن تستشيرها في أمره بل دون أن تعرف عنه شيئاً إلا أنــك رأيته يصلي ويحسن الصلاة.

شـــاه : أجل، قد كان مني ذلك يا فيروز شاه، فماذا تريد؟

فيروز : اعترفت الآن أنك تعمدت ذلك؟

شـــاه : نعم أنا حر أختار لابنتي من أشاء .

فيروز : من حقي الآن أن أحاسبك.

شـــاه : تحاسبني على ماذا؟

فيروز : على سوء صنيعك معي من حيث إني ابن عمهــا أولاً، ثم من حيث إني ملك هذه البلاد.

شـــاه : أتهددني يا فيروز شاه؟

فيروز : التهديد قليل في حقك... أنت تستحق ما هو أشــد مــن ذلك.

شـــاه : افعل ما بدا لك فإني لا أخافك.

فيروز : إن غرك يا هذا أنني ابن أخيك، فاعلم قبل ذلك أنني أنا الملك.

شاه : ويحك يا هذا ! لو كنت أخاف الملوك ما زهدت في العرش الذي تجلس عليه الآن.

فيروز : أتُدِلُّ علي يا هذا بما كان لك في الماضي من ملك وسلطان ؟ أو تظن أن ذلك يعصمك مني أو يحميك ؟

شاه : لو كنت تعقل يا هذا لعلمت أن الله وحده هو الذي أحتمي به وأعتصم، وإلا لما خرجت باختياري عن كل ما كان لي من ملك وسلطان.

فيروز : أتراك ندمت اليوم على ما فعلت فأخذت تناهضني وتناصبني العداء؟

شاه : (يلين لهجته قليلاً) سامحك الله يا ابن أخي.. والله ما ندمت على ما فعلت، ولا قصدت أن أناهضك أو أناصبك وإني عن ذلك كله لفي شُغل شاغل، وإنما رأيت أن ابنتي لا تصلح لملك مثلك. فقد تعلق قلبها بعبادة الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة فأحببت أن أجنبكما سوء المصير، فأسرعت بتزويجها لغيرك حتى لا أضطر إلى رد خطبتك.

فيروز : دعني من معاذيرك . لآمرن قاضي القضاة غداً أن يجد لنا مخرجاً فيبطل عقد نكاحها من ذلك الغلام ثم يزوجها لي، وبذلك يستقيم الأمر وينتهي الإشكال.

شاه : (غاضباً) اسمع يا فيروز شاه. إن فعلت ذلك فلا تلومن

إلا نفسك ! والله لأدعونَّ الشعب إلى خلعك، ولأعلنن له أني أخطأت إذ خرجت عن ملكي ليليه ظالم مثلك.

فيروز : (في شيء من الخوف) : أتظنهم يطيعونك أو يلبون دعوتك؟

شاه : إن كنت تشك في ذلك فما عليك إلا أن تجرب .

فيروز : (يلين لهجته) حسبك الله يا عمي .. أما كفاك أنك حرمتني ابنة عمي حتى تريد أن تخلعني من ملكي؟

شاه : قد شرحت لك يا ابن أخي حقيقة قصدي فأبيت إلا أن تكذبني وتتهمني بما لم يخطر لي على بال قط، فماذا أصنع؟

فيروز : سامحني يا عمي فما أنا إلا ابنك.. وثق أنك لن ترى مني بعد اليوم إلا كل ما يسرك .

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(بعد مرور أسبوع من حوادث المشهد السابق)

فيروز : معذرة يا عمي إن عدت اليوم إليك قبل أن ينقضي أسبوع واحد على زيارتي السابقة.

شاه : مرحباً بك يا ابن أخي في كل حين... البيت بيتك.

فيروز : ما كنت لأشغلك عن وِردك وعبادتك لولا ما بلغني مما كان بين العروسين من خلاف فأزعجني أيما إزعاج.

شـــاه : كلا، لا تنزعج كثيراً فما هو إلا خلاف هـين يـسير لا يلبث أن ينتهي إلى وفاق إن شاء الله.

فيروز : أرجو أن لا تعتبره فضولاً مني، إذ رأيت من واجبـي ـ ولاسيما بعد الذي كان مني في حقك أن أعرف مـاذا حدث.

شـــاه : بالعكس يا ابن أخي، إنه ليسرني أن تجيء إلينا اليـوم لترى بعينك وتسمع بإذنك مصداق ما شرحته لك من قبل فلا يبقى في نفسك مني شيء.

فيروز : أحقاً يا عمي؟ هذا والله يسرني ويسعدني منك. أخبرني إذا تفضلت ماذا حدث؟

شـــاه : كل ما حدث يا بني أننا زففناها إليه كما اقترحت علـيَّ في غير جلبة ولا ضوضاء، ثم انصرفنا من عندهم وعدنا إلى البيت، فما شعرنا بعد قليل إلا بحميراء تقـرع علينـا الباب فتدخل إلى حجرتها تصلي وتبكي.

فيروز : عجباً! ألم تسألوها ما خَطْبها؟

شـــاه : بلى، سألناها وأخبرتنا بكل شيء.

فيروز : ماذا قالت؟

شـــاه : إنا قد أرسلنا في طلب زوجها منذ قليل لنواجـه بينـه وبينها، فسيحضر الآن ونخبئك أنت في مكان فتسمع كـل شيء بأذنك.



ـ ٤ ـ

شـــاه : لكن لماذا انتظرت يا بدر الدين حتى أرسلنا في طلبك؟ لماذا لم تجئ على إثرها في الحال.

بدرالدين : لم أستطع يا سيدي أن أفعل ذلك. فقد قام في نفـسي أن ابنة شاه الكرماني لما دخلت بيتي، فرأت فقـري ورقـة حالي احتقرتني، وقررت ألا ترضى بي بعـلا، فلحقـت بأهلها قبل أن تقضي عندي ساعة واحدة.

شـــاه : كلا، لقد أخطأت يا بدر الدين، إنك أسأت فهم مرادها، فقلبته من النقيض إلى النقيض.

بدرالدين : كيف يا سيدي الشيخ؟

شـــاه : اشرحي له يا حميراء.

حميراء : يا هذا ليس خروجي من منزلك لفقرك، بـل لـضعف يقينك.

بدرالدين : ماذا أنكرتِ مني يا حميراء؟

حميراء : ألم أجد عندك رغيفاً يابساً قد وضعته على رأس جـرة ماء؟

بدرالدين : بلى!

حميراء : وسألتك فقلت لي: هذا رغيف تركته من أمس لنفطـر غداً عليه.

بدرالدين : أجل، وأي شيء في ذلك؟

حميراء : أرأيت يا أبي؟ إنه لم يدرك حتى الآن الذنب الذي ارتكبه.

بدرالدين : سبحان الله! أي ذنب ارتكبت؟

حميراء : حقاً ليس الذنب ذنبك. الذنب ذنب أبي إذ قال لي: زوجك يا حميراء شاب مؤمن تقي، فكيف يوصف بالتقوى والإيمان من بلغ من ضعف يقينه بالله أن يدخر من أمسه رغيفاً لغده؟

بدرالدين : هذا إذن هو الذي نفّرك مني؟

حميراء : نعم.

بدرالدين : وليس فقري ورقة حالي؟

حميراء : لا.

بدرالدين : ما أكرمك يا حميراء وأعظمك! سامحيني إذن هذه المرة، فوالله لا أعود لمثلها ما حييت.

حميراء : هيا بنا إذن.

بدرالدين : إلى أين؟

حميراء : إلى بيتنا.

بدرالدين : الحمد لله، الحمد لله.

❊ ❊ ❊

— ٥ —

شـــاه : سمعت يا ابن أخي؟

فيروز : (بصوت يخالطه البكاء) سمعت يا عماه.

شـــاه : ويحك يا ابن أخي إنك لتبكي.

فيروز : (يشتد نشيجه) لوددت يا عماه لوْ أخرج من ملكي كلــه وتكون لي حميراء.

(ستـــــــــار)

❁ ❁ ❁

٩) صديقة من كرمان: (فتاة متعبدة ترفض الزواج من ابــن عمهــا الملــك، وترضى بطالب عِلم فقير، وتؤاخذه لوجود رغيف يابس في بيته لطعام الغد لمنافاته التوكل على الله) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٩)

في خيمة المثنى

خيمة المثنى بن حارثة في ذي قار، المثنى على سـرير مرضه وعنده زوجته سلمى.

(يدخل بشير بن الخصاصيه عجلا)

المثنى : مرحباً بك يا بشير. كيف حال أهلك؟

بشير : ما زالت في الطلق... من فجر اليوم في الطلق؟

المثنى : ويح المسكينة. ألم يُفرَّج عنها بعد؟

بشير : أرسلت في طلبي يا مثنى؟

المثنى : نعم، إذا أنا مت يا بشير فأنت على الناس حتى يجيء قائد أمير المؤمنين وجيش أمير المؤمنين.

بشير : قائد أمير المؤمنين ستلقاه أنت بنفسك يا مثنى إن شاء الله.

المثنى : (يبتسم في أسى): إني قد أشهدت على ذلك خاصة رجالي فارجع الآن إلى أهلك يرحمك الله.

بشير : (متردداً): ألا أبقى قليلاً عندك؟

المثنى : بل اذهب فلا ينبغي أن تتركها وهي في الطلق.

بشير : لديها شيرين وبعض النسوة.

المثنى : وأبو الغلام يجب أن يكون هناك وإلا فمن يبشرنه بالغلام؟

سلمى : معذرة يا بشير، لولا المثنى لكنت هناك معهن.

بشير : لا تثريب عليك يا سلمى.

سلمى : حـيِّـيها عني.

المثنى : أستودعك الله يا بشير.

(يتوقف بشير قليلاً ثم يخرج).

المثنى : (يتمتم): طارق جديد وراحل مودع.

سلمى : ما تقول يا مثنى؟

المثنى : تلك هي الحياة... أما من نبأ عن المُعَنَّى أخي؟ لقد قال في كتابه: لن يتأخر عن اليوم.

سلمى : لا تشغلن بالك، لعله في طريقه إلينا الساعة.

المثنى : الساعة يا سلمى؟

سلمى : الساعة.

المثنى : أخشى يا حبيبتي أن يتأخر قليلاً فينتظرني إلى الأبد.

سلمى : قلبي يحدثني أنه قادم عما قريب.

المثنى : قد حدثني قلبي بقدومه منذ أمس ولكنه لم يقدم. آه يا سلمى لقد كنا يفترق بعضنا عن بعض أياماً كثيرة بل شهوراً ذوات عدد ولا يحس أحدنا بألم الانتظار كما أحسه الآن. لكأنما هو يجري جاهدا إلي وأنا أفر جاهدا منه.

(يسمع صهيل فرس).

سلمى : كذبتك أوهامك. هذا صهيل فرسه.

المثنى : حمداً لله. كتب لنا لقاء بعد.

(يدخل المعنّى فينهض المثنى إليه متحاملاً على نفسه).

المُعنى : مكانك يا أخي، لا تجهد نفسك.

المثنى : الحمد لله إذ لقيتك. كيف أنت أيها الأخ الحبيب؟

المُعنى : (متأثراً): تسألني أنت يا مثنى كيف أنا؟
المثنى : (مبتسما) قبل أن يحال بيني وبين السؤال عنك.
(تدخل شيرين)
شيرين : مُعنّى.
المُعنى : شيرين.
شيرين : الحمد لله على سلامتك (يتعانقان).
المُعنى : أين كنت؟ هلا بقيت هنا عند أخيك وأختك؟
سلمى : لا تلمها يا مُعنى. كانت عند جهدمة تساعدها في الوضع.
المُعنى : ماذا وضعت؟ غلاماً أم جارية؟
شيرين : لا غلاما ولا جارية. إنها في الطلق بعد.
المثنى : في الطلق بعد؟ أعانها الله.
شيرين : أرسلوا في طلب قابلة عجوز من بني النمر بن قاسط يقولون إنها ماهرة.
المعنى : عودي إليها يا شيرين فما ينبغي أن تتركيها وحدها.
شيرين : ليست وحدها. عندها بعض النسوة.
المثنى : بشرني يا أخي. متى يجيء جيش أمير المؤمنين؟
المُعنى : قد وصل إلى زرود.
المثنى : في كم؟
المُعنى : في عشرين ألفا من نخبة أبطال الجزيرة وفرسانها وذوي الشجاعة والرأي فيها.
شيرين : عشرون ألفا لا تكفي لمواجهة الجيوش التي حشدها يزدجرد.

المثنى : يغفر الله لك يا شيرين. ليت الشموس تقلني. إذن والله لأفتحن بهم المدائن.

المُعنى : وسيواليها أمير المؤمنين بالمدد تلو المدد.

المثنى : الحمد لله. الآن يطيب لي الموت. لا بل تطيب لي الحياة لو كان إليها سبيل. آه من لي بنزوة على متن الشّموس تخطر بي بين الصفوف. وتحت ظلال السيوف. يوماً واحداً يا رب أقاتل في سبيلك.

المُعنى : ستفعل يا أخي لا يوماً واحداً بل أياماً كثيرة محجّلة حين يزول عنك ما بك.

المثنى : (مبتسما) هيهات يا أخي! لم يبق من أخيك إلا ما به، فإذا زال ما به زال.

سلمى : (متجلدة) يا حبيبي.. إن الله قادر على أن يزيل ما بك في طرفة عين.

المثنى : (في ابتسامته التي لا تفارقه) صدقت أيتها الحبيبة... الله قادر سبحانه لو شاء... (يغالب الألم).

المُعنى : هل تشعر يا أخي بوجع في جرحك؟

المثنى : لا يا معنى قد صار كل جسدي جرحاً.

المُعنى : لعل ذلك الطبيب الفارسي قد دس لك شيئاً فيه!

(ينظر إلى شيرين)

شيرين : ماذا تقول؟ بختيشوع لا يمكن أن يخون الأمانة.

المثنى : ما خطبك يا أخي؟ لقد اندمل الجرح بعدما عالجني بختيشوع.

المُعنى : اندمل حيناً ثم نفر.

المثنى : كما عاش حارثة أبوك حينا ثم مات. (يتجلد) والآن حدثني يا معنى عن قائد هذا الجيش.. أي رجل هو؟

المُعنى : سعد بن أبي وقاص من السابقين الأولين ومن العشرة المبشرين بالجنة.

المثنى : أعلم ذلك ولكن أي رجل هو في الحرب؟

المُعنى : قد علمت أنك سائلي عنه فاستقرأت آراء الناس فيه فوجدتهم مجمعين على أنه أصلح الناس لإمرة هذا الجيش وأنه يجمع بين الشجاعة والرأي وأنه الليث في براثنه.

المثنى : انعته لي.

المُعنى : قصير دحداح بعيد ما بين المنكبين، ذو هامة، جعد الشعر، أشعر الجسد، شثن الأصابع.

المثنى : كهيئة السبع؟

المُعنى : أجل كهيئة السبع.

المثنى : بوركت يا أخي! الآن أثلجت صدري.

المُعنى : ومع ذلك فقد خطر لأمير المؤمنين في أول الأمر أن يسند القيادة إليك.

المثنى : (فرحاً) أحقاً يا أخي خطر لأمير المؤمنين أن يسندها إلي؟

المُعنى : نعم وأثنى عليك بما أنت أهله.

المثنى : أثنى عليَّ عمر بن الخطاب؟

المُعنى : وعلي بن أبي طالب وغيرهما.

المثنى : الحمد لله.

المُعنى : وقد أوشك أمير المؤمنين أن يوليك إمرة الجيش لو لم أعترض أنا على ذلك من أجل ما بك.

المثنى : أحسنت يا أخي صنعا. لكأنما قد ولاني أمير المؤمنين.

المُعنى : والله إن كنت لها لأهلا.

المثنى : فات الأوان يا مُعنى فات الأوان. ألا ترى أن أحدنا يرغب في الأمر لا يبلغه حتى إذا بلغه، زهد فيه أو حِيل بينه وبينه.

المُعنى : لا تبتئس يا أخي لقد أراد الله لك ما هو أفضل.

المثنى : إن كنت تعني الشهادة فأين أنا من الشهادة ولم أمت في ساحة القتال.

المُعنى : جرح جرحته في سبيل الله فإن مت منه فأنت شهيد.

المثنى : سمع الله منك يا معنى.

المُعنى : وللشهيد الجنة،فهنيئا لك.

صوت : (ينادي من الخارج) يا مثنى بن حارثة.

المثنى : هذا صوت قرط بن جماح العبدي... قل له يدخل.

(يخرج المُعنى ثم يعود ومعه قُرط)

المثنى : ما وراءك يا أخا عبد القيس؟

قُرط : قابوس بن قابوس بن المنذر قدم من المدائن وأخذ يطوف بأحياء بكر بن وائل يوزع فيها الذهب ويدعوها لقتال المسلمين في صف الفرس.

المثنى : (مخاطباً): بئس ما خلف آباءه من بني المنذر بن ماء

السماء. والله لو حملتني فرسي لطلبته الساعة حتى أقتله، بكر بن وائل تكون مع العجم على العرب؟ تلك إذن سُـــبة الأبد.

المعنى : لا تثورن يا أخي فإن هذا يهيضك.

المثنى : إن كنت تحبني يا معنى فانطلق الساعة مع رجالك لتأتيني برأس هذا اللخمي الزنيم، وتؤلب بكر بن وائل عليه.

المعنى : الساعة يا أخي؟

المثنى : أجل، ما جرؤ هذا الزنيم على ذلك إلا لمـــا ســـمع أنني مريض دنف، فليعلمن وشيكا أن وراء المثنى أخاه المُعنى.

المعنى : أقسم لك يا أخي.. لا يقر لي قرار حتى أظفر بهذا الخائن، ولكن أمهلني إلى الغد.

المثنى : بل الساعة يا أخي قبل أن يشتري قلـــوب قومنـــا بـــذهب يزدجرد.

المعنى : ألا أبقى عندك الليلة لعلك تحتاج إلي؟

المثنى : قد فهمت ما تعني يا معنى. كلا، لست بنافعي شيئاً عنـــد الموت، ولكنك ستنفع هناك إذا منعت تلك اليد القذرة عـــن العبث.. انطلق وتوكل على الله.

المعنى : حبا وكرامة.(يهم بالخروج).

المثنى : أستودعك الله يا أخي. أستودعك الله يا قُرط بن جماح.

المعنى : (ينظر إليه لحظة دون أن يتكلم...)

المثنى : (كالمُواسِي) انطلق.. ياليتني كنت معك.

(يخرج المعنى ويخرج معه قرط بن جماح العبدي).

المثنى : (يرى شيرين مكتئبة) لعلك ساءك يا شيرين أن أرسلت زوجك المعنى في هذه السرعة قبل أن يستريح من عناء سفره؟

شيرين : لا والله يا مثنى، ما ساءني، إلا أنه كان يود البقاء معك فلم يُتح له ذلك.

المثنى : هكذا نحن بني حارثة مذ كنا، لا نجزع ولا نبكي ولا نتأوه، وعلى نسائنا أن يكُنَّ مثلنا. (يلتفت إلى زوجته): سلمى يا بنت أبي خصلة.. هل لك أن تحضري لي الشّموس؟

سلمى : (في إشفاق) لتركبها؟

المثنى : يا ليت! بل لأراها فحسب، فإني في شوق إلى رؤيتها.

سلمى : حبا وكرامة. (تخرج).

(تجهش شيرين بالبكاء).

المثنى : ما خطبك يا أختاه ماذا يبكيك؟ عهدي بك جلد صبور، فماذا دهاك؟ أمن أجل المعنى؟ إن سفرا كهذا السفر لقريب.

شيرين : بل من أجلك أنت يا مثنى.

المثنى : من أجل أني سأموت؟ هذا مَوْرد كلنا وارده.

شيرين : بصدد بختيشوع الطبيب.

المثنى : بختيشوع! ما شأننا به بعد؟

شيرين : والله يا مثنى ما غشك بختيشوع ولا دس لك شيئا في

جرحك، ولقد عالجك بكل نصح وأمانه.

المثنى : أعلم ذلك يا شيرين، وأعلم أن يزدجرد كان قد أوعز إليه بأن يقتلني فأبى.

شيرين : من أين علمت ذلك؟

المثنى : من بعض عيوني.

شيرين : وماذا تعلم أيضاً غير ذلك؟

المثنى : (ينظر إليها مليا) لا أعلم شيئاً، فهل تعلمين أنت؟

شيرين : نعم ما كان ليمتنع عن إيذائك لولا ما كان بينه وبين والدي من قديم الصداقة ومتين الود.

المثنى : وكيف عرفت ذلك يا شيرين؟

شيرين : إني ارتبت في أمره لما حضر، فما زلت به حتى اعترف لي بدسيسة يزدجرد.

المثنى : وكتمت عنا ذلك يا شيرين؟

شيرين : لم أجد من الخير أن أخبركم بأمره لئلا ترتابوا به فيحول ذلك دون علاجك، وقد كنت حريصة على أن يعالجك فيبرئك من جرحك.

المثنى : جزاك الله عني خيرا يا شيرين. لو لم يكن عالجني بختيشوع لربما قضيت نحبي قبل أن أسمع هذه البشرى بقدوم جيش أمير المؤمنين وقائد أمير المؤمنين.. امسحي هذا الدمع عنك فما ينبغي لنساء بني حارثة أن يبكين.

شيرين : (تمسح دمعها) الحمد لله، الآن اطمأن قلبي.

المثنى : ترى ماذا فعلت امرأة بشير؟ لطف الله بها!

شيرين : لو أنها وضعت لأرسل إليك من يبشرك.
المثنى : هلا ذهبت إليها فرأيت ماذا فعلوا؟
شيرين : لا أتركك وحدك. حتى تعود زوجتك.
المثنى : هاهي ذي قد عادت ومعها الفرس.
(تخرج شيرين)
(تدخل سلمى وهي تقود الفرس وإذ ترى سيدها تدنو منه وتتشممه وهو يمسح عرقها بيده).
المثنى : لا يحزنك الله يا شموس. ترى كيف يكون حالك من بعدي؟
سلمى : اطمئن يا ابن حارثة فلن يعوزها بعدك غير وجهك، وإن ذلك لكثير عليها وعلى سائر أحبابك.
المثنى : من تمام إكرامها أن يحوزها فارس كريم، فلمن أوصي بها فيما ترين؟
سلمى : لأخيك المعنى فهو بها أحق.
المثنى : كلا يا سلمى، بل لمن هو خير مني ومنه.
سلمى : خير منك يا مثنى لم تلده أمه.
المثنى : ويحك! إني أعني خيرا مني في الإسلام وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
سلمى : من؟
المثنى : سعد بن أبي وقاص أمير جيش المسلمين. فأوصيك يا سلمى أن تسلميها إليه.
سلمى : (تنظر إلى الفرس) انظر يا مثنى إلى الفرس، إن عينيها لتغرورقان بالدمع كأنما فهمت حديثك.

المثنى : بل ألهمت ساعة الوداع.

سلمى : (تنظر إليه متجلدة تغالب شجنا يوشك أن ينفجر...)

المثنى : (في رقة) سلمى.. يا توأم النفس، ويانوط القلب! لطالما تجلدت وتجملت، وقد آن لك الساعة أن ترسلي دموعك فإني مودّع!

سلمى : (تجهش بالبكاء ثم تنفجر الدموع من عينيها دون نحيب) نفسي فداؤك يا مثنى، يا خير البعولة، يا سيد الرجال... يا ليت يومي قبل يومك!

المثنى : (يجيل يده حول عنقها) فيضي... فيضي... نفّسي عن كربك وافثئي من لوعتك.

سلمى : هيهات! هيهات!

المثنى : فيضي... يا سلمى... فيضي يا حبيبة المثنى يازين النساء.

سلمى : يا زين الشباب... واحسرتاه على شبابك!

المثنى : يا بنت أبي خصفة أليس خيراً في أن ألقى الله شابا لم يشمط لي شعر، ولم يتغضن لي وجه، ولم ترعش لي يد؟ لقد كنت أكره المشيب والكِبَر والعجْز، فهأنذا قد سبقت المشيب والكبر والعجز. فاللهم لك الحمد! هأنتذي قد سكن لاعجك فامسحي دمعك يا سلمى وابتسمي لي، فإني أشتاق أن أرى ثناياك تنوّر كزهر الربيع.

سلمى : يا زوجي الحبيب... (تمسح دمعها ثم تبتسم في أسى)

المثنى : قبليني الساعة..

(تقبله سلمى فيضمها إلى صدره فتتراخى يداه وتتسارع أنفاسه).

سلمى : (جزعة) ما خطبك يا مثنى؟

المثنى : (بصوت متقطع) لا خطب يا سلمى بعد اليوم.

صوت : (من الخارج) يا آل المثنى... هل لي أن أدخل؟

سلمى : ادخل.

(يدخل بشير بن الخصاصية).

المثنى : بشير... كيف أهلك؟

بشير : الحمد لله يا مثنى قد جاءتني بغلام.

المثنى : سَمِّه باسمي يا بشير!

بشير : حبا وكرامة.

المثنى : أنت على الناس يا بشير حتى يحضر سعد... الحمد لله إذ لم أمت حتى جاء جيش أمير المؤمنين وقائد أمير المؤمنين.

(يموت)

(ستار)

---

٣) في خيمة المثنى: (ابن حارثة الشيباني) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٨)، وأعيد نشرها في مجلة الفيصل،العدد (٢٠٠) بعنوان حين يموت البطل.

قبس من أيّوب

-١-

أم قاسم : كيف حال زوجك يا زبيدة ؟

زبيدة : بخير يا أماه يقرئك السلام.

أم قاسم : وأولادك كيف حالهم؟

زبيدة : كلهم بخير.

أم قاسم : أصبحت لا تأتين بهم معك يا زبيدة. لماذا ؟

زبيدة : لئلا يزعجوك يا أماه.

أم قاسم : أي إزعاج؟ إني لأحبهم يازبيدة.

زبيدة : كنت تحبينهم يا أماه؟

أم قاسم : وما زلت يا زبيدة.

زبيدة : كلا يا أماه. صرت لا تحبين أحداً ولا تهتمين بأحد.

أم قاسم : صدقت يا بنيتي وتلك هي العلة التي أشكو منها.

زبيدة : أنت التي صنعت هذه العلة لنفسك.

أم قاسم : صنعتها لنفسي؟

زبيدة : أجل، وإلا فأنت في صحة جيدة، وليس بك أي أثر لمرض.

أم قاسم : المرض في قلبي يا زبيدة لا في بدني.

زبيدة : ذاك الذي تسمينه القسوة.

أم قاسم : أجل، ما عندي مرض غيره.

زبيدة : ما سمعنا بهذا المرض من قبلك. أنت يا أماه التي اخترعته.

أم قاسم : لا يستطيع أحد أن يخترع مرضا لا وجود له يا زبيدة.

زبيدة : بلى يا أماه. يستطيع إذا توهم.

أم قاسم : يا ليته كان وهما يا زبيدة. إذن لهان الأمر.

زبيدة : وهما أو غير وهم... أنت تحبينه ولا تريدين الخلاص منه.

أم قاسم : لا أريد الخلاص منه؟ أنا مستعدة أن أعطي كل ما أملك لمن يخلصني منه.

زبيدة : أنا أستطيع أن أخلصك منه.

أم قاسم : كيف؟

زبيدة : قومي أولاً من هذا المصلى الذي أنت جالسة عليه ليل نهار.

أم قاسم : ويحك يا بنيتي أنا أجلس عليه ليخفف عني هذا المرض.

زبيدة : واخلعي هذه الثياب الغليظة الخشنة التي تلبسينها حتى في شدة الحر.

أم قاسم : هذه أيضا أستعين بها على مرضي.

زبيدة : إن الذي يراك فيها يحسبك من الفقيرات السائلات.

أم قاسم : يا بنيتي إني لفقيرة وإني لسائلة!

زبيدة : أنا أعني الشحاذات المتسولات في الطرق.

أم قاسم : لعلهن أن يكن خيرا مني فقلوبهن سليمة.

زبيدة : إنهن لا يجدن غيرها فهن معذورات ولكن أنت ما عُذرك؟

أم قاسم : أألبس الشفوف يا بنيتي وأنا في هذه السن؟

زبيدة : البسي من القباطي ومن الدمقس ومن الحرير التنيسي الأسود كما كنت تفعلين من قبل.

أم قاسم : لا أستطيع يا زبيدة، فالكآبة التي عندي لا تتفق مع هذه الثياب البهيجة.

زبيدة : الثياب الكئيبة التي ترتدينها هي التي تورثك الكآبة.

أم قاسم : لقد عكست القضية يا زبيدة. الكآبة هي السابقة.

زبيدة : فهذه الثياب تزيدك كآبة على كآبة.

أم قاسم : افهمي حالي يا زبيدة! المرض الذي عندي هو سبب هذه الكآبة.

زبيدة : هل تحسين له وجعاً في قلبك؟

أم قاسم : لا.

زبيدة : هل تشعرين بخفقان فيه؟

أم قاسم : لا.

زبيدة : فأنت إذن سليمة القلب لا علة فيه.

أم قاسم : علّتي يا زبيدة أكبر وأخطر من كل ما ذكرتِ.

زبيدة : ألا تشعرين بأي خشوع في صلاتك؟

أم قاسم : لا في صلاتي ولا في تسبيحي، ولا في دعائي ولا في أي شيء يا زبيدة. أصبحت لا أشعر بأي عطف أو شفقة أو

رثاء لأحد، لا للفقراء والمساكين الذين أحسن إليهم ولا المرضى الذين أعودهم، ولا للمصابين أو المنكوبين في أنفسهم أو في أموالهم. والطامة الكبرى يا بنيتي أن نِعَم الله وآلاءه تترادف عليّ في مالي وفي ولدي وفي تجارتي وفي كل شيء ولا أستطيع مع ذلك أن أحمد الله أو أشكره إلا من طرف لساني دون أن ينبع من صميم قلبي.

زبيدة : هوّني عليك يا أماه. إن أكثر الناس لا يخشعون في صلاتهم، ولا يحمدون الله من قلوبهم، ولا يعطفون على أحد!

أم قاسم : وأطول شقائي يا زبيدة إذا ما حشرت مع أكثر الناس.

زبيدة : والمخرج يا أماه؟ لا يصح أن تبقي على هذه الحال أبداً.

أم قاسم : المخرج يا زبيدة عند الله عز وجل. فهو القادر على كل شيء. وقد أرسلت القاسم أخاكِ إلى مدينة البصرة ليستفتي لي أهل العلم والصلاح بها عسى أن يجد لي علاجاً عندهم وإلا فياطول عذابي!



ـ ٢ ـ

قاسم : كيف أنتِ يا أماه.

أم قاسم : في انتظارك يا بني على أحر من الجمر. خبرني منذا لقيت بالبصرة من أهل العلم والصلاح؟

قاسم : لقيت ابن سيرين يا أماه، ولقيت الحسن البصري.

أم قاسم : ولم تلق أحدا غيرهما؟

قاسم : بلى، لقيت آخرين ولكني لم أجد عندهم أكثر مما وجدت عند هذين الحَبْرَيْن.

أم قاسم : أنعم بهما وأكرم! فهل شرحت لهما كل شيء؟

قاسم : نعم.

أم قاسم : فماذا قالا يا قاسم؟

قاسم : لقد قالا قولين مختلفين يا أماه.

أم قاسم : في اختلافهما رحمه إن شاء الله.

قاسم : أما ابن سيرين، فقد أفتى بأن ليس في حالك ما يدل على سخط الله وإلا لما أغدق هذه النعم عليك، ثم وفقك للصدقات والبر والإحسان. فالنعم ذاتها لا تدل على رضا الله عنك. فقد تكون من قبيل الاستدراج، ولكن صدقاتك وبرك وإحسانك برهان على أن الله راض عنك، أو على الأقل غير ساخط عليك، فالزمي مكانك، واسألي الله العافية، ولا تسأليه أن يبتليك فتكوني لآلائه ونعمه من الجاحدين.

أم قاسم : هذا زين! والحسن البصري... ماذا قال؟

قاسم : إنه يوافقك على أن النعم المترادفة عليك قد تكون استدراجا لك وخاصة إذا اقترنت بها تلك القسوة التي تجدينها في قلبك،ولكنه يحذرك تحذيرا شديدا أن تسألي الله عز وجل أن يبتليك،فإنه يخشى عليك ما هو أشد من القسوة... ألا تقوي

على احتمال التجربة، فتسخطي قضاء الله وتتبرمي به فتكوني من الهالكين.

أم قاسم : أو لم تسأله: ماذا أصنع إذن؟

قاسم : بلى، سألته فقال لي: قل لوالدتك تصبر وتتحمل وتضاعف من صدقاتها، وتسأل الله في الأسحار أن يذهب عن قلبها الغفلة والقسوة.

أم قاسم : إني سأعمل بنصيحة الحسن البصري، فإن لم تُجدني نفعا استخرت الله فسألته أن يبتليني وليكن بعد ذلك ما يكون.



— ٣ —

قاسم : أماه لم أقدمت على هذه المخاطرة؟

أم قاسم : ماذا تعني يا بني؟

قاسم : إني سمعت دعاءك البارحة في السحر.

أم قاسم : ويحك ماذا جعلك تسترق السمع إلي؟

قاسم : إشفاقي يا أماه عليك.

أم قاسم : فإني لم أقل يا بني إلا خيراً.

قاسم : ويحك يا أماه! لقد سمعتك تقولين:

"اللهم إني دعوتك في الأسحار أن تذهب عن قلبي الغفلة والقسوة فلم تستجب لي، ورادفت نعمك عليّ لأمر تعلمه أنت وحدك، ولا أملك إلا أن أخشى منه سخطك. اللهم فابتلني كما ابتليت عبدك أيوب عليه السلام وارزقني الصبر على ما ابتليتني به. آمين يا رب العالمين".

أليس هذا ما دعوت به يا أماه؟

أم قاسم : إياك أن تحدث به أحداً من إخوانك وأخواتك.

قاسم : هلا بقيت فترة أخرى على الدعاء الذي نصحك به الحسن البصري لعل الله أن يستجيب لك بعد؟

أم قاسم : لم أستطع أن أنتظر أكثر مما انتظرت يا قاسم، ولا آمن أن يخترمني الموت وأنا على هذه الحال من قسوة القلب.

قاسم : لكن الخطر من ابتلاء الله كبير وقد حذرك منه كلا الحبرين الحسن البصري وابن سيرين.

أم قاسم : أنا على يقين يا بني أنهما لو عرفا قوة احتمالي وصبري ورضاي لما حذراني منه كل ذلك التحذير.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

(بعد مرور ستة أشهر)

زبيدة : اللوم كل اللوم عليك أنت يا قاسم.

عمر : أجل أنت السبب في كل ما أصابنا.

قاسم : ويحك! ما ذنبي أنا فيما حدث؟ والله لقد نهيتها كثيرا، وحذرتها تحذيرا شديدا من الإقدام على هذه المخاطرة، واحتججت عليها بفتوى الحسن البصري وابن سيرين.

عمر : لكنك لم تخبرنا بشيء. لقد كتمت كل شيء عنا حتى استفحل الأمر، ولم يبق من سبيل لتلافيه.

قاسم : أو تظنون أنكم كنتم تقدرون من أُمنا على شيء؟ لقد كان لها عزم يهد الجبال.

زبيـــدة :لو كنت أخبرتنا من قبل بما عقدت عزمها عليـــه لربمـــا استطعنا أن نرفع عليها دعوى الحَجْر.

قـــاسم :ويلكم أتحجرون عليها وهي رشيدة؟

زبيـــدة :أي رشد هذا؟ أتعد تبديدها لثروتها الضخمة الواسعة مـــن الرشد؟

قاسم : إن أمنا لم تبددها يا زبيدة.

عمر : ألم تدْعُ على نفسها أن يبتليها الله فابتلاها؟

قاسم : هذا لا يعد تبديدا للمال ياعمر.

زبيدة : أولم تقم الولائم الكبرى يوم جاءت الأنباء بأن مراكبها التجارية الخمس قد غرقت في البحر؟ أليس ذلك من التبديد؟

قاسم : أما غرق المراكب فلا يد لها في ذلك. وأما الولائم فقد كانت تقيم الكثير منها دون أن يؤثر ذلك على ثروتها.

زبيدة : لكنها أغرمت بإقامة الولائم على التوالي منذ أخذت ثروتها تضمحل كأنما تريد أن تجهز على ما بقي منها حتى لا يبقى شيء.

قاسم : سبحان الله! إن فك الرقاب لمِن أفضل القربات إلى الله.

زبيدة : إنما أعتقتهم لما طالبوها بذلك حين فشا الموت فيهم، فخـــافوا إذا بقوا في ملكها أن يموتوا كما مات الآخرون.

قاسم : إن ذلك لا يحرمها ثواب عتقهم على كل حال.

عمـــر :ليت شعري هل خطر على بال والدنا – رحمه الله – حين أسلم إليها مقاليد تجارته الواسعة أنها ستبددها هكـــذا مـــن

أجل أن تكون من الوليات الصالحات؟ هلا كان هو الذي بددها ليكون من الأولياء الصالحين فقد كان أجدر منها بذلك.

زبيدة : إن لكل منا نصيبا في تلك التجارة فكيف استحلّت لنفسها أن تتصرف فيها دون موافقة منا بل دون رأي منا أو مشورة؟

قاسم :لو راجعتم وصية والدنا لوجدتم فيها أنه قد جعل لها حق التصرف المطلق في تركته وتجارته.

عمر :فوالدنا إذن هو المسؤول. سامحه الله!

زبيدة :كلا، ليس بمسؤول، لقد كانت أمنا في ذلك الوقت من أذكى نساء البحرين، وأعرفهن بشؤون التجارة، وأقدرهن على تصريف الأمور، وأعقلهن وما أصابها ما أصابها إلا بعد وفاته بسنين.

عمر :والطامة الكبرى يوم مات لنا أخوان وأختان في أقل من شهرين فلم تذرف عليهم أمنا دمعة واحدة!.

زبيدة :بل كانت تبتسم لوفاة كل منهم كابتسامة الشامت.

قاسم :كلا، ليس ذلك سروراً بموتهم أو شماتة كما تزعمان، وإنما كان رضا منها بقضاء الله وقدره.

عمر :أو لا يتحقق الرضا بقضاء الله إلا بالابتسام لموت أولادها الأربعة؟

زبيدة : حتى جمانة ابنتها الصغرى التي كانت تحبها وتؤثرها على بناتها جميعا لم تظفر منها يوم ماتت بغير قولها: إنا

لله وإنا إليه راجعون.. أستغفر الله. كانت أمنا تشكو من قسوة القلب.. فهل من قسوة أشد من قسوتها وهي تبتسم لموت جمانة؟

عمر : ثم إنها لم تلبس الحداد على أحد منهم كأنهم ليسوا أولادها.

قاسم : ليس من السنة أن تلبس الحداد عليهم.

عمر : لكنه من عادة نساء البحرين بل من عادة نساء العرب قاطبة.

قاسم : إن أمنا لا تحب أن تلتزم بهذه العادات.

زبيدة : والثياب المصبوغة الرقيقة التي أخذت تلبسها الآن من الدمقس ومن الحرير! أهذه من السنة؟

قاسم : لا جناح عليها أن تلبس ما تشاء منها.

زبيده : أكانت تلبس الثياب الغليظة الخشنة التي لا تصلح لغير المتسولات يوم كانت في أوج ثروتها وغناها، وكان أولادها جميعا في صحة وعافية، فلما تضعضع حالها، وهلك معظم أولادها وأشفت على الإفلاس، وانفض عنها الناس جعلت تتجمل بأفخر الثياب وتتزين وتتعطر!

قاسم : سبحان الله! ألم تفهموا بعد ماذا ترمي أمكم إليه من كل هذا الذي تعمله؟

زبيدة : تريد أن تكون ولية صالحة ذات مقامات وكرامات!

عمر : بل تريد أن تكون مثل النبي أيوب عليه السلام.

قاسم : وليس ذلك على الله ببعيد.

زبيــدة : ولا تبالي ما يصيبنا من فقر وسوء حال.

عمــر : ولا تبالي بمن مات منا أو عاش.

قــاسم : هذا كله تجلّد منها في الظاهر. أما في الباطن فهــي أم لكم رؤوم كأي أُم أخرى.

عمــر : أجل دافع عنها يا قاسم، ودعها تقضي علينا واحدا بعد واحد.

زبيــدة : وهي تضحك أو تبتسم.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

أم قاسم : أهلاً وسهلاً يا أولادي جئتم اليوم مبكرين إليّ.

عمــر : بل جئنا مودعين يا أماه.

أم قاسم : مودعين؟ إلى أين؟

عمــر : إلى بلد بعيد لا تسمعين عنا فيه ولا نسمع عنك.

أم قاسم : (تضحك في طلاقة وبشر) إن كلامك لمضحك يا عمر.

عمــر : مضحك؟

أم قاسم : البلد الذي تريد أن ترحل إليه لا وجود له البتة.

عمــر : (في حدة) سترين غدا أنه موجود.

أم قاسم : (تقهقه ضاحكة) لا تحتد هكذا يا بني! فإن الذي يريد أن يودع أمه ينبغي أن يكون لين الكلام لطيفا. ما مــن بلــد ترحل إليه إلا وتسمع عني فيه وأسمع عنك، لأن الرسائل كانت تأتيني من كل بلاد العالم من مشرقه إلــى مغربــه. ففي وسعي أن أتصل بك أينما تكون.

عمـــر : كلا، لا أريد أن تتصلي بي ولا أتصل بك.

أم قاسم : (في ضحك) علام هذا الجفاء كله يا عمر؟

عمـــر : وأختي زبيدة أيضاً سترحل.

أم قاسم : وحدها أم مع زوجها وأولادها؟

زبيـــدة : مع زوجي وأولادي يا أماه.

أم قاسم : وأنت أيضاً يا قاسم؟

قـــاسم : لا يا أماه... إني سأبقى هنا معك.

أم قاسم : لم لا ترحل معهم؟

قـــاسم : إنهم خائفون يا أماه وأنا غير خائف.

أم قاسم : (تضحك) خائفون؟ من ماذا؟

قـــاسم : من الموت.

أم قاسم : (تقهقه ضاحكة) خائفون أن يأتيهم قبل أجلهم؟

عمـــر : كفى يا أماه سخرية! هل تأذنين لنا في السفر؟

أم قاسم : بكل سرور. ارحلوا إلى البصرة، وانزلوا بها عند أصحابنا آل النعمان.

عمـــر : كلا، لا نريد أن ننزل عند أحد من أصحابك ومعارفك.

أم قاسم : كما تشاء يا ولدي كما تشاء.

❁ ❁ ❁

ـ ٥ ـ

أم قاسم : من الذي يسأل عني يا قاسم؟

قاسم : مسلم بن يسار التاجر من المدينة.

أم قاسم : هذا ليس تاجراً فحسب يا قاسم، إنه من أهل العلم والصلاح أيضاً. ائذن له.

قاسم : سمعاً يا أماه.

مسلم : السلام عليك يا أم قاسم.

أم قاسم : وعليك السلام ورحمة الله. مرحباً بك يا مسلم بن يسار. جئت توا من مدنية رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

مسلم : نعم يا أم قاسم.

أم قاسم : مرحباً بنفحة من نفحات رسول الله ﷺ.

مسلم : أراك اليوم مبتهجة يا أم قاسم على غير عادتك.

أم قاسم : أجل، إنك تعرف السبب.

مسلم : زال عنك ما كنت تشكين منه؟

أم قاسم : (من أعماق قلبها) الحمد لله.

مسلم : إني كنت حدثت عبد الله بن عمر عنك.

أم قاسم : أحقاً؟ عمَّ حدثته؟

مسلم : عن محنتك... عمّا كنت تجدين في قلبك.

أم قاسم : فماذا قال عبد الله بن عمر؟

مسلم : قال: لو لم يرد الله بها خيرا لما جعلها تشعر بتلك المحنة.

أم قاسم : الله أكبر! والله لقد أصاب.

مسلم : لكني لا أرى اليوم عندك شيئاً مما كنت أراه، ولا أجد أحداً من رجالك وعبيدك وخدمك وحشمك.

أم قاسم : لقد ذهب كل ذلك يا ابن يسار ثمنا لخلاصي من تلك المحنة. فالحمد لله، ما أعظمه من خلاص! وما أقله من ثمن!.

مسلم : حدثيني يا أم قاسم.. حدثيني حديثك كله من أوله إلى آخره، وعسى أن يكون فيه شفاء لقلوب كثيرة.

❊ ❊ ❊

ـ ٦ ـ

(في المدينة المنورة بعد مرور عامين أو ثلاثة)

مسلم : السلام عليك يا عبد الله بن عمر.

ابن عمر : وعليك السلام ورحمة الله. قادم من سفر يا مسلم بن يسار؟

مسلم : أجل يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : من أين هذه المرة؟

مسلم : من البحرين واليمامة.

ابن عمر : فهل لقيت تلك المرأة الصالحة تاجرة البحرين؟

مسلم : أم قاسم؟

ابن عمر : أجل لقد حدثتني عنها حديثاً عجباً عام أول. قلت لي: إنك لما قدمت عليها قدمتك الأولى...

مسلم : (مكملاً) وجدتها في عز دنياها وتجارتها وجاهها، ولكنها كانت مكتئبة محزونة قليلة الكلام في ثياب غليظة خشنة.

ابن عمر : ثم لما قدمت عليها قدمتك الثانية...

مسلم : (مكملاً) وجدتها قد فقدت كل دنياها وتجارتها، وثكلت أولادها وانفض عنها خدمها وحشمها، ولم يبق لها شيء، ولكنها صارت راضية مبتهجة تلبس أفخر الثياب وتتكلم وتضحك وتتبسم.

ابن عمر : أجل ذلك ما حدثتني عنها عام أول، فليت شعري ماذا فعل الله بها في قدمتك هذه الثالثة؟

مسلم : وجدت حالها يا أبا عبد الرحمن أعجب وأغرب.

ابن عمر : كيف يا ابن يسار؟

مسلم : وجدتها وقد عادت إليها كل دنياها وتجارتها وجاهها بعبيدها وخدمها وحشمها، عادت نعم الله تترادف عليها كما كانت وأعظم، ورأيتها في ثياب حسنة معتدلة، لا هي غليظة ولا رقيقة، وهي تدير شؤونها وتباشر أعمالها في حكمة واتزان، ولا يكف لسانها عن حمد الله وشكره. فسألتها عن حالها فقالت: اليوم اعتدل الميزان، فاستوى عندي الغِنى والفقر، والعافية والسقم، واللذة والألم، والسرور والحزن، والجاه والخمول، والحياة والموت.

ابن عمر : بخ! بخ! ما أعظم وأكرم وما أجدرنا أن نفعل مثلها يـا ابن يسار!

مسـلم : أنت يا أبا عبد الرحمن في غنىً عن ذلك.

ابن عمر : كلا يا مسلم بن يسار، أين أنا من هـذه؟ لقـد تخـرّق مطرفي هذا فوجهت به ليصلح فعمل لي على غيـر مـا كنت أريد فأحزنني ذلك. رحم الله هذه المرأة. فما أعظـم صبرها! وما أجمل شكرها لربها!

(ستار)

❁ ❁ ❁

---

٤) قبس من أيوب:(امرأة غنية صالحة تجاهد في إخراج حب الدنيا من قلبها وتدعو على نفسها بالبلاء لتصبر مثل نبي الله أيوب عليه السلام) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٨٣).

قصر في الجنة

ـ ١ ـ

(في منزل أبي محمد حبيب الفارسي بالبصرة)

حبيب : مرحبا بك يا أبا سعيد.. أي حظ سعيد جاءنا اليوم! الحسن البصري يزور بيتي؟

الحسن : إن معي ضيفاً عزيزاً من خراسان وأهله يا أبا محمد.

حبيب : أهلاً بك وبضيفك وبأهل ضيفك. (ينادي) مشكدانة.

مشكدانة : (من الداخل) لبيك يا حبيب.

حبيب : ادخلي بهاتين الضيفتين عندك وأكرميهما.

مشكدانة : أهلاً وسهلاً. هلما ادخلا. (تدخلان البيت).

الحسن : هذا حمزة الزيات الخراساني، يريد أن يحج العام بأهله ثم يقيم في البصرة،وهو لا يستحب النزول بالخان فجئت به لينزل بأهله عندك في بيتك.

حبيب : (في لهجة مازحة) أمن أهل الدنيا هو أم من أهل الآخرة؟

الحسن : تأبى يا أبا محمد إلا مزاحاً.

حبيب : أجبني يا أبا سعيد.

الحسن : من أهل الآخرة.

حبيب : ينبغي إذن أن تنزله عندك لا عندي.

الحسن : إنما كان هذا فيما مضى يا أبا محمد. أما اليوم فقد أصبحت أنت لأهل الدنيا ولأهل الآخرة معا.

حبيب : إنك يا أبا سعيد لا يغلبك أحد.

الحسن : بلى لقد غلبتني ذات يوم في طالب العلم الذي جاء من أقصى المغرب ليأخذ عني، فما زلت به حتى صرفته إليك فجعلته سمسارا يعمل عندك.

حبيب : (يقهقه ضاحكاً) أتذكُره بعد يا أبا سعيد؟

الحسن : ومن ذا ينسى أفعالك السيئة؟

حبيب : (يمضي في قهقهة ثم ينقطع عنها فجأة) مرحباً بك يا ضيفي العزيز. إنما كان هذا مزاحاً بيني وبين هذا الإمام الحسن بن أبي الحسن وإلا فلو أخذكم مني لقاتلته عليكم.

الحسن : إني منصرف يا أبا محمد لئلا تقاتلني (يخرج).

حبيب : مع السلامة يا أبا سعيد. (لحمزة) تسمعون صيت هذا الإمام عندكم في خراسان؟

حمزة : نعم، ولذلك قصدته أول ما نزلنا بالبصرة.

حبيب : كأنك تريد الحجّ هذا العام؟

حمزة : نعم.

حبيب : هل لك أن تخبرني لم لا تريد أن تعود إلى خراسان؟ أنت الآن أخي فينبغي أن تحدثني بكل شيء.

حمزة : إني بعت كل ما كان لي هناك، لخلاف طال بيني وبين إخوتي من أجل أني تزوجت ابنة عمنا هذه، وكان بين عمنا وبين أبينا شر، فلما توفي أبونا حل إخوتي محل أبينا

في عداوة عمهم ما خلاي.

حبيب : أنت إذن هارب من قرابتك؟

حمزة : نعم، أشتهي أن أعيش ما بقي من حياتي في سلام.

حبيب : ستجد السكينة والسلام إن شاء الله في هذه المدينة.

حمزة : ومعي عشرة آلاف دينار سأودعها عندك، لتشتري لي بها منزلاً في البصرة.

حبيب : عشرة آلاف دينار! هذا كثير.

حمزة : فاحفظ عندك ما يبقي بعد شراء المنزل.

حبيب : ألا تخشى على مالك عندي وأنت لا تعرفني؟

حمزة : سألت عن آمن رجل في البصرة، فكلهم أشار إليك، ثم إن شهادة الحسن عندي تعدل كل شيء.

حبيب : قال لك الحسن إنني رجل أمين؟

حمزة : قال لي: إنك الأمانة ذاتها والصدق كله.

حبيب : أتدري ماذا كان الحسن لي فيما مضى؟

حمزة : ماذا كان؟

حبيب : كان عدوي الأكبر! كان يجلس في مجلسه الذي يأتيه فيه أهل العلم من كل مكان، وكنت أجلس في مجلسي الذي يأتيني فيه التجار من كل مكان.

حمزة : وكان المجلسان متجاورين؟

حبيب : نعم، فكنت أثني الناس عنه جهدي، وكان يثني الناس عني جهده، فكان حينا يغلبني، وكنت حينا أغلبه إلى أن

جاء يوم عظيم.

حمزة : كيف؟

حبيب : ما شعرت ذلك اليوم إلا والحسن ومن معه من أتباع ومريدين لا يقل عددهم عن خمسين قد اقتحموا مجلسي حتى امتلأ بهم الدكان، وجلس الحسن في صدر المجلس فأخذ يلقي درسه ووعظه.

حمزة : ولم تصنع أنت شيئاً؟

حبيب : ولم أنبس ببنت شفة، وإنما استمعت إلى حديثه فنسيت نفسي ونسيت كل ما كنت فيه وانسابت الدموع من عيني فقمت إليه فعانقته وقبلت يديه ورجليه وتبت على يديه وأصبحنا منذ ذلك اليوم صديقين بل أخوين حميمين.

حمزة : وحديث الأربعين ألفاً التي تصدقت بها في يوم واحد؟

حبيب : أو قد حدثك الحسن عنها؟

حمزة : نعم، قال لي: إنك اشتريت بها نفسك من الله عز وجل.

حبيب : نعم والله أكرم الأكرمين.

حمزة : كيف فعلت؟

حبيب : أحضرت معي أربعين ألفاً... فتصدقت بها على الفقراء والمحتاجين.

حمزة : عظيم.

حبيب : أسأل الله القبول.

❋ ❋ ❋

ـ ٢ ـ

حبيب : أين الأمانة التي وضعتها عندك يا مشكدانة؟

مشكدانة : المال الذي للخراساني؟

حبيب : نعم.

مشكدانة : تريد أن أخرجها لك؟

حبيب : نعم.

مشكدانة : هل وجدت له منزلاً حسناً تشتريه؟

حبيب : لا يا مشكدانة.

مشكدانة : فماذا أنت صانع بمال الخراساني؟

حبيب : المجاعة كل يوم تشتد يا مشكدانة، والناس تموت بالمئات والألوف.

مشكدانة : هل تريد...

حبيب : نعم سأشتري له بها منزلاً في الجنة بقصوره وأشجاره وأنهاره وحوره وولدانه.

مشكدانة : يا سيدي، أذهبْتَ مالك كله في الإنفاق على المجاعة، والآن تعمد إلى مال صاحبك الذي وضعه أمانة عندك فتريد أن تنفقه كذلك؟

حبيب : إنما وضعه أمانة عندي لأشتري له منزلاً في البصرة، أو ليس منزل في الجنة يا مشكدانة خيراً من منزل في البصرة؟

مشكدانة : أعتقد ألا حق لك في ذلك.

حبيب : بل لي الحق كل الحق.

مشكدانة : هل استشرت الحسن البصري في ذلك؟

حبيب : يا حبيبتي إني أعرف ربي كما يعرفه الحسن البصري.

مشكدانة : ما ضرك لو استشرته؟

حبيب : سبحان الله! المسلمون يموتون في الطرقات من الجوع وفي يدي عشرة آلاف دينار أستطيع أن أنقذ بها ألفاً منهم من الموت أفأتردد وأستشير الحسن؟ كلا يا مشكدانة لا أفعل. ولكني سأمضي الليلة إلى الجامع وأصلي في جوف الليل وأسأل ربي أن يأذن لي فأشتري منه للرجل الخراساني حمزة الزيات منزلاً في الجنة ذا قصور وأشجار وأنهار وولدان بعشرة آلاف دينار.

مشكدانة : لكن الناس لن يصدقوك يا حبيب. سيقولون: إنك أخذت المال لنفسك.

حبيب : ما لي وللناس؟ الذي اشتريت منه يا مشكدانة يعلم الحقيقة.

مشكدانة : لكن الذي اشتريت له لن يرضى بهذه الصفقة.

حبيب : إنه رجل صالح وما أحسبه إلا سيفرح بهذه الصفقة الرابحة.

مشكدانة : وإذا لم يرض يا أبا محمد؟

حبيب : فإني سأرد عليه ماله.

مشكدانة : من أين؟

حبيب : غدا يفرج الله عنا يا مشكدانة ويرزقنا الخير الكثير.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(في المدينة المنورة)

أسماء : كيف أنت اليوم يا حمزة؟

حمزة : لا ينبغي أن أكذبك يا أسماء ونحن هنا مغتربون. تجلدي يا أسماء فإني لن أعيش.

أسماء : بل ستعيش يا حمزة... أنت اليوم خير منك أمس.

حمزة : إني سعيد يا أسماء أن أموت هنا، في مدينة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وبجواره. إذا أنا مت يا أسماء فعودي إلى البصرة لتقيمي بها أنت وابنتنا حبيبة بجوار صديقنا حبيب الفارسي.

أسماء : (بصوت يخالطه البكاء) سأفعل يا حمزة.

حمزة : لقد بلغنا أن بها مجاعة طاحنة ولكنها لن تدوم وسترفع بإذن الله ويعود الرخاء إليها والسلام.

أسماء : وستقيم أنت معنا يا حمزة إن شاء الله.

حمزة : (يتنهد) أردت أمراً يا أسماء وأراد الله لي أمراً آخر. وما يريده الله خير دائماً وأفضل. لقد رأيت البارحة مناماً حسناً يا أسماء، أتحبين أن تسمعيه؟

أسماء : خيراً يا حمزة.

حمزة : رأيت البارحة كأنني في الجنة، فجعلت أطوف في

أرجائها وأنا أرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم إذا أنا أمام منزل فريد استهواني بقصوره ورياضه وأشجاره وأنهاره، فسألت لمن هذا؟ قيل: هذا لحمزة الزيات الخراساني اشتراه له من رب العزة أبو محمد حبيب الفارسي بعشرة آلاف دينار.

أسماء : هذا منام عجيب! عسى أن يحققه الله لك بعد عمر طويل.

حمزة : أتدرين يا أسماء ماذا أُلقي في روعي حين انتبهت من هذا المنام؟

أسماء : ماذا يا حمزة؟

حمزة : أن الله قد ألهم أبا محمد الرجل الصالح الطيب لما فشت المجاعة في البصرة وما حولها فتصدق بعشرة آلاف الدينار التي أودعتها عنده لينقذ بها آلاف المسلمين من الموت، فاشترى لي بذلك قصراً في الجنة، وهذه عادة هذا الرجل الصالح فقد اشترى نفسه ذات مرة من الله عز وجل بأربعين ألف دينار.

أسماء : لا تُجهد نفسك يا حمزة بمثل هذه التصورات.

حمزة : كلا، هذه ليست بتصورات يا أسماء، لقد أُلقي في روعي أن هذا هو الذي حدث حقاً من أبي محمد.

أسماء : إن كان قد فعلها أبو محمد فلا تبتئس، فإن الله سيرزقنا يا حمزة ولن يضيعنا.

حمزة : كلا. أنا غير مبتئس يا أسماء. أنا مسرور. أنا سعيد

بما فعله أبو محمد ولكني أخشى عليه هو.

أسماء : تخشى عليه ماذا ؟

حمزة : أخشى عليه من إخواني: عباس و عبدالله و أحمد أن يطالبوه بالمال إذا علموا أنني أودعته عنده.

أسماء : وأنَّى لهم أن يعلموا؟

حمزة : لن يعسر عليهم علم ذلك يا أسماء، فأبو محمد رجل معروف في البصرة، وكثير من الناس قد علموا بما كان من اتصالنا به.

أسماء : سألتك بالله ألا ترهق نفسك يا حمزة، فإن كان عندك شيء تريد منا أن نصنعه فخبِّرنا ننفذه لك.

حمزة : أجل، إني سأكتب لأبي محمد براءة مما لي عنده، وأُشهِد عليها اثنين من حجاج البصرة، وتحملين أنت البراءة فتسلمينها لأبي محمد.

أسماء : أليس ذلك يعني يا حمزة أننا لا يبقى لنا شيء نعيش به؟

حمزة : أنت لا تعرفين هذا الرجل الصالح يا أسماء، إنه لن يترككم أبداً، سيخلطكم بأهله.

أسماء : ألا يجوز يا حمزة أن نجد وديعتك عنده بحالها كاملة لم تمس، أو أنه قد اشترى لك بها منزلاً في البصرة ؟

حمزة : لا ضير يا أسماء، فسيظهر هو حينئذ هذه البراءة لإخوتي إذا جاؤوا إليه، ويحفظ المال كله لك ولابنتك، فإن

إخوتي كما تعلمين قد جاروا علي في ميراث أبي فاستولوا على نصيبي منه.

❁ ❁ ❁

— ٤ —

(إخوة حمزة الثلاثة: عباس وعبدالله وأحمد عند أبي محمد)

عباس : أنت أبو محمد حبيب الفارسي؟

حبيب : نعم.

عباس : لقد سمعنا ثناء طيبا عليك من جميع الناس في هذا البلد.

حبيب : الحمد لله.

عبدالله : فقد أحسن أخونا حين اختارك لترك وديعته عندك.

حبيب : من تكونون؟

عباس : نحن أشقاء حمزة الزيات الخراساني الذي مات في المدينة المنورة هذا العام وترك لنا عندك مبلغا كبيراً من المال.

حبيب : هل عندكم ما يثبت أنكم أشقاؤه؟

عباس : نعم قد جئنا بالإشهادات معنا.

حبيب : كأنكم تطمعون في المال الذي تركه أخوكم عندي؟

عبدالله : نعم، نحن ورثته العصبة إذ ليس له ولد ذكر.

حبيب : لقد كان حدثني أخوكم حمزة رحمه الله أنكم استوليتم على نصيبه من تركة والدكم فلم تعطوه شيئاً، فهلا تركتم هذا لابنته الصغيرة وزوجته الأرملة واكتفيتم بما أخذتموه

من قبل؟

عباس : كلا، لن ننزل عن ميراثنا فيه لأحد.

حبيب : فاعلموا إذن أنه لم يبق في يدي من مال أخيكم شيء.

الثلاثة : كيف ؟ أين ذهب؟ أنت مسؤول عن ذلك.

حبيب : اشتريت به لأخيكم حمزة منزلاً في الجنة بقصوره ورياضه وأشجاره وأنهاره وحوره وولدانه.

عباس : هذا كلام لا نعقله.

حبيب : ينبغي لكم أن تعقلوه إن كنتم مؤمنين. فالله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (التوبة: ١١١)

عبدالله : حدثنا إذن كيف اشتريت له قصراً في الجنة؟

حبيب : اشتريت بعشرة آلاف الدينار دقيقا فخبزته ففرقته على المسلمين والمسلمات في المجاعة الطاحنة التي فشت عندنا منذ وقت قريب.

عباس : ومن الذي خولك أن تفعل ذلك؟

حبيب : صاحب المال نفسه.. أخوكم حمزة.

عبدالله : كان حمزة قد رحل من عندكم إلى الحجاز، فكيف

خوّلك؟

حبيب : لما سمع بالمجاعة أرسل إلي يأمرني بأن أنفق جميع ماله لإنقاذ آلاف المسلمين من الموت.

عبدالله : عندك دليل على ذلك؟

حبيب : نعم هذه البراءة منه أرسلها إلي من الحجاز، وأشهد عليها اثنين من حجاج البصرة فاقرؤوها إن شئتم.

عباس : اقرأها يا محمد.

أحمد : (يقرأ) بسم الله الرحمن الرحيم. هذه براءة لأبي محمد حبيب الفارسي البصري مني أنا حمزة الزيات الخراساني، فقد كنت أمرته أن يتصدق بعشرة آلاف الدينار التي تركتها وديعة عنده على المسلمين والمسلمات في أيام المجاعة التي انتشرت في البصرة وما حولها، فنفذ ما أمرته به خير تنفيذ فقد أبرأ بذلك نفسه وأبرأته أنا من كل حق لي عنده، فليس لي ولا لأحد غيري أن يطالبه بشيء والله شهيد. وكتب حمزة الزيات الخراساني بخطه وشهد حسان بن عمر الكواء من البصرة، وشهد علي بن أحمد المسعودي من البصرة.

عباس : وابنته وزوجته ألم يترك لهما شيئاً.

حبيب : ويلكم! أتريدون أن ترثوهما أيضاً وهما على قيد الحياة؟

عبدالله : كلا، بل نريد أن نطمئن على مصيرهما في دار الغربة.

حبيب : فاطمئنوا من هذه الناحية فقد نزلتا عندي في بيتي مكرمتين معززتين.

عباس : لابد أن في الأمر خديعة.

حبيب : اذهبوا فقاضوني إلى أي حاكم أو قاض يعجبكم إن شئتم.

عباس : أنتم يا أهل البصرة يواطئ بعضكم بعضاً على كل غريب لتأكلوا حقه بالباطل.

حبيب : سامحكم الله... ارجعوا إذن إلى خراسان قبل أن يسلب أهل البصرة منكم هذه الثياب التي عليكم.

❀ ❀ ❀

ـ ٥ ـ

مشكدانة : لا تبتئسي يا أختاه فستبقين مقيمة عندي أنت وابنتك حبيبة حتى يجد لك أبو محمد منزلاً تقيمان فيه بجوارنا، وسنكون نحن جميعاً في خدمتكما دائماً في كل شيء.

أسماء : كنا سنسعد كثيراً بالإقامة في جواركم لو كان معنا حمزة يرحمه الله فقد كان يحبكم كثيراً ويعزكم كثيراً.

مشكدانة : هذه سُنة الله في الحياة الدنيا يا أسماء لا يدوم فيها شيء على حال. والحمد لله إذ حج زوجك بيت الله الحرام وزار مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام، ثم جاءه الأمر المحتوم في المدينة المنورة، فأي ميتة أفضل من هذه!؟

أسماء : هو أيضاً قد قال ذلك، وقال: إنه سيموت وهو مطمئن النفس لوجود أبي محمد سنداً لنا وعوناً على الخطوب والأيام.

مشكدانة : ها هو ذا أبو محمد قد أقبل مسرعاً كأنه يريد أن يبشرنا بشيء.

حبيب : هل عندكم أحد يا مشكدانة؟

مشكدانة : لا، لا أحد غير أختي أسماء وابنتي حبيبة.

حبيب : عندي لهما خبر سار.

مشكدانة : ألم أقل لك يا أسماء؟

حبيب : الإخوة الثلاثة قد رحلوا اليوم إلى بلادهم خائبين.

أسماء : الحمد لله.

حبيب : رحمة الله على حمزة ما أبعد نظره! وأحسن تدبيره!

مشكدانة : رحمة الله عليه.

حبيب : وبشرى ثانية يا أسماء.

أسماء : ما هي يا أبا محمد.

حبيب : قد وجدنا لك بيتاً حسناً تقيمين فيه بجوارنا على خطوات منا.

أسماء : شكر الله لك يا أبا محمد، وجزاك عنا خير الجزاء.

حبيب : وعشرة آلاف الدينار سأدفعها إليكما قليلاً قليلاً كلما تيسر لي ذلك.

أسماء : لكن حمزة كان مسروراً بقصره الذي اشتريته له في الجنة، فلا ينبغي أن تأخذه منه يا أبا محمد.

حبيب : كلا لن آخذه يا أسماء، فالقصر سيبقى قصره. والصدقة في المجاعة ستبقى صدقته، وهذا مال من عندي أشتري لي به قصراً في الجنة مثله أو أصغر قليلاً منه.

أسماء : لكنا لا نستحق هذا المال منك يا أبا محمد، ولا يصح لنا أن نقبله.

حبيب : ويحك يا أسماء! ما كنت أظنك تكرهين لي الخير!

أسماء : معاذ الله، أنا أكره لك الخير يا أبا محمد؟

حبيب : إذن فلا تمنعيني أن يكون لي قصر في الجنة مثل قصر حمزة.

ـــ ستـــــار ـــ

❁ ❁ ❁

---

٥) قصر في الجنة: (ثواب التصدق على الفقراء في المجاعة) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٦٩)، والأدب الإسلامي، العدد ٦١، ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٠٠٩م.

كسوة العيد

(في بيت محمد بن عمر الواقدي)

الواقدي : أوقد أقبل العيد يا عمرة ؟ ما أسرع ما أقبل ؟

عمرة : ما بقي عليه غير جمعة.

الواقدي : جمعة واحدة ؟ لا أكاد أصدق.

عمرة : غيرك يا أبا عمر يستعد له قبل حضوره بأشهر.

الواقدي : أولئك الواجدون الفارغون يا عمرة، ولست بحمد الله منهم.

عمرة : بل الذين يهتمون بأهلهم وصغارهم قبل أن يهتموا بأنفسهم. هؤلاء جيراننا ليس فيهم من هو أغنى منك، ومع ذلك فانظر إلى صبيانهم وصبياننا تجد أن صبيانهم قد اشتريت لهم الثياب الجديدة للعيد بلهفة وشوق لكي يلبسوها ويختالوا بها بين أقرانهم. أما صبياننا فأذلاء منكسرون يريهم صبيان الجيران ثياب عيدهم الجديدة و يسألونهم عن ثيابهم فلا يحيرون جوابا.

الواقدي : حسبك يا عمرة فلقد قطعت قلبي رحمة لهم! هلا نبهتني إلى ذلك من قبل ؟

عمرة : يا لي منك يا أبا عمر! ألم أنبهك قبل اليوم أكثر من مرة فكنت تقول لي دائما: فيما بعد يا عمرة... فيما بعد ؟

الواقدي : ذلك أنك لا تحسنين اختيار الوقت الملائم يا عمرة. ما كان يحلو لك أن تتكلمي في هذا الشأن إلا حين كنت تجدينني أقرأ أو أكتب.

عمرة : سبحان الله وهل أجدك في البيت أبدا إلا تقرأ أو تكتب؟

الواقدي : لا تظلميني يا أم عمر فهأنتذي الآن وجدتني لا أقرأ ولا أكتب، إذ أحسنت الاختيار فاستطعت أن أصغي إلى حديثك.

عمرة : فاعمل لصبياننا إذن شيئا قبل أن تنقضي هذه الجمعة ويأتي العيد.

الواقدي : والله لا أدري ماذا أعمل لهم؟ فقد ضاق الوقت وليس عندي اليوم أكثر من عشرة دراهم.

عمرة : عليك أن تحتال لهم بشيء.

الواقدي : كيف يا عمرة ؟ ماذا أصنع؟

عمرة : إذا احتجت إلى كتاب أو إلى قراطيس فأنت تحتال على أصحابك الوراقين دون أن تستشيرني أو تلجأ إلى رأيي. أما في كسوة صغارنا للعيد فإنك تسألني كيف يا عمرة..ماذا أصنع يا عمرة؟

الواقدي : إنك قاسية علي يا أم عمر. أليس لي أن أستعين برأيك لعلك ترشدينني إلى حيلة أو إلى سبيل؟

عمرة : أين أنت من صديقيك الحميمين: الهاشمي وأبي صالح؟ فإنك تزعم لي دائما أنكم أنتم الثلاثة كنفس واحدة؟

الواقدي : أجل هذا رأي حسن يا عمرة، ولكن العيد سيأتي عليهما أيضا كما يأتي علينا، ولكل منهما صبيانهما، وعسى أن

يكونا اليوم في مثل حالي من الحاجة والعوز، بل لعلهما فكرا في اللجوء إليّ ثم عدلا لمعرفتهما بحالي.

عمرة : سبحان الله! ماذا يضرك أن تكتب إلى أحدهما، فإن وجد عنده شيئا أعطاك وإلا اعتذر لك ؟ إن الصديق الحق هو الذي يفعل ذلك.

الواقدي : إلى أيهما توصينني أن أكتب ؟

عمرة : أنت أعرف بهما مني.

الواقدي : الهاشمي أقل أولادا من أبي صالح.

عمرة : فاكتب إذن إليه، واشرح له حالك شرحا وافيا حتى يعلم أنك لم تلجأ إليه إلا في الضرورة القاسية.

❁ ❁ ❁

— ٢ —

(في بيت محمد بن عبد الرحمن الهاشمي)

الهاشمي : أين الكيس الذي وضعته عندك يا خديجة؟

خديجة : ماذا تصنع به؟ لقد قلت لي: إنك مشغول اليوم ولا تستطيع أن تشتري لصبياننا إلا من الغد.

الهاشمي : بل سأشتريها اليوم يا خديجة.

خديجة : هذا أفضل فما بقي على العيد غير جمعة واحدة، انتظر. سأحضره لك.

الهاشمي : مسكينة! ستفجع حين تعلم.

خديجة : خذ الكيس، فيه ألف درهم لم تمس بحاله كما سلمته إلي!.

الهاشمي : أصغي إلي يا خديجة. هبي أن هذا الكيس عند صديقنا الواقدي وأنه علم بحاجتنا إليه فبعث به إلينا لنشتري به لصبياننا كسوة العيد أفلا يكون سرورنا حينئذ عظيما؟

خديجة : بلى يا ابن عبد الرحمن.

الهاشمي : أ فجميل بي يا خديجة أن أكون أنا أقل مروءة منه وكرما؟

خديجة : لا.

الهاشمي : أليس ينبغي أن أكون أكرم منه؟

خديجة : ويحك! ماذا تريد أن تفعل بهذا الكيس؟

الهاشمي : أريد أن أبعث به إلى الواقدي. كتب إلي يستقرض ما يشتري به للأولاد كسوة العيد.

خديجة : أوليس أولادك أحق بك من أولاده ؟

الهاشمي : كلا يا خديجة! لو كنت مكانه وكان هو مكاني لآثر أولادي على أولاده.

خديجة : إذن! فابعث إليه بمئة درهم أو مائتين ودع الباقي لأولادك.

الهاشمي : كلا، لا أستطيع أن أوجه إليه بأقل من ألف درهم، فإن عنده أولادا كثيرين، فبكم يشتري لهم من الثياب؟ وبكم يُفصّلها؟ وبكم يشتري لهم من أحذية؟

خديجة : وأولادنا...ألا نترك لهم شيئا؟

الهاشمي : أكتب إلى صديقنا أبي صالح المغربي ليرسل إلينا بعض ما عنده فأبو صالح لا يخلو –إن شاء الله– من المال.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(في بيت الواقدي)

عمرة : من ذا الذي جاء عندك يا أبا عمر ؟

الواقدي : هذا رسول من صديقنا أبي صالح.

عمرة : أراك مسرورا بمجيئه! أتراه علم بما كنت فيه من ضيق فبعث إليك بألف درهم أخرى؟

الواقدي : صه. اخفضي صوتك، لا يسمعك.

عمرة : ظننته قد انصرف.

الواقدي : بل هو في صدر البيت بعد.

عمرة : وتركته وحده ؟

الواقدي : لآتيه بما يريد.

عمرة : وماذا يريد ؟

الواقدي : أن أسعفه بشيء يا عمرة.

عمرة : تسعفه بماذا ؟

الواقدي : كتب إلي أبو صالح بمثل ما كتبت إلى الهاشمي يرجوني أن أقرضه ما يبتاع به كسوة العيد لأولاده.

عمرة : وماذا قلت لرسوله؟

الواقدي : قلت له: انتظر حتى أبحث لك عن شيء.

عمرة : هلا قلت له من أول الأمر: إنك ما عندك شيء، وإنك احتجت إلى ما تشتري به كسوة العيد لأولادك فاستقرضته من الهاشمي ؟

الواقدي : كلا يا عمرة، لا أستطيع أن أرد طلبا لأبي صالح.

عمرة : إنه لو علم أنك استقرضت من الهاشمي لما كتب إليك يستقرض منك.

الواقدي : وأنّى له أن يعلم ذلك؟

عمرة : عليك أنت أن تخبره بذلك.

الواقدي : معاذ الله! أين المروءة إذن يا عمرة؟ وأين التواسي بين الأصدقاء؟

عمرة : كأنك تريد مني أن آتيك بالكيس ؟

الواقدي : أجل يا عمرة.

عمرة : كم تريد أن ترسل له من الألف درهم.

الواقدي : سأرسل إليه الكيس كله يا عمرة!

عمرة : ولا تترك لأولادك شيئا؟

الواقدي : سيجعل الله لهم مخرجا يا عمرة.

عمرة : من أين يا أبا عمر؟ لقد كان لك صديقان تلجأ إليهما عند الشدة: الهاشمي و أبو صالح. فالهاشمي قد أخذت ما عنده وأبو صالح قد بعث ليأخذ ما عندك... فأين المخرج؟

الواقدي : يا عمرة! إن الله يرزق أحدنا من حيث لا يحتسب. فثقي بالله ولا تفقدي الرجاء في بره وكرمه!.

❁ ❁ ❁

— ٤ —

الواقدي : هذا الهاشمي يريد أن يزورنا يا عمرة فأعدي له شيئا من شراب الورد أو شراب الليمون.

عمرة : أهلا وسهلا به. أهذا خادمه الذي كان عندك ؟

الواقدي : نعم أرسله ليرى إن كنت في البيت فيحضر للزيارة.

عمرة : تُرى ماذا يدفعه إلى زيارتك اليوم؟

الواقدي : كالعادة ليراني ويتحدث معي.

عمرة : ألا يجوز أن تكون زيارته ليرى إن كنت في حاجة إلى مزيد من العون ؟

الواقدي : ثقي يا عمرة! أن لو كان عنده أكثر من ألف درهم لبعث لي بأكثر من ألف درهم.

عمرة : ربما جاءه اليوم مال جديد لم يكن عنده بالأمس، فأراد أن يعرض عليك المزيد.

الواقدي : إذن لبعث بالمال مع خادمه كما في المرة الأولى دون حاجة إلى الزيارة.

عمرة : مهما يكن من أمر يا أبا عمر فعليك أن تخبره بقصة أبي صالح حتى يعلم أنك لم تنتفع بشيء مما بعث به إليك، عسى أن يوجه إليك بألف درهم أخرى.

الواقدي : إني أستحيي يا عمرة أن أطلب منه مرتين.

عمرة : تستحيي من صديقك الحميم؟ غدا يعلم بالقصة لا محالة فيغضب منك لأنك لم تخبره بالحقيقة.

الواقدي : اسمعي يا عمرة! إني سأحاول أولا أن أعرف حاله، فإن كان عنده شيء فسأحكي له قصة صالح ليعطيني ألف درهم أخرى. وإلا لزمت الصمت، وتجلّدت لئلا يشعر بشيء مما عندي.



ـ ٥ ـ

(يقرع باب البيت)

عمرة : لعله هو يا أبا عمر.

الواقدي : هيا.. أعدي له الشراب، وسأفتح له الباب.

(يفتح الباب)

الهاشمي : السلام عليك يا واقدي ؟

الواقدي : وعليك السلام يا هاشمي، مرحبا بك، تعال واجلس هنا في الصدر.

الهاشمي : (مازحا) ألأني أقرضتك ألف درهم يا واقدي ؟

الواقدي : كلا يا هاشمي، بل هذا مكانك، وأنت له أهل.

الهاشمي : (ماضيا في مزاحه) ولو لم أقرضك شيئا؟

الواقدي : ولو لم تقرضني شيئا.

الهاشمي : اصدقني يا واقدي.

الواقدي : ما خطبك اليوم يا أبا هاشم؟

الهاشمي : بل ما خطبك أنت يا واقدي.

الواقدي : والله إني ما أفهم شيئا مما تقول.

الهاشمي : هل تعرف هذا الكيس؟

الواقدي : لا، لا أعرفه.

الهاشمي : انظر إليه جيدا.

الواقدي : سبحان الله! كأنه الكيس الذي كنت قد وجهته إلي.

الهاشمي : أجل، إنه هو بعينه! فماذا فعلت به؟ ويحك!

الواقدي : إني أريد أن أعرف أولا: كيف وصل إليك؟

الهاشمي : بل أخبرني أنت أولا: ماذا فعلت به؟

الواقدي : (كالمازح) اشتريت به كسوة العيد لأولادي.

الهاشمي : اشتريت الكسوة لهم من أبي صالح؟

الواقدي : أخذت أنت الكيس من أبي صالح؟

الهاشمي : نعم كتبت إليه أستقرضه فبعث به إلي.

الواقدي : ويل له! لقد كتب إلي يقول: إنه في حاجة ليبتاع لأولاده كسوة عيدهم.

الهاشمي : ما أحسن ما تواسينا نحن الثلاثة! إنك وجهت إليّ وما كان عندي غير ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أبي صالح أسأله فإذاهو يوجه إلي بكيسي نفسه!

الواقدي : الحمد لله الذي جعلنا أحباء فيه.

الهاشمي : وأصدقاء في طاعته، وفيما يرضيه.

الواقدي : وما فجع أحد منا في مروءة أخيه.

ـ ستار ـ

❀ ❀ ❀

---

٦) كسوة العيد: (إيثار ثلاثة من الصالحين صاحبه بنفقة العيد على نفسه) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٢)، ومجلة الأدب الإسلامي، العدد (٢٤).

كلمة حق

ـ ١ ـ

(في بيت إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله في المدينة المنورة)

إبراهيم : هل هيأت نفسك للسفر معنا يا صالحة ؟

صالحة : أوقد صممت يا إبراهيم أن تأخذني في هذه الرحلة معك؟

إبراهيم : نعم ينبغي أن تري الشام يا صالحة، ألا تحبين ذلك؟

صالحة : بلى، من ذا يكره أن يرى دمشق وملك آل مروان؟ ولكن متى يَفصِل ركبكم من المدينة ؟

إبراهيم : كنت عند الحجاج اليوم فأخبرني أن السفر سيكون يوم السبت القادم.

صالحة : أما من سبيل آخر يا ابن طلحة غير السفر مع الحجاج؟

إبراهيم : لقد وعدته أن نرحل معا ليقدمني إلى عبد الملك بن مروان.

صالحة : وهل مثلك في شرفه ومكانته وجاهه في حاجة إلى أن يقدمه أحد إلى عبد الملك.

إبراهيم : لا تنسي أن الحجاج هو واليه على الحرمين يا صالحة.

صالحة : إن الناس ينكرون عليك لزومك له وترددك عليه هذه الأيام.

إبراهيم : لأننا سنرحل في ركب واحد إلى الشام.

صالحة : إنهم ينكرون عليك صحبتك له إلى الشام.

إبراهيم : ويلهم ما شأنهم بي؟ أنا حر أصحب من أشاء وأرحل مع من أشاء.

صالحة : لكن لا ينبغي أن تسيء إلى أهل المدينة خاصة وإلى أهل الحجاز عامة من أجل هذا الطاغية الحجاج.

إبراهيم : دعيهم يعتقدوا ما يشاؤون يا صالحة، فالحق أني لا أسيء إليهم من أجل الحجاج، بل ربما أسيء إلى الحجاج من أجلهم.

صالحة : إنهم يرون أن الحجاج استمالك إليه لتصحبه إلى عبد الملك فتثني على الحجاج عنده، وتذكر له عدله وتقواه وصلاحه، فيبقيه واليا على الحرمين.

إبراهيم : ذلك أحرى أن يمكنني من خدمتهم عند عبد الملك فأقنعه بعزل الحجاج عن الحرمين.

صالحة : كيف ؟

إبراهيم : إن الحجاج سيقدمني إلى عبد الملك ويثني علي عنده، فإذا صارحت عبد الملك الرأي في الحجاج وظلمه وتعديه على أهل الحرمين من أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم– وأبناء المهاجرين والأنصار فسيصدق كلامي فيه لا محال.

صالحة : ويحك، أتريد أن تحمل على الحجاج وتذم سياسته عند عبد الملك؟

إبراهيم : نعم، هذا ما أنوي عمله.

صالحة : كلا، لا تفعل. أتريد أن تجرّ الويل على نفسك؟ أتظنها لا تبلغ الحجاج؟ فمن ذا يحميك حينئذ من انتقامه وبطشه؟

إبراهيم : سبحان الله! منذ قليل تلومينني على صحبتي للحجاج، والآن تحظرين علي أن أذمه وأحمل عليه عند عبد الملك.

صالحة : أجل يجب عليك أن تدعه وتبتعد عنه، فلا تصحبه ولا تحمل عليه، وبذلك تسلم من ألسنة أهل الحجاز ومن بطش الحجاج.

إبراهيم : كلا يا صالحة! هذه كلمة حق يجب أن أقولها لعبد الملك خالصة لله ولنبيه، وليفعل بي الحجاج بعد ذلك ما يشاء.

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

(في الطريق من الحجاز إلى الشام)

الحجاج : هل تعلم يا إبراهيم بن طلحة أن هذه أسعد رحلة لي إلي أمير المؤمنين إذ يصحبني فيها رجل عظيم المقام مثلك ؟

إبراهيم : يا حجاج بن يوسف! إنما هذه كلمة تريد أن تطيب بها قلبي.

الحجاج : كلا، والله إني لأعني ما أقول. إنه قل أن يجتمع في رجل من الحجاز ما اجتمع فيك من كرم النفس، وشرف المحتد، مع الولاء والنصيحة لهذا البيت من آل مروان.

فلا غرو أن يسعدني قدومك معي على أمير المؤمنين، وإن كلمة طيبة عني يسمعها منك أمير المؤمنين لتعدل عنده الثناء الكثير الذي يسمعه من غيرك.

إبراهيم : (في لهجة مازحة) كأنك جئت بي معك يا أبا محمد لكي أثني عليك عند أمير المؤمنين ؟

الحجاج : كلا، لا أريد ثناء من أحد. وكل ما أرجوه هو أن يكافأ مثلك، ويقدم على غيره من الأوشاب الذين لا يخلصون لأمير المؤمنين إخلاصك. إني اعرفهم جميعا يا إبراهيم، أعرف الذين بالحجاز منهم وبغير الحجاز، ولن يهدأ لي بال حتى أكسر شوكتهم و أقصم ظهورهم.

❊ ❊ ❊

— ٣ —

(في مجلس عبدالملك بن مروان)

عبد الملك : عجبا لك يا حجاج ما سمعتك تثني على أحد قط مثلما أثنيت على إبراهيم بن طلحة فما خطبك وما سر ذلك؟ إياك أن تكون مواليا له يا ابن طلحة! فاني لا أحب الموالين.

الحجاج : كلا يا أمير المؤمنين، إن ابن طلحة لرجل صدق وكرامة وإباء، ولا يمكن أن يبيع دينه لأحد، وليكن أمير المؤمنين من ذلك على ثقة تامة.

عبد الملك : إني لأعلم يا حجاج أنك لا تقول ما تقول جزافا.

الحجاج : أجل يا أمير المؤمنين، إني قدمت عليك برجل الحجاز

في الشرف والإباء وكمال المروءة والأدب، وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة، فافعل به يا أمير المؤمنين ما يستحقه مثله.

عبد الملك : سمعت يا إبراهيم بن طلحة ما قاله أبو محمد عنك؟ فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامته إلا سألتها مني فإنها مقضية.

إبراهيم : يا أمير المؤمنين إني لا أريد شيئا لنفسي، ولكن عندي نصيحة لك لا أجد بدا من أن أسرها إليك.

عبد الملك : أهي دون أبي محمد ؟

إبراهيم : نعم.

عبد الملك : قم يا أبا محمد ودعنا وحدنا.

الحجاج : سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين(يخرج في خجل وارتياب)

عبد الملك : هات الآن ما عندك، فليس عندنا غيرك.

إبراهيم : تالله يا أمير المؤمنين إنك عمدت إلى الحجاج في ظلمه وتعديه على الحق وإصغائه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأبناء المهاجرين و الأنصار، يسومهم الخسف ويؤذيهم بطغام أهل الشام ومن لا رأي له في إقامة الحق ولا إزاحة الباطل.

عبد الملك : أكذا تقول في أبي محمد ! أكذا تقول في أبي محمد !

كذبت يا ابن طلحة.(ينادي الحارس) أيها الحارس!

الحارس : لبيك يا أمير المؤمنين.

عبد الملك : اشدد يدك بهذا وأبقه عندك، ولا تدع أحدا يتصل به حتى أطلب منك.

الحارس : سمعا يا أمير المؤمنين.

عبد الملك : وقل للحجاج أن يدخل.

الحارس : سمعا يا أمير المؤمنين.

❀ ❀ ❀

— ٤ —

صالحة : ألم أقل لك يا إبراهيم ؟ هذه عاقبة تهورك.

إبراهيم : انتظري حتى تسمعي بقية القصة.

صالحة : هات.

إبراهيم : قمت من عند أمير المؤمنين وأنا لا أكاد أبصر طريقي. فأجلسني الحارس ناحية في الصحن، وقال لي: لا تتحرك من هنا بأمر أمير المؤمنين. ومضى إلى حيث يجلس الحجاج في الانتظار، فقال له: أجب أمير المؤمنين يا أبا محمد. فقام الحجاج من مكانه ونظر إلي في غضب وارتياب.

صالحة : يحق له ذلك، لا لوم عليه.

إبراهيم : ثم دخل عند عبد الملك فمكث طويلا وأنا أنتظر على أحر من الجمر، والهواجس والظنون تذهب بي كل مذهب، ولا أشك أنهما يتناجيان في شأني، فرأيت أن

أفوض أمري إلى الله، وأن أحتسب كل ما يصيبني من أذى في سبيل الحق، فلست أول من أوذي فيه، إلى أن عاد الحرس فأومأ لي أن أدخل عند أمير المؤمنين، فنهضت ودلفت نحو الباب ورجلاي لا تكاد أن تقلاني، وإذا الحجاج يلقاني في الصحن عند خروجه وإذا هو يعانقني ويقبل مابين عيني ويقول لي : أحسن الله جزاءك. فقلت في نفسي إنه يهزأ بي.

صالحة : هذا واضح لاشك فيه.

إبراهيم : انتظري يا صالحة.

صالحة : ماذا أنتظر بعد؟ إنه لن يكيد لك هنا في دمشق. بل سينتظر حتى تعود إلى الحجاز فيشفي غليله منك هناك.

إبراهيم : قلت لك: انتظري فستسمعين عجبا.

صالحة : هات أتمم قصتك.

إبراهيم : ودخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الأول فقلت في نفسي: هذه بادرة خير.

صالحة : الخوف عليك ليس من عبد الملك يا إبراهيم.

إبراهيم : ولا من الحجاج.

صالحة : أوقد غرك ما لقيك به من العناق والتقبيل.

إبراهيم : انتظري حتى تسمعي بقية القصة.

صالحة : بقية القصة هناك يا إبراهيم في الحجاز.

إبراهيم : فلن يعود هو إلى الحجاز.

صالحة : من؟ الحجاج!

إبراهيم : نعم.

صالحة : كيف ؟

إبراهيم : قد عزله عبد الملك عن ولاية الحرمين.

صالحة : استجابة لرأيك؟

إبراهيم : نعم.

صالحة : فويل لك منه إذن! ثم ويل! ثم ويل!

إبراهيم : يا هذه أقصري من ويلاتك، فلا مكان لها في رأسك ولسانك.

صالحة : سيضطغنها عليك الحجاج ما حييت، فإن لم تنلك يده في الحجاز فسينالك في أي مكان أخر.

إبراهيم : أبشري يا صالحة فلن تنالني يده إلا بكل خير، وسيحفظها يدا لي عنده ما حييت.

صالحة : والله ما فهمت من كلامك شيئا، أحملت أنت عليه عند عبد الملك أم أثنيت ؟

إبراهيم : ويلك قد حكيت لك كيف حملت علي، وأعلنت كلمة الحق فيه.

صالحة : ويحفظها لك الحجاج يدا عنده؟ ويحك ماذا تظن الحجاج؟ رجلا تعجبه كلمة الحق مثل أبي بكر أو عمر؟

إبراهيم : يا صالحة! لو صبرت قليلا حتى تسمعي بقية القصة لما اضطربت بك الظنون والأوهام كل هذا المضطرب.

صالحة : احك لي بقية القصة وأرحني.

إبراهيم : أين وقفت يا صالحة ؟

صالحة : عند ما دخلت على عبد الملك فأجلسك مجلسك الأول.

إبراهيم : أجل، فجعل يصعد النظر ويصوبه فيّ،ثم قال:

عبد الملك : خبرني يا ابن طلحة هل اطلع على نصحيتك هذه أحد؟

إبراهيم : لا والله يا أمير المؤمنين، ولا أردت إلا الله ورسوله والمسلمين، وأمير المؤمنين يعلم بذلك.

عبد الملك : أجل أعلم ذلك، وقد عزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهته فيه.

إبراهيم : جزاك الله عن المسلمين وعن أهل الحرمين خيرا يا أمير المؤمنين.

عبد الملك : ألم يخالطك يا ابن طلحة خوف من بطشه وكيده ؟

إبراهيم : بلى يا أمير المؤمنين. ولكني ذكرت الله ورسوله وعدل أمير المؤمنين فزايلني كل ما خالطني من خوف.

عبد الملك : فاعلم إذا أنني زعمت له أنك استقللت ولاية الحرمين عليه، وسألتني له ولاية أوسع وأكبر، فوليته العراقين إكراما لخاطرك.

إبراهيم : أحقا يا أمير المؤمنين.

عبد الملك : ليلزمه من حقك ما لا بد له من القيام به، فاخرج معه غير ذام لصحبته.

إبراهيم : حياك الله يا أمير المؤمنين، والله ما يفعل هذا غير عبد الملك.

صالحة : الآن فهمت يا إبراهيم.

إبراهيم : أدركت الآن أن كلمة الحق يجب تقال؟

صالحة : ومن لك كل يوم بحليم كمثل عبد الملك؟

إبراهيم : ويحك يا صالحة! من الذي ألهم عبد الملك ذلك ؟ أليس هو الله عز وجل؟

صالحة : بلى.

إبراهيم : فالله عز وجل -يا صالحة- موجود كل يوم.

— ستار —

❁ ❁ ❁

---

٧) كلمة حق: (في عزل الحجاج عن ولاية الحجاز) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٦٨)

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

(في بيت عبدالله بن عمر بن الخطاب بالمدينة ـ صفية زوجته يدخل عندها نافع مولى ابن عمر)

صفية : عدت من المسجد يا نافع؟

نافع : أجل يا سيدتي.

صفية : وحدك.

نافع : وحدي.

صفية : وأين...

نافع : مولاي عبدالله بن عمر؟

صفية : نعم.

نافع : في المسجد بعد.

صفية : ماذا يصنع بعد؟

نافع : أنت تعلمين حب زوجك للمسجد.

صفية : أتظنه قد نوى الاعتكاف اليوم؟

نافع : لا. لو قد نوى الاعتكاف لكلفني أن أخبرك.

صفية : فما الذي أعجلك؟ هلا بقيت حتى عدت معه؟

نافع : لعلكم تحتاجون إلى خدمتي.

صفية : عندنا من يقوم بالخدمة غيرك.

نافع : رميثة؟

صفية : رميثة وغير رميثة. عد إليه إن شئت.

نافع : لعل من حاجة فابلغها إليه؟

صفية : لا، ولكني أعلم أنك تحب المسجد مثله.

نافع : يا سيدتي إن الناس لم يدعوني وشأني.

صفية : ماذا تعني؟

نافع : صاروا يتغامزون علي.

صفية : يتغامزون؟

نافع : يقول بعضهم لبعض: إنما يلزم نافع المسجد ليخدع مولاه عبدالله ابن عمر فيحمله على عتقه.

صفية : لا حق لك يا نافع أن تخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

نافع : ماذا أصنع؟ كلما تذكرت قولهم هذا ضاق صدري وامتلأ قلبي غما حتى أرجع من المسجد.

صفية : خبرني يا نافع واصدقني هل تجد في نفسك مثل هذه الرغبة؟

نافع : لا والله.

صفية : فما شأنك وشأن الناس؟

نافع : إن الشيطان يا سيدتي كثيراً ما يتسلل إلى نفوسنا من خلال أقوال الناس وأفعالهم.

صفية : لعلك تخشى حقاً أن يعتقك عبدالله بن عمر.

نافع : بل هو الذي يخشى أن يعتقني فأذهب من عنده.

صفية : أجل، إن من أعجب الأمور أن تبقى عنده طول هذه المـــدة وهو يحبك ويعزك فلا يعتقك.

نافع : لو كان يعلم أنني لن أتركه أبدا لأعتقني مائة مرة.

صفية : أتحبه يا نافع؟

نافع : إي والله يا سيدتي إني لأحبه في الله كما يحبني هو في الله.

صفية : ورميثة؟

نافع : ما بالها؟

صفية : أحسبك تميل إليها.

نافع : معاذ الله يا سيدتي! هذه جارية مولاي.

صفية : في وسعنا أن نزوجها لك إذا رغبت.

نافع : أحقاً يا سيدتي؟

صفية : نعم.

نافع : لكن يا سيدتي...

صفية : لكن ماذا؟

نافع : لا أستطيع أن أقول لك.

صفية : ماذا تقصد؟ هل سمعت مولاك يذكرها بشيء.

نافع : لا يا سيدتي.

صفية : فماذا عندك؟ أفصح.

نافع : إني لا أرغب في الإحراج الآن.

صفية : ما يمنعك؟

نافع : لا أحب أن يكون لي أولاد غير أحرار.

صفية : تريد أن تتزوجها وأنت حر؟

نافع : وهي أيضاً حرة.

صفية : اسمع يا نافع. أما رميثة فأنا كفيلة لك بتحريرها ولكن عليك أنت أن تسعى إلى تحرير نفسك.

❁ ❁ ❁

— ٢ —

(صفية وهي تقوم بتزيين رميثة وتهيئتها)

صفية : وبعد يا رميثة؟ أتريدين أن تقطعي قلبي؟

رميثة : معاذ الله يا سيدتي. ماذا تريدين مني أن أفعل؟

صفية : لا تفعلي شيئاً. لا تتحركي يمنة ويسرة. أبقي ساكنة.

رميثة : لقد بقيت ساكنة حتى وجع عنقي.

صفية : وأنا كلت يداي في تزيينك وتمشيطك.

رميثة : لا أدري والله ماذا يحملك على ذلك.

صفية : ستعرفين كل شيء فيما بعد.

رميثة : إن كنت حسناء يا سيدتي فأنا في غنى عن هذا التمشيط والتزيين، وإن كنت غير ذلك فلن يغني عني شيئاً هذا الذي تصنعين.

رميثة : يا سيدتي إني والله لأشفق عليك من هذا الجهد المضني الذي تبذلين.

صفية : فأعينيني إذن على نفسك واكفيني بعض العناء.

رميثة : لو كنت أعلم يا سيدتي ما ترمين إليه.

صفية : ويلك أتشكين في حسن نيتي وسلامة قصدي.

رميثة : ربما ينالني ضرر من حيث لا تقصدين بي إلا النفع.
صفية : قاتل الله طول اللسان، أي ضرر تخافين؟
رميثة : إنك لا تجهلين ما أعني.
صفية : فأنا أسعى إلى إبعادك عن ذلك.
رميثة : كيف وأنت بعملك هذا تدنيني منه؟
صفية : ستعلمين غدا أنني بعملي هذا أقصيك مما تحذرين، وأقربك مما تحبين.
رميثة : تذكري يا سيدتي! أنك كنت تنهينني عن التزين والتعطر.
صفية : نعم.
رميثة : حتى لا يلتفت مولاي لشيء من محاسني فيتسراني.
صفية : هذا حق.
رميثة : وكنت تحسنين لي أن أطمع في زوج يكون من طبقتي وسني.
صفية : نعم، كنت أطمع في نافع أن يتزوجك.
رميثة : فما الذي غيرك اليوم يا سيدتي علي؟
صفية : كلا يا رميثة أنا لم أتغير عليك. أنا باقية كما كنت لك.
رميثة : إنك تعملين على لفت عين الشيخ إلي.
صفية : نعم.
رميثة : حتى يفتن بي ويقع في هواي.
صفية : نعم ولكن العاقبة ستكون غير ما تتوقعين.
رميثة : كيف؟

صفية : سيعتقك عبدالله بن عمر.

رميثة : يعتقني ثم يتزوجني.

صفية : كلا ما كنت لأسعى إلى ذلك يا غبية.

رميثة : ماذا يحمله على عتقي إذن؟

صفية : إذا أحبك ومال قلبه إليك فسيجد في عتقك حينئذ أفضل ما يتقرب به إلى الله لنفاستك عنده وتعلقه بك.

رميثة : أواثقة أنت يا سيدتي من ذلك؟

صفية : كثقتي من نفسي.

رميثة : ألا تخشين أن يعتقني ثم يتزوجني؟

صفية : ويلك! يخيل إلي أن هذا هو الذي تبتغين في قرارة نفسك.

رميثة : لا، والله يا سيدتي، بل هذا هو الذي أخشاه.

صفية : فعلام إذن تتفكرين فيه مرة بعد مرة؟

رميثة : عن خوف يا سيدتي لا عن طمع.

صفية : ألا تطمعين فيمن هو من سنك وطبقتك؟

رميثة : أما هذا يا سيدتي فلا بأس.

صفية : فهو ما أسعى إليه من أجلك.

رميثة : ما أكرم نفسك يا سيدتي وأطيب قلبك!

صفية : كلا،لا تبالغي في الثناء فإني لا أفعله من أجلك وحدك.

رميثة : من أجل من أيضا؟

صفية : من أجل نفسي إذ أبعدك عن زوجي.

رميثة : والله إني لأعجب من هؤلاء الرجال. كيف تكون لأحدهم زوجة جميلة مكملة مثلك فيمد عينه إلى امرأة أخرى.

صفية : هكذا هم منذ كانوا يا رميثة.
رميثة : فلا كانوا يا مولاتي... وإن كان ما يصنعون.
صفية : صه لا تسبيهم فإنا لا نصلح بغيرهم.
رميثة : وهم أيضاً يا مولاتي لا يصلحون بغيرنا.
صفية : إنهم بعد ليسوا سواء يا رميثة! وأشهد أن مولاك عبدالله بن عمر لمن أبر الأزواج وأكرم البعول.
رميثة : وأنا أشهد أن مولاتي صفية بنت أبي عبيد لمن أجمل نساء المدينة وأكملهن وأكرمهن وأعقلهن.
صفية : حسبك حسبك يا مداحة!
رميثة : لا، والله لو كنت تهتمين بالزينة والتطرية كغيرك لكنت أحلى الجميع وأجمل الجميع.

❋ ❋ ❋

— ٣ —

ابن عمر : رميثة.
رميثة : لبيك يا مولاي.
ابن عمر : ما هذا الذي صنعت بنفسك؟
رميثة : لا شيء يا مولاي.
ابن عمر : ما هذه الزينة كلها؟
رميثة : الحناء يا مولاي؟
ابن عمر : الحناء وغير الحناء
رميثة : هذه الحلة الجديدة؟ هذه من سيدتي صفية نزلت عنها.
ابن عمر : وهذا الذي صنعته بقرونك؟

رميثة : (ضاحكة) هذه التسريحة يا مولاي؟

ابن عمر: نعم.

رميثة : هي التي سوتها لي.

ابن عمر : ويلها! ماذا أرادت إلى ذلك.

رميثة : أرادت أن تصلحني.

ابن عمر : كلا هذا إفساد وليس بإصلاح.

رميثة : لكن نيتها طيبة يا مولاي.

ابن عمر : ما أدراك؟

رميثة : إنك لن تجد مثلها في برها وصلاحها ولا في جمال خلقها كذلك.

ابن عمر : اسكتي... أين هي؟

رميثة : ذهبت تعود جارتها يا مولاي.

ابن عمر : الجارة المريضة؟

رميثة : نعم، وأمرتني أن أحضر لك غداءك إذا شئت. هل أحضره لك الآن؟

ابن عمر : كلا، لن آكل وحدي.

رميثة : حتى تعود سيدتي صفية؟

ابن عمر : ويحك حتى يجيء من يؤاكلني من الضيفان.

رميثة : هذا نافع قد أقبل يا مولاي.

ابن عمر : نافع.

نافع : (يظهر) نعم يا سيدى.

ابن عمر : اذهب فالتمس بعض المساكين ليأكلوا معنا.

نافع : سمعاً يا سيدي. (يخرج).

❁ ❁ ❁

ابن عمر : تعالي يا صفية... لي حديث معك.

صفية : أعلم ماذا أنت قائل لي... استقللت الغداء.

ابن عمر : أجل لقد كان قليلاً اليوم.

صفية : ما كنت أظن أنك ستأتي بسبعة يؤاكلونك.

ابن عمر : لو قد زدته قليلاً لكان أفضل.

صفية : لقد زدت يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : لكن نافعا جاء بسبعة أفأطردهم؟

صفية : كلا يا أبا عبد الرحمن، ولكن لا تلمني.

ابن عمر : ليس هذا ما أردت أن أحادثك فيه على كل حال.

صفية : ففي أي شيء يا أبا عبد الرحمن؟ هات فإني مصغية.

ابن عمر : أريد أن أكلمك وحدك.

صفية : ما عندنا غير رميثة.

ابن عمر : لا أريدها أن تسمع.

صفية : هل لك يا رميثة أن تخلينا؟

رميثة : سمعاً يا سيدتي. معذرة ما كنت أعلم. هأنذي قد خرجت.

صفية : كسرت خاطرها يا أبا عبد الرحمن. لا حق لك. هذه جارية أمينة.

ابن عمر : أمينة أو غير أمينة. ففي أمرها أريد أن أكلمك ولا ينبغي أن تسمع.

صفية : اللهم أسمعني خيراً.

ابن عمر : خبريني يا بنت أبي عبيد..ما هذا الذي صنعت بجاريتك؟ ما كل هذه الزينة والتطرية؟

صفية : خبرني أنت أولاً يا أبا عبد الرحمن. أحامد أنت فعلـــي أم عاتب علي؟

ابن عمر : بل عاتب.

صفية : العتب الجميل.

ابن عمر : بل العتب الشديد.

صفية : فيم يا ابن عمر؟ جارية تحبنا ونحبهـــا مـــاذا علـــيّ إذا أصلحتها وهيأتها؟

ابن عمر : ولم كل هذا يا بنت أبي عبيد؟ فقد تركتها كأنها عـــروس مجلوة.

صفية : إنها ملك يمينك يا أبا عبد الرحمن فأردت بهذا أن تعجبك.

ابن عمر :ويحك ماذا تقولين؟ إني لأعلم فيك الغيرة يا صفية.

صفية :ذلك أجزل لمثوبتي يا عبدالله بن عمر عسى أن يكتبنـــي ربي فيمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

ابن عمر : ويحك إنك تعلمين أني عن ذلك لفي شغل.

صفية : ما أحسبك يا ابن عمر ترغب عن ثواب يسوقه الله إليك.

ابن عمر : أي ثواب تعنين؟

صفية :ثوابها لو تسريتها فصارت لك أم ولد. أليس عتق الرقاب من أفضل القربات إلى الله عز وجل؟

ابن عمر : بلى، والله لقد صدقت.

صفية : ثواب لك يا ابن عمر وثواب لي. أي شيء أفضل من هذا؟

ابن عمر : أما والله إنك لفقيهة.

صفية : لا غرو يا عبدالله بن عمر أن أقتبس شيئاً من علمك وفقهك.

❋ ❋ ❋

ـ ٥ ـ

صفية : يا أبا عبد الرحمن، ألا تمنحني سويعة من وقتك؟

ابن عمر : حباً وكرامةً يا صفية. ماذا عندك؟

صفية : أريد أن أكلمك في أمر نافع مولاك.

ابن عمر : ما باله؟

صفية : أراك تغيرت عليه شيئاً ما هذه الأيام.

ابن عمر : ويله، هل اشتكى إليك مني؟

صفية : لا، والله ما نبس لي بكلمة، ولكني أحسست أن بينكما شيئاً، لستَ كعادتك معه وليس كعادته معك.

ابن عمر : ما أشد فطنتك يا بنت أبي عبيد! والله إني أحب نافعا كما أحب ولدي من صلبي وهو يعلم ذلك مني.

صفية : ثم تعامله هذه المعاملة؟

ابن عمر : أنا والله ما أسأت إليه يا صفية.

صفية : فما الذي جرى بينكما.

ابن عمر : اسأليه هو.

صفية : أسأله وأنت عندي يا أبا عبد الرحمن أنت أولى بأن أسألك.

ابن عمر : بُصرت به ذات يوم يرائيني في المسجد.

صفية : يرائيك؟

ابن عمر : صار يقف قريباً مني في كل صلاة مكتوبة حتى إذا فرغ منها وقف أمامي يتنفل.

صفية : سبحان الله! وأي بأس في ذلك؟

ابن عمر : كما يفعل المراؤون يا صفية.

صفية : سبحان الله! ألا يحق له أن يصلي قريباً منك؟

ابن عمر : ما كان يفعل ذلك من قبل.

صفية : فهل سألته لتعرف ما عنده؟

ابن عمر : نعم.

صفية : فماذا قال لك؟

ابن عمر : قال لي قولة عظيمة منكرة فجعتني فيه.

صفية : ماذا قال؟

ابن عمر : قال لي: إنه فعل ذلك أسوة بموالي الآخرين الذين أعتقتهم.

صفية : مسكين! ظل زمناً يطمع أن تعتقه فلم تفعل فصنع ما صنع.

ابن عمر : وأنا والله لن أستجيب له بهذه الطريقة أبداً.

صفية : سبحان الله! وماذا يمنعك؟

ابن عمر : لا، والله لا أجعل رياءه هذه وسيلة إلى خير أبدا.

صفية : ألست كنت تقول: من خدعنا بالله انخدعنا له ؟

ابن عمر : بلى يا صفية.

صفية : فما عدا مما بدا.

ابن عمر : إن نافعًا ليس مثل أولئك يا صفية، إنه حقًا غلام صالح. إني لأزهى به وأحرص على صحبته.

صفية : فهلا كنت أعتقته من قبل ؟ إذن لما اضطر إلى ارتكاب هذا الفعل الذي أغضبك.

ابن عمر : ويحك يا صفية! إنك لتعلمين أني لا أستطيع أن أعتقه.

صفية : خشية أن يرحل عنك و يتركك ؟

ابن عمر : أجل وأنا لا أطيق فراقه ولا الصبر عنه.

صفية : ألا ترى يا ابن عمر أنك بفعلك هذا تؤثر حظ نفسك فيه على ثواب الله و فضله ؟ وليس هذا بدينك.

ابن عمر : كلا يا بنت أبي عبيد. إن حظ نفسي في هذا المولى الصالح لهو ذاته حظ الله فيه، فهو نعم العون لي على طاعته عز وجل، وهذا يعزيني عما يفوتني من ثواب الله في عتقه.

صفية : فكيف أعتقت مواليك الآخرين لمًا أظهروا لك النسك وأنت تعلم أنهم ليسوا خيراً منه؟

ابن عمر : إنه ليس مثلهم يا صفية.

صفية : أليس خيراً منهم وأفضل؟

ابن عمر : بلى، هو خير منهم ألف مرة.

صفيـــة : لهذا تعرض نافعا في السوق ليشتريه من يـــدفع مـــالا أكثر.

ابن عمر : كلا، من قال لك؟

صفيـــة : سمعته من غير واحد.

ابن عمر : هذا محض اختلاق.

صفيـــة : ألم يفاتحك عبدالله بن جعفر في شرائه منك ؟

ابن عمر : هذا أمر ليس بجديد. لقد كلمني منذ عامين فرفضت.

صفيـــة : ألم يعاود منذ جمعتين وعرض عليـــك خمـــسة آلاف دينار؟

ابن عمر : ويلهم من أين علموا بذلك وقد كان سرا بيني وبينه لم يشهده أحد؟

صفيـــة : لابد أن عبد الله بن جعفر قد تحدث به فشاع في الناس

ابن عمر : حسبهم الله! لكني رفضت هذا العرض كـــذلك، فكيـــف تحدثوا بالعرض وحده دون الرفض؟

صفيـــة : بل قالوا: إنك رفضت لأنك تطمع في مبلغ أكبر.

ابن عمر : (قاتلهم الله أنى يؤفكون)!

صفيـــة : وقالوا: إن عبدالله بن جعفر مصمم على ابتياعه منـــك بالثمن الذي يرضيك ولو بلغ عشرة آلاف دينار.

ابن عمر : كلا، لن أبيعه لعبدالله بن جعفر ولا لغيره بأي ثمن.

صفيـــة : ولا بعشرة آلاف دينار.

ابن عمر : ولا بأكثر من ذلك.

صفيـــة : لكن ألا ترى معي يا أبا عبـــدالرحمن أن عـــشرة آلاف

دينار مبلغ عظيم.

ابن عمر : هيه! ماذا تقصدين بقولك هذا... يا بنت أبي عبيد؟

صفيــة : لو استخرت الله لكان لنا من ذلك خير كبير.

ابن عمر : أتعنين ما تقولين يا بنت أبي عبيد ؟

صفيــة : نعم، تقضي ببعضه دينك، وتوسع ببعضه علــى أهلــك وعيالك، وتتصدق بالباقي على الفقراء والمحتاجين.

ابن عمر : ما كنت أنتظر منك هذا في نافع. كنت أحسبك تعــرفين مكانته عندي خيرا من ذلك.

صفيــة : والله ما أنصفتني يا ابن عمر! إني لأعرف فضله كمــا تعرف أنت فضله، ولكني أرى عجبا في أمــرك معـــه إذ تزعم أنك تحبه ثم تبخل عليه بعتقه وقد طلبه منك. ولــم تبخل على غيره من مواليك فأعتقتهم وهم دونه في كــل شيء.

ابن عمر : ويحك! إنك تعلمين أن ذلك راجع إلى حرصــي علــى الاحتفاظ بصحبته.

صفيــة : لقد أكد غير مرة أنه لن يترك صحبتك، وأنه سيكون لك بعد عتقه مثلما كان قبل عتقه.

ابن عمر : تذكري يا صفية أني لا أنكر عليك إذ كنت تندبينني إلى عتقه، ولكني أنكر أن تشيري عليّ ببيعه.

صفيــة : عسى أن يوفق عبدالله بن جعفر إلى عتقه فهــو رجــل كريم، فتكسب أنت هذا المال، وتشركه في ثواب العتق.

❁ ❁ ❁

- ٦ -

(يقرع الباب)

صفية : صه، هذا بابنا يقرع.

ابن جعفر : (صوته من الخارج) يا عبد الله بن عمر... يا عبدالله بن عمر!

ابن عمر : هذا صوت عبدالله بن جعفر. انسحبي أنت.

صفية : اسمع... لا تقبل منه أقل من عشرة آلاف دينار.(تنسحب)

(يفتح ابن عمر الباب)

ابن جعفر : السلام عليك يا ابن عمر.

ابن عمر : وعليك السلام ورحمة الله... هذا نافع معك يا ابن جعفر؟

ابن جعفر : أجل.

ابن عمر : أنت الذي جئت به أم هو الذي جاء بك؟

ابن جعفر : بل أنا الذي جئت به. التقطته من المسجد فأحضرته معي.

ابن عمر : مرحبا بك يا ابن عم رسول الله... اجلس.

ابن جعفر : ما هذا وقت جلوس يا ابن عمر... إنما جئت من أجل مولاك نافع عسى أن تكرمني في بيتك فتقبل بيعه لي.

ابن عمر : يا ابن عم رسول الله... قد قلت لك غير مرة: إني لـو كنت بائعه لأحد لبعته لك.

ابن جعفر : لا أريد أن أساومك فيه يا بن عمر، فخذ فيـه عـشرة آلاف دينار مباركا لك فيها.

ابن عمر : يا بن عم رسول الله... إنه بمنزلة ابني ولا أستطيع أن أبيعه أبدا لأحد.

ابن جعفر : إن كنت تحبه وتعزه يا ابن عمر فاعلم أني لا أبتغي من ورائه ربحا ولا منفعة. وأنا ألتمس رضوان الله في إكرامه والإحسان إليه.

ابن عمر : يا ابن عم رسول الله... هل لـك أن تخبرنـي كيـف تكرمه وتحسن إليه إذا ما اشتريته؟

ابن جعفر : لأعتقته لوجه الله يا ابن عمر.

ابن عمر : إذن فأنت أولى مني بمالك يا ابن جعفر، وأنا أولى منك بأن أعتقه. اشهد بأني قد أعتقت نافعا، فهو حر لوجه الله.

ابن جعفر : هذا والله ما كنت أبغي فالحمد لله رب العالمين... ائـذن لي لآن يا أخي.

ابن عمر : مصاحبا يا ابن عم رسول الله... شكر الله سعيك.

(يخرج ابن جعفر)

نافع : شكر الله لك يا أبا عبد الرحمن. ما أبرك وأكرمك!

ابن عمر : لله وحده الشكر يا نافع.

نافع : الشكر لله عز وجل، والفضل لك يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : (في صوت يخالطه البكاء) بل الفضل لابن عم رسول الله يا نافع.

نافع : ويحك يا سيدي إنك تبكي!

ابن عمر : إنما هي عبرة غلبتني يا نافع.

نافع : لعلك تخشى بعد يا سيدي أن أرحل عنك وأتركك.

ابن عمر : إي والله يا نافع!

نافع : اطمئن يا سيدي، فالله لا أعيش بعيدا عنك أبدا.

ابن عمر : أنت باق عندنا يا نافع ؟

نافع : إلى أن يفرق بيننا الموت.

صفية : (صوتها من الداخل) هل لنا أن ندخل الآن يا أبا عبد الرحمن ؟

ابن عمر : ادخلي يا صفية.

صفية : الحمد لله الذي وفقك للخير يا ابن عمر.

ابن عمر : أين رميثة ؟ ادعيها.

صفية : رميثة... رميثة.

رميثة : (صوتها) لبيك يا مولاتي. (تدخل)

ابن عمر : اسمعي يا رميثة. قد أعتقتك، فأنت حرة لوجه الله.

صفية : الحمد لله الذي وفقك للخير بعد الخير يا أبا عبد الرحمن. ألا تتم نعمتك على نافع و رميثة.

ابن عمر : تعنين الزواج؟

صفية : نعم تعينهما على ذلك.

ابن عمر : صدقت يا صفية وبررت. تزوجها يا نافع وعليّ أنا المهر.

صفية : وعلي أنا الشوار.

نافع : بوركتما من موليين كريمين!

ـ ستار ـ

❁ ❁ ❁

---

٨) لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون:(ابن عمر ومولاه نافع) نشرت في مجلة الفيصل، العدد(١٧١) بعنوان: (أنفقوا مما تحبون).

ليلة عرس

ـ ١ ـ

(في المنزل الذي نزل به الربيع بين خيثم وأهله بالبصرة)

ربيع : أراك اليوم غاضبة يا أم زينب، ما خطبك؟

الرباب : عد بنا إلى بلدنا في الحال يا ربيع.

ربيع : لكني لم أقض وطري من البصرة بعد.

الرباب : من البصرة أم من ميمونة؟

ربيع : ميمونة من؟

الرباب : كم عندك ميمونة؟ تلك التي ستكون زوجتك في الجنة.

ربيع : من أجلها إذن تريدين أن نبرح مدينة البصرة في الحال.

الرباب : أجل ما بقيت أطيقها ولا مدة يوم واحد.

ربيع : لقد كنت تحبينها أول ما نزلنا بها، وقلت: إنها مدينة ساحرة.

الرباب : ما كنت أعلم أن سحرها يخطف عقول الرجال حتى في المنام.

ربيع : يا هذه إنما هي بشارة إلهية. ليس فيها من حظوظ هذه الدنيا شيء فلا ينبغي أن تثير غيرتك.

الرباب : لكنك تريد أن تجعلها دنيوية.

ربيع : معاذ الله يا رباب.

الرباب : ألم تسأل عن ميمونتك هذه في كل مكان حتى ارتاب الناس في أمرك؟ فماذا أردت إلى ذلك.

ربيع : أردت أن أعرف أي امرأة هي حتى أرى مبلغ صدق الرؤيا التي رأيتها.

الرباب : ألم يخبروك أنها امرأة مجنونة فماذا تريد بعد؟

ربيع : أريد أن أعرف أي جنون هذا الذي يذكرون؟ فعسى أن تكون مجنونة بحب الله عز وجل.

الرباب : أنت الذي جننت بحبها اليوم، وتريد أن تلقاها لتجعلها مجنونة بحبك.

ربيع : سامحك الله يا رباب! ألمثلي تقولين مثل هذا القول؟

الرباب : أنت الذي أنطقتني بذلك.

ربيع : سامحك الله! بلغني يا رباب أنك سألت عن بيتها فدللت عليه فرأيتها فيه.

الرباب : نعم.

ربيع : فكيف وجدتها؟

الرباب : هذه لا يصح أن تكون في الجنة. هذه أقبح امرأة رأيتها في حياتي قط.

ربيع : فعلام إذن كل هذه الغيرة منها؟

الرباب : من قال لك: إني أغار منها؟ إنما أغار على سمعتك ومكانتك.

❃ ❃ ❃

— ٢ —

(في المرعى الذي ترعى ميمونة فيه غنمها)

ربيع : على رسلك يا راعية! خبريني هل تعرفين ميمونة؟

الراعية : ميمونة المجنونة؟

ربيع : أجل هكذا يسمونها.

الراعية : انظر! هي تلك التي تصلي هناك، فانتظر قليلاً حتى تسلم من صلاتها، ثم اذهب إليها إن شئت.

ربيع : ها هي ذي قد سلمت من صلاتها فلأذهب لأسلم عليها... السلام عليك يا ميمونة؟

ميمونة : وعليك السلام يا ربيع بن خيثم.

ربيع : عجباً كيف عرفت اسمي يا ميمونة؟

ميمونة : سبحان الله! وكيف عرفت أنت اسمي؟

ربيع : رأيت في المنام من يقول لي: إن في البصرة امرأة صالحة يقال لها: ميمونة تكون زوجتك يا ربيع في الجنة.

ميمونة : فالذي أخبرك بذلك يا ربيع هو الذي عرفني اسمك.

ربيع : وكيف عرفت أنني هو؟

ميمونة : من صورتك.

ربيع : رأيت صورتي في المنام؟

ميمونة : نعم، وعرفت كل شيء عنك... عرفت أن لك زوجة تغار مني تدعى الرباب، وأن لك ابنة تحبني تدعى زينب.

ربيع : ألم تزوجي أحداً من قبل يا ميمونة؟

ميمونة : لا يا ربيع ما تزوجت، ولن أتزوج غيرك إن شاء الله.

ربيع : هل تستطيعين أن تخبريني يا ميمونة بأي شيء استحققنا هذه البشارة من ربنا؟

ميمونة : إياك أن تغتر بهذا المنام يا ربيع! فتحسب نفسك من أهل الجنة على سبيل القطع فتتكل على ذلك فتكون من الهالكين. إنما هي بشارة، والجنة لا يستحقها إلا من تصدق فيه البشارة، فإذا غيرت أو بدلت تحولت البشارة عنك إلى غيرك.

ربيع : أحسنت إذ وعظتني، جزاك الله خيرا يا ميمونة.

ميمونة : وأنا أيضاً أنصح نفسي وأعظها بمثل ما وعظتك ونصحتك، فلا ينبغي لي أن أغتر بهذه البشارة كذلك. غير أن أمري يا ربيع أهون من أمرك.

ربيع : ماذا تعنين يا ميمونة؟

ميمونة : إن عمري لن يطول يا ربيع.

ربيع : أنى لك ذلك يا ميمونة؟

ميمونة : إني كنت أدعو الله ربي كل ليلة ألا يميتني إلا بين يدي الرجل الذي سيكون زوجي في الجنة إذا قدر لي أن أدخلها.

ربيع : قبل أن تعرفي أنني هو؟

ميمونة : بمدة طويلة، ومكثت على ذلك برهة إلى أن رأيت ذات ليلة كأني في السماء، فقيل لي: هل تحبين أن ترى زوجك في الجنة؟ قلت: نعم. فأشاروا إلى جهتك وكنت واقفاً أمام

حوض من المرمر، وقالوا: هذا هو، واسمه الربيع بن خيثم. ومنذ تلك الليلة جعلت دعائي: اللهم لا تمتني إلا بين يدي الربيع بن خيثم.

ربيع : لو كنت أعلم يا ميمونة ما جئت إليك.

ميمونة : فيم يا ربيع؟ إن الموت حق على كل حي، وإني لفي شوق إلى لقاء ربي اليوم قبل الغد، فإني لا أدري ماذا يأتي به الغد؟

ربيع : أليس الغد بيد الله يا ميمونة؟

ميمونة : بلى كل شيء بيده عز وجل.

ربيع : فالمحب يا ميمونة ينبغي ألا يخاف من حبيبه.

ميمونة : ويحك يا ربيع بن خيثم! إن المحب الصادق يخاف دائماً أن يهجره حبيبه، والذي لا يخاف لا يستطيع أن يحب.

ربيع : لعلك ضائقة الصدر بهذا العمل الشاق الذي تقومين به كل يوم، وتخرجين له إلى هذه البرية البعيدة من المدينة.

ميمونة : تعني ما أقوم به من رعي الغنم؟

ربيع : نعم.

ميمونة : كلا يا ربيع! في رعي الغنم أنس قلبي، وسرور نفسي، وقرة عيني. إنه مهنة النبيين والمرسلين، وحسُن أولئك رفيقا.

ربيع : وإذا وجدت من يكفيك هذه المؤونة لتفرغي لعبادة الله ربك فلا يشغلك شاغل، فهل تقبلين؟

ميمونة : ما خطبك يا ربيع؟ أتريد أن تجعلها دنيوية كما قالت لك امرأتك؟

ربيع : معاذ الله يا ميمونة.

ميمونة : الموعد يا صاحبي ليس ههنا. الموعد بيننا غدا في الدار الآخرة.

ربيع : أعلم ذلك يا ميمونة.

ميمونة : ماذا جعلك إذن تعرض النفقة علي؟

ربيع : كما ينفق الأخ على أخته يا ميمونة كما ينفق الزوج على زوجته.

ميمونة : عندي اقتراح أفضل من هذا، إذا قبلته كنت لك شاكرة.

ربيع : مريني بما تشائين يا ميمونة أطعك بغير تردد.

ميمونة : كلا يا ربيع، هو اقتراح وليس بأمر.

ربيع : فهو مقبول يا ميمونة.

ميمونة : قبل أن تعرف ما هو؟

: ابنتك زينب تعرف بيتي، فإذا صليت العشاء الليلة القابلة ليلة الجمعة، فتعال إلى بيتي، فسيتلقاك أخي عبد الرحمن الذي سأوكله ليزوجني منك، فإني أحب أن ألقى ربي وأنا متزوجة.

ربيع : حبا وكرامة يا ميمونة.

ميمونة : وتأتي معك بالرباب وزينب.

ربيع : امرأتي وبنتي؟

ميمونة : نعم.

ربيع : لكن يا ميمونة...

ميمونة : من أجلي يا ربيع... من أجل زوجتك في الجنة.

❀ ❀ ❀

— ٣ —

(في منزل ميمونة بالبصرة حيث تقام حفلة عرسها)

ميمونة : أهلاً وسهلاً بك يا رباب. جزاك الله خيراً يا أختي إذ حضرت ليلة عرسي.

الرباب : بل الفضل لك يا ميمونة. إذ أتحت لنا أن نشهد حفلة عرس في البصرة.

ميمونة : على قدرنا نحن المساكين يا رباب فاعذري وسامحي.

الرباب : إنها على كل حال أعظم مما كنا نتوقع.

ميمونة : وأهلاً بك يا زينب نورت بيتنا.

زينب : مبارك لك يا خالتي ميمونة.

ميمونة : شكراً لك يا بنتي... يا بنت ربيع بن خيثم.

الرباب : أو تعرفين اسم أبيها يا ميمونة؟

ميمونة : من ذا يجهل اسم هذا الرجل الصالح؟ كل أهل البصرة يعرفونه.

الرباب : وهذا الذي تتزوجينه الليلة يا ميمونة من يكون؟

ميمونة : ابن عم لي كنت مسماة له من قديم.

صوت : تعالي يا ميمونة لنكمل لك زينتك.

ميمونة : اعذريني يا أختي... لابد أن ألبي دعوة الماشطة.

الرباب : أسمعت يا زينب؟ أين هذا مما يهذي به أبوك؟

زينب : إنما ذاك في الجنة يا أماه.

الرباب : ويلك يا ابنة السوء! إن دخل أبوك... أليس لي أنا أن أدخلها معه؟

زينب : صه يا أماه، لا تدعي أحداً يسمعك.

الرباب : كلا، لا أحد يسمعنا. انظري إليها يا زينب كيف تخضبت وتمشطت، وتزينت وتعطرت كأنها ابنة دهقان؟ فأين ما يقولون من زهدها وصلاحها وتقواها؟

زينب : تذكّري يا أماه أن هذه ليلة عرسها.

الرباب : وأبوك الشيخ يتوهم أنها مجنونة بحب الله.

❊ ❊ ❊

— ٤ —

(في مجلس الرجال)

عبد الرحمن : يا ربيع بن خيثم! زوجتك أختي وموكلتي البكر ميمونة بنت أحمد الدهان بمهر قدره أربع أواق من الفضة على ما أمر الله به من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

ربيع : قبلت تزويجها بالمهر المذكور على الشرط المذكور.

أصوات : مبارك... مبارك! بارك الله لك فيها وبارك لها فيك!

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

(تضرب الدفوف ثم صوت ميمونة وهي تغني)

عجبا للمحب كيف ينام   كل نوم على المحب حرام؟

الرباب : اسمعي يا زينب! إنها هي التي تغني!

زينب : وأي شيء في ذلك؟

الرباب : ألا تستحيي؟ ألا تخجل؟ أي عروس هذه؟

النسوة : (يرددن على نغمات الدفوف).

عجبا للمحب كيف ينام   كل نوم على المحب حرام؟

❁ ❁ ❁

ـ ٦ ـ

ميمونة : انصرف الرجال يا عبد الرحمن.

عبدالرحمن : نعم يا ميمونة.

ميمونة : فادخل به الآن يا أخي عندي، ولتبق أنت معنا.

عبدالرحمن : أبقى معكما؟

ميمونة : طول الوقت.

عبدالرحمن : لكن يا أختي.

ميمونة : أطعني يا أخي. إنه زوجي في الدار الباقية لا في هـذه الدار الفانية!

ميمونة : كيف تراني الليلة يا ربيع؟

ربيع : جميلة يا ميمونة عليك نورانية وبهاء.

ميمونة : فسوف تراني هناك أحلى وأجمل وأبهى وأكمل إن شاء الله!

ربيع : إن شاء الله يا ميمونة.

ميمونة : هيا يا ربيع! أسمعني الآن شيئاً من كلام سيدي ومولاي فقد اشتاقت نفسي إليه.

ميمونة : إليه هو وإلى كلامه؟

ربيع : (يتلو بصوت خاشع بعد التعوذ) بسم الله الرحمن الرحيم. إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة. خافضة رافعة. إذا رجت الأرض رجا. وبست الجبال بسا. فكانت هباء.........).

ميمونة : (في حشرجة) أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله..

(تتهاوى على الأرض ميتة)

ـ ستـــــار ـ

❁ ❁ ❁

---

٩) ليلة عرس:(الربيع بن خيثم يرى في المنام أن العابدة ميمونة زوجته في الجنة فيعقد عليها فتموت ليلة العرس قبل أن يبني بها) !

من قدر الله إلى قدر الله

(في سرغ على مقربة من تبوك)

(الوقت: أول الليل بعد صلاة العشاء...يُرى عمر جالساً أمام خبائه وعنده يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، والعباس بن عبد المطلب، وعثمان، وطلحة، وسعيد بن زيد، وعبدالله بن عباس، وأبو طلحة الأنصاري).

شرحبيل : أجل يا أمير المؤمنين، كنا أهل الشام نرثي لأهل الجزيرة من عام الرمادة فإذا نحن ننكب بطاعون عمواس.

عمر : (يدعو مبتهلاً) اللهم كما رفعت عنا المحْل فارفع عنا هذا الداء، اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي عمر.

يزيد : لقد أحسنت يا أمير المؤمنين إذ عزمت على العودة بالناس إلى المدينة.

طلحة : لعلك يا يزيد قد خشيت على الشيخ أبي سفيان.

يزيد : لا والله يا أبا محمد... ما أبو سفيان بأعز من أمير المؤمنين و أصحاب رسول الله وبقية الناس؟ من للإسلام بعد هؤلاء؟

طلحة : ويلك يا ابن أبي سفيان! إن للإسلام رباً يحميه.

سعيد : وإن الذي أرسل هذا الداء لقادر أن يحمي منه عباده

الصالحين.

عمـــــر : على رسلكما.. والله لقد ذكرتماني بقولكما هذا ما قاله بنو إسرائيل لموسى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (المائدة: ٢٤)..إن من حماية الله للإسلام أن نجنب المسلمين هذا الموتان العام.

شرحبيل : والله لقد وصفته أصدق وصف يا أمير المؤمنين إذ جعلته كالموتان الذي يفشو في الماشية فلا يبقي منها ولا يذر.

عمـــــر : ليت شعري ما فعل الله بأبي عبيدة؟

يــزيــد : لعله الآن في طريقه إلينا يا أمير المؤمنين.

عمـــــر : لست أدري كيف لم تصادفاه في الطريق.

يــزيــد : لابد أنه سلك طريقاً غير الطريق الذي جئنا منه.

شرحبيل : متى فصل من عندك يا أمير المؤمنين؟

عمـــــر : اليوم عند الفجر.

شرحبيل : من المرحلة التي قبل سرغ؟

عمـــــر : نعم.

شرحبيل : فلن يتجاوز تبوك الليلة إلا قليلاً.. وسيلحقه رسولك يا أمير المؤمنين إن شاء الله.

يــزيــد : ما كان ينبغي لأبي عبيدة أن يتركك يا أمير المؤمنين إلا بعد أن نستقبلك من الشام.

عمـــــر : أنا الذي أشرت عليه بذلك. رحمته إذ طال غيابه عن

أهله فقلت له: اسبقنا إلى أهلك بحمص فاقض بينهم أياماً، ثم موعدنا الجابية.

أبو طلحة : (يدخل) أبشر يا أمير المؤمنين.. فقد رجع رسولك ومعه أبو عبيدة.

عمر : اللهم لك الحمد... الآن اطمأن قلبي. (يدخل أبو عبيدة).

أبو عبيدة : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

عمر : (يقوم له فيعانقه) وعليك السلام ورحمة الله.. بأبي أنت وأمي.. أين أدركك الرسول يا أبا عبيدة؟

أبو عبيدة : على مرحلة بعد تبوك يا أمير المؤمنين؟

عمر : الحمد لله.

أبو عبيدة : ما هذا الذي بلغني يا أمير المؤمنين؟ أحقاً أنك اعتزمت النكوص عن الشام؟

عمر : بل اعتزمت الرجوع بالمسلمين إلى المدينة.

أبو عبيدة : من أجل هذا الداء الذي ظهر بالشام؟

عمر : نعم، لا أريد أن أقدمهم عليه ولي مندوحة عنه.

أبو عبيدة : أفراراً من قدَر الله يا عمر؟

عمر : (يبهت قليلاً) ماذا تقول يا أبا عبيدة؟

أبو عبيدة : أقول: أفراراً من قدر الله؟

عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله.

أبو عبيدة : لو غيرك قالها يا ابن الخطاب! إن الله تبارك وتعالى

يقول: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ﴾ (التوبة: ٥١)

عمر : وإن الله تعالى يقول: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ۛ وَأَحۡسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ ﴾ (البقرة: ١٩٥)

أبو عبيدة : إنك لتعلم يا أمير المؤمنين أن الآية إنما نزلت في ترك الجهاد والإمساك عن النفقة فيه.

عمر : أجل نهانا الله عن ترك الجهاد لأن ذلك يفضي إلى التهلكة، فأحرى أن ينهانا عن الإلقاء بأيدينا إلى التهلكة ذاتها.

أبو عبيدة : الشام عندك هلكة؟

عمر : الطاعون بالشام، والطاعون هلكة.

أبو عبيدة : أين إذن اليقين بالله يا عمر؟

عمر : ويحك يا أبا عبيدة.. من تمام اليقين بالله أن تعرف سننه في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.. هذا الوباء مثله كمثل النار، ليس لنا أن نضع أصابعنا فيها ونقول: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

أبو عبيدة : كلا يا عمر! إن النار تحرق لا محالة، فأما الوباء فيصيب بعض الناس دون بعض، وإنما مثله كمثل القتال في سبيل الله يتعرض فيه المجاهدون للقتل، فمنهم من يقتل، ومنهم من يَسْلَم من القتل.

عمر : كلا يا أبا عبيدة! القتال فريضة كتبها الله علينا لننصر

الحق على الباطل وننقذ المستضعفين من ظلم ذوي الظلم. ولتكون كلمة الله هي العليا ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٧٤)

أبو عبيدة : أرأيت يا عمر.. لو فر رجل من الزحف أليس يفر من قدر الله إلى قدر الله؟

عمر : بلى.

أبو عبيدة : فهل يحل له ذلك؟

عمر : كلا.

أبو عبيدة : فعلام قلت آنفاً: نفر من قدر الله إلى قدر الله؟

عمر : ويحك يا أبا عبيدة ليس الفرار من الوباء كالفرار من الزحف. الفرار من الزحف إثم عظيم، لأنه فرار مما فرضه الله عليك، وليس لأنه فرار من قَدر الله فإن قدر الله، لا مفر منه ألبتة إلا إلى قَدره. أما الفرار من الوباء فمن التقوى التي أمرنا بها الله.

أبو عبيدة : أنيّ لك يا أمير المؤمنين أن ذلك من التقوى التي أمرنا بها الله؟ أعندك بها حجة من كتاب أو من سنة؟

عمر : لا يا أبا عبيدة ما عندي بها حجة من كتاب أو من سنة اللهم إلا الفهم ومعرفة الأشباه والأمثال وقياس الأمور... ولقد ظللت منذ الظهر أسأل أصحاب رسول الله ﷺ من

المهاجرين الأولين ثم من الأنصار فلم أجد عندهم شيئاً، واختلفوا في رأيهم أيما اختلاف، فرجعت إلى مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فوجدتهم على رأي واحد أن ارجعوا إلى المدينة فصدعت به.

أبوعبيدة : يا أمير المؤمنين إني لا أرى ذلك من الحكمة في شيء... ألا تخشى أن يأتي الروم أنك رجعت بمن معك من المسلمين من الشام خوفاً من طاعونها، فتسول لهم أنفسهم أن يقوموا بحملة جديدة كالحملة الأولى وأشد؟

عمر : كلا، لا خوف من ذلك، ولقد كتب لي المغيرة بن شعبة أول ما ظهر الطاعون في البصرة يتخوف من وثوب الفُرس بالمسلمين، ثم ما لبث أن كتب لي مرة أخرى يقول: إنه وجد الفُرس أشد خوفاً من الطاعون منهم من سيوف المسلمين. وإن الروم يا أبا عبيدة أحصف من أن يواجهوا سيوف المسلمين والطاعون معاً.

العباس :لكنهم سيتربصون حتى ينقشع الوباء، فيبادرون بالوثوب وقد مات من المسلمين خلق كثير.

عمر : إذن ليجدُنّنا إن شاء الله حيث يكرهون، فلا ينالون منا ما يطلبون.

عباس : ما إخال أبا عبيدة الآن إلا اقتنع برأيك يا أمير المؤمنين.

عمر : أحقاً يا أبا عبيدة؟

أبو عبيدة : لا والله يا أمير المؤمنين. هذا الفرار من قدر الله إلى قدر الله ما زال في نفسي شيء منه.

عمر : يا أبا عبيدة.. كيف بالله أبين ذلك لك؟ دعني أضرب لك مثلاً: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

أبو عبيدة : بلى يا أمير المؤمنين، ولكن شأننا مختلف، إنك قد خرجت بنا إلى العدوة الجدبة ابتغاء مرضاة الله وإرادة ما عنده. فلا ينبغي أن يصدك عنها مشقة تلقاها أو بلاء عرض لك.

عمر : يا أبا عبيدة قد شرح الله صدري لهذا الرأي فلن أعدل عنها أبداً إلا إن جئتنا ببرهان من كتاب أو سنة.

أبو عبيدة : يا عمر أنت أمير المؤمنين فاصدع بما شرح الله له صدرك، فإني وإن لم أكن على رأيك لسامع لك مطيع.

عمر : جزاك الله خيراً يا أمين هذه الأمة (ينادي:) يا عبدالله بن عباس.

ابن عباس : لبيك يا أمير المؤمنين.

عمر : اخرج فناد في الناس بأننا مرتحلون غداة غد، فليصبحوا جميعاً على ظهر.

ابن عباس : سمعاً يا أمير المؤمنين (يخرج).

عمر : انصرفوا إلى رحالكم، وانتظر أنت يا أبا عبيدة.
(ينصرف الجميع ما خلا أبا عبيدة).

أبو عبيدة : ائذن لي يا أمير المؤمنين أستأنف مسيري الليلة.

عمر : ماذا ترى يا أبا عبيدة لو رجعت معنا إلى المدينة وأرسلنا من يجيء بأهلك وعيالك من حمص؟
أبو عبيدة : وعملي يا أمير المؤمنين بالشام؟
عمر : سأعفيك منه وأوليه لغيرك.
أبو عبيدة : أسخطت مني شيئاً يا أمير المؤمنين.
عمر : معاذ الله، ولكن عرضت لي حاجة إليك بالمدينة.
أبو عبيدة : هل لك يا أمير المؤمنين أن تذكرها لي؟
عمر : إني قد عزمت أن أزور العراق، وأطوف بمدنه، وأتفقد أحوال الناس هنا، فأريد أن أستخلفك على المدينة.
أبو عبيدة : إنك تستخلف علي بن أبي طالب في كل مرة.
عمر : أريد أن أستصحب علياً معي في هذه الرحلة.
أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين لا تداورني فإني قد عرفت حاجتك.
عمر : أجبني إذن إليها يا أبا عبيدة، جزاك الله صالحة.
أبو عبيدة : إني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم.
عمر : لكني أنا يا أبا عبيدة لا أريد فراقك.
أبو عبيدة : ويحك يا ابن الخطاب! قد علمت أننا لسنا عليها بمخلدين.
عمر : إني أخشى أن يأتيني قضاء الله وأنت يا أبا عبيدة غير موجود.
أبو عبيدة : وأنا والله يا أمير المؤمنين لا أرغب أن أبقى بعدك. إن البقاء بعدك لمحنة ما لي بها يدان.

عمر : بلى يا أبا عبيدة إنك لجدير بها، فأنت أمين هذه الأمة.

أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين، أردت آنفاً أن تفر من قضاء الله وتريد الآن أيضاً أن تسبقه.

عمر : إن أسبق قضاء الله يا أبا عبيدة فإلى قضاء الله.

أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين نشدتك بالله إلا ما حللتني من عزمتك وتركتني في جندي، فلست أرى فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه.

عمر : كما تحب يا أبا عبيدة.

أبوعبيدة : وتأذن لي أن أسري الليلة فقد اشتقت إلى عيالي وأهلي؟

عمر : مصاحباً يا أبا عبيدة.

أبو عبيدة : جزاك الله من أخ صالح، لا تنسني من صالح دعائك يا عمر.

عمر : (تدمع عيناه) وأنت يا أخي لا تنسني كذلك عند ربك. (يخرج أبو عبيدة).

عمر : عند ربك! أقلت عند ربك؟ اللهم لا تجعل لساني يسبق قضاءك يا ويح أبي عبيدة.. أحقاً إني لن أرى وجهه ولن أسمع صوته إلا يوم يجمعنا الحشر؟ (يدخل ابن عباس).

عمر : ابن عباس، ناديت في الناس؟

ابن عباس : كما أمر أمير المؤمنين.

عمر : فماذا قالوا؟

ابن عباس : رضي الكثير يا أمير المؤمنين وتذمر القليل.(يدخل) عبد

الرحمن بن عوف.

عمر : (فرحاً) ادخل يا أبا محمد.

ابن عوف : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

عمر : وعليك السلام ورحمة الله أين كنت يا ابن عوف؟

ابن عوف : تخلفت يا أمير المؤمنين في بعض الطريق، عرجت على معارف لي من عهد الجاهلية فأخّروني عندهم.

عمر : ألم يبلغك ما حدث؟

ابن عوف : بلى يا أمير المؤمنين وعندي من هذا الذي اختلفتم فيه علم.

عمر : عندك منه علم؟ هات.

ابن عوف : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه".

عمر : الله أكبر! قد أيدنا الله بالبرهان الواضح. أدركوا أبا عبيدة وأرسلوا وراءه من يعود به.

ابن عباس : على رسلك يا أمير المؤمنين، أتريد أن تحول بينه وبين أهله؟ ليس له أن يدخل الشام إذا سمع هذا الحديث، وليس لأهله أن يخرجوا منها.

عمر : صدقت يا ابن عباس... لله درك يا فتى الكهول.. لك لسان سؤول وقلب عقول.. دعوه إذن يمضي إلى أهله، دعوا أبا عبيدة يمضي إلى أهله (ينشج باكيا) فقد غاب كثيراً عن أهله.

ابن عوف : أراك تبكي يا أمير المؤمنين.. أمن أجل أبي عبيدة ؟
عمر : أجل يا ابن عوف... لقد ألقي في روعي أنه يمضي بالأحرى إلى أجله.
ابن عوف : يا أمير المؤمنين {وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا}
ابن عباس : {وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأي أرض تموت }.
عمر : صدق الله العظيم.

ـ ستـــــــار ـ

❁ ❁ ❁

---

٣) من قدر الله إلى قدرالله: (طاعون عمواس وموقف عمر بن الخطاب والصحابة منه) نشرت في مجلة الأدب الإسلامي، العدد(٤) ١٤١٥هـ، والأصل بعنوان : القدر.

مولـــــد النـــــور

ـ ١ ـ

(في بيت آمنة بنت وهب. آمنة وجاريتها بَركة...أم أيمن)

بركة : كلا يا مولاتي... لن أدعك تباشرين اليوم أي عمل.

آمنة : ويحك يا بركة! دعيني أساعدك قليلا في عملك فإني بخير.

بركة : كلا كلا، لا حاجة بي إلى مساعدتك. عليك أن تستريحي فهذا آخر شهرك التاسع.

آمنة : لكني لا أجد أي ثقل و لا ألم، بل إني لأجدني اليوم أنشط مني في أي يوم مضى.

بركة : أما إن أمرك يا مولاتي لعجيب! أما زلت تسمعين صوت ذلك الهاتف؟

آمنة : كل ليلة يا بركة.

بركة : ماذا سمعته البارحة يقول؟

آمنة : سمعته يقول : يا آمنة بنت وهب إنك حملت سيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد.

بركة : ألا أدعو لك قتيلة بنت نوفل لعلها تستطيع أن تفسر لك هذا الأمر بما عندها من علم أخيها ورقة بن نوفل ؟

آمنة : كلا، ما بي إلى علمها ولا إلى علم أخيها حاجة.

بركة : إنها يا مولاتي حفية في السؤال عنك، لا تراني إلا سألتني عنك وعن حملك فماذا يضيرك لو دعوتها إليك ؟

آمنة : ألم تعلمي يا بركة أنها صاحبة عبد الله، وأنها تنفس هذا الحمل علي وترى أني سلبتها إياه. أنسيت قولها عني :

لله ما زهرية سلبت ثوبيَّ ما سلبت ولا تدري!

بركة : لكنها تحبك اليوم ولا تنفس عليك. إن سؤالها عنك لسؤال المحبة المخلصة.

آمنة : (تتنهّد) أيا ما يكن حالها فقد انقضى الذي بيننا منذ ذهب عبد الله إلى غير معاد !

بركة : واحسرتاه على مولاي عبد الله ! ويحه ما كان يخلص من محنة التضحية حتى غوضر في شبابه قبل أن يهنأ بشيء.

آمنة : ياليته عاش حتى يرى وليده هذا ولو سحابة يوم ! آه يا بركة! لولا هذا الصوت الذي يبشرني دائما ويعزيني، ولولا أني حريصة على أن يبقى لعبد الله عقب مني لكنت هلكت حزنا عليه.

بركة : أجل يا مولاتي، إن مصابك به لفوق كل مصاب.

آمنة : ولكن نساء قريش يلمنني على ما يرين من تجلدي وصبري، و يعددن ذلك سلوانا مني عن ذلك الذي يقلن عنه: إنه أجمل هاشمي درج على أرض البطحاء، وإن أية واحدة منهن لو فجعت به ما عاشت بعده يوماً. الله لهن!

إنهن لا يعلمن ما في قلبي ولا يدرين أمر هذه الهواتف التي درجت تبشرني في كل ليلة. ولو أني قلت لهن شيئا من ذلك لرمينني بالمس أوبالجنون.

بركة : (في اهتمام مفاجئ) مولاتي مولاتي.. هذه قتيلة مقبلة !

آمنة : قتيلة !

بركه : نعم.

آمنة : مرحباً بها.. أكرمي مقدمها يا بركة.

قتيلة : (تدخل) عمي صباحا يا آمنة !

آمنة : مرحبا بك يا قتيلة. لطالما بلّغتني بركة جميل سؤالك عني. لا عدمتك !

قتيلة : رعاك الله يا بنت وهب. ما وسعني اليوم إلا أن أجيء بنفسي لأراك، وأرى غلامك السعيد الميمون.

آمنة : ويحك يا بنت نوفل إنه مازال في غيب الله.

قتيلة : ستضعينه اليوم يا آمنة. لقد حدثني أخي ورقة أنه رأى البارحة ذلك النجم الأحمر الذي يظهر ليلة مولد ذلك النبي المنتظر، وقد بعثني لأستطلع.

آمنة : أو قد حدثك بذلك ؟

قتيلة :إي والله! وقد ظننت أنني سأجدك قد ولدته.

بركة : لكن مولاتي لا تشكو اليوم شيئا، ولا ندري متى يأتيها الطلق.

قتيلة : إن يكن هو الذي حملت به حقا فسيأتيها الطلق اليوم لا محالة، وإلا كان ذلك في بيت آخر.

بركة : كلا لن يكون ذلك في بيت آخر أبداً. إن مولاتي لتسمع الهواتف كل ليلة تبشرها بذلك.

آمنة : مه يا بركة!

قتيلة : الهواتف ؟ فيم يا آمنة تكتمين ذلك عني ؟ أو تظنين يا أختاه أنني ما زلت أجد عليك لأنك سلبتني هذا الشرف ؟ كلا، ورب الكعبة لقد اختارك الله وقضي الأمر. و إنك لأولى بذلك مني فأنت زوج عبد الله وهو بعلك، وما كنت إلا غريبة دعته إلى استبضاعها لتفوز دونك بالحظ الذي كتبه الله لك. فخبريني يا بنت وهب ماذا تقول لك الهواتف؟

آمنة : إنه هاتف واحد بذاته يا قتيلة، وقد قال لي أموراً كثيرة وعيت بعضها وعزب عني بعض.

بركة : حدثيها يا مولاتي بما قال لك البارحة.

قتيلة : أجل، ماذا قال لك البارحة يا آمنة؟

آمنة : قال لي: يا آمنة بنت وهب: إنك حملت سيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد.

قتيلة : فأبشري يا آمنة! إنه هو لا ريب.. هو النبي المنتظر. قد علمت أن عيني لم تكذبني ذلك اليوم إذ رأيت تلك الغرة المتوقدة كالكوكب الدري على جبين عبد الله فلما عاد إليّ من عندك التمستها فلم أجدها إذ انتقلت إلى أحشائك يا

آمنة، إنه هذا الجنين الذي في بطنك، وإنه سيخرج اليوم لا محالة.

آمنة : (تتأوه تأوها خفيفا) آه !

بركة : ما خطبك يا مولاتي ؟ أتشكين شيئا ؟

آمنة : لا شيء يا بركة إلا وجعاً يسيرا آنسته يدب في ظهري.

قتيلة : هَلُمّ القابلة يا بركة، فإني لا أحسن هذا الشأن ويا ليتني أحسنه !

بركة : ولا أنا يا أختاه.

قتيلة : انطلقي حالاً... انطلقي إلى الشفّاء فإنها أكرم قابلة في مكة. أتعرفين دارها ؟

بركة : نعم أعرف دارها... على أن تبقي أنت عند مولاتي ريثما أعود ؟

قتيلة : ويلك لن أريم مكاني هذا حتى أشهد الغلام الميمون.
(تخرج بركة منطلقة)

آمنة : قتيلة !

قتيلة : نعم يا آمنة.

آمنة : جزيت عني خيرًا... لقد والله آنستني وسريت عني.

قتيلة : بوركت يا بنت وهب. لئن فاتني أن أكون أمًا ما فاتني أن أكون أول عين تراه !

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

(في الحِجر عند الكعبة. يرى عبد المطلب جالسًا وحده يدخل المغيرة المخزومي، ووائل السهمي)

المغيرة : ذاك عبد المطلب جالسًا وحده... هلم يا وائل نجلس إليه.

وائل : ماذا نصنع عنده يا مغيرة إنه لم يزل محزونًا على ابنه عبد الله كأن لم يمت لأحد قبله ولد !

المغيرة : صدقت، دعنا نتنح بعيدًا عنه لنتحدث في شؤوننا. انظر: ذاك ابنه أبو طالب قد أقبل إليه !

وائل : دعه يواس أباه الشيخ ! (يبتعدان)

أبو طالب : عم صباحًا يا أبي... أنت هنا وحدك ؟

عبد المطلب : أجل يا بني.

أبو طالب : وتدمع عيناك ؟

عبد المطلب : ويلك هل يراني أحد من قريش ؟

أبو طالب : لا يا أبت إنهم بمعزل عنك. وهبهم رأوك فما شأنهم بك؟

عبد المطلب : كلا يا بني لا أحب أن يروا جزعي، فطالما لاموني في عبد الله. إنهم يا عبد العزى لقساة القلوب.

أبو طالب : وإنك في الحق لملوم بعض اللوم.

عبد المطلب : ويلك يا عبد العزى لا أرينك قاسيًا مثلهم.

أبو طالب : كلا ما بي من قسوة، بيد أن عبد الله أخي قد مضى ولن يعود وقد حال الحول على وفاته أو كاد، فإلام الحزن

والبكاء عليه ؟

عبد المطلب : ويحك يا بني إن حزني عليه ليتجدد في قلبي كل يوم.

أبو طالب : لئن ذهب عبد الله لقد بقي سائر ولدك وكلهم ساعد لك وعضد، ولن يقوم لك عبد الله بشيء لا نقوم به نحن لك.

عبد المطلب : آه يا عبد العزى! والله ما معونة عبد الله بالتي افتقدت، وإلا لكان لي فيكم عنه العوض. فما كان عبد الله بأقوى منكم ولا أنهض بالجلّى. ولكن لعبد الله عندي شأنًا ليس من شؤون هذا العيش الذي نغدو فيه ونروح.

أبو طالب : ماذا تعني يا أبي ؟

عبد المطلب : ماذا أشرح لك يا عبد العزى من أمور شهدتها أنت بعينك، وكنت جديرًا أن تفقهها بنفسك ؟ ألم تر كيف فُدي عبد الله بالإبل المائة ؟

أبو طالب : بلى.

عبد المطلب : ألم تر كيف تزوج آمنة بنت وهب ولم يقض إلا قليلا ؟

أبو طالب : بلى.

عبد المطلب : و كيف سافر السفرة التي سافرها فلم يعد منها ؟

أبو طالب : بلى.

عبد المطلب : فلأمر ما فُدي عبد الله ليعيش، ثم لأمر ما سافر بعد زواجه وشيكا ليموت ! دع عنك تلك الآية التي شهدناها منذ شهرين كيف رد الله عنا صاحب الفيل فأهلكه وجيشه بتلك الطير الأبابيل !

أبو طالب : صدقت يا أبت إن لهذا كله لشأناً، وإنه لحري أن يعزيك

عن كل هالك، وعسى أن تجيء آمنة بغلام يكون أحب إليك وأفضل لك من أبيه.

عبد المطلب : إي والله إن جاءت بغلام فلأسمينه محمدًا.. محمد بن عبد الله بن عبد المطلب!

أبو طالب : انظر! هذه بركة يا أبي... جارية آمنة !

عبد المطلب : بركة ! هلمي يا بركة ! ماذا وراءك ؟

بركة : أبشر يا سيدي! مولاتي آمنة جاءتك بغلام !

عبد المطلب : (هاتفا) اللهم لك الحمد يا رب الحمد !

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(في بيت آمنة)

أم العاص : أريني يا شفّاء أنظر إليه !

الشفاء : قد رأيته يا أم العاص فحسبك !

أم العاص : أشتهى أن أتملى برؤيته. يا له من غلام جميل لم ترعيني مثله قط !

قتيلة : (تتمتم) هذا هو ! هذا هو !

أم العاص : عجبًا لقد خرج نظيفاً كما يخرج السخل ما به من قذر !

قتيلة : هذا هو ! هذا هو !

الشفاء : تنحي عنه قليلا يا أم العاص.

أم العاص : انظري... إنه مكحول ثم انظري... إنه مختون !

قتيلة : هذا هو! هذا هو!

أم العاص : عجباً.. إنه شاخص ببصره إلى السماء.

قتيلة : هذا هو!

أم العاص : هو ماذا يا قتيلة ؟

قتيلة : النبي المنتظر.

المرأتان : النبي المنتظر ؟

قتيلة : نعم ألم تريا ذلك النور الذي خرج معه ؟

الشفاء : بلى لقد كاد يخطف بصري.

أم العاص : و أنا نظرت إلى السماء ساعتئذ فرأيتها قد أضاءت ما بين المشرق والمغرب.

الشفاء : آمنة! ما بالك صامتة يا آمنة؟ ألم تسمعي ما تقول قتيلة؟

آمنة : بلى قد سمعت.

الشفا :فما خطبك ؟ هل من وجع ؟

آمنة : كلا لا وجع البتة... أين بركة ؟

الشفاء : انطلقت لتبشر أباه.

آمنة : (في شيء من الأسى) أباه !

الشفاء : أجل، أباه عبد المطلب.

آمنة : حقًا إن عبد المطلب لأبوه ونعم الأب الكريم.

أم العاص : هاهو ذا قد أقبل.

عبد المطلب : (يدخل) كيف أنت يا آمنة ؟

آمنة : بخير يا عماه.

عبد المطلب : (في فرح) ابني! هذا ابني! يا بشراي بمحمد!

آمنة : محمد ؟

عبد المطلب : أجل قد سميته محمدًا يا آمنة.

آمنة : لكني أمرت أن أسميه أحمد.

عبد المطلب : الهاتف أمر بذلك.

آمنة : نعم.

عبد المطلب : فهو أحمد ومحمد: أحمد عند الله، ومحمد في الناس. هل لي أن أحمله يا شفّاء ؟

الشفاء : افعل يا أبا الحارث على أن ترفق به.

عبد المطلب : (يحمله) انظري يا آمنة إنه يحبني ويتعلق بي! والله لأحملنه الساعة إلى الكعبة فلأدعون له الله أن يجعله مباركًا.

الشفاء : ارفق به يا عبد المطلب.

عبد المطلب : ويحك يا شفاء إنه ابني وحبيبي وإنه لصاحب الشأن، لن تراعي يا آمنة.. سأعود به وشيكًا (يخرج).

قتيلة : عجبًا... إن عبد المطلب ليعلم أمره. لأنطلقن الساعة إلى أخي ورقة فليفرحن بالبشارة.

❁ ❁ ❁

— ٤ —

(في الحجر عند الكعبة، ورقة بن نوفل يسعى خلف عبد المطلب)

ورقة : مهلاً يا أبا الحارث يا عبد المطلب.

عبد المطلب : من ؟ (يلتفت) ورقة بن نوفل... هلم هنئني يا ورقة.

ورقة : (يدنو منه) أهنئك وحدك ؟ إني أهنئ جميع أهل الأرض!

عبد المطلب : بأي شيء يا ورقة ؟

ورقة : بهذا الغلام الذي تحمله.

عبد المطلب : إنه ابني يا ورقة.. ابن عبد الله... ابن آمنة بنت وهب.

ورقة : أجل، أرني يا أبا الحارث أنظر إليه.

عبد المطلب : انظر... ما أجمله! ما أروعه! ما أودعه!

ورقة : أجل إنه هو... والله ليكونن لابنك هذا شأن. إلى أين تمضي به يا أبا الحارث ؟

عبد المطلب : إلى جوف الكعبة... اسبقنا يا عبد العزى فافتح لنا باب الكعبة.

أبو طالب : حبًا يا أبت وكرامة (ينطلق نحو باب الكعبة).

ورقة : كلا يا أبا الحارث لا تفعل.

عبد المطلب : ويلك يا ابن نوفل أتربأ بالكعبة عن ابني؟

ورقة : كلا ياعبد المطلب بل أربأ بابنك هذا عما في جوفها من الأوثان.

عبد المطلب : دعني من هذا أيها الصابئ عن دين آبائك. والله لأدخلن به الكعبة فلأدعون الله له في جوفها.

ورقة : ادع الله له هنا في ظاهرها يا أبا الحارث.

عبد المطلب : والله لا أدعو له إلا في جوفها ! مابالك يا عبد العزى ؟ ما خطبك ؟

أبو طالب : أمر مهول يا أبت.

عبد المطلب : ماذا حدث ؟

أبو طالب : الأرباب يا أبت... الأرباب.

عبد المطلب : ما بالها ؟

أبو طالب : جاثية على وجوهها جميعًا في الأرض.

عبد المطلب : حتى هُبل ؟

أبو طالب : حتى هُبل!

عبد المطلب : وي ما سمعت كاليوم عجبًا!

أبو طالب : لا تعجب يا عبد المطلب. فهذا الذي تحمله هو عدوها جميعًا.

عبد المطلب : دعني من أساطيرك يا ابن نوفل. (لأبي طالب) اعدلها يا بني، أو اعدل هُبل وحده قبل أن ندخل.

أبو طالب : سأفعل يا أبي.

ورقة : يا ابن هاشم اسمع نصحي... لا ينبغي لك أن تدخل بهذا الغلام إلى حيث الأوثان.

عبد المطلب : مهلاً يا ورقة دعني وشأني.

أبو طالب : (يظهر على باب الكعبة) قد عدلته يا أبت.. عدلت هبل وحده.

عبد المطلب : أحسنت (يدنو من الباب) باسمك اللهم (يدخل جوف الكعبة). (يسمع صياح الغلام)

أبو طالب : (على الباب) إنه يا أبت يضطرب ويصيح.

عبد المطلب : (يسمع صوته) عجبًا قد كان هادئًا وديعًا فما الذي أبكاه هنا.

أبو طالب : لعل الآلهة لا تريده فهي تعتريه بسوء!

عبد المطلب : (صوته) لا تكن يا بني كورقة... إن الآلهة لا تريد

غيره... هو البركة وهو الآية وهو صاحب شأن.

أبو طالب : فاخرج به من هنا فإن كف عن بكائه علمنا أن الآلهة هي السبب.

عبد المطلب: (صوته) صدقت (يظهر خارجًا من جوف الكعبة) عجبًا لقد كف عن البكاء!

أبو طالب : انظر يا أبت.. إنه يضحك والدمع في عينيه!

ورقة : ألم أقل لك يا أبا الحارث؟

عبد المطلب: ويلك! أتظن أن الآلهة كانت تؤذيه؟

ورقة : كلا إنها لا تقدر أن تؤذي أحدًا ولا جناح بعوضة، ولكنه هو الذي يكرهها ولا يطيق الوجود بينها، و والله يا عبد المطلب، ورب هذه البنية ليبلغن أشده فليحطمن هذه الأصنام وليطهرن من رجسها الكعبة.

عبد المطلب: لكني أريد أن أدعو له الله في جوفها.

ورقة : نح هذه الأوثان إذًا قبل أن تدخل.

عبد المطلب: ويلك ماذا تقول إذًا قريش عني؟ صبأ عبد المطلب كما صبأ ورقة بن نوفل؟

ورقة : إذن فادع له الله هنا خارجها إذا شئت.

عبد المطلب : أجل.. سأفعل (في حنان وابتهال)

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

أعيذه بالبيت ذي الأركان من كل حاسد وشاني.

أبو طالب : انظر يا أبي إلى الغلام. إنه يبتسم متهللاً كأنه بدر! إنه يبتهل كأنما يدعو معك!

عبد المطلب : أجل ما أجمله! وما أروعه! بأبي وأمي يا بنيّ الحبيب!
ورقة : قد آن لكما أن تعيداه إلى حجر أمه.
عبد المطلب : أجل... لعلها مشفقة عليه، ولعله يريد أن يرضع. هيّا يا عبد العزى لنسلم على آمنة.
أبو طالب : اسبقني يا أبت وأنا آت على الأثر.
عبد المطلب : فيم يا بني؟
أبو طالب : ينبغي أن أنصب هذه الآلهة أولاً وأقيمها في أماكنها لئلا يراها أحد هكذا فيظن بنا الظنون.
عبد المطلب : أصبت يا بني. اسمع يا عبد العزى وأنت يا ابن نوفل إياكما أن تحدثا قريشاً بما وقع لهبل والآلهة الأخرى فلن تصدق قريش ذلك إلا أن تظن أننا نحن الذين فعلنا بها ذلك.
ورقة : أجل يا عبد المطلب علينا أن نكتم هذا السر من أجل سلامة الغلام.
عبد المطلب : جُزيت خيرًا يا ابن نوفل!
ورقة : عما قريب ترى قريش ما ترى، وتسمع قريش ما تسمع؛ فطوبى يومئذ لمن آمن به، و ويل يومئذ لمن عاند وكفر.
عبد المطلب : ويحك يا ورقة أو يكون لابني كل هذا الشأن.
ورقة : أجل كأني به يخرجه قومه من هذا البلد فلا يزداد أمره إلا علوًا وانتشارًا.
عبد المطلب : بأبي هو وأمي أو مخرجوه هم يا ورقة؟

ورقة : إي والله مثلما أنطق الساعة يا عبد المطلب، فلئن عشت حتى يدركني يومه لأنصره نصرًا مؤزرًا.

عبد المطلب : بوركت يا ورقة، لقد والله زدتني مسرّة على مسرّة بَيْد أنك جعلتني أشفق عليه من قريش.

ورقة : إنه ابن إسماعيل و دعوة إبراهيم، و إن رب إبراهيم وإسماعيل لكالئه وحافظه.

عبد المطلب : وقريش يا ورقة؟

ورقة : دعك من قريش! سيأتي على الناس يوم يا عبد المطلب تذهب فيه قريش، ولا يبقى لها من ذكر إلا أنها كانت يومًا ما عشيرة هذا الغلام.

ـ ستـــار ـ

❁ ❁ ❁

---

١٠) مولد النور:(مولد الرسول صلى الله عليه وسلم) نشرت في صحيفة «المسلمون»، العدد (١)، السنة (٣).

هكـــذا لقـــي الله..!

(عمر بن عبد العزيز على فراش مرضه وهو يجود بنفسه، وعنده زوجته فاطمة وأخوها مسلمة بن عبد الملك)

مسلمة : ألا تذكر يا أمير المؤمنين من أسقاك المريس ذلك اليوم؟

عمر : لا أذكر، إلا أني شربته فكأنما شربت الرصاص الذائب.

فاطمة : لا أحد يسقي أمير المؤمنين غيري وغير غُصين مولاه.

عمر : حاشاك يا فاطمة وحاشاه! إنه ليحبني وأحبه.

مسلمة : لعل أحدا دفعه إلى ذلك يا أمير المؤمنين.

عمر : لا تقل يا مسلمة ما ليس لك به علم.

مسلمة : لقد رابني وجوم الغلام من يومئذ.

فاطمة : أجل، لم يعد الغلام كما كان من قبل.

عمر : سبحان الله! إنه ليأسى لمرض مولاه. بالله عليكما لا يرين منكما أنكما تتهمانه!

مسلمة : كلا يا أمير المؤمنين، ما أريناه شيئاً من ذلك.

عمر : عسى أن يكون أحس بما يجول في قلوبكم، فركبه من جراء ذلك خوف! عليّ به يا فاطمة لعلي أزيل ما بقلبه.

(تخرج فاطمة)

عمر :إنه القدر يا مسلمة... هو الذي أسقاني ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

مسلمة : لولا كراهيتي أن أثقل عليك يا أمير المؤمنين لحاجتك.

عمر :لا تفعل، فأبغض شيء إليّ الجِجاج والمِراء.

فاطمة : (تعود) هو ذا غصين يا أمير المؤمنين.

عمر : ادخل يا غصين. هل لكما أن تتركاني وحدي مع غصن؟

مسلمة : حباً وكرمة يا أمير المؤمنين. (يخرج وفاطمة)

عمر : لن تراع يا غصين. هلم ادن مني. أو لا تسأل عن حالي؟

غصين : (في أسى ظاهر) كيف تجدك اليوم يا أمير المؤمنين؟

عمر : الحمد لله. أجدني اليوم أدنى إلى الآخرة مني إلى الدنيا.

غصين : (يطفر الدمع من عينيه) بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين!

عمر : ويحك! ماذا يبكيك يا غصين؟

غصين : لوددت لو أن الذي بك كان بي دونك!

عمر : إن لكل منا أجلا لا يعدوه، وإني لقادم على رب كريم، فجدير بمن يحبني ألا يشفق عليّ من خير. أو لا تحبني أنت يا غصين؟

غصين : بلى والله يا أمير المؤمنين.

عمر :فهل لك أن تحلني من كل إساءة ربما أسأتها إليك دون أن أعلم ؟

غصين : (ينشج باكيا) حنانيك يا أمير المؤمنين، أنا المسيء إليك وأنت المحسن المتفضل ! تبا لي... تبا لي أبد الدهر.

عمر : مهلاً، لا ينبغي أن تدعو على نفسك !

غصين : اقتلني يا أمير المؤمنين.. مرهم بقتلي فـإني أسـتحق القتل!

عمر : صه.. اخفض صوتك لا يسمعوك !

غصين :لا أبالي يا أمير المؤمنين إذا أنت غفـرت لـي كبيـر جرمي.

عمر : اخفض صوتك... اخفضه من أجلي !

غصين : (بصوت خافض) اغفر لي يا أمير المؤمنين... اغفـر لي.

عمر : الله وحده ولي المغفرة، ولكني مسامحك ومُحِللـك مـن حقي إذا أنت صدقت الحديث.

غصين : إي والله يا أمير المؤمنين لأصدقنك القول، ولا أخفـي عنك شيئاً.

عمر : اخفض صوتك !

غصين : (يخفض صوته) أنا الشقي للأبد! قد دسست لك السم في ذلك المريس.

عمر : قد علمت يا غصين يوم أسقيته لي.

غصين : علمت ذلك فلم تكلمني إلا اليوم ؟

عمر : وما كنت لأكلمك لولا محبتي لك وإشفاقي عليـك مـن عذاب الله يوم القيامة.

غصين : وما ينجيني من ذلك يا أمير المؤمنين وقد استوجبته بما فعلت؟

عمر : رجوت بعدُ يا غصين أن تندم وتستغفر، عسى أن يتوب الله عليك.

غصين : ولهذا كلمتني ؟

عمر : نعم، فخبرني ما حملك على ما فعلت؟

غصين : الشقوة التي غلبت عليّ... الطمع يا أمير المؤمنين!

عمر : أعطيت شيئاً على ذلك؟

غصين : نعم، لأخبرنك بالذي أعطاني.

عمر : كلا لا تفعل، ولكن خبرني كم أعطاك؟

غصين : ألف دينار يا أمير المؤمنين.

عمر : وقبضتها؟

غصين : لا يا أمير المؤمنين حتى...حتى....

عمر : حتى أقضي نحبي ؟

غصين : أجل، واشقوتاه !

عمر : ويحك إن مت فلن يعطوها لك، وعسى أن يقتلوك لكيلا تفشي سرهم. فهل لك يا غصين في خير من ذلك أن تنجو من عذاب الدنيا وسوء عذاب الآخرة.

غصين : كيف يا أمير المؤمنين؟ أرشدني.

عمر : تمضي الساعة إلى صاحبك فتقتضيها منه، ثم تعود بها حالا إلي.

غصين : ما أخاله يرضى يا أمير المؤمنين.

عمر : قل له: إنك ستخبرني باسمه إن لم يفعل! فإنه سيخاف ويعطيك. انطلق.

غصين : سمعا يا أمير المؤمنين، يا أكرم الناس! (يهم بالخروج)

عمر : رويدك يا غصين. امسح الدمع عن عينك، وإياك أن تخبر أحدا، فهذا سر بيني وبينك.

غصين : (يمسح الدمع عن عينيه) واشقوتاه!

عمر : إذا سألك أحد فقل: إني بعثتك في مهمة. انطلق الآن.

(يخرج غصن)

عمر : (يتمتم) اللهم اغفر لعبدك غصين!

(يدخل مسلمة وفاطمة)

مسلمة : بعثت الغلام في مهمة يا أمير المؤمنين ؟

عمر : نعم، ذكرت وديعة عند صاحب لي فبعثته في طلبها منه.

فاطمة وديعة !

عمر : هلمي يا فاطمة فقد آن لي أن أفضي إليك بشيء طالما حاك في صدري.

مسلمة :(يهم بالخروج) هل لي يا أمير المؤمنين أن أدعك وأهلك؟

عمر : بل تبقي يا أخي، إنها أختك، ومن الخير أن تشهد. أصغي إلي يا فاطمة.

فاطمة : نفسي فداؤك يا أمير المؤمنين !

عمر : أتذكرين حليك وجواهرك التي أودعناها في بيت المال ؟

فاطمة : قد طابت نفسي عنها يا أمير المؤمنين، فما بالها ؟

عمر : إنها لم تزل بحالها، وعليها اسمك، لم يستهلكها بيت المال بعد. وإني لأعلم أن الذي يأتي بعدي لن يصرفها في حقها. فإن تكن نفسك فيها فأنت بها أولى.

مسلمة : أجل، هي حقك يا فاطمة وأنت بها أولى.

فاطمة : إذا أذنت يا أمير المؤمنين فإني سآخذها وأتصدق بها على الأيامى واليتامى.

عمر : بخ بخ يا فاطمة! أما والله ليعزيني عن باطل الدنيا أن من أهلي وولدي من أرجو أن يشفع لي يوم القيامة بصلاحه وتقواه.

فاطمة : بل أنت شفيعنا جميعا يا أبا عبد الملك !

عمر : كلا يا فاطمة! لأنت في زهدك فيما تطلبه قلوب النساء من الزينة والمتاع أتقى لله مني. وكذلك ابني عبد الملك – يرحمه الله– إذ اتقى الله وهو في ريعان صباه !

مسلمة : والله ما صلح هؤلاء يا أمير المؤمنين إلا بصلاحك.

عمر :(يعرض عن مسلمة إلى فاطمة) ولي حاجة أخرى يا فاطمة !

فاطمة : ما هي يا أمير المؤمنين ؟

عمر : إن الخلافة قد شغلتني زمنا عنك وعن القيام بحقك، فهل لك أن تجعليني في حل ؟

فاطمة : (تبكي) ويحك يا أبا عبد الملك! أفي هذا تكلمني؟ إني لأرجو بذلك ثواب الله والدار الآخرة. ولئن شغلت عني بأمر المسلمين لطالما عنيت بي يا عمر في أيامنا الأول !

عمر : أجل. وددت لو بقينا يا فاطمة كما كنا، ولم يطوقني بها أخوك سليمان!

مسلمة : يا أمير المؤمنين! والله ما أعرف لأخي سليمان من عمل أرجى له عند الله من ذلك. لقد والله أرضيت الله وأرضيت المسلمين عنا، وبيضت وجوهنا آل مروان!

عمر : ويحك يا مسلمة إنما ذلك يوم القيامة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وما أرى آل مروان إلا ساخطين علي.

مسلمة : لئن ضاقوا ببعض شدتك عليهم إنهم بعدُ ليفخرون بك.

عمر : بأمر الجاهلية الجهلاء! أما والله لأكونن حجة عليهم يوم القيامة !

مسلمة : صدقت، إن شئت يا أمير المؤمنين اقتصصت لك من غريمك فيهم ولو كان...

عمر : على رسلك يا مسلمة لا تداورني ويلك! إنه لا غريم لي فيهم ولا في غيرهم. أتريد إغضابي؟

مسلمة : معاذ الله يا أمير المؤمنين! ما أبتغي غير رضاك.

فاطمة : سامح أخي يا أمير المؤمنين، فإنه ليحبك.

عمر : وإني لأحبه يا فاطمة، وأقدر جهاده في سبيل الله وحسن بلائه.

(يقرع غصين الباب مستأذناً)

مسلمة : هذا غصين يا أمير المؤمنين.

عمر : ادخل يا غصين.

(يدخل غصين حاملا صرة كبيرة)

عمر : أتيت بالوديعة يا غصين ؟

غصين : نعم يا أمير المؤمنين.

عمر : أشتهي أن أسارّه مرة أخرى فهل لكما...

مسلمة : حباً يا أمير المؤمنين (يخرج وفاطمة)

عمر : هلم ادن مني واخفض صوتك. أهذا ألف الدينار ؟

غصين : نعم يا أمير المؤمنين.

عمر : وددت يا غصين لو أدع هذه اللعاعة لك لولا خشيتي أن تلتهب عليك نارا يوم القيامة. فهل لك في خير من ذلك؟ أن أعيدها إلى بيت مال المسلمين!

غصين : افعل ما ترى يا أمير المؤمنين. إني والله ما أريدها، وما في الدنيا والله أبغض إلى نفسي منها.

عمر : بوركت يا غصين. ما أرى إلا أن الله قد شاء أن يتوب عليك. امض الآن فأنت حر لوجه الله.

غصين : (يبكي) أوَ تعتقني يا أمير المؤمنين؟

عمر : نعم، اذهب حيث شئت... حيث لا يعرفك أحد.

غصين : ألا أبقى يا أمير المؤمنين في جوارك وخدمتك!

عمر : ويحك يا غصين، ما تخدم من رجل محتضر، إن أُمسى فلن يصبح، وإن أصبح فلن يمسي.

غصين : بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين.

عمر : انطلق ويلك! لا تقم بين هؤلاء فيقتلونك.

(يدخل مسلمة)

مسلمة : معذرة يا أمير المؤمنين... لا ينبغي أن ينجو هذا الغلام من عقوبة ما اجترم.

(يأخذ بأذن الغلام)

عمر : (غاضبا) ويلك يا ابن عبد الملك، أوَ قد تسقطت نجواي؟

مسلمة : لا والذي نفسي بيده يا أمير المؤمنين، ولكن طرق سمعنا صوتك وصوته.

فاطمة : (تدخل) أجل يا أمير المؤمنين. لقد صدق مسلمة !

عمر : فلتكتما إذن ما سمعتما، فإني قد سامحته وعفوت عنه. خلّ عنه يا مسلمة فقد أعتقته لوجه الله.

مسلمة : لا والله يا أمير المؤمنين، لا يكون جزاء العبد الغادر أن يعتق لوجه الله. لابد من أخذه بجريرته.

عمر : (في لين) ويحك يا مسلمة! إن أخذت الغلام بجريرته، فليحقنّ عليك أن تأخذ الآخرين بجريرتهم كذلك، فلتكونن في بني أبيك فتنة لا يعلم عاقبتها إلا الله.

مسلمة : لا بأس، فليكن وقودها من يكون!

عمر : (متوسلا) أناشدك الله يا ابن عمي ألا تعصي أمري في آخر يوم في هذه الحياة الدنيا! كلمي أخاك يا فاطمة !

فاطمة : أطع أمير المؤمنين يا مسلمة، فإنه لينظر بنور الله. وما يكون لنا أن نُسخطه وهو على هذه الحال!

مسلمة : (يرسل الغلام من قبضته) لأمير المؤمنين منا ما يحب !

فاطمة : حوّل وجهك عنا يا غصين... اذهب لا بارك الله فيك !

عمر : بل غفر الله له وبارك فيه! امض يا غصين واستغفر الله لي ولك !

(يجهش غصين هنيهة، ثم يخرج)

عمر : (يئن متوجعا) وارأساه! وارأساه! (يتهاوى على فراشه مغشيا عليه)

فاطمة : وي! قد غشي عليه يا مسلمة.

مسلمة : تجلدي يا أختاه... إنما هي غشية ويفيق!

عمر : (يفتح عينيه كالمذعور ويهم أن ينهض فلا يستطيع) مسلمة! مسلمة!

مسلمة : لبيك يا أمير المؤمنين !

عمر : أين الصرة التي جاء بها غصين ؟

مسلمة : هي ذي يا أمير المؤمنين بين يديك.

عمر : إنها ليست لي يا مسلمة، إنها لبيت المال... أوصيك أن تحملها إلى بيت المال.

مسلمة : سأفعل يا أمير المؤمنين.

عمر : جزاك الله عني خيرا يا ابن العم... وأنت يا فاطمة؟

فاطمة : (متجلدة) نعم يا أمير المؤمنين.

عمر : هل لك أن تحليني من كل حق لك علي؟

فاطمة : (تبكي) قد فعلت يا أمير المؤمنين!

عمر : جزاك الله عني خيرا من زوج صالحة، أستودعك الله يافاطمة !

(يشخص ببصره إلى أعلى) اللهم رضّني بقضائك، وبارك

في قدرك، حتى لا أحب لما عجلت تأخيراً، ولا لما أخرت تعجيلا.. (يتهلل وجهه بالبشر فجأة) مرحباً مرحبا بكرام طيبين !

فاطمة : بمن يا أمير المؤمنين ؟

عمر : بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان !

فاطمة : نفسي فداؤك يا عمر!

عمر : (كأنه لا يعي شيئاً مما حوله) تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين. أشهد ألا إله إلا الله، و أشهد أن محمدا عبده ورسوله.

عمر : (يصحو صحوة) غصين! أين غصين ؟

مسلمة : (متجلدا) قد مضى لسبيله يا أمير المؤمنين.

عمر : (بصوت ضعيف) الحمد لله! (يتحشرج) اللهم اغفر... لعبدك غصين.. واغفر.. لعبدك.. عمر.. مع عبدك.. غصين !

(يسلم الروح)

ـ ستار ـ

❁ ❁ ❁

* هكذا لقي الله: (وفاة عمر بن عبد العزيز) نشرت في «المسلمون»، العدد(٤٦)، السنة(٣).

هـــلك المتنطعـــون..!

(في بيت سلمان الفارسي الصحابي الجليل، ترى أميمة زوجة سلمان وعندها أم الدرداء، وهما في حديث...)

أميمة : أما والله كنت فيما مضى من أملح نساء الأنصار، وأجملهن شَعرا، وأفضلهن زينة وتطرية.

أم الدرداء : ذلك عهد مضى يا أم عبدالله، وقد اختلف الحال اليوم.

أميمة : فيم يا أم الدرداء ؟

أم الدرداء : كان أبو الدرداء تاجرا من قبل، فأصبح اليوم وقد لزم العبادة وترك التجارة.

أميمة : ما كان أبو الدرداء موفقا في ذلك.

أم الدرداء : إنه يزعم أنهما لا يجتمعان: العبادة والتجارة.

أميمة : ماذا يمنع ؟ هذا سلمان مازال حتى اليوم ينسج الخوص ويأكل من كسب يده، ويرى ذلك من أفضل العمل.

أم الدرداء : يا أم عبدالله، ألا تعلمين أن زوجي شيء آخر ؟ إنه رجل لا يشغله شيء عن شيء.

أميمة : لا ينبغي يا أم الدرداء أن تحذي حذو زوجك فتنسي ما ينبغي للمرأة المتزوجة من زينة.

أم الدرداء : لمن ينبغي على المرأة المتزوجة أن تتزين؟ أليس لزوجها؟

أميمة : بلى.

أم الدرداء : فزوجي أصبح لا يعنيه اليوم من زينتي شيء، صار سواء عنده اليوم أن أتزين وأن أتكحل، أو لا أتكحل، وأن أصلح شعري أو لا أصلحه، فلمن تريدين أن أتزين؟

أميمة : معاذ الله يا أم الدرداء، كيف تقولين هذا ؟

أم الدرداء : ماذا أصنع لك ؟ أبيت إلا أن تحاوريني حتى أعلنت لك.

أميمة : نعم ما فعلت يا خيرة. قد كان ينبغي عليك أن تصارحيني بهذا الذي تجدين في نفسك من أول الأمر.

أم الدرداء : ما خير ذلك يا أختي إلا أن ألقي همي على همك.

أميمة : لعلي أستطيع أن أصنع لك شيئا.

أم الدرداء : ماذا بوسعك أن تصنعي لي ؟ تهدين لي ثوبا آخر من ثيابك ؟

أميمة : إذا شئت يا أم الدرداء فإن عندي ما تحبين.

أم الدرداء : كلا يا أم عبدالله، احتفظي بثوبك خيرا لك. أتدرين ماذا صنع زوجي بذلك الثوب الذي أهديته لي ؟

أميمة : ماذا صنع به؟

أم الدرداء : ما أن رآه ذات يوم حتى أمرني أن أخلعه وأتصدق به على إحدى فقيرات أهله.

أميمة : غفر الله لأبي الدرداء! والله لأكلمن سلمان في شأنه لينصحه.

أم الدرداء : كلا. إياك أن تفعلي يا أم عبدالله.

أميمة : أي بأس في ذلك؟

أم الدرداء : هذا سر بيني وبين زوجي لا ينبغي أن يعلم أني بحت به لأحد.

أميمة : لن يعلم زوجك شيئا. إن سلمان كما تعلمين كيّس لبِق.

أم الدرداء : كلا يا أختي، إني بعد لأستحيي من بعلك أكثر مما أستحيي من بعلي.

أميمة : سلمان أخ لزوجك فهو بمنزلة أخيك!

أم الدرداء : حتى أخي ابن أبي وأمي أستحيي منه في مثل هذا الشأن.

أميمة : فاعلمي إذن أن سلمان قد عرف هذا السر الذي تكتمين.

أم الدرداء : ويلك ممن عرفه ؟

أميمة : منك أنت.

أم الدرداء : ماذا تقولين ؟

أميمة : إنه زاركم ذات يوم فأنكر هيئتك، فسألك، فقلت له : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ؟

أم الدرداء : يا هنتاه! حقا قلت ذلك، ولكني ما قصدت هذا المعنى، وإنما قلت ما قلته اعتذارا له كراهية أن يكلف نفسه فيهدي لنا ثوبا من عنده.

أميمة : مهما يكن من قصدك فقد فطن سلمان لحقيقة ما بك، وإنه لكيّس فطِن. إني والله لربما أكتم عنه الشيء فيكشفه لي كأنما يقرأ من كتاب.

أم الدرداء : واحياءاه! واخجلتاه!

أميمة : هوني عليك فإن هو إلا أخ أمين.

❋ ❋ ❋

— ٢ —

(في بيت أبي الدرداء. حجرة تشبه الحجرة السابقة إلا أنها أكثر تواضعا منها)

أبو الدرداء : (يستقبل سلمان الفارسي) مرحبا بك يا أبا عبد الله، يا سابق فارس.

سلمان : (فرحا) سابق فارس. بأبي هو وأمي إذ لقبني بذلك.

أبو الدرداء : صلى الله عليه وسلم.

سلمان : لقد حضرت أنا وأهلي يا أبا الدرداء.

أبو الدرداء : مرحبا بأهلك يا أبا عبدالله.

سلمان : سنتغدى ونتعشى عندكم.

أبو الدرداء : على الرحب والسعة يا أخي، أين هي امرأتك ؟

سلمان : قد سبقتني إليكم... داخل الدار عند أهلك.

أبو الدرداء : عجبا والله ما علمت!

سلمان : وأنى لك أن تعلم وأنت مشغول يومك كله عن أهلك. وعسى أن تكون مشغولا عنهم ليلك كله كذلك.

أبو الدرداء : ويل بنت أبي حدرد. كان عليها أن تخبرني. (ينادي) أم الدرداء... يا أم الدرداء.

أم الدرداء : (صوتها) لبيك أبا الدرداء.

أبو الدرداء : هذا سلمان أخي عندي.

أم الدرداء : مرحبا به وأهلا، وهذه امرأة أخيك سلمان عندي.

أبو الدرداء : مرحبا بها وأهلا، اصنعي لهما شيئا فإنهما سيتغديان عندنا.

أم الدرداء : وسيتعشيان أيضا.

أبو الدرداء : أجل، أجل، هيئي لهما ما عندك.

أم الدرداء : قد هيأت كل شيء.

أبو الدرداء : أحسنت يا خيرة، أحسن الله إليك.

❁ ❁ ❁

— ٣ —

أبو الدرداء : هلم يا أبا عبدالله فها قد أحضرت أم الدرداء الغداء.

سلمان : (ينظر إلى الصفحة أمامه على الخوان) ما شاء الله! لقد عنيت بنا أم الدرداء، فهيأت لنا هذا الطعام الطيب.

أبو الدرداء : كل يا أخي من هذا الطعام الطيب.

سلمان : وأنت ألا تجلس فتأكل ؟

أبو الدرداء : اعذرني يا سلمان فإني صائم!

سلمان : صائم ؟ أجيء أنا من بيتي للأكل عندك فتصوم ؟

أبو الدرداء : قد نويت الصوم يا أخي قبل أن تحضر.

سلمان : فأفطر الآن إذ حضرت.

أبو الدرداء : ألا تدعني يا سلمان أتم صومي؟ وسأجلس معك أحادثك على الطعام.

سلمان : أيصح هذا في شرعكم يا معشر العرب؟

أبو الدرداء : بئس ما تقول! إن الله قد أكرمنا بالإسلام، فأغنانا عن شرعة العرب.

سلمان : وبئس ما تفعل يا عويمر! فإن الإسلام لا يرضى ذلك، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ". والله ما أنا آكل حتى تأكل.

أبو الدرداء : فسآكل معك إذن يا سلمان، باسم الله.

سلمان : بسم الله.

(يأكل الاثنان من الصحفة)

❋ ❋ ❋

— ٤ —

(أم الدرداء تتزين وتساعدها في ذلك زوجة سلمان)

أم الدرداء : انظري يا أختي، لقد جاء زوجك من صلاة العشاء ولم يجئ أبو الدرداء بعد!

أميمة : لعله آت في الأثر.

أم الدرداء : والله ما هذا بحسن، يكون عنده ضيف فلا يسبق الضيف إلى البيت.

أميمة : اتركي ذلك لسلمان فإنه كفيل بتأديبه.

أم الدرداء : صدقت، لقد أدبه اليوم فأحسن تأديبه.

أميمة : هيا أكملي الآن زينتك.

أم الدرداء : قد أكملتها... ماذا تريدين بعد ؟

أميمة : هذا الطيب لم تمسيه بعد، ضمخي به رأسك وما بين كتفيك.

❋ ❋ ❋

\- ٥ -

سلمان : (يدخل عليه أبو الدرداء من الخارج) معذرة يا أبا الدرداء إني سبقتك إلى بيتك.

أبو الدرداء : بل اعذرني أنا يا أبا عبدالله إذ تأخرت في المسجد، البيت بيتك على كل حال.

سلمان : غفر الله لأم الدرداء. فقد أكثرت لنا في العشاء حتى أسرع إلي النعاس.

أبو الدرداء : إن كنت تريد النوم فادخل إلى أهلك. فقد أعددنا لكما الحجرة الجوانية.

سلمان : وأنت يا أخي ألا تأوي إلى أهلك.

أبو الدرداء : ليس الآن، سأبقى هنا قليلا لأقوم الليل.

سلمان : ويلك كيف يطيب لي ولأهلي النوم في بيتك وأنت قائم تتهجد وامرأتك ساهرة تنتظرك؟

أبو الدرداء : عجبا لك اليوم يا سلمان! ما خطبك ؟

سلمان : أنت تكره أن نبيت عندك، فدعنا ننصرف إلى بيتنا.

أبو الدرداء : معاذ الله يا أخي، ادخل إلى أهلك وسأدخل إلى أهلي.

سلمان : بل ادخل أنت أولا، وسأدخل بعدك.

أبو الدرداء : سمعا يا أبا عبدالله.

سلمان : وإياك أن تقوم حتى أكون أنا الذي أوقظك من آخر الليل فنقوم معا ونصلي معا.

أبو الدرداء : (في غيظ مكتوم) سمعا يا سلمان!

❀ ❀ ❀

ـ ٦ ـ

(بعد بضعة أيام في نفس المكان)

أبو الدرداء : ما هذا الذي فعلت يا سلمان ؟ كيف تقيم في بيتي وتحضر طعاما من بيتك؟

سلمان : قد صار لنا ثلاثة أيام في بيتك فلا ينبغي أن نبقى في ضيافتك.

أبو الدرداء : كلا يا سلمان إما أن تقيما في ضيافتنا أو تنصرفا إلى بيتكما.

سلمان : إذن فهلم أنت وأهلك فأقيما في بيتنا بضعة أيام.

أبو الدرداء : ويحك ما يدعونا إلى ذلك ؟

سلمان : لنتعاون على البر والتقوى. نذهب إلى المسجد معا، ونعود إلى أهلنا معا، ونقوم من آخر الليل معا.

أبو الدرداء : (محتدا) يا سلمان قد صبرت طويلا! وقد آن لي أن أصارحك: إنك لم تعِني على البر بل شغلتني عنه. ما عدت أستطيع أن أصوم، ولا أن أقوم منذ أقمتما عندنا أنت وأهلك.

سلمان : وقد آن لي أنا أيضا أن أصارحك: إن كنت تبغي التقرب إلى الله بما تفعل فإن الله تعالى لا يُتقرب إليه بإضاعة الحقوق التي عليك.

أبو الدرداء : أي حقوق أضعت ؟

سلمان : إن لربك عليك حقا، وإن لبدنك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه.

أبو الدرداء : هذا حق. وما أراني إلا معطيا كل ذي حق حقه.

سلمان : بل أضعت حق بدنك وحق أهلك.

أبو الدرداء : فلهذا أقمت عندي هذا الأيام؟

سلمان : أجل لأحملك على البر، وأسير بك في الجادة.

أبو الدرداء : هذا رأيك يا سلمان. وأنا أرى خلاف رأيك.

سلمان : هلم إذن نحتكم إلى النبي صلى الله عليه وسلم لنرى أينا أهدى سبيلا.

أبو الدرداء : أنصفت يا سلمان، فهلم.

❁ ❁ ❁

ـ ٧ ـ

(في بيت سلمان. أم الدرداء تزور أميمة في هندام حسن)

أميمة : أهلا أهلا بك يا أم الدرداء. أراك اليوم على خير حال.

أم الدرداء : جزاك الله صالحة يا أختاه، وجزى سلمان خيرا. لقد صار أبو الدرداء خَلْقا آخر.

أميمة : حديث النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أصلحه.

أم الدرداء : أجل، أصبح زوجي لا يكف عن ترديده في كل حين.

أميمة : هلك المتنطعون!

أم الدرداء : لا تختصري الحديث يا أم عبد الله، لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء لما احتكم هو وسلمان إليه: "لقد صدق. سلمان أفقه منك يا أبا الدرداء، هلك المتنطعون هلك المتنطعون "

ـ ستـــــار ـ

❁ ❁ ❁

---

١١) هلك المتنطعون: (بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء) نشرت في كتاب: من فوق سبع سموات ضمن سبع مسرحيات لباكثير، مكتبة مصر، القـاهرة، بدون تاريخ.

وادي السبـــاع

ـ ١ ـ

(في كوخ الشيخ ماجد السلمي في جانب مرتفع من الوادي)

ماجـد : يا أم ليلى هذان العابدان لا يصلحان لابنتيك.

سعدى : وما يدريك يا أبا ليلى؟

ماجـد : إنهما هجرا المدينة وهبطا هذا الوادي الموحش وادي السباع فرارا من الناس لينقطعا لعبادة الله ولا يلتفتا لشيء في الدنيا، فما بالك بالزواج؟

سعدى : الزواج سنة رسول الله يا ماجد، فكيف يتعبدان لله ويمتنعان عن سنة رسول الله؟

ماجـد : لعلهما قد تزوجا من قبل ولعل لكل منهما زوجته في المدينة.

سعدى : ذاك شيء لا يعنينا يا أبا ليلى. كل ما يعنينا أن امرأتيهما لم تأتيا معهما إلى الوادي.

ماجـد : هل يعقل عندك أن يهربا من امرأيتهما في المدينة ليتزوجا ابنتيك في الوادي؟

سعدى : ماذا يمنع؟ إنهما يكرهان المدينة ويعشقان الوادي.

ماجـد : أغلب الظن أنهما لو آنسا منا رغبة في تزويجهما فسيفران من وادينا هذا إلى وادٍ آخر.

سعدى : لماذا؟ لأن ليلى وسلمى دميمتان! أين يجدان مثل ليلى وسلمى؟

ماجـد : ليلى وسلمى ليستا بدميمتين، ولكن هذين الــرجلين لا يرغبان في الزواج.

❋ ❋ ❋

— ٢ —

(في شبه مصلى يفصل بين كوخ حممة وكوخ عامر)

عــامر : هل لي أن أكلمك يا أخي في الإسلام؟ فقد مكثت هنــا أربعين يوما وليلة وأنا أهم أن أكلمك فلا يطاوعني لساني خشية أن أشغلك عما أنت فيه؟

حممة : هكذا كان حالي أيضاً معك.

عــامر : الحمد لله، نحن إذن متوائمان، فمن أنت رحمك الله؟

حممة : أنا رجل من المسلمين.

عــامر : واسمك؟

حممة : اسمي حممة.

عــامر : حممة؟ أنت حممة؟

حممة : نعم ألا تصدقني؟

عــامر : لئن كنت حممة الذي سمعت كثيراً عنه، لأنت أعبد من في الأرض.

حممة : أستغفر الله. إني لمقَصِّرٌ بعد.

عــامر : أتشتهي أن تزيد في اليوم والليلة على ثمانمائة ركعة؟

حممة : أشتهي أن لو لم تكن هناك مواقيت للصلاة.

عـــامر : كيف يا حممة؟

حممة : هذه المواقيت تقطع علي القيـــام والـــسجود، فلولاهـــا لأحببت أن أجعل عمري كله ركوعاً لله وســـجوداً حتـــى ألقاه.

عـــامر : تريد أن تقتصر على الزبدة والخلاصة؟

حممة : نعم، فإنَّ عمرَنا في دار العمل قصير.

عـــامر : صدقت والله يا حممة.

حممة : وأنت! إنك لم تخبرني باسمك.

عـــامر : أنا عامر بن عبد قيس.

حممة : أنت عامر بن عبد قيس؟

عـــامر : أجل، هل سمعت بي من قبل؟

حممة : سمعت بك كثيراً لئن كنت إياه لأنت أعبد الناس.

عـــامر : أستغفر الله، إني والله ما أصلي صلاتك ولا نصفها ولا ربعها.

حممة : أما إنها ليست بعدد الركعات، ولكن بالصدق والخشوع والإخلاص! فبالله إلا ما أخبرتني كيف تعمل؟ وما أرجى عمل عندك؟

عـــامر : إن كان عندي شيء أرجو أن يقبله الله مني فهـــو أَن هيبة الله قد عظمت في صدري حتى ما أهاب شيئاً غيره كائناً ما يكون.

حممة : حتى هذه السباع التي تسمع زئيرها أحياناً بالليل؟

عـامر : نعم حتى تلك السباع.

❋ ❋ ❋

ـ ٣ ـ

سلمى : هل بلغك يا ليلى أن أبانا ذهب إلى هذين الشابين العابدين؟

ليلى : لعل أمنا هي التي دفعته إلى ذلك.

سلمى : أجل ما زالت به حتى رضي وهو مرغم.

ليلى : لكن أمراً واحداً لا تعرفينه أنت يا سلمى.

سلمى : ما هو؟

ليلى : إني أنا التي حرضت أمَّنا لتكلم أبانا في ذلك.

سلمى : أحقاً يا ليلى؟

ليلى : اسأليها.

سلمى : يا لك من شيطانة!

❋ ❋ ❋

ـ ٤ ـ

عـامر : حُمَمَة ماذا ترى فيما عرضه علينا الشيخ ماجد؟

حممة : إنه إنما لمَّح ولم يصرح.

عـامر : في مثل هذه الشؤون يا أخي يغني التلميح عن التصريح.

حممة : لا حول ولا قوة إلا بالله. إنما هبطنا هذا الوادي لنفر من مثل هذا.

عـامر : خبرني يا حممة: ما غايتنا من فرارنا هذا من الناس؟

أليست هي الانقطاع إلى الله بغية القرب منه؟

حممة : بلى.

عـامر : فهل نحن على يقين أن ما نحن فيه هو خير سبيل إلى غايتنا المبتغاة؟

حممة : ما خطبك يا عامر؟ أشكًّا بعد يقين؟

عـامر : كلا يا حممة، بل عين يقين بعد يقين. وعلم إحاطة بعد علم، وفوق كل ذي علم عليم.

حممة : أهذا كله من أثر الشيخ ماجد؟

عـامر : أجل، لقد كان في كلام هذا الشيخ ما فتح عين بصيرتي على الحق، فجعلت أنظر في حالي وفي حاله، وأوازن بينهما أي الحالين أحرى أن يدني صاحبه إلى الله، فوجدت أنه أفضل مني في كل شيء.

حممة : ليتني ما لقيتك يا عامر ولا رأيتك!

عـامر : أما أنا فأحمد الله أن لقيتك وصحبتك فما كنت لأهتدي إلى ما اهتديت إليه اليوم لو لم أكن رأيتك وتحدثت معك.

حممة : لقد كنت مطمئن النفس في هذا الوادي إذ كنت وحدي حتى جئتَ أنت فأثرت قلقي وبلبالي.

عـامر : ويحك يا أخي لأن يكون الشيطان ثالثنا أهون لنا من أن يكون ثاني كل منا! ففي الأولى نحن اثنان على واحد، وفي الثانية ينفرد بكل منا وحده.

حممة : كأنك تريد أن تتزوج إحداهما يا عامر؟

عــامر : على أن تتزوج أنت الأخرى.
حممة : وانقطاعنا لعبادة الله؟
عــامر : سيبقى كَما كَان وأفضل.
حممة : بل سيشغلك عنها ما لزوجك من حق عليك.
عــامر : لكن قيامك بهذا الحق سيكون عبادة يأجرك الله عليهــا ويثيبك.
حممة : والله ما أدري أتدعوني إلى خير يا عامر أم إلى شر؟
عــامر : في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيل اللبس عنك. قال صلى الله عليه وسلم:

(النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني)

حممة : هل دار بخلدك يا عامر من أين نمهرهما؟ ثم من أين ننفق عليهما؟
عــامر : إن لنا في موسى إذ تزوج ابنة شعيب عليهما الســلام لأسوة حسنة.
حممة : أتريد منا أن نعمل لأبيهما راعيئن؟
عــامر : نعم.
حممة : ونترك عبادة ربنا؟
عــامر : بل نعبده خيراً مما كنا نعبده.
حممة : كيف؟
عــامر : سنعمل لغيرنا كما نعمل لأنفسنا، ونقــدم للنــاس مــا ينفعهم في معاشهم، ونتصدق بما يفــضل مــن كــسبنا، ونحصن فتاتين مسلمتين، وننجب منهما إن شاء الله ذرية صالحة طيبة يعبدون الله ويدعون لنا بخير.

❁ ❁ ❁

ـ ٥ ـ

ليلى : (تنادي في خوف وقلق) عامر! يا عامر! السبع وراءك يريد أن يفترسك.

حممة : صه. دعيه يا ليلى لا تهيجيه، فإنه لن يؤذي زوجك.

ليلى : لكن زوجي ليس في يده سلاح.

حممة : سلاحه في قلبه يا ليلى... هيبة الله.

عامر : (يسمع صوته من بعيد) ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود.

سلمى : انظري يا ليلى إن السبع يتشممه.

ليلى : وعامر يضع يده على منكبه.

سعدى : الحمد لله يا بنيتي. قد ذهب عنه دون أن يؤذيه.

ليلى : أوقد ذهب عنه حقاً؟

حممة : أجل، ها هو ذا قد أقبل عامر.

عامر : ما خطبك يا ليلى؟ أوقد خشيت أن يأكلني السبع؟

ليلى : إي والله يا عامر!

سعدى : كلنا يا بني أشفق عليك منه.

ماجد : الحمد لله إذ أنجاك الله منه يا بني.

عامر : إذا رأيتموه يقترب مني مرة أخرى فاتركوه ولا تهيجوه فذلك أحرى أن يكفه عني فلا يؤذيني.

حممة : أنا قلت لهم ذلك يا عامر فلم يصدقوني.

عـامر : لأنك أنت نفسك كنت في ريب من أمري يا حممة.
حممة : أجل، كنت في الحق أخشى عليك منه، وإنما تجلدت أمامهم لأُثبِّت قلوبهم.
ماجد : يا سُعدى، يا ليلى، يا سلمى، تعالين معي! لندعْ عامرا وحممة يفرغا قليلا لعبادة ربهما.
ليلى : ألا نصلي المغرب يا أبي معكم جماعة؟
ماجد : بلى، عندما يحين وقت المغرب يا بنتي (ينسحبون).
عـامر : ألم تر يا حممة إلى حدب الشيخ علينا وحرصه على رضانا حتى إنه ليطرد أهله وبناته عنا لنفرغ للعبادة؟
حممة : أجل ما أكرمه وما أحناه! ولكن الوقت الذي يخلص لنا لنتعبد فيه أضحى أقل من القليل.
عـامر : أنادم أنت على ذلك بعد؟
حممة : شيئاً ما. وددت يا عامر لو كان شطر اليوم في الرعي وشطر في العبادة.
عـامر : الليل كله لك، ألا يكفيك الليل؟
حممة : في الليل حقوق أخرى يا عامر لنفسك ولأهلك.
عـامر : إن شئت كلمت لك الشيخ فأعفاك من الخروج معنا إلى المرعى وبقيت هنا تحرس الكوخ وتتعبد؟
حممة : ويلك يا عامر! ألست تعتقد أن الرعي عبادة؟
عـامر : بلى، إنه لكذلك.
حممة : فلِمَ تريد أن تحرمني ثواب ذلك؟

عـامر : لا، والله إني لأحب لك ألا ترتاب بعد في الحق الذي أرانا الله إياه. إننا اليوم في عيشنا هذا الجديد أقرب إلى رضوان الله مما كنا فيه أمس.

حممة : أجل يا عامر، لقد كنت في ريب من ذلك، بل كنت أعتقد أننا قد أضعنا كثيراً مما كنا قد أحرزناه بالانقطاع والمجاهدة إلى أن شهدت بعيني حادث اليوم.

عـامر : تعني حادث السبع؟

حممة : أجل، فأيقنت أننا لن نفقد شيئاً مما أحرزناه، بل كسبنا ألوانا أخرى من رضوان الله إن شاء الله.

عـامر : الحمد لله يا أخي! الآن استقام لنا السبيل في وادي السباع.

(ستار)

❁ ❁ ❁

---

١٢) وادي السباع: (متعبدان.. بين الانقطاع عن الدنيا، والقيام بواجباتها)، نشرت في مجلة الفيصل، العدد (٢٠٩) والأدب الإسلامي، العدد (١٣) ١٤١٧هـ.

يا ليـــل.. يا عـــين..!

(هذه التمثيلية مستوحاة من أسطورة شعبية في تعليل ما جرت عليه عادة المغنين في الشرق العربي من ترديد "يا ليل يا عين" في مطلع أغانيهم)

— ١ —

(في أعالي الجو بين زفيف الرياح)

الأم : إلى متى يا عين الحياة تبحثين عن شيء لا وجود لـــه؟ ها نحن أولاء قد طفنا مشارق الأرض ومغاربها فلم نجد ما تبتغين.

عين الحياة : صبراً يا أماه، إني ما زلت مؤمنة بأنني سأجده، وما بقي هذا الإيمان في قلبي فمن العجز أن أيأس.

الأم : ستتعبين نفسك وتضيعين وقتك دون جدوى.

عين الحياة : في سبيل هذا الأمل المنشود يحلو التعب يا أماه ويهون الوقت.

الأم : عجباً لك يا عين الحياة.. مثلك يا بنتي لا تسعى إلـــى الخُطَّاب وإنما يسعى إليها الخُطَّاب.

عين الحياة : ما حيلتي يا أماه؟ إن الذي يستحقني لا يسعى إليّ، وإن الذي يسعى إليّ هو الذي لا يستحقني... فلم لا أسعى أنـــا إلى الأول حتى أظفر به قبل أن يظفر بي الثاني؟

الأم : لا بأس بما تصنعين لو أن سعيك هذا يرجى أن ينتهي بالنجاح.

عين الحياة : سينتهي بالنجاح إن شاء الله... دعينا نهبط هذا الوادي الأمين.

الأم : أليس هذا وادي النيل؟

عين الحياة : بلى.

الأم : فلقد طفنا به من قبل.

عين الحياة : لا بأس أن نهبطه مرة أخرى فقلبي يحدثني أنني سأجد ضالتي فيه. انظري: ما أجمل هذا النهر! وما أبدع الخضرة على شاطئيه وقد خالطها ذهب الأصيل!

الأم : لا تبالغي يا عين، أين هذا الوادي من وادي عبقر ؟ وأين هذا النهر من أنهارنا هناك؟

عين الحياة : لا أدري لماذا ينجذب قلبي إلى هذا الوادي الأمين حتى ليُخيَّل إلي أنه أجمل من وادي عبقر؟

الأم : لا ريب يا بنتي أن ميزان عقلك قد اختل!

عين الحياة : ما يدريك... لعل ميزان قلبي قد اعتدل!

الأم : ماذا تعنين؟

عين الحياة : لعل الحبيب الذي أنشده موجود فيه.

الأم : قد قلتِ مثل هذا حينما هبطنا وادي الدانوب، وحينما أطللنا أيضاً على نهر الجانج... ثم ما لبث أملك أن خاب.

عين الحياة : كلا يا أماه، لم أشعر قط بمثل هذا الانجذاب القوي من قبل، وما أحسب دليل قلبي يخونني هذا المرة.

الأم : أرجو أن يتحقق رجاؤك يا بنتي على كل حال حتى نستريح من هذا التطواف والتجوال.

عين الحياة : سأبحث عن الملاَحيْن السعيدَيْن اللذين استرعيا نظري في المرة الأولى.

الأم : صاحبي السفينة الخضراء؟

عين الحياة : والأغاني العذبة... هل تذكرين اسميهما ؟

الأم : ليل وشهاب.

عين الحياة : أجل، ليل وشهاب... أغلب ظني أنهما أوفى صديقين على هذا الكوكب، وأن أحدهما سيكون زوجي المنشود.

الأم : ليت شعري أيهما تختارين؟

عين الحياة : سأبلوهما أيهما أوفى لصاحبه فأختاره.

الأم : لكن أين نجد هذين الآن؟ إنهما لا يستقران في أي مكان.

عين الحياة : سنبحث عنهما طوال هذا النهر حتى نجدهما... هلمي اتبعيني.

(تطيران فوق النهر)

❁ ❁ ❁

ـ ٢ ـ

عين الحياة : انظري يا أماه... تلك سفينتهما راسية في جانب النهر!

الأم : أجل، هذه سفينتهما الخضراء.

عين الحياة : وها هما على ظهرها يغنيان... استمعي!

الأم : ما أعذب غناءهما وأشجاه !

عين الحياة : دعينا نهبط قريباً منهما على الشاطئ... (تهبطان).

الأم : ما بالهما انقطعا عن الغناء؟

عين الحياة : قد انتهت الأغنية... دعينا نسترق السمع إليهما ماذا يقولان؟

شهاب : آه... هذا اللحن الصعيدي شد ما يهيجني يا ليل.

ليل : إلى حبيبتك الضائعة؟

شهاب : نعم، وأنت ألا يهيجك إلى حبيبتك؟

ليل : إنها لم تعد حبيبتي اليوم يا شهاب، فقد أمست في عصمة زوج كريم.

شهاب : ألا تهزك الذكرى إليها؟

ليل : لا يا شهاب، لا ينبغي أن تطمح نفسي إلى ما ساقه الله لغيري، وكفى بصداقتك وودك لي عزاء وسلوى.

شهاب : ما أسعدك يا ليل!

ليل : لن تتم سعادتي ألا إذا تمت سعادتك. ينبغي لك أن تسلو كما سلوت.

شهاب : لا أقدر أن أسلوها يا ليل حتى أجد خيراً منها... وهيهات!

ليل : إن الذي خلقها يخلق خيراً منها يا شهاب.

شهاب : هل تتمنى لي ذلك حقاً؟

ليل : أتمنى لك كل خير.

شهاب : أو قد مللت معاشرتي؟

ليل : معاذ الله يا أخي، إني والله لا أدري ماذا أصنع إذا فرق

الزواج بينك وبيني. ولكني لا أريد أن أقف في طريق سعادتك.

شهاب : وأنا والله لا أدري ماذا أصنع إذا فرق الدهر بيني وبينك.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

(في الهزيع الأخير من الليل)

ليل : (يستيقظ من نومه فينادي): شهاب! يا شهاب!

شهاب : نعم يا ليل، أنا هنا على الشاطئ.

ليل : ماذا تصنع هناك؟ هلم فنم مكاني وأنا أحرسك!

شهاب : كلا، لن يأتيني النوم الليلة.

ليل : فيم يا شهاب؟ إني قد أخذت قسطي من الراحة، فخذ قسطك أنت.

شهاب : كيف يأتيني النوم وقد رأيت ما رأيت؟

ليل : ماذا رأيت؟

شهاب : أمراً عجباً ما أحسبك تصدقني إن حدثتك به! ولولا أني كنت واثقاً من يقظتي لظننت أني كنت أحلم!

ليل : خيراً إن شاء الله، ماذا رأيت؟

شهاب : بينما كنت جالساً أرقب سفينتنا من هذا الموضع، إذ ظهرت لي فتاة لم أر أجمل منها في حياتي، وعليها حلل وحُلِيّ ما أحسب عين بشر وقعت على مثلها قط، والطيب ينفح من أردانها كأنها حديقة ورد وريحان!

ليـــل : ماذا تقول؟ لعلها كانت خيالا يا شهاب.

شهاب : كلا، بل كانت حقيقة لا ريب فيها... آه يا ليتني تبعتك يا عين الحياة!

ليـــل : عين الحياة ؟

شهاب : نعم، هذا اسمها... يا ليتني تبعتها يا ليل؟.

ليـــل : إلى أين؟

شهـاب : لقد دعتني أن أمضي معها إلى قصرها المسحور، في عالم كله سعادة وحبور حيث تتزوجني هناك وأعيش معها في لذة ونعيم.

ليـــل : أراك افتتنت بها حقاً يا شهاب.

شهـاب : أجل، أحببتها بكل جارحة من جوارحي ولولاك لمضيت معها.

ليـــل : لولاي ؟

شهاب : نعم لولا رعايتي للصداقة التي بيننا.

ليل : أموقن أنت أنك ستجد عندها سعادتك؟

شهاب : لا ريب!

ليل : فهلا مضيت معها يا صديقي؟

شهاب : كيف أمضي معها وأتركك؟

ليل : لا جناح عليك يا أخي، فإني لا أقبل أبداً أن تضيعّ حظك من أجلي، وتضحّي بسعادتك.

شهاب : لا فائدة من التحسر الآن... لقد فات الأوان.

ليل : لا تبتئس يا شهاب، فإن تكن حقيقة فستظهر لك مرة

أخرى، فامض معها إذن ولا تردد، فإني سأكون سعيداً بسعادتك.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

(في الليلة التالية)

ليل : إنك مكدود يا شهاب، فارقد الليلة قليلاً فإنك ما نمت البارحة.

شهاب : (يتثاءب): أخشى أن تجيء عين الحياة فتجدني نائماً.

ليل : اطمئن فسأوقظك إذا جاءت.

شهاب : إذن فسأغفو قليلاً.

ليل : افعل يا صديقي فإن النعاس غالب على عينيك.

(يضطجع شهاب فينام).

عين الحياة : (تظهر خلف ليل وتدعوه بصوت خفيض): ليل! يا ليل

ليل : سبحان الله! من تكونين؟

عين الحياة : أنا عين الحياة.

ليل : أنت التي جئت لشهاب ليلة أمس؟

عين الحياة : نعم.

ليل : إذن فسأوقظه.

عين الحياة : كلا لا تفعل... دعه يسترح قليلا فإنه لم ينم البارحة... هلم أنت معي إلى الشاطئ.

ليل : ماذا تريدين مني؟

عين الحياة : لا تخف... سأحادثك قليلا ريثما يستيقظ صاحبك (تنزل من على السفينة إلى الشاطئ فيتبعها ليل).

عين الحياة : كيف تراني يا ليل؟

ليـــــــل : حقاً إن صاحبي لمعذور إذ افتتن بك!

عين الحياة : دعني من صاحبك فإني أحبك أنت!

ليـــــــل : ماذا تقولين يا هذه؟ إنه هو الذي يحبك.

عين الحياة : لكني لا أحب سواك!

ليـــــــل : تذكري أنك دعوته البارحة للمضي معك فما منعه من ذلك إلا إخلاصه لي.

عين الحياة : ما جئت البارحة إلا من أجلك، غير أني وجدتك نائماً... أنت يا ليل مرادي وقد اصطفيتك على سائر الناس.

ليـــــــل : إنه أحق بك فهو أجمل مني وجها.

عين الحياة : جمال الوجه لا يعنيني وإنما يعنيني جمال النفس وصفاء الروح.

ليـــــــل : فهو أجمل مني نفساً، وأصفى روحاً كذلك.

عين الحياة : كلا يا ليل، أنت ضالتي المنشودة... هلم اتبعني فستجد عندي من السعادة والنعيم ما لم يخطر على قلب بشر.

ليـــــــل : حسبي هذا النعيم الذي أنا فيه.

عين الحياة : آه لو رأيت قصري العظيم الذي ليس في قصور الدنيا مثله!

ليـــــــل : هذه السفينة عندي خير من قصور الدنيا كلها!

عين الحياة : كأنك تؤثر حياة التنقل في السفن؟

ليـــــل : نعم... لا أريد بها بديلا.

عين الحياة : إن لي سفينة من الذهب الخالص مرصعة بـالجوهر والياقوت وعليها زرابي من الحرير، وشـراعها مـن الاستبرق، ومجاديفها من المندل الشذيّ... فسنقيم بهـا إن شئت تتنقل بنا في أنهار لا تعرفونها ليس في أنهار الدنيا مثلها جمالاً وروعة! هلم يا ليل... لا تضع الحظ الذي ساقه الله إليك!

لـــــيل : كلا، لا أستطيع أن أذهب معك وأترك صـديقي... دعيني أوقظه، فقد أوصاني أن أوقظه إذا جئت.

عين الحياة : كلا، لا تفعل!

ليـــــل : (ينادي) شهاب! شهاب!

عين الحياة : ما دمت لا تريـدني فسأمـضي عنـك الآن لعلـك ترضاني في وقت آخر (تختفي).

ليـــــل : رباه! كيف اختفت هذه المخلوقة الجميلة فجأة!

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

شهــــاب : هل تقول: إنها تريدك أنت؟

ليـــــل : نعم، هذا ما حيَّرني من أمرها، فما ينبغي يا شهاب أن تؤثرني عليك، فأنت أفضل مني في كل شيء. وقد قلـت لها ذلك، فما صدقتني.

شهــاب : اصدقني يا ليل... هل قلت لها ذلك حقاً؟

ليـــــل : إي والله.

شهــاب : فماذا قالت؟

ليل : قالت: إنها لا تريد غيري.

شهــاب : ألا يحتمل أنها إنما كانت تمزح معك أو تختبرك؟

ليـــل : ما أحسبها تقصد المزاح، ولكن ربما أرادت أن تختبرني كما قلت.

شهــاب : هلا كنت أيقظتني من نومي لتستوثق مما كانت تقصد؟

ليـــل : لقد هممت أن أوقظك لولا أنها منعتني من ذلك.

شهــاب : لا تكذبني يا ليل فما عهدتك كذوباً!

ليـــل : والله الذي لا تخفى عليه خافية لَهذا الذي قلته لـك هو الحق.

شهــاب : لا أستطيع تكذيبك على كل حال، ولكن الذي لا شك فيه هو أنك قد أضعت مني هذه الفرصة الكبرى.

ليـــل : إني شديد الأسف لما وقع يا شهاب، ولك أن تلومني ما شئت. على ألا يداخلك الشك في إخلاصي لك، فوالله لو جاءت عرائس الجنان كلها لتصرفني عنك ما فعلت.

❁ ❁ ❁

— ٦ —

الأم : أليس حراماً عليك يا عين الحياة أن تفسدي ما بين هذين الصديقين الوفيين؟

عين الحياة : كلا يا أمي... إن الوفاء الصحيح لا يفسده شيء... ألا ترين إلى ليل كيف بقي على وفائه وإخلاصه دون أن تشوبهما شائبة؟

الأم : أو قد نويت أن تختاريه؟
عين الحياة : نعم، ما أخالني أجد خيراً منه.
الأم : أخشى أن تغيري رأيك فتعودي بنا إلى الطواف بالأرض من جديد.
عين الحياة : كلا يا أماه، هذا زوجي المنشود قد وجدته في النهاية... اسبقيني أنت إلى وادي عبقر، فأعلني هذه البشرى هناك، ودعي خدم القصر ووصائفه يهيئوا الزينات لحفلة العرس.
الأم : وافرحتا! لا أكاد أصدق ما أسمع!
عين الحياة : ولا تنسي أن تبعثي نفراً من عبيدنا ليحملوا هذا العروس الكريم.
الأم : حُبًّا يا بنتي وكرامة.. في أمان الله (تطير).
عين الحياة : في أمان الله.

❁ ❁ ❁

ـ ٧ ـ

(ليل نائم في السفينة وشهاب واقف على الشاطئ يحرس)

عين الحياة : (تظهر لشهاب): شهاب!
شهاب : عين الحياة! وافرحي بعودتك!
عين الحياة : علام عولت؟ هل تقبل الآن أن تمضي معي؟
شهاب : خذيني معك إلى حيث تريدين!
عين الحياة: وتترك صديقك الوفي؟
شهاب : أترك الدنيا كلها من أجلك!
عين الحياة: الصديق الوفي أغلى من الدنيا.
شهاب : أنت يا عين الحياة أغلى من الكل!

عين الحياة: فاعلم الآن إذن أن صاحبك النائم هذا أجدر بي منك.

شهـــاب : حاشاكِ أن تؤثريه عليّ.

عين الحياة: لم لا؟ إنه أفضل منك.

شهـــاب : لا تصدقي دعواه فإنها غير صحيحة.

عين الحياة: لو صدقت دعواه لاخترتك أنت فقد أكد لي أنـــك أفـــضل منه، ولكني اعتمدت على ما هداني إليه اختبـــاري. لقـــد صدقك القول فكذبته، ووثق بك فاتهمتـــه، وأخلـــص لـــك فخنته، وضحَّى من أجلك فضحيت به!

شهـــاب : إنما دفعني إلى ذلك فرط حبي لك.

عين الحياة : إني لا أنشد الحب، فكل من يراني يحبني، ولكن أنـــشد الإخلاص والوفاء.

شهـــاب : فلأكونن أوفى الناس وأشدهم إخلاصا لك.

عين الحياة : هيهات... مهما تخلص لي فلن تبلغ مبلغ ليل.

شهـــاب : إن أبيت أن تأخذيني معك فدعي لي هذا الصديق علـــى الأقل.

عين الحياة: كلا، إنك لا تستحقه وأنا أولى به منك.

شهـــاب : بالله يا عين الحياة اتركيه لي فإني لا أستطيع أن أعيش بدونه.

عين الحياة : ما أعظم أنانيتك! ألا تنظـــر لمـــصلحته كمـــا تنظـــر لمصلحتك؟

شهـــاب : بل مصلحته في البقاء معي. إنه سيرفض الذهاب معـــك ولن يتركني أبداً.

عين الحياة : سيحمله رجالي دون أن يشعر، ولن ينتبه من نومه هذا إلا في قصري العظيم حيث أتزوجه وأجعله أسعد مخلوق في الوجود.

شهــــاب : كلا، لأحولن دون ذلك! لأوقظنه من نومه.. يا ليل! انتبه يا ليل! يا ليل!

عين الحياة : (تومئ بيدها إلى ليل): احملوه! (يختفي ليل).

شهــــاب : (ينطلق نحو السفينة): يا ليل! يا ليل! أين أنت يا ليل؟

عين الحياة : هو الآن في طريقه إلى قصري المسحور يا شهاب.

شهــــاب : (باكياً) واها عليك يا ليل! من لي بصديق مثلك؟ لا خير في الحياة بعدك!

عين الحياة : شهاب... هلم يا شهاب!

شهــــاب : دعيني وشأني.. ماذا تريدين مني بعد؟

عين الحياة : أصغ إلي يا شهاب. ما زالت الفرصة في يدك. إن كنت تريدني حقاً ففي وسعي أن آخذك مكان صاحبك وأعيده حيث كان.

شهــــاب : أجل يا عين الحياة خذيني مكانه، افعلي بالله عليك، لأكونن أوفى لك منه!

عين الحياة : لكنه سيعيش بقية عمره شقياً بفراقك... ألا يحزنك مصيره من بعدك؟

شهــــاب : ماذا يعنيني مصيره إذا كنت بقربك؟

عين الحياة : إذن فاتبعني (تطير).

شهـــــاب : كيف أتبعك وقد طرت في الهواء من دوني؟

عين الحياة : طر أنت معي!

شهـــــاب : كيف؟ إني لا أستطيع أن أطير مثلك!

عين الحياة : (من أعلى الجو): فابق إذن مكانك (تختفي).

شهـــــاب : (يصيح كالمجنون) عين الحياة! عين الحياة! يا ليل! يا ليل! (يرتمي على ظهر السفينة ويندفع في نشيج وعويل).

❁ ❁ ❁

ـ ٨ ـ

(جماعة من الناس واقفون ذات ليلة على شاطئ من شطآن النيل يرصدون سفينة سارية صوب الجنوب)

أحـــدهم : هذا صوته قد اقترب. استتروا يا قوم خلف هذا الشجر لئلا يلحظكم في ضوء القمر فينقطع عن غنائه.

آخـــــر : ما أخاله يلحظنا.. إنه عنًا في شغل شاغل.

شهـــاب: (يسمع صوته واضحاً من قرب وهو يردد): يا ليـل يا عين.. يا ليلي ويا عيني !

أحـــدهـــم: يا الله ما أشجى غناءه!

آخـــــر : إن صوته ليذيب القلب!

آخـــــر : يا ليته يقف بسفينته هنا فنستمع له طول الليل!

آخـــــر : ترى ما خطب هذا المسكين؟

آخـــــر : ما من أحد يعرف ما خطبه ولا من ذا يندب!

آخـــــر : مسكين! إلى متى يهيم بسفينته هكذا من مكان إلى مكان؟

آخـــــر : ويلكم! ما باله انقطع عن غنائه؟

الأول : لابد أنه أحس بوجودنا فسكت. ألم أقل لكم استتروا خلف الشجر؟

أحــدهم : هلموا بنا نتبعه على الساحل.

الأول : لا، بل مكانكم... سيعود إلى غنائه حين يبتعد عنا.

أحدهــما: صه! هاهو ذا قد عاد يغني.

شهــاب : (يسمع صوته من بعيد): يا ليل يا عين.. يــا ليلــي ويــا عيني!

(ستار)

❀ ❀ ❀

---

١٣) ياليل...ياعين: (قصة خيالية في تفسير تكرار المغنــين لكلمتــي: ياليــل ياعين) نشرت في مجلة الهلال،عدد مارس ١٩٥١م.

يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ أغْنِيَاءَ من التعفف

ـ ١ ـ

(في بيت عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله مريض يعوده قريبه عبد الله بن مطيع العدوي.)

ابن عمر : أما والله إنك لتحسن الحديث يا ابن مطيع. ولكن من قال لك: إني لا أعنى بصحتي؟ أم تريد مني أن آكل كما يأكل كسرى وقيصر؟

ابن مطيع : أي جُناح عليك في ذلك ما كان علاجا لك؟

ابن عمر : لا أريد أن أشفى من علة لأصاب بعلة أنكى وأشد.

ابن مطيع : أي علة أشد من علة تمنعك من شهود صلاة الجماعة في المسجد؟

ابن عمر : (ينادي) صفية... صفية.

صفيـــة : (صوتها) لبيك يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : أنا ذاهب إلى المسجد فأحضري لي الوضوء.

صفيـــة : لكنك بعد عليل.

ابن عمر : كلا، قد شفيت من علتي فأنا بخير.

صفيـــة : لكنك، بَعدُ واهن ضعيف.

ابن عمر : كلا، ما أنا بواهن ولا ضعيف.

صفيـــة : كلِمه يا ابن مطيع فهو يسمع كلامك.

ابن مطيع : يا أم عبد الرحمن، ما دفعه إلى الخروج إلا كلامـــي له.

صفيـــة : حسبنا الله ونعم الوكيل. مـــاذا نـــصنع لأبـــي عبـــد الرحمن؟

ابن عمر : هيه يا بنت أبي عبيد، أنت أرسلت إلى ابـــن مطيـــع اليوم ليكلمني فيما كلمني فيه.

ابن مطيع : لا والله يا ابن عم، إنما جئت لأعودك.

ابن عمر : لكنها كلمتك قبل أن تدخل عندي. هيا يا صفية... ألم تحضري وضوئي بعد؟

ابن مطيع : لم يزل في الوقت سعة يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : ويحك، أتريد مني أن أمشي هرولة؟

❋ ❋ ❋

— ٢ —

ابن عمر : (يتأوه) آه... آه.

صفيـــة : ماذا بك يا أبا عبد الرحمن؟ هل تشكو من وجع؟

ابن عمر : لا بأس علي إن شاء الله. إنما هي وعكة عارضة.

صفيـــة : إنك أجهدت نفسك يا أبا عبد الرحمن منذ قمت مـــن علّتك ولم تكن قد استرددت كامل صحتك.

ابن عمر : أي إجهاد تعنين؟

صفيـــة : مواظبتك على القيام، ومواصلتك للصيام، وإقلالك من الطعام.

ابن عمر : ويحك يا صفية، أهذا سبب علّتي عندك؟ فكيـف إذا عشت طول هذا العمر؟

صفيـة : أنا لم أقل إن هذا سبب علتك، ولكنك قمت قريباً من علة شديدة قد هدَّت قواك، فكانَ حرياً بك أن تريح نفسك قليلاً وتصيب من الطعام ما يكفيك ريثما تستعيد سـابق قوتك فتعود حينئذ إلى مألوف عادتك.

ابن عمر : أتحبين يا صفية أن أصارحك القول؟

صفيـة : نعم.

ابن عمر : ولا تغضبين؟

صفيـة : لا.

ابن عمر : إن كان من سبب لعلتي فإنه أنت.

صفيـة : أنا يا أبا عبد الرحمن؟ أنا سبب علتك؟

ابن عمر : نعم.

صفيـة : كيف يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : إنك لا تكفين أبداً عن تدبير الحيل للحيلولة بيني وبين ما تطيب به نفسي من بعض أعمال الخير.

صفيـة : عن أي شيء تتحدث يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : إنك تعرفين ما أعني.

صفيـة : والله الذي لا إله إلا هو ما من شيء فعلتـه قـط إلا قصدت به الخير لك.

ابن عمر : إني أعلم ذلك يا صفية. أعلم أنك كنت تحتالين عليّ

كما تحتال الأم على وليدها لتصرفه عما يريد وهي لا تريد به إلا الخير ولكني لا أحب يا صفية أن تعامليني كالوليد.

صفية : لعلك تعني أولئك المساكين الذين كانوا يقفون في طريقك لتدعوهم فيؤاكلوك.

ابن عمر : فأزحتهم أنت عن ذلك الطريق لينقطعوا عني.

صفية : لكني لم أقطع عنهم برّك يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : أجل كنت تبعثين إليهم الطعام.

صفية : وعرفت ذلك يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : نعم.

صفية : حمزة أخبرك.

ابن عمر : لا.

صفية : فكيف إذاً عرفت؟

ابن عمر : بالحدس والتخمين.

صفية : وسكتّ على ذلك ولم تفاتحني؟

ابن عمر : رأيت السكوت حينئذ أفضل.

صفية : بالله إلا ما وهبت لي ذلك يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : انتظري حتى تكشفي لي عن الحيلة الأخرى.

صفية : يا ويلتا، عم تتحدث؟

ابن عمر : إنك تعلمين أنك لما قطعت أولئك المساكين عني تخيرت رجالاً آخرين من الذين لا يسألون الناس إلحافاً ويحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فكان يتعشى معي

منهم كل ليلة اثنان أو ثلاثة ثم انقطعوا عنا منذ جمعة، وكلّما أرسلت حمزة إلى أحدهم ليدعوه قال له: اعتذر لي إلى أبيك فإني مدعو للعشاء في بيت آخر. فخبريني يا صفية عن جلية الأمر.

صفية : ألم يخبرك حمزة بشيء؟

ابن عمر : كلا، لم أشأ أن أسأل حمزة، فما كان ينبغي له أن يذيع سر أمه، ولا لوم عليه عندي فعليه أن يطيعك. ولكني أريد منك أن تخبريني بنفسك.

صفية : وتعدني ألا تغضب؟

ابن عمر : نعم.

صفية : أرسلت إليهم في بيوتهم ألا يحضروا وكنت أبعث بالطعام إلى كل واحد منهم مرتين في الجمعة.

ابن عمر : سبحان الله، وما يدعوك إلى ذلك وإنه ليرهقك أكثر؟

صفية : يا أبا عبد الرحمن، إن جلّ قصدي أن أجعلك تأكل طعامك الذي أصنعه لك فأنت بحاجة إليه وإذا حضروا ليؤاكلوك تركت لهم أنت كل شيء ولم تصب إلا القليل الذي لا يغنيك.

ابن عمر : إذن فإني لن أتعشى الليلة.

صفية : فيم يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : ليكون عقوبة لك حتى لا تعودي لمثلها.

صفية : إنك وعدتني ألا تغضب.

ابن عمر : إني لست بغاضب ولكني ممتنع عن العشاء.

صفيــة : فامتناعك هو الغضب.

ابن عمر : سميه كما تشائين.

صفيــة : يا سيدي تعشَّ الليلة ولك عليّ ألا أعود لمثلها أبداً.

ابن عمر : سأفعل يا صفية من أجلك، ولكني أقسم بالله لا أتعشى بعد الليلة أبداً إلا إذا حضر من يؤاكلني من أولئك المحتاجين المتعففين. آه... آه.

صفيــة : وي! ماذا بك يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : لا شيء يا صفية.

صفيــة : تبا لي أنا أرهقتك!

ابن عمر : كلا يا صفية، ما بي إلا شيء من العطش الشديد، كأنه حريق في جوفي.

صفيــة : انتظر... قد علّقت لك قربة منذ الصباح فلابد أن ماءها الآن بارد كالثلج. (تخرج).

ابن عمر : (يتمتم) الحمد لله الذي رزقني هذه الزوجة الصالحة. ويحها! ما أحناها علي!

صفيــة : (تعود) خذ يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : الله! كأنها قطعة من الثلج.

صفيــة : الريح السموم قد ساقها الله اليوم لتبرد الماء لك، وهذا قدح جديد من الخزف يطيب الشرب فيه. (تفرغ الماء من القربة في القدح).

ابن عمر : ما أطيب رائحة القدح!

صفيـــة : وضعت الأشنان فيه يا أبا عبد الرحمن. اشرب هنيئـاً مريئا. ستطفئ به ما في جوفك إن شاء الله.

ابن عمر : ما في جوفي من الحريق؟

صفيـــة : أجل، سيزول إن شاء الله.

ابن عمر : (في صوت يخالطه البكاء) ما في جوفي من الحريق؟

صفيـــة : اشرب.

ابن عمر : (يجرع جرعة من الماء) الله. الله.

صفيـــة : اشرب يا أبا عبد الرحمن.

ابن عمر : خذيه يا صفية. حسبي ما شربت.

صفيـــة : إنك لم تذق غير جرعة واحدة. وي! إنك لتبكي يا أبـا عبدالرحمن! هل تشكو من وجع؟

ابن عمر : لا يا صفية.

صفيـــة : فماذا يبكيك؟

ابن عمر : ذكرت آية في كتاب الله يا صفية.

صفيـــة : أية.. آية يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : ذكرت قوله تعالى عن أهل النار ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ (سبأ: ٥٤) وأي شيء يا صفية أشهى إلى النار من الماء البارد؟

صفيـــة : يا ليتني ما أتيتك به.

ابن عمر : (يردد) ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ (سبأ: ٥٤)

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

ابن عمر : ما ذا أشم يا حمزة؟ رائحة سمك يُقْلى؟

حمــزة : نعم يا أبي، أمي تقليه في المطبخ.

ابن عمر : لكنهم قالوا: إنه لا يوجد في المدينة سمك هذه الأيام.

حمــزة : أجل يا أبي، ليس هذا موسمه.

ابن عمر : فمن أين جاءت به أمك؟

حمــزة : من ساحل ينبع.

ابن عمر : من ساحل ينبع؟

حمــزة : أرسلت أمي من يبتاعه من هناك.

ابن عمر : فيم كل هذا؟ ما كان ما يدعو إلى ذلك.

حمــزة : ألم تقل لها أمس: إنك تشتهي أن تأكل لحم حوت؟

ابن عمر : يا ليتني ما قلت لها!

حمــزة : هاهي ذي أمي مقبلة. لابد أنها فرغت من قليه.

صفيــة : مالك يا حمزة لا تدعك لأبيك؟

حمــزة : قد فعلت يا أماه.

صفيــة : علام انقطعت؟

ابن عمر : أنا الذي قلت له كفاية.

صفيـــة : وأنا يا أبا عبد الرحمن قد أعددت لك الحوت الذي تشتهيه.

ابن عمر : أحقاً يا صفية أرسلت في طلبه من ينبع؟

صفيـــة : من أجلك يا أبا عبد الرحمن أرسل في طلبه من ساحل اليمن.

ابن عمر : يا ليتني ما قلت لك: إن نفسي تشتهيه.

صفيـــة : فيم يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : النفس الأمارة بالسوء.

صفيـــة : أي سوء يا أبا عبد الرحمن فيما أحله الله عزوجل؟ وقد قال عنه في كتابه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (النحل: ١٤)

ابن عمر : ولكن جلبه من ينبع... من أجل شهوة رجل يتشهى!

صفيـــة : يا سيدي إنك لم تطعم شيئاً منذ أيام، وقد مالت نفسك إلى الحوت. فأي شيء في ذلك؟

ابن عمر : من ينبع؟

صفيـــة : وهل يجلب الحوت إلا من ساحل البحر؟

ابن عمر : يجلب لعبد الله خصوصاً دون سائر أهل المدينة.

صفيـــة : ويلك حمزة! لم تخبر أباك بكل شيء؟

حمـــزة : هو سألني يا أماه من أين؟

سـائل : (صوته من بعيد) ياأهل الخير... يا أهل الخير... سائل مسكين!

ابن عمر : أحضريه يا صفية.

صفيـة : الآن؟

ابن عمر : نعم.

صفيـة : لم يحن موعد غدائك بعد.

ابن عمر : لا بأس أن نعجل به اليوم.

صفيـة : خيراً يا أبا عبد الرحمن. لتأكله وهو ساخن. تعال معي يا حمزة.

ابن عمر : (يتمتم) أين صوت ذلك السائل؟ هل عدل إلى طريق آخر؟

السـائل : (صوته) يا أهل الخير. يا أهل الخير.

ابن عمر : الحمد لله، هذا صوته قد عاد.

صفيـة : (تدخل بالحوت المقلي في طبق فتضعه أمام ابن عمر) شممت رائحته يا أبا عبد الرحمن؟

ابن عمر : بوركت يا صفية. أراه شهياً يسيل له اللعاب.

صفيـة : ضع الخبز هنا يا حمزة... هيا يا أبا عبد الرحمن، كل هنيئاً مريئاً.

السـائل : (صوته) يا أهل الخير... يا أهل الخير.

ابن عمر : انطلق يا حمزة فادع لنا هذا السائل المسكين.

حمـزة : سمعاً يا أبي (ينطلق خارجاً).

صفيـة : كل يا أبا عبد الرحمن... لا شأن لك بالسائل، نحن

نعطيه.

ابن عمر : أعطوه هذا الحوت يا صفية.

صفيـــة : سنعطيه طعاماً آخر يا أبا عبد الرحمن.أما هذا الحوت فقد جلبناه لك أنت، وصنعناه لك أنت، وأنت عليل وفيه شفاؤك وعلاجك، وهذا رجل جائع يأكل كل شيء.

ابن عمر : أطيعيني يا صفية.

صفيـــة : إذن فذق منه شيئاً ونعطي الباقي للسائل.

ابن عمر : لا، والله يا صفية لا أذوق منه شيئاً.

صفيـــة : أمن أجل هذا السائل؟

ابن عمر : لا ليس من أجله يا صفية.

صفيـــة : أما كنت تشتهي الحوت؟ ألا تحبه؟

ابن عمر : بلى يا صفية.

صفيـــة : لم لا تذوق إذن وقد تعبنا فيه؟

ابن عمر : لأن عبد الله يحبه يا صفية... عبد الله بن عمر يحبه.

ــ ستار ــ

❋ ❋ ❋

---

٣) يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف :(إنفاق عبد الله بن عمر على الفقــراء والمساكين) نشرت في مجلة الفيصل، العدد(١٩٥).

يـــوم الـــوشــــــــاح

ـ ١ ـ

(في ديار بني غطفان)

مرجانة : (في المرعى) متى جئت إلى ديار غطفان يا سهل؟

سهــل : منذ يومين يا مرجانة.

مرجانة : ولم تشأ أن تلقاني إلا اليوم؟

سهــل : أردت أن ألقاك وحدك ولم يتح لي ذلك إلا اليوم في هـذا المرعى الجميل.

مرجانة : إنه ليس بمرعى جميل يا سهل، ولكني لم أجد غيره.

سهــل : فهو جميل بوجودك فيه يا مرجانة.

مرجانة : كنت أظن أن الدين الجديد قد صرفك عنا.

سهــل : كلا يا مرجانة ما زادني الإسلام إلا حباً لك وهياما بك.

مرجانة : أنت قلت هذا لترغبني في دينك.

سهــل : بل الحق يا مرجانة، لقد ذهبت إلى المدينة ورأيت محمداً صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه وصليت خلفه فزادني ذلك إيمانا ويقيناً. وكنت حرياً أن أعيش بالمدينة وأستقر بها لولا أن طيفك كان يتأوبني كل ليلة ويدعوني لأعود إليك.

مرجانة : لا تكذب يا سهل. لعلك إنما عدت إلى غطفان إذ لم تجد في المدينة عملاً يقيم أودك.

سهــل : بلى يا مرجانة، إن العمل هناك لكثير، ثــم إن المــسلمين ليسوا كهؤلاء المشركين. إنهم يتواسون فيما بيــنهم فــلا يجوع فيهم فقير ولا ابن سبيل.

مرجانة : ومع ذلك فقد عدت إلى هذه الديار... ديار المشركين.

سهــل : من أجلك وحدك يا مرجانة.

مرجانة : وماذا تريد مني؟

سهــل : أن تسلمي مثلي فأتزوجك.

مرجانة : وموالينا آل عقيل الذين أعتقوني وأعتقوك؟

سهــل : ما بالهم؟

مرجانة : ألا ترى أنهم قد أحسنوا إلي وإليك؟

سهــل : بلى يا مرجانة.

مرجانة : أفيكون جزاؤهم أن نصبأ عن دينهم، وننحاز إلى أعدائهم المسلمين.

سهــل : إن هي إلا أعوام معدودة يا مرجانة حتى يدخل العــرب جميعاً في هذا الدين فيكونوا من أنصاره لا من أعدائه.

مرجانة : إلا غطفان.

سهــل : وغطفان.

مرجانة : فلننتظر حتى يسلم موالينا فنسلم معهم.

سهــل : لقد انتظرنا طويلاً يا مرجانة قبل العتق وبعد العتق.

مرجانة : فما كفتك تلك الحوائل كلها حتى أضفت إليها هذا الحائــل الجديد.

سهــل : في وسعك أن ترفعي هذا الحائل بكلمة واحدة.

مرجانة : كيف؟

سهـــل : بأن تشهدي أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

مرجانة : هيهات يا سهل!لا تحاول أن تستدرجني فمهما تفعل فلـــن أسلم أبداً حتى يسلم موالينا.

سهـــل : يا مرجانة إنهم وما يعبدون من دون الله لن يغنوا عنـــك غداً من الله شيئاً. لقد حدثتني ذات يوم أنك كنت على دين المسيح عيسى بن مريم إذ كنت بين أهلك في الحبشة.

مرجانة : أجل قبل أن يخطفني اللصوص ويبيعـــوني فـــي ســـوق الرقيق، وكان اسمي هيلانة فجعلوه مرجانة.

سهـــل : الدين الذي كنت عليه أقرب إلى الإسلام من دين هـــؤلاء الذين يعبدون الأوثان.

مرجانة : إني والله لا أعبد أوثانهم يا سهل، ولا أدين دينهم، ولكني لا أستطيع أن أدخل في دين جديد يحاربهم ويحاربونه.

سهـــل : إذن يطول عذابي بسببك يا مرجانة، فلا أنـــا قـــادر فـــي المدينة على بعدك، ولا أنا قادر هنا على قربك.

مرجانة : ماذا يمنعك من البقاء هنا يا سهل وستجد من يأجرك أجراً حسناً إن شئت من موالينا أو من غيرهم.

سهـــل : كلا يا مرجانة، لا أستطيع بعد ما عشت بين المسلمين في سكينة وطمأنينة أن أعيش هنا في قلق وخوف.

مرجانة : تخشى أن يكتشفوا أنك مسلم؟

سهـــل : أجل، وإنما أنا عتيق من عتقائهم ولا حامي لي فيهم ولا نصير.



ـ ٢ ـ

في مراعي آل عقيل بديار غطفان

مرجانة : عنبرة، ماذا جاء بك هنا؟

عنبرة : بدا لي اليوم أن أرعى غنمي في مراعيكم يا آل عقيل لأكون معك يا مرجانة فهل من مانع؟

مرجانة : لا مانع عندي يا عنبرة، ولكني أخشى أن يغضب موالي آل عقيل لما بينهم وبين مواليك من عداوة.

عنبرة : غدا تأتين أنت بغنمك إلى مراعينا فلا ظلم على موالينا ولا ظلم على مواليك... أشتهي يا مرجانة أن نرعى معاً في كل مكان لنتحدث معاً وتؤنس إحدانا الأخرى.

مرجانة : لا بأس عندي يا عنبرة، وي! مَن هذه الصبية الحلوة؟

عنبرة : هذه دعد إحدى بنات مولاي، أمرتني أمها أن أسرح بها في المرعى ليشتد عودها وتحسن صحتها.

مرجانة : أتخرجين بها كل يوم؟

عنبرة : نعم.

مرجانة : حاذري عليها يا عنبرة لا تنفلت هنا أو هناك فتضيع منك.

عنبرة : صدقت، إنها شقية لا تسمع الكلام.

مرجانة : وهذا الوشاح الأحمر... ما كان ينبغي أن ترتديه.

عنبرة : تخشين عليه من اللصوص؟

مرجانة : وعليها هي فإن اللص قد يقتلها من أجله.

عنبرة : أتسمعين يا دعد؟ لا تنطلقي بعيداً عني. العبي دائماً بالقرب مني.

دعـد : لا شأن لك أنت، أنا ألعب كيفما أريد.

عنبرة : أسمعت يا مرجانة؟

مرجانة : لا حق لك يا دعد، يجب أن تسمعي كلامها من أجل مصلحتك.

دعـد : وأنت أيضاً لا شأن لك.

عنبرة : انتظري يا دعد.

دعـد : (صوتها من بعيد) ماذا تريدين؟

عنبرة : العبي كيفما شئت عندك ولا تجاوزي ذلك التل.

مرجانة : لو كنت مكانك يا عنبرة لما قبلت أن أسرح بها معي في هذا الخلاء البعيد.

عنبرة : أنت معتوقة يا مرجانة، ففي وسعك أن تقبلي أو ترفضي. أما أنا فعلي أن أطيع وليس لي أن أعترض على شيء.

مرجانة : قولي لهم: إنك تخافين عليها.

عنبرة : فسيتهمونني بأني لا أريد أن أتعب نفسي، إنك لا تعرفين آل خيثمة... إنهم ليسوا كآل عقيل.

مرجانة : أجل يا عنبرة آل عقيل أحسن الناس لمواليهم، لقد مكثت أَمَةً عندهم أكثر من تسع سنين! فوالله ما رأيت منهم إلا العطف والإحسان.

عنبرة : يكفي أنهم أعتقوك.

مرجانة : هذا ديدنهم يعتقون كل عبد أو أمة يجدون منه أو منها الإخلاص في خدمتهم، أما آل خيثمة فمن أخلص لهم أبقوه

في رقهم وإلا باعوه.

دعـــد : عنبرة، تعالى يا عنبرة.

عنبرة : ماذا تريدين يا دعد؟

دعـــد : أستحيي أن أقول لك أمامها.

مرجانة : لعلها تريد قضاء حاجة.

عنبرة : أجل هو ذاك، اخلعي وشاحك يا دعد... هاتي... ضـــعيه هنا بجنب مرجانة، اجعلي بالك منه يا مرجانة، سنمضي إلى خلف ذلك التل ثم نعود.

مرجانة : أنا باقية هنا ولن أتحرك حتى تعودي بالصبية.

سهـــل : (يظهر فجأة ويهمس) مرجانة.

مرجانة : من؟ سهل؟

سهـــل : عنبرة مولاة آل خيثمة كانت عندك؟

مرجانة : نعم ماذا جاء بك؟ أتريد منها أن تتحدث عنا في الحي كله؟

سهـــل : كلا يا مرجانة لن أمكث عندك إلا قلـــيلاً قبـــل أن تعـــود بالصبية.

مرجانة : لو التفتت وراءها الآن لرأتك عندي.

سهـــل : إذن أنبطح على الأرض فلا تراني.

مرجانة : بربك، ماذا تريد؟

سهـــل : لا أريد منك شيئاً غير أن تشهدي أن لا إله إلا الله.. وأن محمدا رسول الله.

مرجانة : كلا لن أفعل. قلت لك: لن أسلم حتـــى يـــسلم مـــواليّ آل عقيل.

(يسمع حفيف أجنحة طائر ينقض من الجو)

سهـــل : وي! ما هذا؟

مرجانة : ويلتاه! الحديّا خطفت الوشاح فطارت به.

سهـــل : ظننته قطعة لحم.

مرجانة : ماذا أصنع الآن؟

سهـــل : أخبريها بالحقيقة.

مرجانة : ربما تظن أني...

سهـــل : سأشهد أنا لك بما رأيت.

مرجانة : كلا، لا أريدها أن تراك عندي.

سهـــل : من الخير لك الآن أن أبقى.

مرجانة : كلا، إن كنت تحبني يا سهل فانطلق من هنا وأسرع.

سهـــل : حبا وكرامة يا مرجانة، أستودعك الله.

مرجانة : وي! ها هي ذي مقبلة. أخشى أن تكون قد لمحتـــه وهـــو ينطلق. إن لم تره هي فربما تراه الصبية. يا ليتني تركته يبقى ليشهد لي، هل أناديه ليعود؟ كلا، لن يـــسمعني فقـــد ابتعد.

عنبرة : من كان عندك يا مرجانة؟

مرجانة : لا أحد.

عنبرة : لكني لمحت شبح رجل ينطلق كالهارب! ألم يمر بك؟

مرجانة : لا.

عنبرة : ألم تريه؟

مرجانة : لا.

عنبرة : تعالي يا دعد.. ارتدي وشاحك.

دعـــد : أين هو يا عنبرة؟

عنبرة : أين هو يا مرجانة؟

مرجانة : أنا في غاية الأسف يا عنبرة، لم أشعر إلا وقـــد انقــضت عليه فطارت به.

عنبرة : من هي؟

مرجانة : الحُديّا يا عنبرة.

عنبرة : أتريدين أن تقولي: إن الوشاح قد خطفته حُديّا فطارت به؟

مرجانة : إي والله يا عنبرة! الوشاح أحمر اللون..حسبته قطعة لحم.

عنبرة : والرائحة، ألا تعرف الحديّا رائحة اللحم؟

مرجانة : لابد أنها الآن قد ألقته في مكان ما حين اكتشفت حقيقته.

عنبرة : ولماذا لا يكون ذلك الرجل الذي كان عندك هـــو الـــذي اختطفه فطار به؟

مرجانة : ما هذا الذي تقولينه يا عنبرة؟ أتريدين أن تتهميني؟

عنبرة : لو كنت بريئة لما أنكرت ذلك الرجل الذي انطلـــق مـــن عندك كالهارب.

مرجانة : فسأخبرك الآن من هو؟ إنه صاحبي سهل الذي يريـــد أن يتزوجني. وقد كرهت أن تريه هنا عندي فتحدثي النـــاس بذلك فأمرته فانطلق.

عنبرة : إنك لتحسنين التلفيق يا مرجانة، ولكنك لن تـــستطيعي أن تقنعي أحداً بتلفيقك.

مرجانة : يا ليتك ما جئت إلى مرعانا اليوم. لقد كنت شؤما علي.

❁ ❁ ❁

ـ ٣ ـ

عقيل : يا خيثمة بن سفيان لا تكرهنا على مالا نريد من أجل وشاح تافه.

خيثمة : يا عقيل بن زيد إن اجتراء مواليكم على سرقة وشاح ابنتي ليس بالأمر التافه.

عقيل : هذا لو وقعت السرقة فعلا، ولكنها لم تقع.

خيثمة : فأين إذن ذهب الوشاح؟

عقيل : خطفته الحديّا فطارت به.

خيثمة : أمثلك يا ابن زيد وفي سنك وعقلك يصدق مثل هذه الفرية.

عقيل : يا ابن سنان، إنك لا تعرف هذين المعتوقين. لقد لبثا عندنا دهراً طويلاً فما جربنا عليهما كذباً قط، ولا رأينا منهما أي سوء. هذا حين كانا رقيقين فكيف الآن وقد صارا عتيقين؟

خيثمة : لعلهما يعفّان عن سرقة مواليهما ولا يجدان بأساً في سرقة غيرهم.

عقيل : إن عفّيا عن سرقتنا فهما عن سرقة غيرنا أعف.

خيثمة : فلعلهما كانا يسرقان منكم وأنتم لا تشعرون.

عقيل : كلا نحن أعرف بموالينا منكم.

خيثمة : إنك تدافع عن هذين السارقين اللذين كانا من صميمكم.

عقيل : وإنك حين تصر على تكذبي فيما أعرف من أمانتهما وصدقهما لا توجه التهمة إلى اثنين من صميمنا فحسب، بل توجهها إلي.

خيثمة : معاذ الله يا ابن زيد! بل أنت الذي شئت أن توجهها إلى نفسك إذ تدافع عنهما بالحق وبالباطل.

عقيل : بل كنتم تريدون أن تسيئوا إلى سمعتنا آل عقيل، فلما أعياكم ذلك ووجدتموها ناصعة كالدينار عدتم إلى حادث صغير يقع مثله كل يوم وفي كل مكان فاتخذتموه ذريعة للتشهير بنا، ولكنا والله لن ننيلكم أبداً ما تبتغون.

خيثمة : لو كنا نريد ذلك كما زعمت لعمدنا إلى أفعالكم أنتم لا إلى أفعال مواليكم.

عقيل : لو كان ذلك في إمكانكم لفعلتم.

خيثمة : سبحان الله! ألم تستمهلونا ثلاثة لتبحثوا عن الوشاح الذي زعمتم أن الحديّا قد طارت به؟

عقيل : بلى.

خيثمة : فها قد مضت الأيام الثلاثة ولم تأتونا بشيء.

عقيل : إنما استمهلناكم رجاء أن تكون الحديّا قد ألقته في مكان قريب حين يتضح لها أنه ليس بلحم، فأرسلنا مع سهل جماعة من خدمنا وعبيدنا عسى أن يعثروا عليه، ولكنهم بحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه.

خيثمة : أفليس ذلك دليلاً على كذب سهل هذا وصاحبته مرجانة فيما روياه؟

عقيل : كلا فمن الجائز أن تكون الحديا قد ألقته في مكان بعيد أو في مكان غير بعيد ولكن مر به أحد الناس فالتقطه.

خيثمة : أو ليس من الجائز بالأحرى أن تكون مرجانة قد أخذته فأعطته لصاحبها ليبيعه، فيقتسما ثمنه، وثم دلائل تشير إلى ذلك؟

عقيل : أي دلائل؟

خيثمة : إن سهلاً ذهب للقائها في المرعى ولم يظهر لها إلا حين ذهبت عنبرة بالصبية لقضاء حاجتها، فلما عادت وجدته يعدو هاربا ولم تجد الوشاح الذي وضعته بجانب مرجانة لترعاه، وإنها لما سألتها عن ذلك الهارب أنكرت أنها تعرفه، بل أنكرت أنها رأته هناك، ثم عادت فقالت: إنه صاحبها سهل.

عقيل : إنما كان ذلك كله لأنهما كانا يستحييان أن يتحدث الناس بما بينهما قبل أن يتفقا على الزواج، ولذلك كرها أن تراهما عنبرة مجتمعين، فلما اتهمتها عنبرة بالسرقة وكذّبت قصة الحديّا لم تجد بدا من أن تعترف بأهون الأمرين فتقول لها: إن ذلك الهارب هو صاحبها سهل.

❁ ❁ ❁

ـ ٤ ـ

عقيل : ما رأيك يا ابن سنان في رجاء أتوجه به إليك حفاظاً على السلام وقطعاً لدابر الفتنة؟

خيثمة : ما هو؟

عقيل : أن تقبل منا وشاحاً جديداً نشتريه لابنتك دعد؟

خيثمة : إنك تهينني بهذا الطلب يا ابن زيد، كأننا لا نقدر أن نشتري لابنتنا وشاحاً آخر، وكأننا ما قمنا وقعدنا إلا لنحصل على ثمن الوشاح الذي ضاع!

عقيل : فأي شيء إذن يرضيك؟

خيثمة : لا يرضيني غير أن تسلموا إلينا سهلاً ومرجانة.

عقيل : لتصنعوا بهما ماذا؟

خيثمة : لنعذبهما حتى يقرا بما ارتكباه، فلا يعودا إلى ارتكابه مرة أخرى.

عقيل : أما هذا فلا سبيل إليه أبدا.

خيثمة : إذن، فإني منصرف الآن فلا تلومن إلا نفسك.

عقيل : أتهددني؟

خيثمة : لتصلن يدي إليهما بالحسنى أو بالقوة. (يخرج).

عقيل : دون ذلك خرط القتاد!

مرجانة : مولاي هل لنا أن ندخل الآن؟

عقيل : ادخلي يا مرجانة، وادخل أنت يا سهل. أسمعتما ماذا قال خيثمة؟

سهل : نعم، سمعناه يا مولاي يهدد بالحرب.

مرجانة : دعنا يا مولاي نعترف له بأننا أخذنا الوشاح فذلك ما يبغيه.

عقيل : كلا، لن ننيله ما يريد.

مرجانة : حتى لا تعود الحرب بين حييكما يا مولاي.

عقيل : فلتعودن بيننا إن شاؤوا جذعة.

❁ ❁ ❁

ـ ٥ ـ

مرجانة : ماذا نصنع الآن يا سهل؟

سهل : هكذا هؤلاء المشركون يا مرجانة ينزغ الشيطان بينهم من أجل نخوة أو نزوة فيتقاتلون ويتحاربون.

مرجانة : وأنتم يا بني الدين الجديد، ألستم تقاتلون الناس؟

سهل : كلا يا مرجانة إنما يجاهد المسلمون في سبيل الله لا بطراً ولا رياء، ولا نخوة ولا كبرياء، ولا علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.

مرجانة : دعني من هذا. إني أخاف يا سهل أن تكون الغلبة لآل خيثمة على آل عقيل، فنكون نحن الذين سببنا لهم العار والدمار.

سهل : أتريدين مخرجاً من ذلك يا مرجانة؟

مرجانة : نعم، هل عندك من مخرج؟

سهل : هلمي بنا نجأر بالدعاء إلى رب السماء أن يظهر براءتنا بآية من عنده.

مرجانة : كيف يا سهل؟ ماذا نقول؟

سهل : قولي: إلهي يا رب العالمين.. أظهر براعتي بآية من عندك، واهدني إلى هذا الدين الجديد.

مرجانة : إلهي يا رب العالمين.. أظهر براعتي بآية من عندك، واهدني إلى هذا الدين الجديد.

سهل : (يدعو مبتهلا وحده) اللهم تقبل دعاءها يا رب، إنك سميع الدعاء، اللهم يا مطلعا على كل شيء، يا عالما ببراعتها، يا مالكا ناصية كل دابة في الأرض، وكل طائر في السماء، يا قادراً على كل شيء... أظهر براعتها بآية من عندك، واجعلها من المسلمين... آمين.

(تسمع جلبة وضوضاء من الخارج وأصوات مختلطة)

مرجانة : وي! ما هذا يا سهل؟

سهل : لا أدري يا مرجانة.

مرجانة : عسى ألا تكون الحرب قد قامت جذعة.

سهل : ليس لنا أن نخرج من هنا إلا بإذن مولانا عقيل.

مرجانة : يخشى علينا أن نقع في أيدي أعدائه.

سهل : لكنا نريد أن نعرف ماذا يدور هناك في العرصة.

عقيل : (صوته من بعيد) مرجانة، سهل، مرجانة.

مرجانة : هذا صوت مولانا ينادينا.

عقيل : مرجانة، سهل.

مرجانة : لبيك يا مولاي، ماذا جرى؟

سهل : ما هذه الضوضاء يا مولاي؟

عقيل : الناس يتوافدون إلى الرحبة من كل مكان ينظـرون إلـى طائر يحوم فوق رؤوسهم يحمل في منقاره شـيئاً أحمـر كأنه الوشاح.

سهل : الله أكبر! هذه الآية من عند الله.

عقيل : ماذا تقول يا سهل؟

سهل : لا شيء يا مولاي.. لعلها الحديا التي خطفت الوشاح قـد جاءت لتعيده إلى مرجانة.

مرجانة : هل لنا أن نخرج إلى الرحبة يا مولاي؟

عقيل : نعم ما جئت إلا لأدعوكما إلى الخارج، هلما.

❁ ❁ ❁

ـ ٦ ـ

(في بيتهما بالمدينة المنورة بعد زواجهما)

مرجانة : ما رأيتك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذا الصباح فأين كنت يا سهل؟

سهل : بل كنت هناك يا مرجانة.

مرجانة : ولكني لم أرك.

سهل : غيرت مكاني اليوم فلم تستطيعي أن تريني من صـفوف النساء.

مرجانة : إن كنت تحبني فصلِّ دائماً في الموضع الذي أسـتطيع أن أراك فيه.

سهل : فيم يا مرجانة؟ أليس في وقوفك أمام الله مـا ينبغـي أن يشغلك عني؟

مرجانة : إني أزداد خشوعاً في صلاتي حين أراك يا سهل.

سهل : وكيف ذلك يا مرجانة؟

مرجانة : ما إن أراك تصلي أمامي حتى أتذكر دعاءك وابتهالك يوم الوشاح وكيف استجاب الله لي ولك! ...

الزوجان : (معا)

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنـــا ألاَ أنه من ملة الكفر نجّـــاني

سهل : أحقاً يا مرجانة أن أم المؤمنين عائشة لا تمل سماع هـــذه القصة منك؟

مرجانة : أجل يا سهل، ما تراني أم المؤمنين في مجلـــس لهـــا إلا وتستعيدني روايتها، ثم تنشد معي في ختامها:

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنـــا ألاَ أنه من ملة الكفر نجّاني

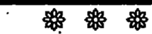
(ستـــــــــار)

❁ ❁ ❁

---

* يوم الوشاح: (براءة متهمة صادق وقبول دعائها بإعادة الطائر للوشاح الذي خطفه، وكاد يؤدي إلى حرب بين حيين من العرب، وإسلام الجارية) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (١٧٣).

الفهرس





المسرحيات الإسلامية القصيرة



مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٢ شارع كامل صدقي - الفجالة
تليفون : ٢٥٩٠٨٩٢٠